مذكرات
المفكرين والتربويين

د. محمد الجوادى



تكوين العقل العربى

مذكرات
شوقى ضيف
عبد الرحمن بدوى
عبد الله عنان
محمد على العريان
عبد السلام الكردانى
نادية رضوان



مذكرات المفكرين والتربويين

تكوين العقل العربى

د. محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيّال

مذكرات المفكرين والتربويين

«تكوين العـقل العـربى»

مذكرات المفكرين والتربويين
«تكوين العقل العربى»
الطبعة: الأولى يناير ٢٠٠٣
رقم الإيداع: ٢١٠٧٨ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى: 5 - 31- 5979- 977
دار الخيّال : ٠١٢٣٢٩٠٦١٨ / ٠١٢٤١٢٦٠١٤
تليفون / فاكس : ٧٩٦٢٢٤١
e_mail : dar el khial - egypt @ hotmail. com
Telefax : 7962241



دار الخيّال



تصميم الغلاف: محمد الصباغ
جرافيك: محمد كامل مطاوع
خطوط الغلاف: لمعى فهيم
المشرف على الإنتاج: عماد حمدى
طبع الغلاف: القطان للمطبوعات الفنية
المهندسين ت/ ٣٤٧٩١٦٣
كمبيوتر: دار جهاد ـ ت : ٧٩٦٤٧٨٣
طبع بمطابع دار قباء للطباعة
ت: ٦٣٦٢٥٦٢ ـ ٦٣٧٤٠٣٨

إهداء

إلى الأستاذ الكبير فاروق شوشه

الشاعر الفنان، والناقد الموسوعى، والصوت الثرى

محمد الجوادى

سعد زغلول باشا ● بداية معرفته بشعراء المهجر واطلاعه واتصاله بهذا الشعر المتميز ● الكتاب يمثل نموذجا بديعا للوطنية المتأججة التى لا تشوبها شائبة ● المذكرات تحفل بكثير من الحديث عن انتشار وتغلغل الاتجاهات الوطنية فى نفوس طوائف الشعب المختلفة ● مدرسة القضاء الشرعى وتحيزها للوفد ● الحديث عن انتشار الولاء للحركة الوطنية التى تبلورت فى الوفد حتى على مستوى القرية ●النشاط الوطنى الذى تميزت به الحركة الطلابية عام خمسة وثلاثين ، يصف مظاهرات الطلبة فى ١٩٣٥ وصفا دقيقا مفصلا ● المذكرات تقدم تصويرا دقيق لتاريخنا الاجتماعى فى الفترة الزمنية التى تتحدث عنها ● وصفه للسيدات المصريات فى الريف ● دخول الفتاة المصرية للجامعة ومزاملته لها فيها ● طبيعة وتاريخ الحجاب ● يستنكر على المصريين المحدثين أن يتخلوا عن عادة تقبيل أيدى الآباء ● يستنكر أى محاولة للزعم بوجود صراع طبقات أو صراع طبقى فى المجتمع المصرى الذى عاشه فى طفولته وشبابه ● حرصه فى أكثر من موضع على أن يصور العلاقات بين الأغنياء والفقراء فى القرية على نحو ما كانت عليه من طبيعية ومثالية ● تصويره للأثر الضار للجهل بالصحة ومدى ما ينشأ عنه هذا الجهل من ضرر كان هو نفسه أحد ضحاياه ● حديثه عن أساتذته يحفل بقدر لا حدود له من الحب والتقدير العميقين، وهو لا يذكر من حياتهم إلا محاسنها ، ولا من أساليبهم إلا أفضلها، ولا من آثارهم إلا أخلدها، وهو ممتن كل الامتنان ● لطه حسين ● أحمد أمين ● مصطفى عبد الرازق ● أحمد الإسكندرى ● إبراهيم مصطفى ● أمين الخولى ● الدكتور عبد الوهاب عزام.

● التعريف بصاحب المذكرات ● مكانة المذكرات توازى مكانة صاحبها فى الفكر العربى المعاصر● مذكرات حافلة ، رصينة، متنوعة ، مخلصة ، صريحة ، شجاعة ،جسورة ، دقيقة ، موحية ، معبرة ● تفسير اندفاع كثير من الأقلام فى الهجوم على المذكرات ● براعة الاستهلال● إيمانه بالأصالة ● قدرته على إدراك الحق والصواب إذا ما توافرت له وسائل هذا الإدراك ● يلقى بالمسئولية عن الانحطاط المدمر الذى أودى بالتعليم فى مصر على فرسان التربية ● إصراره وإصرار زملائه على تميز كلية آداب عين شمس فى مناهجها ونظمها ● انتقاده للجامعات الفرنسية فى تساهلها مع الطلاب الوافدين اعتمادا على أنهم لن يعملوا بشهاداتهم فى داخل فرنسا ● فشل البعثات المصرية إلى أوروبا فى العصر الحاضر● يجأر بالشكوى من تدهور عقلية المصريين المعاصرين● ملامح فكره السياسى حين اختير للمشاركة فى وضع الدستور عقب قيام ثورة ١٩٥٢● ينتقد ما أسماه ببلاهة وجهالة عبد السلام فهمى جمعة حين اقترح أن تعهد اللجنة إلى الدكتور السنهورى بوضع الدستور ● إسهاماته فى لجنة الحقوق والواجبات ● يشير إلى الكتب والدراسات والدساتير التى راجعها قبل أن يبدأ عمله فى اللجنة ● اللجنة أخذت بكثير من آرائه ● الوعى الدائم إلى الأخذ بأقصى درجات الحرية ● كان أحد الأقطاب الثلاثة لحركة تجديد دماء الحزب الوطنى ● لم يكن وجوده هو وأقرانه بمثابة

الأمر المرحب به تماما حتى على مستوى قيادة الحزب ● يسجل بكل شجاعة رأيه فى تنكر مجموعة القيادات الشابة لهذا الفكر الوطنى بعد وصولها إلى السلطة فى بداية عهد الثورة ● يجاهر بآرائه السياسية بكل قوة، حتى فى الموضوعات التى لم تنتصر آراؤه فيها ● إصراره الشديد على فكرة أن المصريين كانوا يودون انتصار ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ● اعتقاده أن يوم ٥ مايو سنة ١٩٤٥ كان يوم الحداد الوطنى الكبير ● يجاهر برأيه «الغريب» فى الوحدة العربية ● ما أدركه من شعور السوريين تجاه الوحدة ● تجربته الشخصية الأشد مرارة وهى التجربة التى انتهى بها عمله فى ليبيا ● تفاصيل اعتقاله على يد المباحث العامة ● فضل كل من الرئيس السادات والدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية فى التوسط لإطلاق سراحه ● علاقته بالرئيس السادات ● موقف ليبيا السياسى (والجماهيرى) من مصر والمصريين بعد قيام ثورة ١٩٦٩ ● تزايد غضب الليبيين وعنفهم على المصريين: انفجر انفجارا عنيفا فى فبراير سنة ١٩٧٣ على إثر إسقاط إسرائيل لطائرة مدنية ليبية● يروى تفصيلات كثيرة تشى بما يريد تصويره من انعدام الروح الساعية إلى الوحدة ● رأيه القائل باستحالة الوحدة العربية ● يهاجم دعاة الوحدة بضراوة ● آراء فى العلاقات العربية ـ الأوروبية، والعربية ـ الإيرانية، والإسرائيلية ـ الأوروبية ● علاقة إسرائيل والفاتيكان ● يوجه انتقاداته لبابا الفاتيكان على مسلكه الدنيوى فى التمتع بمباهج الحياة الدنيا والتظاهر بكل ما فيها من بهرج لا يليق برجال الدين● مشاهدته لأول مرة للاحتفال بعيد الميلاد فى كنيسة القديس بطرس فى صباح يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٨ ● الدور المشبوه الذى يقوم به بعض العلماء اليهود فى إيذاء التراث العربى والإسلامى، دورهم فى إنهاء مؤتمرات المستشرقين، المؤتمر الذى اشترك فيه فى نيويورك وحرص على ألا تفوته الفرصة لمهاجمتهم من خلال الحديث عن أمانة الترجمات العربية للنصوص اليونانية،وزيف الترجمات العبرية للنصوص ذاتها ● عظمة وروعة الثناء والمديح الذى أسداه صاحب المذكرات إلى مَنْ كانوا يستحقونه فى نظره ●حديثه عن الرئيس فرانكو يعكس نوعا من الإعجاب الخفى بشخصية المستبد العادل ● فرانكو وصياغته لسياسة جيدة ومتينة مع العالم العربى ● ثناؤه على كثير من تصرفات وسياسات الرئيس شارل ديجول● هذا الثناء يدخل فى نسيج حديثه المتصل والمتكرر عن الأحوال السياسية والداخلية فى فرنسا وما يرتبط بهذا من تفصيلات حديثه عن كثير من الساسة الفرنسيين ممن فيهم بومبيدو وديستان وميتران وغيرهم ● إعجابه بالمؤسسات العلمية وبالمكتبات وبالجامعات والجمعيات العلمية والهيئات المشتغلة بالبحث العلمى● حديثه عن شركة النيل الزراعية و فضلها الكبير فى شق الترع الداخلية ووضع الآلات البخارية لأخذ مياه النيل، وتحسين البذور، وترتيب الطرق، وزراعة الأشجار العالية (الأثل والكافور والنخيل) ● فلسفة الاستبداد والطغيان فى العصر الحديث ● يتخذ من الرئيس جمال عبد الناصر النموذج الذى يقدم من خلال تأمل سلوكه الأمثلة التى يضربها لبيان طبائع الاستبداد ومفاسده ونتائجه ● نقطة الافتراق بين عبد الرحمن بدوى وبين الثورة على ثلاث مراحل● الانتقادات التى يوجهها لسياسات الثورة ● ينتقد قرار تأميم قناة السويس

على نحو ما أعلنه عبد الناصر • تصرفاته: حمقاء طائشة لا تحسب حسابا لأى شىء غير الدوى الأجوف العقيم حول شخصه ، مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر وشعب مصر ومكانة مصر فى المجتمع الدولى • انتقاد ضعف الأداء والجهل فى موقف وزير الخارجية محمود فوزى • عجبه من أن يكون مستوى أداء الدكتور فوزى متدنيا إلى هذا الحد • غفلة أجهزة المخابرات المصرية عن إدراك النوايا الواضحة المنبئة عن الاستعدادات التى تمت فى أوروبا من أجل شن الهجوم على مصر فيما عرف بعد ذلك باسم «العدوان الثلاثى» • انشغال الملحقين العسكريين فى سفارتى لندن وباريس بالتجسس على المصريين فحسب • ألمه الفظيع لمستوى الأداء العسكرى المصرى المتدنى فى حرب ١٩٥٦ على نحو ما شاهدها فى السينما السويسرية، الطائرات دمرت كلها، وقائد بورسعيد سلمها بعد ٣ ساعات فقط من الهجوم عليها، وسيناء تم اجتياحها فى ٣٦ ساعة فقط • ينتقد الأداء الإعلامى المصرى فى أثناء حرب ١٩٥٦، ويصور الأمر بالطريقة التى ندرك بها بكل وضوح أن ما حدث فى ١٩٦٧ لم يكن إلا صورة مكبرة لبروفات حدثت فى ١٩٥٦ على نطاق ضيق• التناقض الرهيب بين صورة الهزيمة العسكرية على نحو ما رآها فى ١٩٥٦ وبين الصورة التى كان يقدمها الإعلام المصرى حافلة بالأغانى والأناشيد • الهزيمة المعنوية التى واكبت الهزيمة المادية العسكرية فى ١٩٥٦• جزعه وفزعه من تفضيل القيادة المصرية اللجوء إلى الأكاذيب التى يرى أنها أكثر العوامل تدميرا لمعنوية أى أمة • بعض تفصيلات حرب ١٩٥٦ حسبما عاشها فى المجتمع الغربى • هزيمة ١٩٦٧ : يرد السبب الرئيسى فى الهزيمة إلى الغفلة التامة • عبد الناصر كان مندفعا بالطبيعة دون أى تبصر للوقائع • عبدالناصر أتاح الفرصة لإسرائيل • يسخر من انتصارات عبد الناصر الوهمية التى دفعته إلى الغرور المطلق • يعلق على سلوك عبد الناصر بعد وقوع الهزيمة بآراء فى غاية الجرأة • انتقاد الرئيس عبد الناصر فى محاولته أو فى قراره بإلقاء المسئولية على المشير عبد الحكيم عامر • الحقائق التى أتاحت له إقامته فى باريس أن يدركها عن مجريات الأمور فى حرب ١٩٦٧• حيرته فيما يتعلق بموقف الشعب المصرى من هزيمة ١٩٦٧ • تردى أحوال السلك الدبلوماسى المصرى، يصف هؤلاء بالجهل والتفاهة والتملق • يصف سلوك عبد الناصر تجاه الشعب فيما بعد الانفصال وفى الستينيات وصفا جارحا • انتقاد سلوك لجنة تصفية الإقطاع • تدنى نفسيات صغار الموظفين نتيجة لشيوع سياسات القهر والظلم على يد الثورة وقراراتها المتعاقبة • المضايقات الشرطية التى تعرض لها بدون مبرر بعد فرض الحراسة عليه • رأيه فى قصة صديقه الدكتور رشوان فهمى• كأنه يزهو على رشوان فهمى بذكائه الذى مكنه من الاكتشاف المبكر لحقيقة الثورة • ألمه الشديد من الفظائع التى ارتكبت فى الفترة من مايو ١٩٦٥ حتى يونيو ١٩٦٧ • ينتقد ما يسميه تدخل الجيش فى الحياة السياسية والاقتصادية للمواطنين • ما تردى إليه الحال من لجوء الثورة إلى أسلوب الدولة البوليسية والمخابراتية • هجوم عبد الرحمن بدوى على الشيوعيين المصريين • حديثه عن حادث كمشيش• ينقل فقرات كاملة من حيثيات حكم المحكمة فى قضية كمشيش • انقطاع الاتصال

● عمله المثمر فى جريدة السياسية التى كانت تصدر عن حزب الأحرار الدستوريين● إنجازات الأستاذ عنان فى الدراسات الأسبانية والمغربية ● رحلاته الدراسية إلى أسبانيا ● تولى الإنفاق على رحلاته ● يلخص الأثر الذى أحدثته كتبه ودراساته فى التاريخ الأندلسى ● دراساته الطبوغرافية والتاريخية لميادين المعارك والوقائع الحربية ● فضل معهد الدراسات الإسلامية المصرى والدكتور حسين مؤنس● يلخص نتائج بحوثه ودراساته الميدانية ● نشره وثيقة تسليم غرناطة ● فضل كل مستشرق من المستشرقين الذين عمل معهم وما تتميز به مدرسته العلمية ● خلاصة تجربته فى عدد من المكتبات الأوروبية المهمة ● رأيه فى الشعب الأسبانى والحضارة الأسبانية ● يحرص على التزام الحياد فى حديثه عن الشعب الأسبانى ● تميز الفنون الأسبانية ● التعصب الدينى عند الأسبان ● طبيعة الشعب الأسبانى فى ظل الحكم الدكتاتورى ● المرأة الأسبانية ومكانتها فى المجتمع ● وجمالها ● تكوينها الجسمى ● عناصر الجمال فى الأسبانيات، وتعامل هؤلاء الفنيات مع جمالهن ●المرأة الأندلسية ● المرأة الغرناطية هى أجمل نساء الأندلس ● دوره المهم فى فهرسة الخزانة الملكية المغربية ● تحية الملك الحسن له ● أنجز مهمته دون أن يتلقى المكافأة المالية المجزية ، وإن كان قد حصل على وسام الكفاية الفكرية الذى قلده له الملك بنفسه ● التقدير المبكر كان بمثابة الدافع الأول له إلى الاستمرار فى طريق العلم والبحث بدأب وهمة لا يفتران ● بروكلمان نرجم له فى تاريخ الأدب العربى (١٩٥٣) ● نظرته إلى التاريخ العثمانى: «يشنبك» من أجلها ● لا تخرج عن وصفه للدولة العثمانية بأنها دولة هدامة للحضارة وغير منشئة لها، وإنما هى تترك وراءها الخراب والانحلال والمذابح ● سياسة تركيا الحديثة: سياسة براجماتية ليست لها أية علاقة بالأخلاق ● رأيه فى أن الحضارة الأوروبية الحديثة تكاد تنحصر فى خمس بلدان هى: فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا والنمسا ● ارتباطه بهذه الحضارات وآدابها ولغاتها ● فضل دراسة اللغة ومعرفتها فى الاستمتاع بالحضارة وأهلها ومنتدياتها ودراساتها ● حرصه وإصراره على عدم زيارة الاتحاد السوفيتى● ما لقيه من جانب السلطات الاستعمارية الفرنسية ● السلطات الفرنسية لم تمنعه من زيارة فرنسا نفسها ● لم يكن متعاطفا مع الألمان ولا مع هتلر فى الحرب العالمية الثانية ● نجاحه فى الاعتذار المبكر عن قبول وسام رفيع من هتلر ● فهم الأستاذ عنان المبكر لأزمة ألمانيا فى القرن العشرين وحقيقة دور الفكر فى هذه الأزمة ● نجاحه فى بعض الحملات الصحفية التى قادها بقلمه من خلال جريدة السياسة ● روعة ودقة حكم الأستاذ محمد عبد الله عنان على ثورة ١٩١٩ على الرغم من أنه لم يكن وفديا ● ينسب إلى هذه الثورة كل النجاحات التى تحققت بعد هذا فى مراحل الاستقلال ● ما حدث فى ١٩٥٢ لم يكن إلا انقلابا عسكريا فحسب ● انضمامه إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر وإسهاماته فيها ● الدور الذى لعبته اللجنة بمنشوراتها وندواتها ● السبب فى تصفية أعمال اللجنة : القوانين العمالية التى لم تكن تسمح بالجدية فى العمل● تحفظ شديد من الأستاذ عنان على مستوى الجامعة حين قدر له أن يعمل بالتدريس فى معهد الصحافة منذ ١٩٤٠ وحتى ١٩٤٨ ● يتحدث عن سعادته الشخصية بالعمل فى هذه المهنة لكنه

يقرن هذا بأسفه الشديد على مستوى الأساتذة الجامعيين ● فترات تكوينه ● تاريخ مولده ● حرص الأستاذ عنان على تسجيل المساكن التى سكنها ● يتلمس مصادر القوة فى عقليته وتفكيره ● دراسة المرحلة الثانوية باللغة الإنجليزية ● تكلف فى دراسته من النفقات ما يوازى كل ثروة والدته ● يجاهر برأيه فى أن الإنفاق على التعليم بمثابة أمر طبيعى حتى لا يكون العلم والتعليم رخيصا ● الشخصيات التى تحظى بثناء محمد عبد الله عنان : الدكتور حافظ عفيفى● الدكتور محمد حسين هيكل ● أسرة عبد الرازق (الأشقاء الثلاثة محمود ومصطفى وعلى) ● المؤرخ عبد الرحمن الرافعى● محمد محمود خليل بك ● المستر فرنس ناظر مدرسته الثانوية الخديوية ● أحمد شفيق باشا● مى زيادة ● الملك محمد الخامس ● ملك العراق الملك فيصل ورئيس وزرائه نورى السعيد ● البابا بيوس الثانى عشر ورئيس ألمانيا ● الشخصيات التى يهاجمها: محمود فهمى النقراشى باشا ● كان السبب فى تركه خدمة الحكومة ● رأيه غير الودود فى الأستاذ العقاد : يراه كاتبا كبيرا ومؤلفا خصبا ولكنه لا يراه أكثر من هذا ● أول حادث وطنى شهده فى شبابه وهو جنازة مصطفى كامل ● دعوة الثورة لأرملة القائد الألمانى روميل ● التصريحات التى أدلت بها هذه السيدة ومنها انتقادها للنازية ● توجه عبد الناصر المبكر إلى التحالف مع الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا لم يكن إلا من نكد الطالع● ينتقد سياسة التأميم على نحو ما أخذت بها الثورة، ويستند فى انتقاداته إلى أقوال النظريةالاشتراكية ● الأثر المباشر لهذه السياسات من تثبيط همم العمال وما ترتب على ذلك من أن مؤسسات القطاع العام أصبحت لا تفى بإنتاج نفقاتها ولا أجور عمالها المتكدسين وأصبحت عالة على الدولة ● أثر القوانين العمالية على الزيادة السكانية زيادة غير طبيعية نتيجة لما يسميه الأستاذ عنان الرخاء العمالى!! ● المزايا العمالية الحالية ليست من العدالة الاجتماعية فى شىء ● تعنت مستأجرى الأراضى الزراعية ● موقف الأستاذ عنان من الوحدة مع سوريا موقف غريب ● كان يؤثر عدم دخول السفارات المصرية إذا كان يتولاها سفير سورى!!● يشير إلى الانفصال وكأنه نعمة من الله تستوجب الحمد والسعادة ● حديثه عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى صورة ملتاعة ● يفخر بما تحقق فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ويرى أنه محا آثار «الجريمة العظيمة» التى ارتكبت فى ١٩٦٧● يصف الشعب المصرى فى ظل حكم الثورة فى صورة بائسة يائسة بعيدة عن مجرد التفكير فى الرفاهية والمثل المعنوية ● يدافع عن حقيقة الليبرالية دفاعا مجيدا ● حقيقة أن الفساد بعد الثورة قد زاد أضعافا مضاعفة عن الفساد قبلها ● وصول الذوق إلى أدنى درجات الانحطاط ، حتى فيما يتعلق بالاستهلاك ● رأى منصف للثورة فى مطاردتها للأجانب، فهو حقيقة يفتقدهم فى بعض الخدمات التى كانوا يؤدونها، لكنه يرى أنهم كانوا مستغلين كما كانوا يستعمرون مرافق البلاد ● وصف جيل الثورة بأفظع الصفات تصورا، فهو يراه جيلاً متدهوراً حائراً فاقداً للفضائل ● ينظر إلى جيل الثورة نظرة طبقية متعالية ● ينفى عنه الصفات المطمئنة والمزايا الأخلاقية وفهم الأهداف القومية، كما أنه قليل الكفاية عديم النبوغ، سطحى ويشير الأستاذ عنان إلى أنه عاشر ثلاثة أجيال وأن رأيه أن الجيل الحاضر هو أضعفها وأقلها ● متفائل تجاه مستقبل بلاده، وهو يرى الأمل

فى المستقبل قائما ● يعتمد اعتمـادا كبيرا على العناية الإلهية ● لا تخلو آراء عنان من بعض القسوة، أو من كثير من القسوة على بعض فئات مواطنيه ● صعوبة قيامه بالدراسات العلمية فى ظل عهد الثورة ● يشير إلى الصعوبات التى كانت تواجهه من أجل الحصول على الإذن بالسفر● فضل الأستاذ أحمد نجيب هاشم فى تيسير سفره ●مشاركته فى كثير من الأنشطة العلمية خارج حدود وطنه ● يجاهر بانتقاد قرار إلغاء مدرسة المعلمين العليا لكونها من آثار الإنجليز فحسب● لا ينكر أن المجامـلات الكريمة تترك أثرا طيبا فى نفوس أمثاله .

● مكانة الدكتور محـمد على العريان ● المذكرات صيغت بطريقـة اللقطات المتابعة ● المذكـرات حافلة بما قد يصنف على أنه «مرارة» المؤلف تجاه مجتمعه وظروف وطنه ● تتغلب على المذكرات روح المواطن المنتـمى الذى يهمـه وطنه قبل نفـسه ● لاذع فى نقـــده ● دوافع العريان إلى كـتابة مـذكراته، وتفضيلة للأسلوب الذى كتبها به، وتفسيره للتـوقيت المتأخر الذى كتبها فيه ● لولا سفره إلى أستراليا لفقد عقله ● إحسـاسه بدنو الأجل● غايته من نشر أو كتابة هذا الكتاب ● يعاود التفكير فى أمر نفسه ●بدلا من أن يلجأ إلى التوصيف القرآنى القائل بأن الإنسان يبلغ أشده عند الأربعين، فإنه يأخذ الأمور فى اتجاه آخر فيظن نفسه بلـغ الشيخوخة قبل الأربعين ● يكتشف أن طباعه كانـت من أسباب معاناته فى هذه الحـياة ● بعض أفكار الدكتور الـعريان التربوية ● انتقاداته للسيـاسات التربوية السـائدة فى وطنـه ● معاناته مع المسئـولين عن التربية والتعليم فى وطنه ● يصف مخالفيـه فى الرأى بسمات يأنف منها كل ذى كـرامة، لكنه يرى أن هذه هى الحقيـقة ● وصفـه لظاهرة سيطرة المسئـولين وسدهم طرق الإصلاح أمام المفكرين ● يهاجم وزراء التربية والتعليم المصريين فى عهد الثورة، يتهمهم فى نفوسهم وفيمن أحاطوهم بهم عن قصد ● الأسلوب الذى اتبع فى التربية والتعليم لم يكن يصلح إلا للثكنات العـسـكرية ● يقارن بين طائفتين من أبنـاء مصر الذين تولوا المسئوليـة عن التربية والتعليم، فيـما قبل الثورة وبعـدها، يجعل المقارنة حادة إلى أبـعد الحدود ، فالأولون حـملوا الأمانة باقتدار بفـضل الجلاء البصرى الذى تمتعوا به ، أما الآخرون فقد أضـاعوا من عمر التعليم المصرى عشرات السنين ● إسهـام الشعب المصرى فى الإنفاق على مـؤسسـات التربية والتعليم وتمويل العملية الـتعليمية ● واقـعـة زيارة وزير التـربية والتـعليم لمعـهـد التربيـة العـالى بالإسكندرية، وهى الزيارة التى أتاحت الـفرصـة للوزير ولأساتذة التربية أن يتناقشوا، فكانت نتيجة الزيارة قرار إغلاق المعهد ● يكرر الحديث عن هذه الزيارة المشئـومة فى مواضع كـثيرة من كـتابه ● لا يكف الدكتـور العريان عن إبداء سـخريتـه ولا مرارته من كـمـال الـدين حـسين ● يتحـدث عن الأساليب التى كانت الثـورة تلجأ إليهـا فى اختيار المسـئولين التـربويين ● طبيعة الأمور التـى انشغل بها هؤلاء عن أن يؤدوا الوظائف التربوية ● اشتغـالهم بكل ما كان كفيلا بالكسب المادى فحسب ● أحد الأمثلة البارزة على سلوك الشخصيات التربوية المريضة التى لم تكن تعنى بالوظيـفة التـربوية فى المقام الأول ، وإنما كانت تـعنى فى نفاق ظاهر ومكشـوف بإرضاء

السلطة فحسب ● وصوله إلى حافة اليأس من مستقبل التربية والتعليم فى مصر● موقفه كأستاذ للتربية أو حيرته فى مواجهة كل هذا العبث ● يصور المناخ التربوى الذى قدر عليه أن يتعامل معه ● مطالبته بإعادة فحص الأمراض التى أصابت التعليم المصرى فى عصور الغوغائية والعشوائية والنكسة ● حسرته على سيادة نمط «القوالب الجاهزة» الذى فرض على التعليم فى مصر● الدور المفتقد للتربية فى صقل سلوك الشخصيات ● المفارقة العجيبة التى يكشف عنها أسلوبنا فى تقييم تجربة الكتاتيب وآثارها الإيجابية والسلبية ● خطورة الخطأ الذى درجنا عليه باعتبار مدرسى التعليم الثانوى أرقى من مدرسى التعليم الابتدائى● الاعتراف بعشقه لهذه المهنة ولكنه يقرن هذا الاعتراف بالإشارة إلى نجاته فى الوقت ذاته من خلق آخر يبدو مصاحب لها وهو أن يكون المرء «سوسة كتب» ● كان مفتونا بالعقاد وطه حسين وأحمد أمين بفضل ما قرأ ● العوامل التى نفرته من دراسة الحقوق ● قلة احترامه للمحامين فى مدينته ● عقيدته [التى تبين له خطؤها] فى أن بالإمكان الإلمام بالقانون من دون دراسة ● علاقته بالوظائف التعليمية فى شبابه الباكر ● تغيير بعثته إلى التربية ● آماله العريضة التى كان يرجو تحقيقها من خلال عمله فى المجال التربوى ● كان يترسم خطى التربوى الأمريكى الكبير جون ديوى ● أهمية الفن والأدب فى تكوين وجدان الطلاب ● بتعمق تجربة عميد مقرئى القرآن الكريم الشيخ محمد رفعت ● العرب سبقوا فى مجال التربية بالفن إلى ما لحقهم به العالم الحديث ● تعبيره عن إعجابه اللامتناهى بنموذج فنى متميز هو فرقة رضا ● منهجه فى التربية والتعليم فى أثناء حديثه عن تقييمه لشخصيته ● عنايته الفائقة بمحاولة تكوين ذاتية فكرية مستقلة للطالب ● انشغاله بالتأليف عوضه عن إحساسه بالذنب تجاه الدور التربوى الذى لم يقدر له القيام به فى خدمة وطنه على الرغم من تأهله له ● يثنى على الأستاذ العقاد حين انتبه إلى هذا المعنى وألف كتابه «التفكير فريضة إسلامية» ● يبدو أنه كان يعتقد فى أنه ألف وكتب بما فيه الكفاية فيما يتعلق بالموضوعات التى كان لابد له أن يكتب فيها ● استمراره فى محاولته التعبير بالكتابة عما كان يجب عليه التعبير عنه حتى فى فترة الطغيان ● يشيد بالأستاذ إسماعيل القبانى وجهده التربوى ● انتقاده للأستاذ السيد يوسف ● يصل إلى حدود غير معقولة من السخرية من هذا الوزير● ينتقد مدير جامعة الإسكندرية الذى صار وزيرا بأن يشير إلى أنه نفسه كان يعترف للدكتور العريان بأنه لابد من مجاراة التيار● ينتقد أحد مديرى الجامعة مصورا له فى أكثر الصور كراهية ● يقدم تصويراً بديعاً مروعا لبعض نماذج التربويين الذين لم يكونوا يحظون إلا باحتقاره ● نقده القاسى لما يسميه ظاهرة «الجاسوس الدينى» ● رأيه فى علاقة الدول الإسلامية بالأقليات المسلمة فى الخارج ● آرائه السياسية فى عصر الدكتاتورية ● يتعرض لأثر الحديث عن دولة المخابرات على نفسيته ووجدانه ● كان يدرك بحكم فهمه لفلسفة الحياة والتاريخ أن فترة الانكسار لن تكون باقية فى تاريخ مصر وحياته ● لم يكن له اختيار فى الهجرة رغم معرفته بقيمة الوطن والأهل ● نقل جو وطنه معه إلى استراليا ● حديثه عن ذاته هو ● فلسفته فى الحياة ● تطرفه فى الحب والبغض والازدراء، وتحفظه فى الاحترام واندفاعه الجسور فى إبداء الرأى وإقامة العلاقات والأنشطة ● لم يكن يؤمن أبدا بما تعرفه البشرية من حكمة

البطء والتريث ● ما استقر فى عقيدته من ألا يهاب أحدا من الناس، ولكنه يستثنى من هؤلاء الناس صفوة العلماء ● لم يجرب الطاعة ولا التبعية لغيره من البشر● تلذذه بالمفارقات ● ما رزق به من استبقاء قدرته على الحفاظ على الحماس المتأجج ● قدرته على التنبؤ بمسار التاريخ ● تنبؤه المبكر بانهيار الإمبراطورية البريطانية ● نزعته الشديدة إلى الحرية ● التعليم الأساسى الذى تمتع به على درجة عالية من الجودة ● أفاد من وجود معلم خصوصى فى منزلهم تولى تعليمهم النحو والقراءة ● فضل والده ● بعض ملامح شخصية والده ومكانته ● والدته ● جده لولده ● الأثر الذى أحدثه الشيخ محمد عبده فى نفسية وعقلية والده ● البيئة الإنسانية قادرة على اكتشاف الموهوبين وتشجيعهم دون أدنى حساسية للفروق الطبقية ● عباراته فى هذا الصدد تؤكد على المعنى الذى يقدمه الدكتور شوقى ضيف فى مذكراته● الدور الذى قدر للإسهامات الأهلية أن تلعبه فى خدمة التنمية ● نراه واعيا للتكوين الإنسانى الذى لابد منه للمثقف ● عبد المعطى المسيرى ● الدور الكبير الذى لعبته قهوة عبدالمعطى المسيرى فى تكوينه ● تقدير وتقييم الدكتور العريان لزعماء الوطنية المصرية ● رأيه فى سعد زغلول : «فكرة عظيمة قوامها الحرية» ● أساتذته فى الجامعة ● يخص طه حسين ومصطفى عبد الرازق بكثير من الثناء ● فضل أستاذ الجيل ومدير الجامعة أحمد لطفى السيد على الحياة الفكرية والثقافية ● يحرص على الإشادة بكثير من الشخصيات التى قدر له أن يعرفها على مدى تاريخ حياته ● الدكتور عبد الرزاق السنهورى ● الشاعر الكبير عزيز أباظة باشا● الشاعر كامل الشناوى ● محمود شكرى ناظر الخاصة الملكية● الدكتورة نوال السعداوى ● خطيب أخته الذى قضى فجأة فى سبتمبر ١٩٤٠فى ربيع حياته.

● التعريف بصاحب المذكرات، وبالمذكرات ● مذكرات تقليدية كتبها عالم تقليدى بطريقته التقليدية ● قصة الأمل الذى كان على وشك التحقق بأن تدخل مصر عصر الطيران منذ عهد وزارة سعد زغلول فى ١٩٢٤● نجاح الكردانى فى الخروج بأفكاره إلى المجتمع المصرى من خلال المحاضرات والصحافة ● دور وزارة الحربية فى تبنى مشروعه وسفره من أجل هذا المشروع إلى انجلترا وهولندا ● ظل يحلم بمستقبل للطيران فى مصر، حتى إنه شعر بالنشوة عند قدوم الطيار صدقى من ألمانيا فأقام له حفلا بمنزله ● عاد إلى نشاطه الأصلى وهو عمل المعلم ● بدأ مع زملائه فى النقابة العلمية دراسة السبل الكفيلة بإصلاح التعليم المصرى ● انعقاد مؤتمر التعليم الأول فى العشرينيات ● نهاية عهده بالتدريس ● أسلوبه فى العمل كمدرس ● حنينه الدائم والمتجدد إلى التدريس حتى بعدما أصبح ناظرا مرموقا ● الحكومة المصرية آنست فيه منذ مرحلة مبكرة القدرة على تنظيم جهودها فى الإصلاح التربوى ● وزارة المعارف فى عهد على الشمسى باشا عهدت إليه بسكرتارية لجنة لفحص حالة التعليم من جميع نواحيه ● مصاحبة خبير سويسرى انتدبته الوزارة فى أثناء جولاته فى المدارس ● نجاحات محددة تمكن من تحقيقها خلال الفترات المتوالية التى تقلد فيها عددا من الوظائف

التربوية القيادية • اهتماماته فى أثناء عمادته لمعهد التربية بما نطلق عليه الآن مسمى «الطرق الخاصة» و«التقويم التربوى» • يعتز بنجاحه وهو مراقب عام لتعليم البنات فى إنشاء مدرسة المنايل الريفية • سعادة الكردانى وفخره بعمله كناظر لمدرسة المنصورة • نراه سعيدا بإنجازاته فى المدرستين التاليتين اللتين تولى نظارتهما وهما مدرسة القبة ومدرسة الخديوية • إنجازاته وابتكاراته فى أثناء تولى النظارة فى هذه المدارس • جهوده التربوية فى معهد التربية العالى، وفى رابطة التربية الحديثة وفى مؤتمرها الدولى • جهوده فى التبشير بجهود هذه الرابطة فى وطنه • سياسته فى تحميل الشركات مسئولية تعليم أبناء موظفيها وبناتهم • كان يتمثل سلوك بعض القادة التربويين الذين أدركهم فى مرحلة مبكرة فى حياته • جهده فى الأنشطة التربوية الجادة • رعاية أخيه وأخوى صديقيه العالمين الكبيرين مشرفة وأحمد زكى، وكان هذا عن اتفاق بين ثلاثتهم • قبل هو وزميلاه العمل بنصف الأجر فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، لكنهم مع هذا أدوا هذا العمل على أكمل وجه • انتقاله للعمل الحكومى مدرسا فى المدرسة التوفيقية بعد فتح الحكومة لباب التعيين • نرى السياسيين واعين تماما للدور الذى يمكن لرجال التربية أن يؤدوه • تنظيمه وهو ناظر للمدرسة الخديوية للاحتفال بمئوية هذه المدرسة التاريخية المهمة، وهو الاحتفال الذى نال البكوية بعد تنظيمه له • أشق الوظائف التى تولاها كانت مسئوليته عن المراقبة العامة لتعليم البنات • بداية خلافه مع طه حسين • ذكرياته عن أول بعثات تعليم البنات المصريات فى بريطانيا • مصير عضوات هذه البعثة • جهوده فى لجنة تقويم التعليم الابتدائى بعد إحالته للمعاش • قبوله عرض الجامعة الأمريكية توليه رئاسة مؤتمر التعليم الثانوى بجميع فروعه الذى نظمته تلك الجامعة • يصور بعض ملامح الفساد الإدارى التى لم يخل منها عهد • لمحات يصور بها بوارق اهتمام الوزراء وأولى الأمر بالموظفين الأكفاء من أمثاله • حريص على أن يظهر بوضوح ضيقه وتبرمه من كل من الوزيرين طه حسين ومحمد حسن العشماوى باشا اللذين تعاقبا على وزارة المعارف • مأساته مع العشماوى باشا • اعتزازه بكثير من تلاميذه ومن مرءوسيه الذين وصلوا إلى مواقع علمية ووزارية مهمة، ولعل أبرز مظاهر هذا الاعتزاز أنه عهد بمقدمة كتابه إلى أحد تلامذيه المتفوقين : الدكتور محمد داود التنير عميد كلية طب الأسنان • اعتزازه بأحمد نجيب هاشم وزير التربية والتعليم فى عهد الثورة • طلب وهو عميد لمعهد التربية من بهى الدين بركات باشا وزير المعارف نقل الأستاذ إسماعيل القبانى التربوى المشهور وناظر فاروق الأول الثانوية ليكون وكيلا للمعهد • على النقيض من حديثه الفخور بهذين الوزيرين يأتى حديثه عن وزيرثالث هو وزير الإرشاد القومى فى أول عهد الثورة محمد فؤادجلال • الكردانى يعتز بزملائه اعتزازا واضحا وهو يحكى موقفا نبيلا لزميله الدكتور أحمد زكى • تكوينه العلمى والإيجابيات الواضحة فيه • تتلمذه على يد الوطنى الكبير الشيخ على الغاياتى فى دمياط • قدرة المدرسة العلمية البريطانية على تأهيله كمهندس رغم دراسته العلمية الأولى • تعنت إدارة البعثات الذى دأب على ألا يوافق على مثل هذا التحول فى التخصص • يروى أن صحفيا مصريا مسيحيا (هو الأستاذ قرياقص ميخائيل) كان هو

المرض النفسى ● موقف صاحبة المذكرات من الذين يمارسون العلاج الروحى يبدو وكأنه موقف براجماتى لا يستند إلا إلى نجاح النتيجة فحسب ● تصف كل منهم وصفا دقيقا ● تبدو محايدة فى تقييمها للتجربة، لا تمانع فى أن تكرر ما تفعله من أن تسحب الوصف بفشل التجربة على صاحبها ● تروى تجربة الطالب الذى أقعده المرض وعجز الأطباء عن علاجه ، حتى إذا ما ذهب إلى الشيخ (ع) شفى مما كان يعانى منه ● أكثر مَنْ حظيت بإعجابها من بين ممارسى العلاج الروحانى كانت «مسز ديفنى» ولهذا الإعجاب مبرراته من وجهة نظر صاحبة التجربة ● الاقتناع بجدوى وفعالية ما تمارسه هذه السيدة ● قصة قيام الأرواح الإنجليزية بإجراء عملية جراحية لها هى نفسها فى المخ ● قصة مقتل هذه السيدة على نحو مفاجئ ● لجأت ـ فى الحقيقة ـ إلى كل الوسائل الكفيلة ـ فى ظنها بتحقيق الشفاء ● تفيض بلا كلل فى الوصف الدقيق وفى رسم السيناريوهات ● تحرص على تعمق المشاعر والتبصر بالنفس الإنسانية ● تأملها لما رأته وشاهدته فى الاتصال بالعالم الغيبى ● تلجأ إلى كل وسائل التحليل العلمى من أجل التيقن ● تتشكك أيضاً فى كل ما يمكن أن تتشكك فيه ● لا يقف اندماجها فى التجارب التى مرت بها عند حدود مطالعتها ومشاهدتها للتجارب ● تندمج فى خطوات وتفصيلات التجارب حتى تصل إلى التصريح بقابليتها أو صلاحيتها هى نفسها للقيام بدور الوسيطة الروحية ● فاتها ـ ولست أدرى لماذا ـ أن تنتبه إلى حقيقة وطبيعة نوع معروف من العلاج هو الكيروبراكتس الذى وصفت معالجة أحد ممارسيه لها ● لا تبخل علينا بما يتوافق مع أنوثتها، فهى لا تبخل بالحديث عن جمالها وعن اكتشافها لهذا الجمال، وعن عنايتها الفائقة بحمايته وإبرازه ● فطرتها تقودها إلى خطوات جبارة فى هذا السبيل ● مع هذا لا تنكر أيضا أنه كان هناك من أخذ بيدها ونصحها ووجهها ● لا تجد حرجا فى أن تروى بالتفصيل أكثر من محاولة لابتزازها بسبب جمالها ● تكرر التعبير عن اعتزازها الدائم بالمظهر فى جميع الأحوال والذى استطاعت الحفاظ عليه رغم كل الصعوبات ● تحرص أيضا على أن تنقل الإعجاب بمظهرها من على لسان الآخرين: تثبت أثر الإعجاب بها فى عيون كل من شاهدوها ● تواجه بعض المتاعب بسبب هذا المظهر الذى حرصت على أن تنال الإعجاب بسببه، ذلك أن هذا الإعجاب كما هو متوقع كان يتحول إلى طمع عند بعض مَنْ لجأت إليهم للعلاج ● صاحب شخصية طارد الجن ● صاحب الطريقة السافلة لإبطال العمل السفلى ● تقدم صورة جميلة للتعبير عن الإعجاب بها فيما ترويه من تعليق أحد الأطباء، وهو فى الحقيقة تعبير يمثل التعليق الكلاسيكى عند أغلب الأطباء على مثل حالتها ● تجيد تصوير حسد زميلاتها لها على قدرتها على المواجهة ● قدراتها المتعددة فى مجالات ليس لها علاقة بالجمال ولا بالأنوثة .

تهميش العقل

تتناول المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب أخطر وأهم قضية فى تاريخنا المعاصر وهى تاريخ الحياة العقلية العربية وما اعترى تكوينها من نجاح مذهل ثم تدهور مروع ، ونحن نقرأ تفصيلات وملامح هذا التحول من النجاح إلى التدهور من خلال ما سجله كل من العقل الواعي والعقل اللاواعى لمجموعة من أبرز العقليات التى نجحت فى أن تحقق لوطنها ولمن حوله من أوطان وشعوب أداء متميزا بالإنجاز الرائع والنجاح الساحق، ثم إذا بالظروف تتغير ليصبح كل هذا النجاح اللامع فى خبر كان بعد ما كان سائداً وقائداً ورائداً، وإذا بأصحاب النجاح وبغيرهم ممن عرفوا طعم النجاح وأفادوا منه ، إذا بهؤلاء وهؤلاء يجأرون بالشكوى مما أصاب الحياة العقلية من تدهور مروع جعل الحياة السياسية تتقبل الدجل، كما جعل الحياة الاجتماعية تعلى من شأن الدجل وتبحث عنه مؤملة أن يكون فيه الحل لبعض ما تعانيه، كما نرى الحياة الاقتصادية هى الأخرى تميل إلى الارتفاع بالمجهول والترحيب به بدلا من أن تعلى من شأن العمل أو أن تحافظ لأصحابه على ما حققوا من نجاحات بسبب العمل والعلم من قبله.

وليس من الغريب إذاً أن نطالع كثيرا فى هذه المذكرات من صفحات غاضبة أو حافلة بالغضب على ما أصاب الحياة العقلية من تدهور لم يكن هو المتوقع لها بعد أن حققت فى جيل سابق إنجازات سامقة فى الفكر والعلم والفن، وبعدما أصبحت الكفايات الوطنية تتمتع بمكانة مرموقة فى الميادين التى بزغت فيها على المستوى الدولى، وبعد ما كانت معاهدنا التعليمية تزهو بمستوى خريجيها أو بمستوى نتاجها من البحوث العلمية والموارد البشرية .. ولكن الأمور لا تسير على نحو ما كانت البشارات تعلن ، وإنما يفاجأ العقل المصرى والحياة العقلية المصرية من بعده ، بوقفة تعقبها انحدارات متوالية فى مستوى الفكر والأداء والبحث العلمى والتعبير عن الفكر

والرأى وإذا بالعقول المتميزة تؤثر الهجرة مرة والهرب مرة أخرى والنفى الاختيارى مرة ثالثة، وفى أحسن الأحوال فإن معظم هذه العقول كانت فى حاجة إلى بعض النفى المؤقت من أجل تحصيل بعض المال الكفيل بإقامة الأود الذى لابد منه لاستبقاء الحياة نفسها.

وسرعان ما أصبحت قيمة العلم والعلماء متراجعة فى مجتمع بدأ ينتصرللديماجوجية فى اتجاه الشرق ثم لديماجوجية أخرى مضادة فى اتجاه الغرب ثم لديماجوجية فى اتجاه الجنوب وديماجوجية أخرى فى اتجاه الشمال ، وإذا محصلة الجهود العقلية تتلاشى، لا بحكم جهود أخرى حاربتها وكانت أكثر منها قوة وعنفا، وإنما بحكم ما تقول به قوانين الميكانيكا التى تحسب محصلات عمل القوى المختلفة آخذة فى اعتبارها الاتجاهات التى سارت فيها هذه القوى، وإذا بالمحصلة فى حالتنا أقرب إلى السلب منها إلى الإيجاب ، لأننا ببساطة شديدة حرصنا على الهدم كمقدمة لكل تجديد نحلم به حتى لو لم نكن قد وضعنا له تصوراً مبدئياً ، وظننا إنجاز الهدم نوعا من البناء ، أو خطوة مهمة فى سبيله ، بل إننا فى أهداف كثيرة معلنة خطونا خطوة أوسع فى هذا الطريق ولم نناد بتحويل شىء نعتقد أنه ضار إلى آخر مفيد، وإنما حرصنا على الإعلان عن القضاء عليه فحسب.

ولم يكن التوجه إلى مخالفة السابق وهدم الماضى هو كل جوهر مأساة الحياة العقلية فى الزمن الذى نعيش اليوم معقباته، ولكن الارتجال فى رسم الخطط الكفيلة بتحقيق الأهداف كان بمثابة مرض أشد خطورة وأكثر فتكا بكل الأمانى الطيبة (وغير الطيبة أيضاً) وإذا بكثير من أهدافنا يتلاشى بأسرع مما نتصور ، لا شىء إلا لارتجالنا أساليب غير كفيلة بتحقيق الحدود الدنيا من النجاح فى تحقيق أية أهداف مهما صغر شأنها أو سهل إنجازها.

ولم يتوقف الارتجال عند الحدود التى تم التنفيذ بها ، ولكنه تخطى هذه الحدود ليصيب أسلوب التفكير العقلى فى مقتل سريع الإهلاك، وذلك أن الارتجال أصبح بمثابة الأسلوب الذى يخلق من الفشل سمة تتأبط بل تحتضن الهدف النبيل حتى أصبحت كثير من الأهداف النبيلة مرتبطة فى أذهان جماهيرنا بنوع آخر من الفشل الملازم لها دون أن يكون هذا الفشل ذا صلة منطقية أو سببية بالهدف من قريب أو من بعيد، ولكن أسلوب الارتجال نجح فى أن يربط بين الهدف وبين الفشل حتى أصبح كثير من مثقفينا ومفكرينا يظنون ـ وهم معذورون تماماً فى هذا الظن ـ وجود رابطة عضوية بين هذا الهدف وذلك الفشل مع أن هذه الرابطة العضوية ليست حقيقية ولا شبه حقيقية على الإطلاق.

وليس أدل على ترسخ هذا المعنى من ذلك الارتباط الشائع على أقلام كتابنا وهواة الكتابة من كافة الاتجاهات بين تدهور مستوى التعليم من ناحية وبين مجانية التعليم من ناحية أخرى . ويكاد الناس يؤمنون اليوم إيمانا يقينيا أن مثل هذا الهدف النبيل ومثل هذا الفشل الذريع أمران

متلازمان وأنه يستحيل أن يوجد تعليم متميز ما دام التعليم مجانيا ، كما أن من المستحيل للتعليم المجانى أن يفرز خريجين على مستوى متميز.. هكذا أصبح الناس يعتقدون فى حتمية هذا الربط مع ما فى هذه العقيدة من وهم ظاهر الضلال، ولكنهم لا ينتبهون إلى حقيقة أخرى تحل لهم هذا المشكل الظاهر، وهى أن الارتجال الذى واكب الدعوة الصاخبة إلى المجانية كان هو السبب الحقيقى فى التدهور ولم تكن المجانية هى السبب، والأمر فى هذا لا يعدو أن يكون شبيها بإجراء أحد الجراحين المتميزين لعملية جراحية فى أحد المستشفيات فى ظروف ملوثة وتكون النتيجة أن تنتهى هذه الجراحات بوفاة المريض فى كل حالة ، وإذا بالاستنتاجات تتركز فى التفكير فى اتجاه فشل الجراحة كعلاج لهذا المرض بينما ظروف التعقيم هى المسئولة، ويظل الناس يعتقدون فى فشل الجراحة كليا بينما الحقيقة العلمية تقول بأن هذه الجراحة فى هذه الحالة ناجحة بنسبة عالية هى أقرب إلى النجاح المطلق لا يحول دون تحققها إلا أن تكون هناك صورة أو أخرى من صور الارتجال الكفيلة بتحويل النجاح من نجاح مطلق إلى فشل مطلق.

وهذا هو جوهر ما حدث فى فشلنا الذريع فى «وظيفة التربية والتعليم»، ولكننا لا نعود بالأسباب إلى حقيقتها الواضحة التى لا تقبل النقاش ولا النقض، وهى أننا فشلنا فى إدارتنا لهذه العملية التعليمية، وإنما نحن نستسهل أن نلقى بالعبء على مبدأ نبيل هو مبدأ مجانية التعليم الذى لا يمكن لأمة من الأمم أن تنهض نهوضا حقيقيا دون أن تأخذ به على نحو أو آخر.

ومن العجيب أننا نقرأ فى مذكرات علمائنا كيف أنهم تلقوا تعليما مكتملا ناجحاً مثمراً لم يكن فيه مكان على الإطلاق لدرس خصوصى وكيف أنهم تلقوا مع هذا التعليم المكتمل تربية متكاملة الأركان (دينية وفنية ورياضية وبحثية وعلمية) وكيف أنهم فوق هذا وذاك تلقوا غذاء جيداً من خلال المدارس التى درسوا فيها، بل تلقوا الحق فى الإقامة الداخلية فى مدن طلابية، أو مدارس داخلية ، توفر لهم أفضل إقامة بالقرب من مدارسهم مباشرة (أو من معاهدهم الدينية) وهكذا تهيأت لكثير من أعلامنا المتفوقين مثل هذه الظروف التى هى قصوى فى مثالياتها حتى فى ظل الاحتلال الإنجليزى لوطننا، وبوسع القارئ أن يعود إلى التفصيلات التى يرويها أحمد عبدالسلام الكردانى عما استنه سعد زغلول وهو وزير للمعارف من قوانين كفلت تحقيق فرص متميزة لأبناء الأسر التى أخنى عليها الدهر، وكيف كان هذا كله مقترنا بتدبير موازنات للتمويل مرصودة ومعتمدة ، كما نقرأ كيف أنه من الممكن، على سبيل المثال، تحويل بعض هذه الاعتمادات من تمويل التعليم المصحوب بالإقامة فى المدارس الداخلية لعدد محدد من الطلاب إلى تمويل التعليم غير المصحوب بالإقامة لأضعاف هذا العدد.

وبالإضافة إلى هذه الصورة واضحة الدلالة فقد كان التفوق نفسه كفيلا بإتاحة المجانية بعد ثبوت هذا التفوق ، كما كان الفقر نفسه كفيلا بالحصول على المجانية . ولكن صعوبة الحصول

على مجانية التعليم المتميز كانت تنتهى عند هذا الحد حيث يبدأ الطالب (أو المواطن) بعد ذلك فى الاستمتاع بفرصته فى التعليم المتاح الذى كان ذا مستوى لا يقبل الانخفاض.

وفى مقابل هذا كله فإن ارتجالاتنا المتوالية فى سياسات التربية والتعليم كانت كفيلة بأن تخلق صورة مناقضة على طول الخط، فارتفاع شعار المجانية أصبح الآن - ولله الأمر من قبل ومن بعد - مقلقا لأبناء الشعب إلى أبعد الحدود لما يتضمنه من مَنٍّ دائم على الشعب ، وكأن التعليم ليس حقا من حقوق الإنسان، وكأنه ليس من الخدمات المفترض أن تقدمها الحكومات ، ليس هذا فحسب بل إن كثيراً من أبناء وطننا (سواء فى هذا حسنو النية وسيئوها) لا يستحون أن يطالبوا يوما بعد يوم بالعدول عن المجانية وكأنها أم المشكلات ، بل إن كثيراً من الذين يظنون أنفسهم مصلحين أو منقذين يطالبون من آن لآخر بإعادة النظر جزئيا فى المجانية فى التعليم العام والجامعى ، وكأنما المجانية هى أصل البلاء ، بينما المجانية نفسها تعانى من قسوة الارتجال الذى جعلها مجانية زائفة ترتبط بإنفاق مواز ضخم على الدروس الخصوصية ، وعلى الكتب الخصوصية ، وعلى السيارات الخصوصية إلى كل هذا ، وعلى كل ما هو لازم لاستكمال ما تعجز المجانية المفترى عليها عن تحقيقه.

ليس هذا فحسب، وإنما تفاجئنا الصحف من حين لآخر برسوم مفروضة على طلاب المدارس والجامعات، وهى تبدو ضئيلة القيمة ، ورمزية ، ولكنها فى حقيقة الأمر رسوم واجبة السداد ، ولا يعفى منها أحد، ومن العجيب أنها رسوم لأشياء هى فى حقيقة الأمر وهمية تماماً فمن العجيب أن تتقاضى الوزارة من طلابها رسوماً على المعامل بينما معظم مدارسها تخلو من المعامل، وإذا وجدت فهى للديكور أو الاستعراض، وليست موظفة من أجل الطلاب ، ولا من أجل التعليم أو التربية. وقد طالبت كثيراً وناديت - عبر مؤلفات سابقة ومن خلال كتاباتى فى الصحف - بإلغاء كل رسوم أو مصروفات دراسية وتساءلت عن مشروعية فرض رسوم معامل ومكتبات على الطلاب فى المدارس التى لا تضم معامل أو مكتبات، ومن أجل التنبيه ضربت مثلاً بمصروفات المركز الثقافى الفرنسى فى القاهرة فى مقره الأصلى فى المنيرة وفى فرعه فى مصر الجديدة، وكيف أنها تتفاوت لأن أحد المقرين لا يضم «معمل اللغات» ، ولهذا فإن المركز الثقافى الفرنسى لا يتقاضى من طلاب أحد الفرعين رسوماً على مالا يتمتعون به.. ومع هذا فلا تزال وزارة التربية والتعليم مصرة على تحصيل رسوم المعامل والمكتبات ، ولا تزال حريصة أيضاً على رسوم لمجالس الآباء ، وهى - أى مجالس الآباء - فى حقيقة الأمر ، وإن كانت تجربة تربوية يمكن تنفيذها من آن لآخر فى مدرسة أو أخرى ، إلا أن تعميمها على النحو البغيض المأخوذ به الآن يجعلها أقرب الصور إلى مجالس شكلية ووهمية وبيروقراطية ودعائية ومعطلة لكل جهد حقيقى وغير ذات قيمة فى العملية التربوية ، ومن المدهش أن الإبداع البيروقراطى، فى أكثر مرحلة من المراحل، قد نجح فى أن يخلق من هذه المجالس كيانا بيروقراطيا شموليا ضخما، وبوسع القارئ

أن يتصور فظاعة الحقيقة التى أرست ركائزها بحيث أصبح هناك مجلس آباء لكل مدرسة ثم يجتمع أعضاء مجالس الآباء فى المدارس التى يضمها قسم واحد لانتخاب مجلس آباء القسم ، ثم يجتمع مندوبو هؤلاء لانتخاب مجلس آباء الإدارة التعليمية ، ثم لانتخاب مجلس آباء المحافظة ، ثم مجلس آباء الجمهورية ، وذلك على نحو ما كان يحدث فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى العربى من القاعدة إلى القمة!

ومن المذهل أن هذا النظام لا يزال معمولا به حتى يومنا هذا، كما أن من المذهل أكثر أن هذا النظام أيضا يُعمل به على مستوى اتحادات الطلاب ، وهكذا يتكفل مثل هذا النظام بخلق طبقة من طلاب (أو آباء) متفرغين لانتخابات وانتخابات تصعيدية ، وللقاءات قبل الانتخابات ، وبعدها، وهكذا تتحول القيم النبيلة وتتمحور وتتبدل إلى أسوأ صورة من صور الشكليات الكاذبة الكفيلة بأن تدمر كل جوهر لعملية تربوية أو تعليمية حقيقية.

ومما يؤسف له أن أحداً لا يطالب بإنهاء هذا العبث الذى لا طائل من ورائه ، وليس السبب فى عدم المطالبة بإنهاء العبث سراً، وإنما هو أن أصحاب القدرة على إيقاف العبث قد أصبحوا بقوة القانون متورطين فى أن يكونوا هم وحدهم بمثابة أوائل المستفيدين من وراء استمرار هذا العبث لأنهم ينالون المكافآت عن استمرار هذا العبث عاماً بعد عام من حصيلة الرسوم المفروضة لأجل هذا الغرض، وهكذا خلقت القوانين الشمولية حماية ذاتية وأبدية لنفسها بتلويث طعام مَنْ بيدهم إلغاؤها، وقد حدث هذا الوضع الخبيث على نحو مطور مما كان يحدث فى الأوقاف الأهلية حين كان كل هم نُظّارها العمل على إيقاف توظيف الوقف فيما أوقف له من سبل الخير، والحفاظ عليه كمصدر لإدرار الرزق على الناظر، وهكذا تحول «الوقف» من هدفه النبيل إلى هدف آخر ارتبط بآلية إدارته ، ومن العجيب فى هذا الصدد أن نفاجئ القارئ بأن بعض أسلافنا العظماء قد اكتشفوا هذه الحقيقة منذ مرحلة مبكرة، وبلغ الأمر بأحد أفذاذ الرجال والقادة وهو قاسم أمين أن يقف وقفة صلبة فى وجه زملائه من أعضاء مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية حين فكروا فى أن يحولوا موارد الجمعية وممتلكاتها إلى وقف ينفق منه على أغراضها، وإذا به يبصر زملاءه بخطورة مثل هذا القرار، فلما رآهم لا يدركون ما أدركه من حقيقة الآليات الفاسدة ، صمم ، على نحو ما يروى زميله الأستاذ إبراهيم الهلباوى فى مذكراته ، على الاستقالة من مجلس الإدارة ، لأن الأمر فى هذه الجزئية ليس أمر ديمقراطية تنتصر للأغلبية ، ولكنه أمر أساسى يتعلق بجوهر وجود الجمعية نفسه، وهو الجوهر الذى يكاد يضيع لو تم الأخذ بمثل هذه الآليات الفاسدة ، وعند هذا الحد انتبه أعضاء مجلس الإدارة إلى خطورة ما كانوا مقدمين عليه ، ووافقوا صاحبهم الفرد على رأيه ، وبهذا فقط حافظوا على جمعيتهم الرائدة وعلى نشاطها الذى كاد يتحول فى طرفة عين إلى ما تحول إليه التعليم المصرى فى ظل حسن النوايا الغافل عن إدراك حقيقة الآليات الكفيلة بالنجاح.

ربما أكون قد أطلت فى توضيح الفكرة التى أردت جلاءها لقرائى ، ولكنى أظن أن الفكرة لا تزال بحاجة إلى توضيح الجانب الآخر منها وهو المرتبط بالجانب الاقتصادى فى الموضوع، ذلك أن الإنفاق الحكومى على التعليم الآن ليس بالإنفاق الهين ولا اليسير ولا المتوسط ، ولكنه إنفاق ضخم متنام بل إنه فى حقيقة الأمر إنفاق باهظ إذا ما قورن بمواردنا، وإذا أردنا الحقيقة فإن هذا الإنفاق يوازى وربما يفوق ما ينفق فى كثير من مؤسسات التعليم الخاص، ولكنه للأسف الشديد لا يحقق أى قدر من المردود الذى يحققه الإنفاق فى المؤسسات التعليمية الخاصة ، وهكذا يمكن لنا استنتاج حقيقة مهمة تتعلق بالإنفاق الحكومى على المجانية، وهى أن هذا الإنفاق لا يستهدف تحقيق المجانية فى المقام الأول ولا الثانى ولا الثالث ولكنه يتكفل بأهداف أخرى مختلفة تماماً عن التعليم وعن المجانية، وعلى سبيل المثال فمن هو القادر على أن يقنع أى عقل أن الإنفاق على مرتبات عشرين ناظراً بلا عمل فى أى مدرسة ثانوية يمكن أن يكون إنفاقاً على مجانية التعليم؟ ومَنْ هو القادر على أن يقنعنى بأن الإنفاق على طباعة كتب تسمى دليل المعلم ونماذج الامتحانات هو إنفاق على مجانية التعليم؟ ومَنْ هو القادر على أن يقنع العقل بأن الإنفاق على تبليط ملاعب المدارس هو إنفاق على مجانية التعليم؟ ومن هو القادر على أن يقنعنى بأن الإنفاق على أجهزة كمبيوترات مكدسة فى مخازن الإدارات التعليمية أو المدارس ولم يقدر لها أن تستعمل أبداً هو إنفاق على مجانية التعليم؟ ومَنْ هو القادر على أن يقنع العقل بأن الإنفاق على موظفى إدارات تعليمية متضخمة العدد (فى كل مركز شرطة أو قسم) هو إنفاق على مجانية التعليم؟ ومَنْ هو القادر على أن يقنع العقل على أن الإنفاق على بعض مراكز تطوير التعليم ومؤتمراته وكتب التطوير والتبشير بالتطوير هو إنفاق على مجانية التعليم؟

ومع هذا كله فلم يعد من الممكن أن نتراجع عن كل هذه «الثانويات» لأنها أصبحت «أساسيات»، وأصبحت فى آلياتها صورة من صور الوقف الأهلى الذى يستحيل إيقاف صرفه لأن ناظر الوقف لا ينفق منه إلا فيما يعود بالنفع أو الوجاهة عليه مباشرة لأنه ببساطة شديدة أصبح متفرغاً للوقف فحسب.

هكذا يمكن لنا أن نفهم بكل وضوح أن «مجانية التعليم» أصبحت أشبه بفتاة أصابتها الشيخوخة فى مرحلة مبكرة جداً من عمرها وهكذا منعتها هذه الشيخوخة المبكرة من أن تنجب شيئاً ذا بال ، وذلك لأنها لم تمارس الحياة الطبيعية التى تمكنها من أن تحقق هذا الإنجاز، وإنما شغلت تماماً باستغلال وجودها كلافتة مظهرية للعبث الذى لم يسفر عن إنجاز حقيقى فى التربية والتعليم من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد ألقيت عليها المسئولية بعقم الحياة العقلية فى عصرها وكأن هذه «الفتاة» «التى هى المجانية» بمفردها كانت كافية لإخصاب هذه الحياة العقلية بروافد جديدة.

وهذا هو جوهر ما ينبغى لنا أن ندركه من أمر حياتنا العقلية التى أوشكت على أن تصل إلى

أقصى درجات الوهن والشيخوخة رغم كل ما يتبدى من صحة زائفة يصورها البعض فى بعض اللقطات بالنيابة عن أصحاب الشأن.

وإذا كان لابد لنا من أن نخطو خطوات ذات شأن فى إحياء حياتنا العقلية فلا جناح علينا إذا عدنا إلى نقطة البداية لكى نبدأ من جديد نهضة صادقة يمكن لها أن تكون ذات مردود حقيقى فى حياتنا العقلية ، ومن حسن الحظ أن تجارب أسلافنا القريبين كفيلة بأن تدلنا على الطريق القويم والسبيل الناجع لتحقيق مثل هذه النهضة العقلية، وفى المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب كثير من الإضاءات الكفيلة بأن تدلنا على زوايا كثيرة لتكريس نهضات أو وثبات أو حتى طفرات كثيرة فى حياتنا العقلية، ومن حسن الحظ أن هذه المذكرات على اختلافها تتناول بكل التمحيص والتدقيق والفهم كافة جوانب النهضة العقلية من تربية تقليدية، وأخرى مرتبطة بالبيئة ، وتعليم مواز، ودور الأسرة، ودور الصداقات والجماعات، وأندية الفكر. فضلاً عن تجارب المدارس الوطنية والبعثات الدراسية والبعثات الحرة والتعليم الذاتى، والقراءة ، والصحافة ، والاتصال بالآخرين، والعكوف اليقظ على النصوص القديمة وعلى المخطوطات والدراسات الميدانية ، والتجارب التربوية الحديثة ، والبيداجوجيا، وربط التربية بالمجتمع، وبالأهداف التربوية ، ودراسات علم النفس، والمدارس الأجنبية المتعددة فى أمريكا وفرنسا وبريطانيا وأسبانيا وغيرها من الأوطان التى درس فيها نظراء نتدارس مذكراتهم فضلاً عن تفصيلات علاقات الطلاب ببعضهم وبأساتذتهم ، وفضلاً عن تجربة التلمذة لأساتذة أجانب آخرين ووطنيين ،ومن حسن الحظ أيضا أن المذكرات التى نتناولها بالمدارسة فى هذا الكتاب قد تناولت بكل تفصيل خصائص التعليم والتربية فى المدارس الوطنية فى الأزهر، والمدارس العليا، والجامعة وفى التعليم الخاص، والتعليم الداخلى، والتعليم فى الخارج.

وتطلعنا المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب على كثير من الحقائق المهمة من أجل تجديد الحياة العقلية، ومن هذه الحقائق أن بعض المناهج والأساليب القديمة قد تكون أكثر نفعا وجدوى من الأساليب الحديثة، وليس هذا فى حد ذاته بالأمر الهين ، فقد دفعتنا سرعة اللهاث وراء كل جديد إلى التخلى عن كثير من القديم على الرغم من أنه يظل بمثابة «الأنسب» لظروفنا، و«الأفضل» فى نتائجه ومردوداته، ومن ثم فإن الوعى بالمزايا النسبية للأساليب المختلفة تجعلنا قادرين على أن نختار من بينها ما هو أكثر فعالية وأجدى نفعاً، وفى هذا الصدد تتأكد حقيقة أن الأفضلية ليست مواكبة للحداثة ولا مرتبطة بها، فليس كل ما هو قديم مستحقا للهجر أو الاتباع، وليس كل هو ما حديث مستحقا للاقتناء أو للأخذ به . وتحفل المذكرات التى نتدارسها بكثير من الأمثلة الدالة على صدق هذه القاعدة.

ونحن نرى فى الأساتذة الخمسة الذين نتدارس مذكراتهم فى الأبواب الخمسة الأولى من هذا

الكتاب نماذج بارزة لصناع الحضارة الذين رادوا قومهم إلى دراسات جديدة فى موضوعات وعلوم راسخة أو إلى آفاق جديدة ومستحدثة ومتجددة فى العلم والحياة ، أو إلى تجديد وتطوير أسلوب الدرس والبحث على نحو رائع ، ونرى فى مقابل هؤلاء الخمسة الرواد ملامح التجربة التى خصصنا لها الباب السادس بما تعرضه من معاناة حقيقية نجحت صاحبتها فى أن تصور حقيقتها على أدق ما يمكن ، معبرة بهذا عن حيرة جيل جديد ، هو الجيل الذى يعيش الآن أيام سطوته ، دون أن يمارس هذه السطوة، فى الإضافة إلى الحياة العقلية الواهنة التى لن يصعب على القارئ أن يدرك أسباب وهنها من خلال ما نتدارسه من مذكرات.

ولست بمستطيع أن أتغاضى عن الإشارة إلى أن هذه الأسباب ترتبط ضمن ما ترتبط بالحريات العامة ، وبالروح الليبرالية، وبقيمة العلم فى القرار السياسى، وبقيمة القرار السياسى للوطن فى المجتمع الدولى، وما هو مطلوب من التربية والتعليم قبل أن يكون مرتبطا بما هو متوقع من هذه «التربية والتعليم»، وكل هذه الحقائق أصعب من أن تصور على نحو دقيق ولكنها مع هذا تمثل ذلك النوع من البدهيات التى يصعب تعريفها بينما يسهل إدراكها.. وهذا هو جوهر الحقيقة فى مدارستنا لهذه المذكرات.



ومن الجوهرى أن نشير، فى هذه المقدمة، إلى علاقة الحياة العقلية بالحرية، وهى قضية لا تزال غائبة عن إدراك تاريخنا المعاصر المكتوب ، وذلك على الرغم من بداهة فكرة الارتباط بين إقامة الحرية السياسية وبين ازدهار الحياة العقلية ، ذلك أنه يستحيل أن يتحقق ازدهار لحياة عقلية حقيقية من دون توافر الحرية السياسية فى أبسط صورها، إذ ما جدوى التفكير نفسه فى ظل سيطرة مسلمات محددة سلفاً ؟ وما جدوى العمل الإبداعى فى ظل أنماط جاهزة من الفكر والتفكير السياسى والتنفيذى؟، وفى ظل محددات واضحة المعالم لسلطة الحكم والنفوذ؟ بل إن الأكثر من هذا مدعاة للفهم والإدراك هو أنه فى ظل غياب الحرية السياسية فإن توجه الإنسان إلى استخدام عقله وملكاته يتحول تلقائيا من مجالات الفكر والعلم والإبداع إلى مجالات أخرى أكثر نفعاً له وأقل خطورة عليه ، وهكذا تفقد الحياة العقلية والفكرية جذوة الإبداع والتجدد ، ومع مضى الزمن فإنها تفقد أيضا مسلماتها وأولياتها وبدهياتها ، وتصبح فى سرعة بالغة ، نوعاً من المسخ المقلد لأى طراز متاح فحسب.

لا يعجبن المرء إذاً إذا ما وجد عصور الدكتاتورية، وقد أعقبها جدب فى التفكير، وانحطاط فى الذوق ، وعقم فى الفهم ، ولا ينخدعن أحد بما يردده بعض المخدوعين بالظواهر أو المضللين بالأيدولوجيات من إشارة إلى بعض ما يعترى عصور الدكتاتورية من رقى فى الأدب والفكر والفن ، ذلك أن الأمر فى الحياة العقلية ليس أمر نتائج آنية التحقق ، وإنما هو غرس يؤتى أكله بعد

حين، ولا يثمر من فوره، وهكذا تختلط الأمور حين يرى الناس ثمار الثلاثينيات فى الستينيات وثمار الأربعينيات فى السبعينيات وثمار الخمسينيات فى الثمانينيات وثمار الستينيات فى التسعينيات فيظنون الستينيات مثمرة، وما هى إلا ثمار ما غرس فى الثلاثينيات، ويظنون السبعينيات مثمرة ، وما هى إلا ثمار ما غرس فى الأربعينيات، ويظنون التسعينيات مجدبة وما هى إلا آثار القمع الذى حدث فى الستينيات.. وهكذا. وعلى الرغم من وضوح هذه الفكرة فإن بعض المتأملين يظنون الجو نفسه كفيلا بخلق حالة من الرواج الفكرى أو الانتعاش الحضارى، وهو نوع من التفكير لا يخلو من بعض الوهم إذ كيف يمكن للجو أن يخلق موهبة ، إنما أقصى ما يمكن له أن يتيح للموهبة الظروف المثلى للنمو... وكيف يمكن للمناخ أن يخلق حالة من التوهج العقلى من دون أن يكون هناك عقل أصلا؟ إنما يمكن للمناخ أن يشجع عوامل النمو، وأن يقاوم مع العقل عوامل الاعتلال والتدهور والتحلل.

ولا يقف أثر الحرية السياسية عند ما تبتغيه الحياة العقلية من مناخ كاف لتحسنها، ونضجها وإتيانها ثمارها، ولكنه يتعدى هذا كله إلى آفاق أخرى تتعلق بممارسة التفكير والتعليم من قبله، فلا يمكن لتفكير أن يصل إلى غايته فى إعمال العقل إذا ما أحس بخطورة الاقتراب من مناطق شائكة، ولا يمكن لتعليم أن يصل إلى الإتقان إذا كان سقف الحياة السياسية نفسه لا يمارس

الإتقان على النحو المتوقع من ممارسته، ولهذا فإن مخاطر الولوج بالفكر وبالعقل إلى مناطق الحياة المختلفة تتزايد حتى يصبح كل شىء قابلاً للتأويل فى الاتجاه الذى يجعله محظوراً، وبقدر ما يتسع له التأويل من قدرة على الامتداد إلى آفاق لا نهائية من مكونات الحياة ومكنونات النفس الإنسانية بقدر ما يضيق المجال أمام الفكر الحر وأمام العقل الحر، وهى نتيجة مذهلة، وقد تكون مدهشة لكل الذين لم يقرأوا التاريخ حق قراءته.

ومع أن النص الأول والأعظم والأخلد فى الدين الإسلامى الحنيف وهو القرآن الكريم قد لفت النظر إلى حقيقة وجوهر عملية إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا أن المجتمعات المغلقة كانت كفيلة بتأويل الظلمة والنور تأويلا يتيح لها أن تفرض بعض الحق على أنه كل الحق ، وأن تصور بعض الباطل على أنه كل الباطل، وأن تقدم بعض الصواب على أنه الصواب الوحيد... وهكذا... وفى مقابل هذا كانت الحياة العقلية فى المجتمعات الإسلامية تتطور فى اتجاهات مختلفة تبعا لأقدار الحرية السياسية التى أتيحت لها على مدى القرون الطويلة التى عاشها الإسلام.. ومن العجيب أن الأنوار التى تضىء الحياة العقلية فى عصرنا الحاضر لا تزال أقل إضاءة من تلك التى شملت عصوراً إسلامية زاهرة بالحياة الفكرية ، وهذه حقيقة لا يمكن التغاضى عنها بأى وجه من الوجوه ، وربما أنها ليست موضوع المذكرات التى بين أيدينا على نحو مباشر، على أن الأهم من هذا هو ما تلفت نظرنا إليه المذكرات التى نتدارسها فى الباب الأول من هذا الكتاب وهى مذكرات الدكتور شوقى ضيف من أن بيئته المحلية كانت تفهم قضايا الحياة

الدنيا بأفضل مما تفهمه المجتمعات الحديثة بعد ما أصابتها دعاوى المغالين فى أمور العقيدة ، وأن عناصر السلام الاجتماعى كانت متوافرة فى هذه المجتمعات بأفضل مما هى عليه بعد كل التجارب المريرة التى خضناها من أجل تحقيق مثل هذا السلام أو العدالة الاجتماعية.

ويرتبط بكل ما تقدم مقدار ما تعيه الإنسانية وما تمارسه وما تؤمله من قدرة على الحلم ، وهى قدرة مرتبطة بالحياة العقلية ومترتبة عليها، وبقدر ما تتنامى هذه القدرة فى نفسيات أفراد المجتمع المتفوقين بقدر ما يمكن للمجتمع أن يحقق من وثبات فى تصوره وصياغته لحاضره ومستقبله مهما أصاب هذه الأحلام من إجهاض أو إحباط ، وقبل هذا فإن القدرة على الحلم كفيلة بأن تنمى من قدرات الحياة العقلية، ومن أنشطتها، ومن منتوجاتها، والأهم من هذا كله أنها قادرة على أن تحد من ركودها، وأن تحيل هذا الركود إلى حركة دائبة أو فائرة من أجل محاولة تحقيق الحلم، ومن حقائق الأمور أن الحياة السياسية التى تضحى بالحرية تضحى معها بكل الآمال والأحلام، وبكل القدرة على الحلم مهما يكن أمره ، ومن ثم فإنها تئد كثيراً من بنات فورة العقل، وثورة الفكر، وتحد من قدرته على الحركة فى اتجاهات متعددة ، وتصبح الحياة العقلية نوعا من التقليد الوئيد الممسوخ أو المشوه الذى يفتقد الروح كما يفتقد الإتقان على حد سواء.

وليست التربية والتعليم القوميان أو الوطنيان إلا محصلة لكل هذه القوى التى تؤثر فى الحياة العقلية على نحو أو آخر، ولا يمكن لتربية أن تنفصل عن واقع مجتمعى محيط بها، بل إن تجارب العالم أثبتت أن البيئة المحيطة بالمؤسسة التعليمية تفرض بصماتها على هذه المؤسسة مهما كانت المؤسسة ذات طبيعة خاصة، أو حتى ذات ارتباط بما هو خارج الوطن ويكفى على سبيل المثال أن نشير إلى أن التربية لا تقبل حتى الآن أن تكون مجالاً لعمل المؤسسات عابرة القارات أو متعدية الجنسيات إلا فى حدود النظم الإدارية الحاكمة للعملية التربوية فحسب، ولكن العملية التربوية نفسها تكتسب من البيئة التى هى فيها أجواء متعددة تضع بصماتها عليها بحيث يظهر الفارق واضحاً بين الجامعة الأمريكية فى بيروت، والجامعة الأمريكية فى القاهرة على سبيل المثال، بل إن فلسفة الجامعة الأمريكية فى القاهرة فى الستينيات من القرن الماضى لم تعد هى فلسفتها فى أوائل هذا القرن الحادى والعشرين، وليست الفلسفة التربوية وحدها هى التى تغيرت ولكن نظم القبول وإطاراته ومعاييره ومؤهلاته، فضلاً عن نظم الامتحانات والتسجيل والتأهيل والارتباط بالمجتمع ، وقد تغير هذا كله مع تغير المجتمع بصورة واضحة من حيث التأثير والتأثر مع أن أمريكا نفسها ربما لم تشهد معدلات تغيير وتبديل وتغير فى التوجهات والاتجاهات بالقدر ذاته.

وخلاصة القول هى أن الآفاق التى تحكم التوجهات الوطنية السياسية لا تتوقف عند حدود الحياة العامة وإنما هى تمتد بأثرها إلى الحياة التعليمية امتداداً لا نهاية له ، وربما كان هذا من أهم ما تبرزه المذكرات التى نتدارسها فى كتابنا هذا.

ولسنا نستطيع أن ننكر أن التربية فى مصر الحديثة ثم المعاصرة قد شهدت تحولا كبيرا، وقد صادفت هذا التحول عوامل متنافرة كان أهمها رغبة شعب عريق فى أن يرتقى إلى ما ينبغى له أن يرتقى إليه فى مصاف الإنسانية، ومدارج الحضارة ، ومن ناحية أخرى فقد كان من أهمها فى مرحلة تالية أيضا طغيان ادعاء الاهتمام بالكم على جوهر الاهتمام بالكيف ، ومن ثم فقد أصبحت إنجازات هذا الشعب التربوية تعمد الآن ، إلى الأرقام فى محاولة للإيحاء بامتداد مظلة التعليم كتعويض عن فقدان الشعب لجودة التعليم أو للتعليم نفسه على نحو ما ينبغى أن يسمى ، ومعاناته من تفريغه من مضمونه، وهو الأمر الذى كان من الممكن أن يحدث حتى من دون التوسع فى التعليم أو فرض المجانية أو تقريرها، وهى حقيقة مهمة ينبغى أن يدركها كل الذين يتناولون هذا الموضوع بالدرس أو النقاش أو التأمل، ذلك أن انخفاض المستوى وضعف الكيف كان من الممكن أن يتحقق بدون زيادة الكم . ويكفى فى سبيل تحقيق ذلك وجود واحد أو أكثر من عوامل كثيرة من قبيل فقدان روح التجويد ، أو سيطرة روح الفوضى، أو تغليب أهداف قصيرة النظر، أو الظن بأن التجويد أمر ممكن التحقق بدون العمل من أجله . وللأسف الشديد فقد تضافرت هذه العوامل فى مصر المعاصرة لتنخفض بمستوى التربية والتعليم. وكانت هذه العوامل (مجتمعة أو بدون اجتماع) كفيلة بانخفاض هذا المستوى حتى من دون التوسع الكمى فى نشر التربية والتعليم.

على أن هناك عاملا آخر قد قاد إلى كوارث حقيقية أصابت التربية والتعليم ، وهو ضعف الموارد أو تبديدها، ولم يقف هذا الضعف عند الموارد البشرية فحسب، ولكنه تعداها إلى الموارد المادية ذاتها، فقد انصرفت مصر بسبب حروبها أو بسبب المغامرات العسكرية المتعددة والمتوالية عن بناء المدارس، وعن صيانة المدارس القائمة، بل انصرفت عن تأجير المبانى الجديدة للعملية التعليمية، وفى خطوط موازية لهذا فإنها [الدولة والحكومات المتعاقبة والمجتمع المدنى ، ومؤسساته انصرفت عن الارتقاء بالعوامل التربوية المساعدة من قبيل المكتبات العامة، وأكشاك الموسيقى، والنوادى الرياضية، والساحات العامة، والاتصال بالعالم الخارجى. وكانت نتيجة هذا كله أن ضعفت إمكانات وموارد التربية والتعليم إلى حدود دنيا جعلت الإمكانات التقليدية المتوافرة فى الكتاتيب القديمة أكثر تفوقا، ولم لا؟ وقد كان الكتّاب يحتوى أبناءه من الصباح إلى المساء، على حين أصبحت المدرسة الواحدة مطالبة باحتواء التلاميذ على ثلاث فترات متوالية ، ولم لا ؟ وقد كان الكتّاب يقف عند حد معين فى تكديس الطلاب بين جدرانه، بينما أصبحت المدرسة لا تقف عند هذا الحد، ولم لا ؟ وقد كان الكتّاب يقوم أساسا على وجود الأستاذ فأصبحت المدارس تفتقد المعلمين جزئيا أو كليا، ولم لا ؟ وقد كانت للكتّاب سياسة واضحة فى التقييم والاعتماد مهما تكن بدائيتها، على حين أصبحت المدارس تأخذ بسياسة فوقية أو سلطوية

تتفوق وتتغلب على كل سياسات التقييم التربوى، وهى للأسف الشديد سياسة تفريغ الأماكن لاستقبال القادمين الجدد.

وفضلا عن هذا كله فإن التعليم فى مصر المعاصرة أصبح يتغاضى عن عنصر التربية بكل ما أمكن وما لم يمكن من طرق التغاضى، فلا هو يخصص لأى نوع من أنواع التربية المحال (أو المواضع) الكفيلة بممارسة التدريب على هذه التربية ، ولا هو يؤمن من الوسائل ما يكفل أن يحصل الطلاب على القدر الأدنى من تربية كفيلة بصقل شخصياتهم ، سواء كانت هذه التربية دينية أو ثقافية أو فنية أو رياضية أو اجتماعية، وهكذا انتقلت المسئولية التربوية إلى البيت، سواء بالسلب أو الإيجاب، ثم تطورت الأمور إلى أغرب الصور تصوراً وهى تعويل المدرسة على الأسرة فى الأمور التى كانت الأسرة نفسها تعول فيها على المدرسة.

والحاصل بعد هذا كله أن العقل المصرى الذى عُرف ولا يزال معروفا باتقانه عانى على المستوى التربوى والتعليمى من ظروف متعاقبة كانت كفيلة بأن تقلل من الأثر الذى يلعبه العقل فى الحياة الجماعية أو فى الحياة العامة ، وهكذا أصيب ما يسمى بالعقل الجمعى بقدر من التقليص أو التهميش ، فأصبح أميل إلى الديماجومية والاتباع وأبعد عن التفكير والإبداع ، كما أن دوره أصبح لا يتعدى أن يكون من المتطلبات الثانوية عند التطوير أو صياغة التقدم بعد أن كان بمثابة الشعلة الرئيسية فى كل نشاط حضارى ومدنى، وهكذا نشأت الأجيال الجديدة وهى تعجب من أن الأسلاف أهملوا العقل والفكر والمنطق فى كثير من إنجازاتهم حتى باتت بعض الإنجازات على ضخامتها مفتقدة إلى قيمة العقل ونكهته ومذاقه وروحه ، وباتت إنجازات أخرى سابقة عليها تنطق بمدى ما كان يمكن للعقل أن يضفيه على الإنجاز سواء فى هذا لمسة الفن أو لمحة الذوق أو إتقان الأداء أو تناغم الروح ومن عجب أن أعمال مختار وجيله من النحاتين والفنانين التشكيليين والتعبيريين تنطق بهذا المعنى ، ومن عجب أن أداء أم كلثوم وعبدالوهاب وألحان السنباطى وسيد درويش وزكريا تنطق أيضاً بهذا المعنى ومن عجب أن عمارة العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات تؤكد على هذا المعنى وكذلك تفعل الأحياء ذات الطابع الحضارى.. وكل أولئك يجيب بلسان الحال على كل من يتعجب من أننا لم نواصل السير على نفس المنهج ، كل أولئك يجيب بصوت عال ويقول: لقد افتقدتم هذا الإنجاز وذلك الرقى بسبب تهميش العقل!

والشاهد أن مدارسة المذكرات التى نتناولها فى هذا الكتاب لا تقف عند حد التأمل فيما حدث ، ولا عند تقييمه ، لكنها تدلنا من ناحية أخرى على العوامل الكفيلة بالنهوض بسرعة من هذه الكبوة التى طال ركودنا فيها أو ركوننا إليها ، وقد أصبحنا نتصور أنه ليس من الممكن أن تصاغ الأمور على نحو آخر أكثر وعدا للمستقبل وتبشيرا للمجتمع وصياغة للأبناء، ويبدو لنا أن الارتقاء بالبيئات المحلية والتعليمية يمثل صمام أمن لابد منه قبل أن نتصور أن بالإمكان الارتقاء

بالعملية التربوية نفسها، كما تدلنا المذكرات التى نتدارسها على مدى ما يمكن للمعلم الناجح أن يقدمه على مستويات متعددة، سواء فى ذلك معلمو المراحل الأولى وأساتذة الجامعة ، وأساتذة الدراسات العليا ، والمعلمون غير التقليديين الذى يضطلعون بدور فاعل من خلال وسائل التعليم الموازى المتعددة.

كما تدلنا مدارسة المذكرات التى بين أيدينا على أن أساليبنا التعليمية ومناهجنا التربوية لابد أن تعود لتتوافق مع البيئة والتاريخ اللذين عاشهما هذا المجتمع فى أجياله السابقة، وتدلنا المذكرات أيضا على أنه من العبث الشديد أن نتنازل عن العودة إلى تطبيق متواصل لأساليب تربوية ناجحة من أجل الاستمرار فى الأخذ بأساليب تربوية تجريبية لم تثمر ما كان متوقعا منها من نجاح ، ولم تحقق ـ حتى الآن ـ أى قدر مما بُشر به فى سبيلها.

وتدلنا مدارسة المذكرات التى يتضمنها هذا الكتاب على مدى الوعى الفكرى الذى تمكن منه أسلافنا وتمكنوا منه ، وكيف كان اختيارهم لمسار حياتهم التعليمية معبرا عن طموحات، ورغبات، وقدرات ، ووجد ، وحب ، أو مفاضلة أو كره ، أو نفور، أو تحفظ، وكيف كان تفوقهم المدروس حصيلة لجهد دائب وعمل مستمر من أجل تحقيق مستويات منشودة على محاور متعددة.

وبالإضافة إلى هذا كله تدلنا مدارسة المذكرات التى بين أيدينا على الكثير من ملامح التاريخ التربوى لعدد من مؤسساتنا التعليمية المهمة من مدارس ثانوية متميزة ، ومعاهد دينية عريقة .. وكليات الآداب والمعلمين ، وتجهيزية دار العلوم، والقضاء الشرعى، ومعهد التربية العالى وتجربة محدودة فى مدرسة المنايل ، والجامعات الحديثة ، والمدارس العليا التى سبقت تكوين الجامعة ونشأتها.

وفضلا عن هذا كله تدلنا المذكرات على الأدوار الرائعة التى قدر لشخصياتنا الوطنية أن تقوم بها من أجل دعم التربية والتعليم مسجلة بهذا أفضالا عديدة لمحمد عبده ، وسعد زغلول ، وأحمد لطفى السيد ، وعبدالرزاق السنهورى، وطه حسين، والعقاد، ومصطفى عبدالرازق، ومحمد حسين هيكل، وإسماعيل القبانى، وأحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام ، وأمين الخولى، وأحمد الاسكندرى، ومحمد حسن العشماوى، وأحمد نجيب هاشم ... ومَنْ إليهم.

ومن العجيب أن المذكرات التى بين أيدينا تلفت نظرنا إلى استنكار أصحابها لسلوك مصر المعاصرة فى اختيار المسئولين عن التربية والتعليم . ومن الملاحظ أن هذا السلوك قد عكس بصورة صادقة حظ التربية عند رجال الثورة وحكوماتها فقد بدأت الثورة باستوزار إسماعيل القبانى وزيرا للمعارف فى سبتمبر ١٩٥٢، وكان اختياره لهذا المنصب اختيارا موفقا، فقد كان الرجل بمثابة أكبر عالم تربوى فى ذلك الوقت ، وكانت جهوده معروفة وبارزة فى معهد التربية العالى، والمدارس النموذجية ، ومقاييس الذكاء ... وغير هذا، وقبل هذا كان نجاحه قد تأكد

مدرسا ، وناظرا شهيرا ، وباحثا متميزا، وكان عضوا فى رابطة دولية للتربية الحديثة ، ومبشرا بأساليبها، كما أنه كان هو نفسه ذلك الطفل الذكى الذى كان يتعلم فى أحد الكتاتيب فى أسيوط حين اكتشف وزير المعارف سعد باشا زغلول ذكاءه فألحقه بالمدرسة الابتدائية ومنحه المجانية ، فلما اعترض المندوب السامى العتيد اللورد كرومر بمخالفة ذلك للوائح المالية والتنظيمية ، رد عليه سعد باشا: إنى أعترف بالمخالفة ولكن كم من مرة خولفت فيها اللوائح فى غير مصلحة التربية ، فمن باب أولى نخالفها هذه المرة من أجل مصلحة التربية.. ولما زار سعد زغلول المدرسة الابتدائية فى العام التالى وجد التلميذ إسماعيل على العهد به متفوقا، هكذا كان اختيار الثورة لهذا القطب التربوى الكبير عملا مبشرا فى حد ذاته ، وها هى الثورة تلقى الثناء على هذا الاختيار على نحو ما لقيت من ثناء كثير فى بداية عهدها، على أن هذا الوضع لم يطل لسوء الحظ، فقد أصبح وزير المعارف يعانى من «سلطات وتدخلات مندوب القيادة» فى الوزارة ، وإذا به يشكو من هذا التصرف فى اجتماع رئاسى، ويعبر عن شكواه بقوله: إنه ليس معقولا أن «حتة ضابط» يتحكم فى الوزير، وإذا بجمال سالم بما عرف عنه من اندفاع وعنف يجيب الوزير بقوله: «إن حتة الضابط هذا هو الذى عمله وزير» !! وكان لابد للأستاذ القبانى أن يستقيل، وقد استقال ، وقبلت استقالته فورا، وقد لخص الشيخ الباقورى فى مذكراته هذه القصة بعبارات لغته الرفيعة فقال: «وقد رأى الرجل من حق نفسه عليه أن يستقيل، فقدم استقالته وقبلت فورا».

وما بين يناير ١٩٥٤ وأغسطس ١٩٥٤ تعاقب على وزارة المعارف عالمان فاضلان من علماء الجغرافيا هما الأستاذ عباس عمار، والدكتور محمد عوض محمد ، كان أولهما وزيرا للشئون الاجتماعية منذ اختير القبانى وزيرا للمعارف فى سبتمبر ١٩٥٢، فلما استقال القبانى فجأة حل عباس عمار محله فى وزارة المعارف ودخل كمال الدين حسين الوزارة ليحل محل عباس عمار وزيرا للشئون الاجتماعية ، وفى أعقاب أزمة مارس ١٩٥٤ كان عباس عمار واحدا من الوزراء الذين رأوا أن يستقيلوا بعد كل هذا الذى حدث ، وعندئذ اختارت الثورة مدير جامعة الإسكندرية فى ذلك الوقت الدكتور محمد عوض محمد وزيرا للمعارف فى أبريل ١٩٥٤، ولكنه لم يلبث إلا إلى نهاية أغسطس ١٩٥٤ حيث آثر الاستقالة هو الآخر، وعندئذ حل محله كمال الدين حسين وزير الشئون الاجتماعية!! فكأنما حل كمال الدين حسين محل القبانى بعد مدتين قصيرتين لعباس عمار ومحمد عوض محمد، وكأنما كان من حق المتشيعين أو المتمين للضباط الشبان أن يقولوا: أفما كان الأجدر بالثورة أن تجعل كمال الدين حسين يخلف القبانى مباشرة فى المعارف منذ يناير ١٩٥٤ بدلا من أن يبقى فى الشئون الاجتماعية طيلة هذه الشهور الثمانية التى تعاقب فيها أستاذان جامعيان فاضلان على وزارة المعارف مع ما كان لهما من مناصب متقدمة ، سواء كوزير للشئون الاجتماعية أو كمدير لجامعة الإسكندرية؟ على كلٍّ فقد حدث ما كان لابد من حدوثه مما يسميه البعض استيلاء أو استحواذ العسكريين على وزارة

المعارف بعد عامين من قيام الثورة!! ومنذ ذلك اليوم الأخير من شهر أغسطس (٣١ أغسطس ١٩٥٤) خرجت وزارة المعارف من أيدى رجالها لتقع فى قبضة ضابط وطنى مخلص وأمين وثورى ونزيه ومتحمس ومفعم بالأمل لكنه بكل المقاييس ـ رغم كل حبنا له ـ لم يكن يملك من النضج ما تتطلبه وزارة مسئولة عن عقول الأمة ، وظل «الأستاذ »كمال الدين حسين يتولى هذه الوزارة حتى حدثت الوحدة فاحتفظ بها كوزير مركزى واختار واحدا من أفضل رجالها وهو الأستاذ أحمد نجيب هاشم ليكون وزيرا تنفيذيا لها (ما بين أكتوبر ١٩٥٨ وأغسطس ١٩٦١)، ومنذ أكتوبر ١٩٦١ وحتى يونيو ١٩٦٧ وقعت هذه الوزارة فى يد واحد من موظفيها القدامى كان هو نفسه ـ من باب المفارقة ـ من دفعة إسماعيل القبانى لكنه عاش حياته موظفا تقليديا جدا فى الوزارة ، لكنه كان عديلا للرئيس جمال عبد الناصر.

ومن الطريف أن كلا من كمال الدين حسين والسيد يوسف حرصا على الاستحواذ على منصب نقيب المعلمين (بالانتخاب غير المباشر بالطبع) بالإضافة إلى توليهما الوزارة!!

ولم تعد وزارة التربية والتعليم إلى رجالها (أو رجال الجامعات التى اقتطعت منها لتكون تابعة لوزارة جديدة هى وزارة التعليم العالى) إلا بعد نكسة ١٩٦٧، وقد آثر الرئيس عبد الناصر أن يتولاها زميله فى التدريس فى الكلية الحربية أو أستاذ زملائه فى هذه الكلية وهو الدكتور عبد العزيز السيد ، وهكذا يمكن القول بأن عودة المعارف إلى رجالها لم تكن خالصة ، فالشق الذى رفع من قيمة عبد العزيز السيد على زملائه أو أقرانه التربويين أو الجامعيين كان علاقته بالعسكرية مدرسة وخريجين وطلابا، ولكن عبد العزيز السيد لم يلبث إلا إلى مارس ١٩٦٨ حيث اختير الدكتور محمد حلمى مراد مدير جامعة عين شمس لتولى هذه الوزارة، وكان هذا الاختيار انتصارا لإرادة الطلاب فى مظاهراتهم الشهيرة التى هزت «نظام » الرئيس عبد الناصر بعدما تظاهر النظام بأنه قد بقى بنفس قوته قبل الهزيمة، ولكن الدكتور محمد حلمى مراد لم يلبث هو الآخر إلا إلى يوليو ١٩٦٩ وأقيل إقالته المدوية ، فأسندت الوزارة إلى زميله الذى كان عين وزيرا للسياحة (حين عين هو وزيراً للتربية والتعليم) وهو الدكتور محمد حافظ غانم ليكون الثالث فى سلسلة من أساتذة الجامعة الذين تولوا الوزارة منذ ما بعد النكسة باتصال مستمر لم يتخلله إلا تولى اثنين من كبار رجال التعليم من غير أساتذة الجامعة هما الأستاذ على عبد الرازق وكيل وزارة التعليم العالى، ومنصور حسين وكيل أول الوزارة ونائب وزير التربية والتعليم ، أما أساتذة الجامعة الوزراء فكانوا على التعاقب: واحدا من أساتذة التربية ومديرا للجامعة الثانية (عبد العزيزالسيد)، ثم من أساتذة القانون اثنان (محمد حلمى مراد، ومحمد حافظ غانم، وكان أولهما مديرا للجامعة الثالثة)، ثم واحدا من أساتذة العلوم (مصطفى كمال حلمى)، ثم عميد كلية الهندسة ومدير الجامعة الأولى (حسن إسماعيل)، ثم عميد كلية التربية (عبد السلام عبدالغفار)،

ثم أستاذ قانون ونائب رئيس الجامعة الأولى (أحمد فتحى سرور)، ثم أستاذ طب الأطفال فى الجامعة الأولى (حسين كامل بهاء الدين).

من ناحية أخرى فإنه وبعد أن كانت وزارة المعارف مسيطرة على جوانب الحياة الفكرية فى البلاد، إذا بالاختصاصات تقتطع منها تباعا، وقد بدأ هذا عند تكوين وزارة الإرشاد القومى فى نهاية ١٩٥٢، ثم عند تحول هذه الوزارة إلى وزارة للثقافة والإرشاد القومى ١٩٥٨، ثم بنشأة وزارة الإعلام فيما بعد هذا وانفصالها عن الثقافة ، ثم حدث أن أنشئت وزارتان للتعليم العالى والبحث العلمى، كانت كل مكونات الأولى مما هو تابع للوزارة الأم ، وكانت معظم قطاعات الثانية من مسئوليات الوزارة الأم ، وكذلك نشأت وزارة للشباب فاقتطعت بعض مجالات واختصاصات الوزارة الأم.

هكذا توزعت بعض قطاعات المعارف لتكوين الأجزاء الكبرى أو بعض الأجزاء فى خمس وزارات حالية: الثقافة، والإعلام، والتعليم العالى، والبحث العلمى، والشباب.

ولهذا فلم يكن عجبا أن يفكر الدكتور مصطفى خليل عند تشكيل وزارته الأولى (فى ١٩٧٨) أن يضم ثلاثاً من هذه الوزارات إلى وزير التربية و التعليم ليصبح متوليا معها التعليم العالى والثقافة والبحث العلمى، وليصبح لقبه المختصر وزير التعليم والثقافة والبحث العلمى، ولم يكن عجبا قبل هذا أن يضم الدكتور مصطفى كمال حلمى وزير التربية والتعليم كلتا الوزارتين التعليم العالى والبحث العلمى على مرحلتين إلى التربية والتعليم التى بدأ بتوليها، وكل هذه الخطوات تعطينا فكرة عن التوجه العام لحكم الثورة فيما يتعلق بالتربية وارتباطها بمجالات أخرى. وإن كانت الوزارة فى الوقت نفسه لم تتجه فى أى وقت إلى ربطها بالأشغال، أو التعمير، أو التنمية المحلية ، أو بالصناعة ، أو الزراعة ، أو غير هذا من قطاعات الدولة التى لها علاقات مباشرة بالتربية فى مدخلاتها ومخرجاتها.



هل آن الأوان الآن لننتقل إلى الحديث عن كتابنا هذا الذى يضم مدارسة مكثفة لمجموعة منتقاة من مذكرات الأساتذة المربين والتربويين على اختلاف طوائفهم وتخصصاتهم، وهى مذكرات حافلة بكثير من التفصيلات المهمة لتاريخنا الاجتماعى والعلمى والتربوى ولتاريخنا السياسى كذلك ، كما أنها حافلة بالحديث عن التجارب الذاتية والخبرات الشخصية التى مرّ بها هؤلاء فى مراحل تلقيهم العلم ، ثم فى مراحل عطائهم للعلم ولطلاب التعليم العام ، أو الجامعى، أو ما بعد الجامعى ، أو فى مراحل إدارتهم للعملية التعليمية فى الجامعات والمدارس ، وعلى مستوى التخطيط والامتحانات ... وما إلى هذا كله.

ومن حسن حظ المكتبة العربية أن وجدت فيها هذه المجموعة من المذكرات ، فمذكرات

الدكتور شوقى ضيف على سبيل المثال تعطى صورة دقيقة عن كل التفصيلات الممكنة فيما يتعلق بتكوين أستاذ أكاديمى متميز فى الدراسات العربية ، حتى إننا ، مع كل قراءة لها ، نظن أن الأمل والتخطيط من أجل تكوين مثل هذا الأستاذ لن يكون إلا على هذا النحو، ونحن نرى فيها رجلا أوتى القدرة على استشراف الماضى كله من أجل مستقبل أمته وأحفاده ، وقد أصبح بمثابة عميد الدراسات الأدبية العربية منذ فترة طويلة ، فضلا عن تقلده رئاسة مجمع اللغة العربية، وعن تربعه على قمة المؤلفين الذين قدموا دراسات تاريخ الأدب العربى فى جميع عصوره.

فى صورة أخرى نرى مذكرات الدكتور عبد الرحمن بدوى عميد أساتذة الفلسفة العرب، وهو يتحدث بتفصيل واسع عن مراحل تكوينه الفلسفى والفكرى ، وعن الروافد المتعددة لثقافته من فن ولغات وتاريخ ورحلات ، وكيف استطاع أن يطوع كل هذه الروافد ويصهرها مع مكونات نفسه من أجل إبداع علم فلسفى واسع النطاق يغطى مراحل واسعة بل شاسعة من تاريخ الفلسفة العالمية، وهو مع هذا حريص أيضا على أن يظل كاتبا ومبدعا وناقدا وصاحب رأى فى التاريخ والحياة الفكرية والسياسية.

ونتدارس فى الباب الثالث مذكرات المفكر المصرى الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان، الصحفى ، والمؤرخ ، ورائد الدراسات الأندلسية بكل ما تحتويه مذكراته من آراء فى الحضارة والثقافة العربية والأوروبية والتاريخ المعاصر، وبكل ما تتحدث عنه من إنجازات صاحبها فى مجالات عديدة ، وما توردة آراؤه فى موضوعات متفرقة ، وهو يبين فى كل هذا عن تكوين علمى نادر لم يعد من الممكن أن تحظى به بلادنا فى ظل نظمها الحالية ، كما يبين عن عقائد سياسية وفكرية غاية فى الرقى والصواب.

ونقرأ ونتدارس فى الباب الرابع من هذا الكتاب أيضا مذكرات الدكتور محمد على العريان ، وهو واحد من أبرز الأساتذة الذين تخصصوا فى علوم التربية، وحاولوا بذل جهدهم فى تأصيل هذه العلوم على أرض وطنهم، فنالهم بعض الأذى كما نالوا بعض النجاح، فهاجروا إلى أوطان أخرى بينما ظلت أفئدتهم تهفو إلى أرض الوطن وإلى الشعب العظيم الذى يعيش على هذه الأرض.

ونتدارس بعد هذا فى الباب الخامس مذكرات واحد من قدامى التربويين هو الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى، الذى قدر له أن يكون أول عميد لمعهد التربية، وأن يكون وكيلا لوزارة المعارف، كما قدر له قبل هذا أن يكون سكرتيرا عاما لجامعة القاهرة ، وأن يعمل كناظر متميز لثلاث من المدارس الثانوية فى العهد الذى كانت لنظارة المدارس الثانوية مكانة رفيعة، وفيما قبل هذا فإنه عمل مدرسا فى كليتى الهندسة والعلوم . وهو يحدثنا عن تكوينه العلمى المتميز بما يتضمنه من تخرجه فى مدرسة المعلمين العليا فى الدفعة الشهيرة دفعة ١٩١٤، ثم حصوله على

درجات جامعية عليا فى العلوم من بريطانيا، ثم تحوله لدراسة الهندسة على أيدى البريطانيين أنفسهم وتأهيلهم له بما فاته من مراحل دراسة الهندسة حتى يصبح أول من يتخصص فى هندسة الطيران مع زميل له فى البعثة ، ونرى تعبيرا واضحا وصريحا ودقيقا عن توجهات هذا الرجل فى التعليم ، والتربية ، والحياة الفكرية على مدى صفحات مذكراته ، وهو الذى شارك بجهد وافر فى النشاط الثقافى الأهلى، والحكومى، وغير الحكومى أيضا.

نتدارس فى هذا الكتاب تجربة محددة لأستاذة من أساتذة كليات التربية المعاصرين، وهى أستاذة علم الاجتماع الدكتورة نادية رضوان ، التى تروى بتفصيل موسع رحلة حيرتها بين كل صور العلاج الروحانى وغيرالتقليدى من أجل علاج حالة صداع مزمن، وهى تقدم هذه الرحلة بالموازاة لرحلتها فى الحياة ، بدءا من طفولة ذكية شقية متمرسة بالحياة ، إلى شباب مبكر، ثم إلى مرحلة النضج الأكاديمى والفكرى.

وليست هذه المذكرات هى كل مذكرات التربويين التى بإمكاننا أن نجد فيها ملامح واضحة لتطور حياتنا العقلية، فقد تناولت على مدى الكتب السابقة من هذه السلسلة من كتبى عدداً من مذكرات التربية والتربويين فى وطننا ، كما تناولت من خلال مذكرات كثيرين ممن تدارست مذكراتهم آراءهم وخبراتهم التربوية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر يكفى أن أشير إلى مذكرات كل من الدكتورة بنت الشاطئ والفنانة إنجى أفلاطون والأستاذة اعتدال ممتاز التى تدارستها فى كتابى «مذكرات المرأة المصرية» ، وإلى مذكرات الدكتور عبدالوهاب البرلسى التى تدارستها فى كتابى «مذكرات وزراء الثورة» وإلى مذكرات الدكتور حامد طاهر والدكتور محمود الربيعى التى تدارستها فى كتابى «مذكرات الهواة والمحترفين».

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تتاح لى الفرصة لنشر مدارساتى لمذكرات كثيرين من الذين اشتغلوا بالتربية أو كتبوا عن خبراتهم فيها من خلال مجموعة كتبى القادمة إن شاء الله، وفى هذا الصدد يمكننى على سبيل التنويه الإشارة إلى مذكرات الدكتور أحمد هيكل، والدكتور على الحديدى ،والشيخ محمد حسن الباقورى، والدكتور سليمان حزين ، والدكتور عبدالحليم منتصر، والدكتور رشدى سعيد ، والدكتور زكى سويدان ، والدكتور مصطفى الرفاعى ، والدكتور مصطفى الديوانى ، وغير هؤلاء جميعاً.

وكل أملى أن يحظى جهدى الذى بذلته فى هذا الكتاب بالتوفيق وبالتقدير وأن يوفقنى الله لإتمام ما بدأته، ولنشر ما تدارست، ولدراسة ما خفى علىّ ، ولإدراك ما لم أعلم ، ولأن أنفع بما علمنى الله ، ولأن أشكره على ما وهبنى ، ولأن أدعوه سبحانه وتعالى أن أكون من الحامدين الشاكرين ، القانعين ، التائبين، وأن يرزقنى حسن الختام.

د. محمد الجوادى

مذكرات المفكرين والتربويين
تكوين العقل العربي

1

معى

مذكرات:

الدكتور شوقى ضيف

دار الخيّال

(١)

ربما جاز لنا أن نبدأ بالاشارة إلى أن والد الدكتور شوقى ضيف كان شيخاً جليلاً تمنى لابنه ما حققه الابن بالفعل وزاد عليه ، وقد آثر الأب الفاضل أن يسمى ابنه باسم أمير الشعراء أحمد شوقى ، وإذا بالسنوات تمضى ويحتل الدكتور شوقى ضيف فى الدراسات العربية الأكاديمية قيمة توازى قيمة شوقى فى الشعر العربى ، كما يشتهر الدكتور شوقى ضيف باسم شوقى (وهو الاسم المختصر لأمير الشعراء) و إن ظل محتفظا أيضا بالاسم الأصلى وهو أحمد شوقى عبد السلام ضيف .

وهذه المذكرات حافلة بكل المزايا التى ينبغى أن تحفل بها المذكرات من الصدق والدقة والوصف والمقارنات والإحاطة والتعمق والتشويق، وهى حافلة أيضا بكل ما ينم عن الأصل الطيب، والخلق الرفيع، والتهذيب، والحياء، واللطف، والإخلاص، والعلم، والوطنية.

وقد رأت دار المعارف أن تنشرها فى سلسلة «اقرأ» كى تتيحها لجمهور القراء على أوسع نطاق، وحسنا فعلت.

تشتمل هذه المذكرات على كل ما يحيط بنشأة الدكتور شوقى ضيف، وتكوينه العلمى والثقافى منذ مولده وحتى حصوله على درجة الدكتوراه، وهى تقدم، بالموازاة لهذا التاريخ، تاريخا قيما ودقيقا ومنضبطا للحركة الوطنية والسياسية فى مصر منذ تمكن صاحب المذكرات من الوعى بأحداث التاريخ وحتى نهاية الفترة التى تناولتها المذكرات (١٩١٧ ـ ١٩٤٠)، على

أن المذكرات تبدو أيضا مهتمة كل الاهتمام وحفية كل الحفاوة بالتفكير فى جدوى وفاعلية الوسائل التعليمية المختلفة فى أداء مهمتها التربوية، فنحن نرى صاحب المذكرات وقد وهب نفسه ومذكراته للتأمل فى كل ما يخص الحياة العقلية والعلمية، وكيفية تكوينها، وهو يتأمل فى كل هذه الجوانب ما عاصره وعايشه من الوسائل المختلفة، وذلك بروح الأستاذ المحنك الخبير الذى قضى نصف قرن من حياته فى التعليم الجامعى، يخرج الأجيال وراء الأجيال، ويتعهد بعضهم فى الدراسات العليا بجهد وافر ليكونوا فى مقام الأساتذة الأجلاء من بعده.

ونحن نعرف أن هذا الرجل العظيم قد بذل جهودا جبارة فى تحقيق وتدقيق وكتابة تاريخ الأدب العربى فى جميع عصوره على نحو تفوق فيه على معاصريه وأسلافه، وصارت مجموعة مؤلفاته بمثابة المرجع المفضل لقراءة تاريخ الآداب العربية عبر العصور.

ولايقف إنجاز الدكتور شوقى ضيف عند الحدود القصوى للأستاذية الكلاسيكية ، ولكنه فى كل دراساته وتآليفه يتميز بالقدرة على صياغة أحكام صائبة ودقيقة وغير مسبوقة ، ويكفى على سبيل المثال أن نشير إلى نظريته المبكرة فى أن الشعر الأموى قد عرف التجديد والتطور وحفل بهما ، وهى النظرية التى أثبتها الدكتور شوقى ضيف فى كتاب كامل واختلف به مع كل من سبقوه ممن رأوا فى أدب العصر الأموى امتداداً لأدب عصر صدر الإسلام فحسب.

وعلى نمط هذا النموذج تمضى بحوث ودراسات وتآليف وتحقيقات الدكتور شوقى ضيف جامعة بين شجاعة فائقة ، وصياغة هادئة ، وفكر أصيل ، ونفس طويل .

وقد وفق الله الدكتور شوقى ضيف إلى تكوين علمى فريد لم يتح لغيره ، وكأنما اختصه الله به ليكون ما قد أصبح بالفعل، فقد بدأ دراسته فى الأزهر، ثم تحول وهو فى المرحلة الثانوية إلى تجهيزية دار العلوم ليتهيأ للالتحاق بها، ثم التحق بكلية الآداب الناشئة فى جامعة القاهرة عندما أتم دراسته فى التجهيزية عام ١٩٣٠، وبعد أن تخرج فى كلية الآداب وقع عليه الاختيار ليعمل فى مجمع اللغة العربية الناشئ ، وسرعان ما أخذت كلية الآداب بمبدأ تعيين المعيدين لأول مرة فكان أن عين معيدا بقسم اللغة العربية (أكتوبر ١٩٣٦) ليكون أول مَنْ عينوا كمعيدين فى هذا القسم الذى تدرج فى مناصبه حتى أصبح أستاذا لكرسى آداب اللغة العربية بعد عشرين عاما (١٩٥٦)، ومنذ ذلك الحين وهو يحتل مكانة سامقة بين العلماء فى تخصصه ، كما يحتل فى الوقت نفسه مكانة سامقة وفريدة بين مؤلفى تاريخ الآداب العربية حيث تتنوع مؤلفاته لتغطى الفترات المتتالية والمتواصلة فى تاريخ الأدب العربى.

وقد خصص الجزء الأول من موسوعته ذات الأجزاء العشرة ، التى أرخ فيها للأدب

العربى، للعصر الجاهلى، وقد طبع هذا الكتاب ٢٢ طبعة، والجزء الثانى للعصر الإسلامى (١٩ طبعة)، والجزء الثالث للعصر العباسى الأول (١٥ طبعة)، والجزء الرابع للعصر العباسى الثانى (١٠ طبعات)، والجزء الخامس لعصر الدول والإمارات فى الجزيرة العربية والعراق وإيران (٣ طبعات)، والجزء السادس لعصر الدول والإمارات فى الشام (٣ طبعات)، والجزء السابع لعصر الدول والإمارات فى مصر (٣ طبعات)، والجزء الثامن لعصر الدول والإمارات فى الأندلس (٤ طبعات)، والجزء التاسع: ليبيا وتونس وصقلية، والجزء العاشر لعصر الدول والإمارات: الجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان.

وبالإضافة إلى هذه الكتب العشرة نشر الدكتور شوقى ضيف مجموعة كتب أخرى فى المجالات الرحبة للدراسات الأدبية الأكاديمية فقد نشر رسالته للدكتوراه فى كتاب بعنوان «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، ثم نشر كتابا آخر بعنوان «الفن ومذاهبه فى النثر العربى»، وتناول بقدر من التركيز والتحليل والدرس المتأنى بعض القضايا المهمة فى عصور الأدب العربى المتوالية فوضع كتابا عن «الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية»، ووضع كتابا آخر عن «التطور والتجديد فى الشعر الأموى»، ووضع كتابا ثالثا عن «الشعر وطوابعه الشعبية على مدى العصور»، ووضع كتابا رابعا عن «البطولة فى الشعر العربى» ،ووضع كتابا خامسا عن «الحب العذرى عند العرب» وسادساً عن «الرثاء» وسابعاً عن « القسم فى القرآن الكريم». وبالاضافة إلى هذه الكتب كتب الدكتور شوقى ضيف عن «الفكاهة فى مصر» ، و«الشعر الفكاهى فى مصر» .

للدكتور شوقى ضيف أربعة كتب مرجعية «فى النقد الأدبى»، و«البلاغة: تطور وتاريخ»، «فصول فى الشعر ونقده»، «البحث الأدبى: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره». وقد تناول الدكتور شوقى ضيف الفنون الأدبية بدرس مستفيض فأصدر كتبه الرائدة فى هذا المجال: «المقامة» و«الترجمة الشخصية» و«الرحلات».

ولم ينفصل الدكتور شوقى ضيف عن الحياة الأدبية فى عصرنا الحديث ، وإنما أفاض عليها اهتمامه الحثيث وبحثه الهادئ المستفيض فأخرج فى هذا المجال ستة كتب مهمة يأتى فى مقدمتها كتاباه المرجعيان «دراسات فى الشعر العربى المعاصر» و«الأدب العربى المعاصر فى مصر»، كما عنى بتاريخ مجمع اللغة العربية فى كتاب «مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما». كذلك فقد اختص الدكتور شوقى ضيف ثلاثة من أعلام الأدب العربى الحديث والمعاصر بدراسات قيمة ظلت وستظل على الدوام نموذجا للدرس الأدبى المتميز، وقد كتب كتابا عن أمير الشعراء أحمد شوقى مطلقا عليه لقب «شاعر العصر الحديث»، وعن محمود سامى البارودى مطلقا عليه لقب «رائد الشعر الحديث»، وعن عباس محمود العقاد وقد اختار لكتابه عنه عنوان : «مع العقاد.. عرض لسيرته وكتابته ونقده وشعره».

أما من أدباء العصور السابقة فقد اختص الدكتور شوقى ضيف الشاعر الأندلسى ابن زيدون بدراسة قيمة صدرت فى كتابه الذى حمل اسم هذا الشاعر.

وفى مجال القرآنيات نشر الدكتور شوقى ضيف تفسيره للقرآن الكريم بعنوان «الوجيز فى تفسير القرآن الكريم»، وكان قد نشر قبل هذا كتابه «سورة الرحمن وسور قصار».

وفى مجال الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية نشر الدكتور شوقى ضيف: «محمد خاتم المرسلين»، «عالمية الإسلام» ، «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة».

وعنى الدكتور شوقى ضيف بالدراسات النحوية عناية فائقة فأصدر أربعة من الكتب الحافلة بالآراء السديدة والفكر المبدع «المدارس النحوية» و«تجديد النحو»، «تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع منهج تجديده»، «تيسيرات لغوية».

وفى مجال الثقافة العامة نشر الدكتور شوقى ضيف: «فى التراث والشعر واللغة»، «من المشرق والمغرب»، «محاضرات مجمعية»، «فى الأدب والنقد».

وكتب الدكتور شوقى ضيف جزءا من سيرة حياته المبكرة فى الكتاب الذى نتناوله فى هذا الباب ، وقد أصدر بعد هذا الجزء الثانى من هذا الكتاب.

وبالإضافة إلى هذه التآليف العظيمة فقد حقق الدكتور شوقى ضيف عددا من الكتب المهمة، فحقق كتاب «السبعة فى القراءات» لابن مجاهد، وكتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبى، و«خريدة العصر» للعماد الأصبهانى، و«المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد، و«الدرر فى اختصار المغازى والسير»، «نقط العروس فى تواريخ الخلفاء» لابن حزم، «رسائل الصاحب بن عباد».

انتخب الدكتور شوقى ضيف عضوا فى مجمع اللغة العربية (١٩٧٦)، كما انتخب رئيسا للمجمع (١٩٩٦) ، وأسهم فى المجمع اللغوى ببحوث رائدة فى تسويغ بعض التعبيرات العصرية وتأصيل بعض الظواهر اللغوية ، واستقبال وتأبين بعض الشخصيات المجمعية.

نال الدكتور شوقى ضيف جائزة الدولة التقديرية فى الأدب عام ثمانين (١٩٨٠)، كما نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى (١٩٨٣).

وقد تمتع هذا الأستاذ الفاضل بدأب لا حدود له من أجل إنجاز عمله على الصورة المثلى التى أنجزه عليها، كما أنعم الله عليه بزوجة صالحة كانت له نعم العون على أداء الرسالة التى وهب نفسه لها.

ويوما بعد يوم وعاما بعد عام أصبح اسمه وجهده مضرب الأمثال فى التجويد والتدقيق والتطوير والتكامل، ومع هذا كله فقد ظل على نحو ما بدأ مساره نحو القمة حييا متواضعا، حفيا بالعلم وبالعمل من دون أن يرفع صوتا أو يطلب حقا هو له بكل تقدير.

(٢)

وفى المذكرات صـورة شابة من هذا «الهرم الإنسـانى الضخم» الذى رزق الرضـا النفسى والهناءة القلبية منذ طفولته، ونحن نقرأ المذكرات فلا نتـصور صاحبها خلق لشىء غير العلم، ولا نتصـوره فى مستـقبل الأيام وحاضـرها قادرا على أن يتنازل عن بعض مـا أوتى من رضا وسمو وتواضع وعطاء متصل.

والذين يعـرفون الدكـتـور شوقى ضـيف يسـتلهمـون روحه وعـطاءه وفضله فى كل مـا يتناولون من جهـد علمى أو درس أدبى، وهم يرونه على قمـة المعطائين الذين يتفـجر العطاء من بين أيديهم فى تواصل وتعـاقب واستـمرار، وتمضى الأيام فكأنهم مـعين لا ينضـب لهذا العطاء المتصل المتـواصل، ويرزقهم الله القدرة عـلى استشراف الخلود فـيما يتـركونه من آثار علمية ناصعة ناطقة بفضلهم وعلمهم.

وتحفل هذه المذكـرات ـ كما ذكـرنا فى المقدمة ـ بـضروب من التعـبير الأدبى الجـميل عن نوازع النفس وطبـائعـها ، وفى كل فـقرة من فـقـرات المذكرات نجـد مـا يدلنا على تمكن هذا الأستـاذ الكبير من كل أدوات البـيان والتعـبير ، ومن قدرتـه اللامتناهية على اقـتطاف المعانى المبتكرة وتنمية الإحساس بها ، وتكاد المذكرات التى بين أيدينا تصور لوحة ضخمة كبيرة لهذه الشخصـية وعطائها، لكنها مع هذا دقيـقة التفاصيل، حافلـة بفسيفساء الجـهد والعرق والفكر والتأمل، وقد التحمت كل ذرة من ذرات الفسيفـساء بالذرات المحيطة بها على نحو غير قابل للانفصال أو التباعد، وهكذا نرى فى المذكرات لوحة متـكاملة، دقيقة التركيب نحس بجمالها من بعيد، لكن هذا الإحساس يتضاعف كلما اقـتربنا من اللوحة وأدركنا مزيدا من تفصيلاتها الجميـلة، وهكذا كانت الحياة الأولى لهـذا الأستاذ العظيـم الفـاضل ذى الخلق الرفيع، واللفظ المنتقى، والتعبير المتأجج بالتهذيب والوفاء والنبل.

(٣)

أحب أن أبدأ مدارسة هذه المذكرات بنقل الفـقرة التى يتحدث فيها صـاحبها عن اللحظة التى تضاعف فيها إدراكه لسمو مـشاعر الأبوة وعطائها وقد جاءت هذه اللحظة حين كان فى أثناء عرضه لرسالة الدكتوراه، وحانت منه التفاتة إلى باب المدرج فوجد مجموعة من الطلاب يقفون لمتابعة المناقشة من على الباب بعد أن امتلأت مقاعد المدرج وطرقاته ووجد والده الجليل

بينهم، ولم يكن قد أخبر والده بموعد المناقشة، ولكن والده قرأ الخبر فى الجريدة فى الصباح وهو فى دمياط فحضر إلى القاهرة من فوره.

يصور الدكتور شوقى ضيف هذا الموقف فيقول:

«وغص المدرج رقم ٧٨ الذى عقدت فيه المناقشة بكلية الآداب بحشد كبير من الطلاب والجمهور، حتى لم يكن يبقى فيه مكان لقدم، وفى أثناء تلخيص الشاب لرسالته حانت منه التفاتة، فوجد أباه الشيخ واقفا مع عشرات من الطلاب مكدسين فى مدخل المدرج، ولم يكن أنبأ أباه بيوم امتحانه، غير أن أباه قرأ خبرا عنه فى الصحف صباحا، فسافر إلى القاهرة توا، واتجه إلى الجامعة، فسمع ابنه ـ وهو لا يزال على أبواب الجامعة الخارجية ـ يلقى تلخيص بحثه، وما أعجب الآباء: إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والجود، ويمنحونهم أنفس ما يملكون: يمنحونهم القلوب والأفئدة وكل ما تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاء ولا شكورا، ومهما صنع الأبناء لآبائهم، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة، فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب، بل أيضا حقوق البر والرحمة والحنان والعطف والشفقة».

على هذا النحو نرى إحساس هذا العالم الجليل بحقوق الأبوة منبثاً فى كل ثنايا المذكرات، سواء تجاه والده وتجاه والدته، بل وتجاه جدته أيضا، وصفحات المذكرات حافلة بمشاعر التقدير والامتنان التى تتوافق فيما نتحدث عنه مع ما نعرفه من نبيل الشخصية والأسلوب.

(٤)

نبدأ بعد هذا فى تأمل مجمل الخبرات التربوية التى أحاط بها الدكتور شوقى ضيف بعد أن وصل إلى السن الذهبية، وعاد للتأمل فى تربيته وتكوينه ومقارنة هذه التربية والتكوين بتربية الأجيال التالية وتكوينها، وهو يشير ـ على سبيل المثال ـ إلى ما اكتشفه من أهمية حفظ القرآن الكريم فى تكوين الشخصية الناجحة فيقول:

«ومن المؤكد أن الناشئة فى جيل الصبى كانت تتعود ـ بدأبها على حفظ القرآن الكريم فى بواكير حياتها ـ بذل الجهد الشاق فى التحصيل والدراسة،ولعل نبوغ مفكرينا العظام فى القرن الماضى وشطر كبير من القرن الحاضر يرجع إلى ما تعودوه فى الكتاتيب من بذل كل طاقاتهم فى استظهار الذكر الحكيم، وكان هذا البذل والجد فى التحصيل يظل ملازما لهم لا يزايلهم طوال التعليم حتى يتموا تعليمهم الجامعى أو العالى».

على أن ثانى أهم العناصر التى يتنبه إليها الدكتور شوقى ضيف فى حديثه عن الجوانب التربوية لتجربة الأزهر يتمثل فى انتباهه الضمنى إلى الثناء على الطريقة الحرة فى التعليم الأزهرى، ومع أن الدكتور شوقى ضيف لا يتناول هذه الجزئية إلا بعد الصفحة الثمانين من مذكراته إلا أنه يعطيها حقها من الفهم وتأصيل الفهم، ومن الإنصاف أن نذكر أنه كان صادقا فى تأجيل التعبير عن فهمه لمعنى الحرية فى التربية والتعليم، وعلى كل حال فإن ألوفا من أقرانه بل من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه لم ينتبهوا حتى الآن (فى الدراسة وفى التدريس) إلى قيمة هذه الحرية التى كان التعليم الأزهرى قادرا على توفيرها:

«ولم يكن الفتى يعرف أن وراء هذه الحلقات فى الأزهر دراسات غير نظامية وخاصة للغرباء، فهم يحضرون على شيوخ مختلفين كما يريدون غير متقيدين بسنوات ولا بامتحانات، ولا يزالون يتزودون من حلقات هؤلاء الشيوخ، حتى إذا أنسوا فى أنفسهم القدرة على أداء امتحان العالمية (شهادة الأزهر العالية النهائية حينئذ) تقدموا إليها، فإما كان من حظهم النجاح، وإما أخفقوا ولم يكتب لهم النجاح المظنون، فيعودوا إلى الاستماع إلى الشيوخ والتزود ثانية للامتحان فى العام القابل، إذ يعيدون الكرّة، وربما أعادوا الكرات حتى يحصلوا على تلك الشهادة».



وربما أننا لا نكاد نختلف على صواب الفكرة الذكية التى أشار إليها الدكتور شوقى ضيف فيما نقلناه عنه فى الفقرة السابقة، ولكننا بعد هذا نواجه فى مذكراته آراءه الشجاعة فى الانتصار للمذهب الأزهرى فى تعليم قواعد النحو والصرف. وربما يتعجب القراء من أن تصدر هذه الآراء عن الأستاذ الذى رأس قسم اللغة العربية وآدابها فى الجامعة المدنية، ولكن الحق الذى لابد من الإشارة إليه هو أن هذه الآراء لم تصدر من فراغ، ولا عن عاطفة، ولا عن تعصب، وإنما صدرت عن تجربة مريرة توصل صاحبها من خلالها إلى ما هو أكثر صوابا، حتى وإن كان هو نفسه قد ظل مسئولا عن التجربة الأخرى طيلة سنوات ممتدة.

وهو يشرح بالتفصيل كيف بدأ تعلم النحو فى السنة الأولى الابتدائية (من التعليم الأزهرى) على طريقة ذلك العهد فى هذه المعاهد العريقة، وهى الطريقة التى تبدأ بشرح متن الأجرومية فى السنة الأولى (وهو أصغر متون النحو.) وهو يقدم فى المذكرات تفصيلات التعليم بهذه الطريقة، ثم يعلق عليها بقوله:

«ولو أن أستاذا من أساتذة التربية الحديثة وقف على هذه الطريقة فى تعليم النحو لأنكرها

أشد الإنكار، وقال إنها طريقة مخطئة كل الخطأ، ومن شأنها أن تقيم حجابا بينها وبين التلاميذ والطلاب فلا يفهموا النحو أبدا، ويظلوا طوال حياتهم يتعثرون فيه شاعرين أنه شيء معقد وأنه أكثر عقدا من ذنب الضب فكيف يتعاملون معه؟ وكيف يستقر فى نفوسهم؟ وكيف يتهيأ لهم أن يفهموه يوما أو يعرفوه؟».

ويمضى الدكتور شوقى ضيف فى سرد آراء المعارضين للطريقة فيقول:

«وهى طريقة ترفضها التربية أو البيداجوجيا الحديثة رفضا باتا، إذ لابد أن يؤخذ التلاميذ بالتعليم الابتدائى فى دروس النحو بالوقوف أولا على الكلمة هل هى اسم أو فعل أو حرف، وتُعطى للناشئة صيغ وعبارات، ولكن لا يُعربون منها شيئا، بل يظلون يتزودون بأناشيد وبعبارات بسيطة، مكتفين بقراءتها فى السنتين الأوليين من التعليم الابتدائى أو فى السنوات الثلاث الأولى دون أن يُطلب منهم معرفة أى باب من أبواب النحو، فحسبهم أن تتعود آذانهم النطق السديد، ثم بعد ذلك تُعرض عليهم فى سنة تالية جمل وصيغ قصيرة تتكون من مبتدأ وخبر، ولا بأس أن يُضم إليهما النعت، ولكن ليبق الجار والمجرور والمفعولات إلى سنوات تالية».

ثم يبدى الدكتور شوقى ضيف رأيه فى الطريقة التربوية التى تسير عليها مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا الآن، وهو يبدى عجبه من أن هذه الطريقة لم تنجح فى تحقيق الغرض الأول منها وهو التعليم والتعلم:

«ومن أغرب الأشياء أن هذه الطريقة التربوية السليمة لم تنجح حتى الآن فى تمثل تلاميذ المدارس للنحو، بل إنهم يخرجون من التعليم الثانوى بعد سنوات طويلة يتزودون فيها بالنحو على الطريقة التربوية الحديثة ولا يحسنونه، حتى ليصبح ذلك مشكلة المشاكل وحتى لتنعقد له المؤتمرات علها تجد حلا للمشكلة، وتوضع بعض الحلول والمقترحات وتطبق وتظل المشكلة قائمة، بينما يذكر الصبى أنه حين تعلم النحو على شيخه السالف فى الأجرومية هذا التعليم الذى لا يستخدم أى وسيلة من وسائل التربية الحديثة لم يدر به العام الأول فى المعهد الدينى حتى كان قد عرف النحو العربى معرفة واضحة، بحيث لم يضف إليها فى المستقبل إلا تفاصيل فى هذا الباب أو ذاك من أبواب النحو، أما الهيكل العام للقواعد النحوية فقد تمثله تمثلا حسنا على يد هذا الشيخ فى متن الأجرومية الصغير الذى لا يتجاوز ثلاثين صحيفة صغيرة، وكان أبوه يعرض عليه من حين إلى حين بعض أبيات الشعر، ويطلب إليه إعرابها، فيعربها دون توقف أو تردد أو خطأ».

(٥)

ويمضى الدكتور شوقى ضيف فى تأكيد فكرته المتعجبة من فشل الطرق التربوية الحديثة، ومن أن نستمر فى التعليم على منوالها بينما هى لا تثمر النجاح المرجو:

«وهو شيء يعزُّ على الفهم والتفسير أن تخفق الطرق التربوية الحديثة فى تعليم النحو بحيث يستوعبه التلاميذ ويتمثلونه، بينما تنجح طريقة الأسلاف فى تعليمه بواسطة متونه ومختصراته وهى تخلو من كل هذه الطرق، ومع ذلك كانت تتمثله الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسرا ولا مشقة، وكأنما عقوده المتراصة المتناسقة فى هذه المتون نقضتها أو نثرتها الطرق التربوية الحديثة، فسقطت بعض حباتها أو ضلت مكانها أو بدّل موضعها، فضاع من التلاميذ فى المدارس سياق النحو ونسقه القديم، وأصبح من المتعذر عليهم أن يتقنوه فهما وعلما».

ويعاود الدكتور شوقى ضيف الحديث عن بحثه عن الطريقة المثلى لتعليم النحو فى المرحلة الوسطى (السنة الثانية من التعليم الأزهرى على سبيل المثال) وبعد أن يشرح طريقة تدريس النحو فى السنة الثانية من خلال متن الأزهرية يعود الدكتور شوقى ضيف إلى تأكيد ما عبر عنه من رؤيته ورأيه فى الطرق التربوية الحديثة إذا ما قورنت بالطرق القديمة فى تعليم النحو، وهو يقول:

«ويُجمع التربويون المعاصرون على أن هذه الطريقة [يقصد طريقة الأزهريين] لتعليم النحو عقيمة، وهى فى الحق لم تعقم أبداً، بدليل أن مَنْ كانوا يتعلمون بها كانوا يحسنون فهم النحو وقواعده، ويتعمقون فيه تأويلا وتحليلا، مما لا يستطيعه بحال مَنْ يتعلمون النحو بالطرق التربوية الحديثة. وقد يكون ظاهر الطريقة الأزهرية العتيقة يوحى بأنها عقيمة، بينما هى قائمة على أسس تعليمية موروثة تخالف أسس التربية الحديثة التى توزع أبواب النحو على سنوات التعليم، وبذلك تبعثرت قواعده، ولم تستقم صورتها فى أذهان الناشئة، فى حين أن الطريقة الأزهرية التى تعلّم الصبى على أسسها كانت تعرضه دائما عرضا كليا، فالطلاب يلمون كل سنة بهيكله، وهو هيكل يُعرض فى أول سنة عرضا موجزا فى الأجرومية، ويتسع المتن قليلا فى السنة الثانية فيدرسون متن الأزهرية، ثم يتسع أكثر فى السن الثالثة فيدرسون متن القطر، وفى السنة الرابعة يدرسون متن الألفية، وبذلك تتكرر عليهم صورة النحو، أو قل يتكرر هيكله، ويرونه جميعه دائما دفعة واحدة غير مقطعة الأوصال فيستقر فى أذهان الطلاب، ويرسخ رسوخ الصخر».

(٦)

ولا تقف آراء الدكتور شوقى التربوية عند حدود تعليم النحو أو عند أهمية حفظ القرآن الكريم، وإنما هو يتعرض أيضا لمنهج الحواشى والتعليقات التى يقرؤها الطلاب ويناقشون أساتذتهم من خلال ما اكتسبوه من معلومات ومعارف من خلال قراءاتهم لها، وكيف كان الحوار يدور بين الأساتذة والطلاب فى حرية واقتدار وتمكن نتيجة للأخذ بهذه الطريقة، وهو يذكر الملامح العامة لطريقة تلقى العلم على الشروح والحواشى، ثم يناقش رأى التربويين فيها فيقول:

«وانتقل الفتى إلى السنة الدراسية الأخيرة بمعهده الدينى سنة ١٩٢٥/ ١٩٢٦ ولم يكن للمعهد مبنى خاص ولا مقاعد مهيأة للطلاب، بل كانت الدراسة، فى أكبر جامع بدمياط، وهو جامع البحر، وكان مفروشا بالحُصر، وفيه مقاعد منثورة مرتفعة خاصة بالشيوخ المدرسين، وكان الطلاب يتحلقون حولهم قعودا على الحُصر فيما يشبه نصف دائرة، والشيخ يكون فى يده عادة ملزمة من الكتاب المقرر أو من أحد شروحه، وفى أيدى الطلاب ملازم مماثلة، والشيخ يقرأ أو يشرح والطلاب يسألون ويلحون فى الأسئلة، وهو يجيب، ولم يكن الطلاب الممتازون يسألون فحسب، بل كانوا يعترضون على ما يقوله الشيخ، ويحاولون بكل ما استطاعوا أن يُخرّجوه أو يلزموه بما يقولون».

«وكان الفتى على شاكلة هؤلاء يستعين فى ذلك ـ كما كانوا يستعينون ـ بقراءة شروح الشروح أو الحواشى، وكثيرا ما كان يعترض شارح الشرح على مؤلف الشرح، وقد يعترض أحدهما على صاحب المتن، ومن خلال ذلك كان الصبى ورفاقه يحاورون شيوخهم محاورات شتى، وكانوا أحيانا لا يكتفون فى هذه المحاورات بقراءة شروح الشروح أو الحواشى، بل يضيفون إليها ما كتبه بعض المؤلفين عليها من ملاحظات ووجوه نقد ومراجعات كانت تتضمنها تقارير مطبوعة على هوامش الحواشى للتنبيه على خطأ أو تصحيح هنا أو هناك».

«ولاشك فى أن هذه الصورة للكتب الأزهرية، كما عرفها الفتى فى العقد الثالث من القرن الحاضر (يقصد القرن العشرين) فى صورة المتون والشروح والحواشى والتقارير، كانت مشحذة كبرى لعقول الطلاب الأزهريين، فالكلمة فى المتن مختصرة أشد اختصار، وتُشرح وتُناقش، والفكرة فى الشرح تُشرح بدورها وتُناقش مناقشة واسعة فى الحاشية، وليس ذلك فحسب، بل أيضا الفكرة فى الحاشية يناقشها مؤلف التقرير فى أضواء غامرة».

ويأتى الدكتور شوقى ضيف إلى الموضع الذى يعرض فيه رأيه فى التقييم التربوى لهذا الأسلوب:

«وكثيرا ما سمع الفتى ـ فيما بعد ـ نقدا لهذه الطريقة، وكان دائما يعارضه لأنه لا يصور الحقيقة، ولأنه يتجنى على الأسلاف فيما صنعوا من هذه الصور الجدلية فى مختلف العلوم والفنون، خاصة فى الفقه وعلم الأصول وفى النحو والبلاغة. ولاريب فى أن مَنْ ينقدون هذا النهج لم يعايشوه ولم يعرفوا مدى صقله للعقول وبنائها بناء منطقيا سديدا، ولو أنهم عايشوه لعرفوا أنه أفاد العقل العربى فى مصر وغير مصر خصوبة وغنى لا حد لهما، فكل فكرة، بل كل لفظة، تمحص وتحلل وتختبر حتى يمكن أن توضع الوضع السليم. وأى اختبار؟ لقد تحولت المتون والشروح والحواشى والتقارير إلى مختبرات كبيرة لعقول أنبه العلماء فى كل فرع من فروع العلوم الدينية واللغوية».

(٧)

وينبهنا الدكتور شوقى ضيف إلى طبيعة المتون التى كانت تدرس فى الأزهر، وهو يعرض للفكرة الشائعة القائلة بأن هذه المتون البسيطة كانت مجرد تلخيص، وهو يصحح هذا الرأى بالقول بأن هذه المتون لم تصدر إلا عمن استوعبوا العلوم كلها، ودرسوا الآراء كلها، ثم هم يعرضون هذه الآراء فى أقصر عبارة دون تزيد أو تفصيل:

«ولم يكن أى متن من المتون فى أى علم من العلوم مجرد تلخيص لعلم بعينه تلخيصا موجزا، بل كان مع هذا التلخيص الشديد يحمل مختلف الآراء فى المسائل العلمية دون ذكر أصحابها، وكان يومئ مؤلفه إليها إيماء، أو يضع عبارات من شأنها أن تومئ إليها، وهو لذلك لا يكتب متنه إلا بعد أن يقرأ أمهات الكتب فى العلم الخاص به، ثم يأتى بعده الشارح وصاحب الحاشية وصاحب التقرير، فيقرأون الأمهات وكثيرا من كتب هذا العلم، ويعرضون عليها المتن أو قل يعرضونه على كل ما سبقهم من عقول خصبة فيه، ثم يعرضونه على عقولهم محاولين النفوذ إلى بعض الآراء السديدة».

ويرتقى الدكتور شوقى ضيف بتوصيف هذه المتون إلى أن يجعلها ـ حسب تعبيره ـ فى مقام دائرة معارف صغرى:

«وبذلك تصبح دراسة المتن البسيط لهذا الفتى وأنداده أشبه بدائرة معارف صغرى فى هذا العلم أو ذاك، وكان الطلبة عادة ـ مثل الفتى ـ يُعدون دروسهم فى الجامع ليلا، فالأنوار فيه ساطعة متقدة إلى نحو الساعة الثانية عشرة، وتعود إلى الاتقاد والسطوع مع الصباح، وكان الفتى يؤثر إعداد دروسه فى المساء».

ويتحدث الدكتور شوقى ضيف فى شغف وحب عن تجربته الدراسية الممتعة مع هذه

الشروح والحواشى والتقارير، وكيف كان يوظف هذه المطالعة من أجل إظهار تفوقه واجتهاده فى الدراسة:

«وكان يجد متعة لا تقدر فى مراجعة الشروح والحواشى والتقارير، كى يورد على الشيوخ فى الصباح ما يعنّ له من اعتراضات، وكأن الدراسة فى هذا المعهد ـ كما كانت فى الأزهر الشريف ـ لم تكن لجمع المعارف فحسب، كما هو الشأن فى المدارس المدنية، بل كانت أيضا لنشوب معارك جدلية كبيرة، وهى معارك كانت تعتمد على ما أثاره الأسلاف فى شروحهم وحواشيهم وتقاريرهم، وعلى ما يثيره الطلاب وشيوخهم من آراء واعتراضات بعضها صلد كقطع الصخر، وبعضها هش كقطع الزجاج، ومهما صور الفتى ـ بعدما تقدمت به السن ـ من خصب هذه المعارك فلن يبلغ كل ما يريد من بيان أهميتها وقيمتها فى بناء العقل وشحذه وإحكام تحليلاته واستنباطاته».

(٨)

ويخلص الدكتور شوقى ضيف من تأملاته إلى أن يقرر الحقيقة الكبرى فى مزايا الأسلوب الأزهرى فى التعليم والتربية، وهو أن هذا الأسلوب يكفل فى نهاية الأمر تدريب الذين تعلموا على منهاجه على القدرة على النفاذ إلى الحقائق العلمية والقدرة على فهم الآخر، وعلى فهم الوجوه المتعددة للحقيقة العلمية:

«ولاريب فى أن هذه المعارك الجدلية المستمرة كانت تتيح ـ إلى أبعد حد ـ للأزهريين ـ من جيل الفتى والأجيال قبله وبعده ـ قدرة فى تبين احتمالات النصوص، وما يمكن أن يؤديه منطوق النص ومفهومه، وما يمكن أن يؤّول ويفسر به. وقد ألقى ذلك فى وعى الفتى ألا يسكن لتقبل المعارف فى يسر، بل دائما يحاور ويجادل فيما يُلقى إليه وفيما يسمعه، لا طلبا للجدل والحوار فى أنفسهما، وإنما طلبا لتبين الحقائق العلمية تبينا دقيقا، مهما احتمل فى سبيل ذلك من العناء والمشقة الشديدة فى قراءة التقارير والحواشى والشروح، ومهما بعدت به الطريق، ومهما كثرت العقبات فيها والصعاب».

ويصل الدكتور شوقى ضيف بعد هذا إلى أن يعبر عن أمنيته فى أن تحظى هذه الطريقة الأزهرية بالاستمرار والقبول والتأصيل:

«وإن الفتى حين يذكر ذلك بعد أن علت به السن ليتمنى أن تظل هذه الطريقة التعليمية قائمة فى الأزهر ومعاهده الدينية، حتى تستمر لطلابه قوة الجدال ودقة البرهنة والنفوذ إلى دقائق الأفكار».

بل إن الدكتور شوقى ضيف يعترف فى صراحة ووضوح بمدى القصور الذى جعل الجامعات المصرية تغفل عن الإفادة المرجوة من مثل هذه الطرق التربوية التى كانت موجودة ومترسخة على أرض الوطن بفضل وجود الأزهر:

«ومن الغريب أن الجامعات فى مصر حين أُسست لم تفد الفائدة التى كانت مرجوة من صورة هذه الطريقة التربوية فى الأزهر ومعاهده الدينية، وليس من المعقول أن تدخل صورة المتون والشروح والحواشى والتقارير فى الدراسات الجامعية، فليس ذلك هو جوهر الطريقة، إنما جوهرها النفوذ إلى المحاورة والمجادلة وعرض مختلف الآراء فى المسألة أو الفكرة الواحدة».

ويضرب الدكتور شوقى ضيف أمثلة سريعة لنواحى الفوائد المحتملة إذا أخذنا من تطوير وتطبيق وتوظيف مثل هذه الطرق الكلاسيكية:

«وكان من الممكن ـ على هذا الهدى ـ أن ينشأ على الأقل فى كليات الآداب والحقوق علم يسمى علم احتمالات النصوص، تُدرس فيه الوجوه المختلفة لفهم النصوص الأدبية والفلسفية والقانونية، وكان من الممكن أن يتوسع فى ذلك، فتدرس احتمالات النصوص فى الاقتصاد والسياسة».

(٩)

من ناحية أخرى نرى الدكتور شوقى ضيف واعيا لأثر البيئة فى الأرتفاع بمستوى التعليم، وهو لهذا السبب الذى تمكن من اكتشافه يعبر عن إحساسه بتفوق معهد دمياط الدينى على معهد الزقازيق بسبب مجموعة من العوامل البيئية المهمة:

«... وكان الفتى يشعر بوضوح أن الجو العلمى فى معهد الزقازيق الثانوى أقل بكثير من مثيله فى المعهد الابتدائى بدمياط، وربما كان مرجع ذلك إلى أن معهد الزقازيق كان معهدا مستجدا فى بيئته، ولم يكن شيوخه من نفس البلدة بل كانوا من بلدان شتى فى القطر، بخلاف معهد دمياط الابتدائى، فهو معهد دينى قديم بها، له أصول فى المدارس التى أنشأها المماليك مثل قايتباى ومَنْ قبله وأيضا مَنْ جاءوا بعده، وكانت المدارس تنشأ فى المساجد والجوامع الكبيرة، وقد مضت تعد شيوخا فى الحقب الماضية حتى سمى الأزهر المدارس الكبرى فى تلك الجوامع والمساجد معاهد، حينئذ أصبح لدمياط معهدها الدينى بجامع البحر».

ويواصل الدكتور شوقى ضيف الحديث عن مقومات البيئة العلمية فى مدينة دمياط، وهو

حديث مهم حفظ به هذا الرجل العظيم حق هذه البيئة فيما امتازت به وتميزت به مما قد لا يكون مشهورا عنها بما فيه الكفاية فى ظل الحديث الطاغى عن مجتمع التجار والتجارة فى هذه المدينة.

وهو يصف توطن أساتذته وعائلاتهم فى مجتمع دمياط ويقول:

«وأكثر شيوخ هذا المعهد الدينى الذين تلقى عليهم الفتى دروسه كانوا من نفس دمياط، من سلالة علمائها النابهين، وكانت تتوارث ذلك منهم أسر تشتغل بالعلم الدينى، يأخذه اللاحق عن السابق، والخالف عن السالف، وكان بين هذه الأسر تنافس علمى عظيم، كان يظهر فى دروس حرة لهم يلقونها ببعض المساجد لمن يريد الفائدة والاستبصار فى دينه من عامة الشعب الدمياطى، ولا مانع لأى دارس من أن يجلس إلى حلقة الشيخ ويناقشه ويحاوره، وكانت دروسهم للطلاب فى المعهد الدينى بجامع البحر أشبه بدروس حرة، إذ لم تكن تُلقى ـ مثل دروس معهد الزقازيق الدينى ـ فى حُجر أو غرف مقفلة، يجلس الطلاب فيها على مقاعد مثل تلاميذ المدارس المدنية، بل كانت تُلقى بساحات الجامع فى حلقات، والطلاب يجلسون على حُصر مكونين ما يشبه نصف دائرة حول كرسى الشيخ، ولا مقاعد ولا غرف ولا أبواب، بل ساحات فسيحة لكل من شاء».



ويفيض الدكتور شوقى ضيف فى الحديث عن جوانب التميز والتنافس فى البيئة العلمية فى مدينة دمياط، وهو تنافس مشروع ومحبذ وقد وصل إلى الازدهار حتى فيما بين العائلات بعضها وبعض:

«ولم يكن التنافس بين علماء دمياط وأسرها يقف عند حد إجادة الدروس فى المعهد الدينى، تلك التى تُلقى دون أى حجاب، إذ كثيرا ما كان عالم يجلس إلى حلقة عالم آخر للحوار فى بعض المسائل التى تعرض فى الدرس، وحدّث الفتى أبوه أنه رأى ـ حين كان يحضر قبله فى هذا المعهد ويدرس فيه ـ عالمين من أسرتين علميتين تناظرا فى موضوعات علمية ذات يوم من بعد صلاة الصبح حتى المساء، إلا أن يقوما للصلاة أو لتناول بعض الطعام، وسرعان ما يعودان إلى المناظرة، وعادا إليها فى اليوم التالى حتى صلاة الظهر، وكان يرفد كل منهما فى المناظرة [أى يساعده كالرديف] ابن لكل منهما عالم من شيوخ المعهد الدينى، ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى ما كان يحفل به الجو العلمى فى معهد دمياط الدينى الابتدائى من نشاط فى الدراسات الدينية وما يتصل بها من الدراسات اللغوية».

(١٠)

وربما يجدر بنا الآن أن نعود لنتأمل ما يرويه الدكتور شوقى ضيف بحب واعتزاز عن ثراء التجربة التعليمية والتربوية فى الأزهر بالبدائل والاختلافات، وهو ما كان يثرى التجربة ويصبغها بصبغات حرية الإرادة والقدرة على تنمية روح الحرية والمسئولية فى شخصيات الذين يتعلمون تبعا لهذه الطريقة، بل إن الدكتور شوقى ضيف يحرص كل الحرص على الإشادة بالدراسة غير النظامية التى كان الأزهر يتيحها فى ذكاء ونظام، وهو يثنى على هذه الطريقة بعد أن يلخص ملامحها فى عبارات موحية ودقيقة فى الوقت ذاته:

«... وظل القسم غير النظامى قائما فى الأزهر مدة غير قليلة، وهو القسم الأقدم، وكانت دروس الشيوخ الكبار بعد صلاة الصبح ـ وربما جعلها بعضهم فى المساء ـ صورة من هذا النظام القديم، كان ينهض بها بعض شيوخ الأزهر النابهين، وكان يحضرها بجانب طلاب الأزهر وعلمائه الشبان كثيرون من مختلف الأوساط بين المثقفين،وكان من هؤلاء الشيوخ مَنْ يختار لنفسه ولمحاضراته مسجدا آخر غير الأزهر يلقى دروسه فيه، ويختلف إلى المسجد الذى اختاره طلابه وجمهوره المنتفع بعلمه».



ويذكر الدكتور شوقى ضيف أن إعجابه بهذه الطريقة لم يتولد متأخرا وإنما كان هو نفسه وهو فتى يدرس معجبا بهذه الطريقة:

«ولاشك فى أن هذه الطريقة الحرة فى التعليم الأزهرى غير النظامى كانت جيدة، وكان الفتى يعجب بها، فالشيوخ يلقون دروسهم ومحاضراتهم ولا حضور يسجل للطلاب ولا غياب،أو لا تقييد لحضور أو لغياب، فهم أحرار يتحلقون حول مَنْ يرغبون فى التزود العلمى منه، ولهم أن يختاروا هذا الشيخ أو ذاك وأن يجلسوا إلى هذه الحلقة أو تلك حسب رغبتهم ومشيئتهم،وعرف الفتى ـ فيما بعد ـ أن الجامعات الألمانية تأخذ بشىء من هذا النظام الأزهرى القديم، إذ تسمح للطلاب بأن يستمعوا فى بعض المواد العلمية إلى هذا العالم أو ذاك».



يجدر بى فى هذا المقام أن أشير إلى ما نبه إليه الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه عن سعد زغلول من أن هذا الزعيم العظيم بحكم عشقه للحرية انتبه إلى ما انتبه إليه الدكتور شوقى ضيف من إعلاء نظام التعليم فى الأزهر لقيمة الحرية، وهو ما أكده سعد زغلول حين خطب فى وفد من الأزهريين فى الجامع الأزهر وذلك بعد عودته من أوروبا فى سنة ١٩٢١ حيث قال:

«جئت اليوم لأؤدى فى هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير فى النهضة الحاضرة، تلقيت فيه مبادئ الاستقلال لأن طريقته فى التعليم تربى ملكة الاستقلال فى النفوس. فالتلميذ يختار شيخه، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه، ومتأهل له، يوجه إليه كل منهم الأسئلة التى يراها، فإن أجاب الأستاذ وخرج ـ التلميذ ـ ناجحا من هذا الامتحان كان أهلا لأن يجلس مجلس التدريس، وهذه الطريقة فى الاستقلال التى تسمى الآن خللا فى النظام جعلتنى أتحول من مالكى إلى شافعى حيث وجدت علماء الشافعية فى ذلك الوقت أكفأ من غيرهم».

(١١)

وينتبه الدكتور شوقى ضيف إلى ما ينبغى للتربويين أن ينتبهوا إليه من أن العلماء الغربيين قد تأثروا بهذه الطريقة فى وضعهم وتطويرهم لنظمهم التربوية، وعلى عادة العلماء المدققين فإن الدكتور شوقى ضيف لا يثقل على قارئه بأحكام قاطعة ولا بدراسات فى التاريخ التربوى، وإنما هو يصور جوهر الأمور بطريقة لطيفة تقوم على التشبيه والتخيل فحسب:

«وكأنما نظرت إلى الطريقة الأزهرية القديمة الجامعات الأمريكية والأوروبية التى تأخذ بنظام الفصول، وهو نظام يتيح للطلاب الجامعيين المتخصصين فى فرع من فروع العلم والأدب أن يختاروا بعض المواد ويؤثروها على مواد أخرى بحيث يكون للفرع مواد أساسية يتحتم على كل طالب من طلابه أن يعنى بدرسها، ويدرس بجانبها مواد متنوعة من الدراسات الإنسانية أو العلمية أو الفنية. وللطلاب الحرية ـ كل الحرية ـ فى اختيار هذه المواد الإضافية حسب رغباتهم، فنجد متخصصا فى فرع من فروع الآداب قد يختار الرياضة أو فرعا منها أو يختار فنا كالموسيقى، ولا يتيح هذا النظام الفصلى للطالب فقط الحرية فى اختيار المواد الإضافية التى يدرسها، بل يتيح له أيضاً اختيار الأساتذة الذين يرى من حقه أن يدرس عليهم ويستمع إلى محاضراتهم».



بل إن الدكتور شوقى ضيف ينتبه أيضا إلى أن الطريقة الأزهرية القديمة كانت تتيح قدراً أكبر من الحرية للطلاب من تلك الطرق الأمريكية المسماة بالفصول الدراسية:

«وواضح أن تلك الطريقة الفصلية فى التعليم الجامعى الأمريكى والأوروبى تلتقى بالطريقة الأزهرية القديمة، ولا نغلو إذا قلنا إن الطريقة الأزهرية المذكورة كانت أوسع حرية،

وكان حريا بمن أنشأوا التعليم الجامعي في مصر أن يفيدوا منها ـ منذ إنشائه ـ لا بإدخالها جملة في هذا التعليم، بل بالاستفادة بها والاسترشاد. وحقا استرشد بها طه حسين حين أصبح عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة، فأنشأ بها نظام المستمع الحر من غير طلاب الكلية حتى يختلف المستمع إلى ما يريد من محاضرات الأساتذة في الكلية، غير أن هذا النظام لم يثمر الثمرة المرجوة لفقده الغاية الواضحة منه، وكان أولى من ذلك الاهتداء بفكرة المحاضرات غير النظامية التي لا تؤدى فيها امتحانات، ومع ذلك كانت من أهم الوسائل الأساسية في تكوين العقليات الأزهرية الممتازة، إذ كان كثيرون من الطلاب الأزهريين يوالون حضورها ويستمعون فيها إلى أفكار الصفوة من شيوخ الأزهر، ويرون رؤية واضحة كيف يتناولون المسائل وكيف يعالجونها وكيف يستنبطون ببصائرهم النافذة آراءهم الدقيقة».



ولا يفوت الدكتور شوقي ضيف أن ينبه إلى الفوائد التربوية التي من الممكن أن تتحقق نتيجة للأخذ بهذه الطرق التربوية الراسخة:

«وخير ما يصور ما كان لهذه المحاضرات غير النظامية من آثار بعيدة لا في الأزهر وبين علمائه فحسب، بل أيضا في الفكر المصري الحديث محاضرات الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي بالأزهر الشريف، وما كونت من تلاميذه ومريديه، بل من مدرستها التي تشعبت آفاقها، فشملت العالم الإسلامي جميعه».



ويعبر الدكتور شوقي ضيف عن أمنيته في أن تأخذ جامعاتنا وكلياتنا بهذا النمط الحر من التعليم غير النظامي الذي يمكن من ارتفاع مستوى الخريجين، ومن ارتفاع مستوى الأداء الوطني:

«... وكان ينبغي أن تفيد بعض الكليات الجامعية ـ على الأقل ـ عند إنشائها من طريقة هذه المحاضرات غير النظامية، فمثلا لو أن كلية الحقوق نظمت بها محاضرات على شاكلة المحاضرات الأزهرية غير النظامية لبعض الشخصيات القانونية الممتازة المشهورة حينذاك لانتفع بها الطلاب الحقوقيون أكبر نفع: محاضرات لا يمتحن فيها الطلاب وتعود عليهم بفوائد عظيمة، إذ يرون مشاهد رائعة لعقول قانونية، يأخذون عنها أفكارها وتجاربها وخبراتها وتحليلاتها لبعض مواد القانون المدني مثلا أو القانون الجنائي أو غيرهما من القوانين، والفرصة لا تزال سانحة إلى اليوم، ليدخل شيء من ذلك في الدراسات الجامعية فننظم في كل كلية محاضرات عامة لبعض الأساتذة القدامى، ومَنْ لم يستطع أداءها أسبوعيا أداها شهريا أو من حين إلى آخر على مدار العام الدراسي».

ويعود الدكتور شوقى ضيف ليعبر عن أمله فى أن يجد وطننا ـ من خلال جامعاته ـ الوسيلة التى تكفل الإفادة من هذه الطريقة وبخاصة فى تعميم العلم والثقافة العلمية وازدهار النهضة العلمية على نحو ما حدث بالفعل من قبل:

«وحبذا لو عُنيت الجامعات المصرية ـ كما قلنا ـ بشىء يقترب من هذه الطريقة على الأقل من حيث العناية بالمحاضرات العامة، التى يلقيها صفوة من العلماء فى كل كلية. أما الطريقة بحذافيرها، وأن يكون لكل مادة أكثر من أستاذ، وأن يتخير الطالب الأستاذ الذى يدرس عليه المادة، فإن ذلك يعزّ تحقيقه الآن لقلة أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات، ولعلهم يتضاعفون فى المستقبل بحيث يمكن أن يكون للمادة الواحدة فى الفرقة الواحدة أكثر من مدرس وأستاذ، ليختار الطلاب منهم من يشاءون، وبذلك تتسع المنافسة بين علمائنا وتزداد نهضتنا العلمية ازدهارا».

(١٢)

وتبدو مذكرات الدكتور شوقى ضيف معنية فى كثير من المواضع بقيمة تربوية مهمة هى التى تتصل بمستوى أعضاء هيئات التدريس وضرورة الارتفاع به والارتقاء الدائم به من ناحية، كما تتصل بضرورة توظيف وتفعيل الإفادة من رأى الطلاب فى أساتذتهم من ناحية أخرى، وعلى سبيل المثال ـ ومادمنا كنا فى الفقرة السابقة بصدد الحديث عن التعليم غير النظامى فى الأزهر ـ فمن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن الدكتور شوقى ضيف لم يفته أن يشير إلى الأثر الأسمى الذى تتكفل به مثل هذه الطريقة من الارتفاع المستمر والمتكرر والدائم بمستوى أعضاء هيئات التدريس:

«ومن المحقق أن هذه المحاضرات غير النظامية فى الأزهر الشريف كانت تحدث تنافسا قويا بين الشيوخ، إذ كان كل منهم مهدداً بأن ينصرف عنه الطلاب إلى زميله، لما ذكرت من أنه كان من حقهم أن يحضروا لمن يرغبون فى الاستماع إليه، وأن ينصرفوا عن غيره حسب مشيئتهم، وكان معولهم فى ذلك على مادة الشيخ العلمية، ومن أجل ذلك كان لابد لمن يجلس إلى الطلاب فى تلك المحاضرات أن يكون عالما غزير العلم فى مادة محاضراته، ولابد أن يكون من ذكاء القريحة ومن نفوذ البصيرة بحيث يعد حجة فيها، حجة لا يبارى أو لا يجارى».



من ناحية أخرى فإن الدكتور شوقى ضيف يشير إلى تفوق الأزهر وسبقه فى إقرار

السياسات الهادفة إلى تمكين الطلاب من سلطة الحكم على الأستاذ المدرس، وانعكاس هذا على بذل المدرس الجهد الدائب المستميت من أجل التجويد:

«ومَنْ كان يقعد للطلاب ويسمعونه ويجدونه غير أهل لمقعده لا يعودون إليه أبداً، وبذلك كان تحلق طلاب الأزهر وشباب العلماء من خريجيه وتجمعهم حول شيخ وإصغاؤهم لكلامه شهادة لا تعدلها شهادة، بأنه عالم يفقه العلم الذى يحاضر فيه فقها أعمق الفقه، ويحلل مسائله تحليلا أدق التحليل، ومعنى ذلك أن شهادة العالمية التى كان يحصل عليها أحد هؤلاء الشيوخ الذين ينهضون بتلك المحاضرات لم تكن هى التى تسوغ له الاضطلاع بها والتفاف جمهور حول مجلسه، بل كانت خبرته العلمية الطويلة وكفاحه العلمى الشاق هما اللذان يتيحان له هذا العمل الرفيع».

(١٣)

ولا تفوت عالمنا الجليل الفرصة لأن يقدم نبذة وافية عن نظام «التعيين» وهو أحد الأساليب التربوية رفيعة القدر التى كان نظام التعليم الأزهرى يأخذ بها فى الشهادة العالمية، ومع أن الدكتور شوقى ضيف نفسه لم يمر بهذه التجربة إلا أنه فى حرصه على تقديم الصورة كاملة يقدم هذه النبذة المهمة عن هذا النظام البديع الذى لابد لكل مهتم بالتربية أن يعجب به أيما إعجاب. ومن الطريف أننا فى مصر قد لجأنا إليه بصورة جزئية (منذ ١٩٩٤) فى تقييم أعضاء هيئات التدريس عند تقدمهم للترقية إلى وظائف الأساتذة والأساتذة المساعدين :

«... وكان الفتى كثير الاختلاط بطلاب الأزهر وببعض مدرسيه وعلمائه من أقربائه الذين تخرجوا فيه، وعرف منهم أن امتحان العالمية فى الأزهر ليس امتحانا تحريريا فحسب، بل كان أهم من الامتحان التحريرى حينئذ امتحان شفوى عسير فى موضوع يختاره الأزهر للطالب فى الفقه، أو فى الأصول، أو فى غيرهما من العلوم، ويظل يعده أياما طوالا لا يكاد يترك فيها كتابا تناول المادة العلمية فيه وما يتصل بها إلا ويقرؤه».

«وما يزال الطالب مكبّا على موضوعه يدرسه من جميع جوانبه العلمية حتى إذا حُدد له يوم الامتحان أحس برهبة شديدة، لأنه سيجلس إلى لجنة من كبار العلماء ويناقشونه فى الموضوع وكل ما يجرى فيه من أحكام وأفكار، ولا يتركون فى الموضوع جانبا فقهيا أو أصوليا أو نحويا أو بلاغيا إلا ويسترسلون معه فى الأسئلة المتصلة به يريدون أن يعرفوا كل ما عنده، وهل هو صالح ليحمل شهادة العالمية الجليلة، أو لا يزال يحتاج إلى إعداد أوسع وأكبر».

«وكانـوا يسمـون الموضوع المحـدد للطالب درسه باسم خـاص هو «التعـيين» لأنه عُين له وحده، وكان يوم امتحانه فيه يوما مشهودا، لصـعوبة الامتحان وصعوبة ما يُطرح فيه من أسئلة تلم بجـميع مادرس الـطالب فى الأزهر طوال سنيه من المواد العلـمية، ومن أجل ذلـك كانت شهادة العالمية تشهد لمن يحملها بأنه عالم دينى يتقن علوم الدين فهما واستيعابا وتحليلا».

(١٤)

ولا يقف تأمل الدكتـور شوقى ضـيف لمدى تفـوق الطرق التـربوية القـديمة على الطرق التربوية الحديثة عند حد، ويبدو أن انشـغاله بالهم الوطنى لم يجعله يكف عن تدبر كل ما هو ممكن من طرق ناجـعة حـين تفشل الطرق التى تـبدو وكـأنها تضـمن الصـواب، ويبدو شـأن الدكتور شوقى ضيف فى هذا شأن ولى أمر المريض الذى يبحث له عن كل علاج ممكن، وهو يعرض لتساؤلاته حول مشروعية الضـرب لتأديب التلاميذ فى المدارس الأولية وتعليمهم، مع إيمانه بنتائج هذا الضرب:

«ولـم يكن المدرس يشتد على التـلامذة فى التعليم مستـخدما عصاه أو مقرعـته أو مسطرة من حديد كان يضعـها معهما على منضـدة بسيطة أمامه، إذ كان يكتفى ـ تخـويفا لهم ـ بأخذ ابن له معهم بالشـدة، بل بالقسوة المتناهية حين يلفظ بكلمة خطأ أو يكتـبها ويخطئ فى بعض حروفها، أو يغلط فى حل مسألة حسابية فإنه كان حينئذ يضربه مؤثرا ضربه بالمسطرة الحديدية حتى لا يعـود إلى غلطه أو خطئـه، وكثيـرا ما كـان يعود فيـضربه بالمسطرة من جـديد، ويظل التلاميذ والصـبى معهم يشعرون بخوف مـا بعده خوف، ولا يعرف فى هذا الزمن غيـر البعيد فى أواخر العقد الثانى من القرن الحاضر (يقصد الـقرن العشرين)، هل كانت الهيئات المشرفة على التـعليم الأولى فى مـصـر تحرم ـ أو أنهـا كـانت تحل ـ ضـرب التـلاميـذ فى الكتـاتيب والمدارس ضربا مبرحا، فضلا عن ضربهم بمساطر من حديد، بأسها شديد».



ويتكرر تعبـير الدكتـور شوقى ضيف عن شـعوره هذا حين يلحق بالكتاب لحـفظ القرآن الكريم:

«... وكان يجلس فى التسميـع ـ مثلهم ـ أمام «سيدنا» وقد وضع ساقه اليـمنى فوق ساقه اليسـرى، وباطن القدم الـيمنى مكشـوف، فإذا أخطأ أو تعـثر لم يقل له «سـيدنا» تعـثرت أو أخطأت، وإنما تنزل المقرعة توا على باطن قدمه، فيتنبه إلى أنه أخطأ».

«وكان الصبى يرهب «سـيدنا» ومقرعتـه رهبة شديدة، وكان يوالى يومـيا عليه تلاوة الربع

الذى استظهره تسميعا، وقلما يخطئ فيه أى خطأ، وكيف يخطئ وقدمه اليمنى ملقاة على ساقه اليسرى مكشوفة للمقرعة، وقد تهوى فجأة دون أى تنبيه أو تحذير».

(١٥)

لعلنا ننتقل الآن إلى ما يروى به الدكتور شوقى ضيف خبراته على الجانب الآخر من العملية التعليمية حيث قدر له أن يعمل مدرسا بأضعاف ما عمل طالبا، وحيث قدر له أن يكون أستاذا لعدد من الطلاب يفوقون الأضعاف المضاعفة لأساتذته، وهو حريص على أن يحدثنا عن مذهبه فى التدريس منذ أصبح مسئولا عن هذه المهمة المقدسة، وهو يعنى بأن يلتفت إلى الجوانب التى حكمت سلوكه المتميز فى أدائه لهذه المهنة الجليلة والنبيلة:

«وتعود منذ الدرس الأول له فى الجامعة أن يمضى فى محاضرته حتى انتهائها دون أن يخرج عن موضوعها أو ينطق بكلمة خارجة عنها، فلم يحدث أن ذكر نكتة أو نادرة لطلابه. ومن أكبر الغلط ـ فى رأيه ـ أن يشغل معيد أو مدرس أو أستاذ جزءا من محاضرته بفكاهة يعنّ له أن يحكيها للطلاب أو أن يقص عليهم حادثة وقعت له أو ذكرى من ذكريات ماضيه فى الدراسة استجماما أو استرواحا، وحقا قد يصفق له الطلبة استحسانا، ولكنه استحسان وقتى،إذ سرعان ما ينكرون ذلك على محاضرهم، وأخطر شىء أن يصبح ذلك عادة للمحاضر فتلتصق به فى محاضراته ولا يستطيع منها خلاصا، وليس من ريب فى أن من حق الطلاب فى الجامعة على المحاضر فى أى موضوع ألا يشغلهم بشىء سواه، حتى يطرد نسقه فى أذهانهم، وحتى يتضح لهم نهجه فيه ومقدماته ونتائجه اتضاحا تاما».



وعلى مستوى الأستاذية فى الدراسات العليا فإن الدكتور شوقى ضيف يحرص على أن يوحى ـ فى تواضع ـ بأن سلوكه فى هذا المجال كان بمثابة محصلة للتجارب الثرية التى قدر له أن يخوضها وهو طالب فى الدراسات العليا، وهو على سبيل المثال ينبه إلى أهمية التروى والحرص فى اختيار موضوع الرسالة العلمية ويشير إلى مدى أثر ذلك على المستقبل الأكاديمى لعضو هيئة التدريس فيقول:

«وظل الشاب فى العام الدراسى الجديد ١٩٣٨/ ١٩٣٩ منهمكا فى إنجاز رسالته التى يعدها للحصول على درجة الماجستير، وكان قد استخرج ما فى كتاب الأغانى من نقد، ومضى يكمل فصولها وطبعها. وفى شهر يناير نوقش فيها ونال الدرجة المأمولة، وحمد الله كثيرا أن وُفق لاختيار هذا الموضوع، لا لما ظفر فيه بنتائج علمية فى النقد الأدبى العربى القديم

فحسب، ولكن أيضا لأنه أتاح له أن يقرأ فى بواكير حياته العلميـة الجامعية أكبر مصدر للشعر العربى وشعرائه فى الحقب الأولى».



ويفيض الدكتور شوقى ضيف فى الحديث عن هذه الجزئية وعن أثرها فى التكوين العلمى له هو شخـصيـا، وهكذا تقدم السيـرة الذاتية صـورة واضحة عن هذه الدراسـة التى مارسـها صاحب المذكرات بدأب واجتـهاد ونبوغ حتى أصبحت له القـدرة على الإحاطة الفذة بديوان الشعر العربى:

«وبذلك سيطر مبكرا عـلى مادة هذا الشعر التاريخـية والنقدية، وهى سيطرة مكنته ـ فـيما بعد ـ أن يكتب فى الشعـر العربى وشعرائه مؤرخـا تارة، وناقدا تارة أخرى، ولو أنه لم يتح له أن يقرأ هذا الكتاب بمجلداته الضخام التى تتجاوز عـشرين مجلدا لظل الشعر العربى بتاريخه القديم الطويل محجوبا عنه، ولانزوى فى عصر أو ركن منه يبحث فيه لا يعدوه، أما وقد قرأ هذا الكتاب فإن أبواب هذا الشـعر فُتحت له ولم توصد أبدا فى وجهـه، مما أعطاه فرصة ، بل فرصا كبيرة، كى يبحث فيه بحوثا كثيـرة لا يقف فيها عند عصر بعينه دون غيره من العصور، أو بيئة بعينها دون غيرها من البيئات».

(١٦)

وننتقل مع الدكتور شوقى ضيف إلى حديثـه المبكر عن اعتزازه بمشاركاته المبكرة فى الحياة الثقافية، وهى المشاركات التى هيـأها له تفوقه العلمى وإلمامه الثقافى الواسع، وهو يروى على سبيل المثـال شعوره الطاغى بالفرحة حين رأى اسـمه لأول مرة مع أسماء أسـاتذته فى فهرس محتويات مجلة الرسالة، ومن المفيد أن نقرأ القصة كاملة:

«... وتصادف أن طه حسين ـ وكان لا يزال خارج الجامعـة ـ كتب مقالا فى مجلة الرسالة عن قصيدة المقبرة البحرية للشاعر الفـرنسى المتفلسف بول فاليرى حامل لواء الشعر والفلسفة فى فرنسا حينئـذ، وأشاد بما فى قصيدته من غموض، وانبرى كـاتب عراقى يرد عليه قائلا: إن الغموض والجمال الفنى لا يجتمعان فـى صعيد واحد، وإن الوضوح هو مرجع كل جمال فى الشعر، وبدونه لا يمكن أن ينعت بالجمال، ورد عليـه الفتى بمقال جعل عنوانه «حول الوضوح والغمـوض» أرسل به إلى مجلة الرسالة، وكـانت أهم مجلة أدبية أسبـوعية فى مصـر، وكان يكتب فيـها أعلام الأدب من أمثـال طه حسين والعقاد، كـما كان يكتب فيـها أساتذة الجـامعة النابهون».

«وكان الأستاذ أحمد أمين هو الذى يراجع فى تلك المجلة المقالات النقدية، فما ارتضاه منها أخذ طريقه إلى النشر وما رفضه أهمل ولم ينشر، ولم يكن الفتى يعرف ذلك، وفوجئ به يقول له فى مستهل إحدى محاضراته: أنا قرأت لك مقالك عن الوضوح والغموض، وسينشر فى العدد المقبل من مجلة الرسالة ، وظل الفتى ينتظر يوم صدورها بفارغ الصبر ليراه ، ورآه فى عدد اليوم الثامن شهر يناير سنة ١٩٣٤ وكاد يطير فرحا حين أبصر مقالا له ينشر فى مجلة الرسالة بجانب أعلام الأدب والنابهين من أساتذته».



ويجيد الدكتور شوقى ضيف وصف شعوره فى هذه اللقطة على نحو معبر حيث يقول:

«وكان شعورا غريبا شعر به الفتى حين قرأ كلامه لأول مرة بحروف الطباعة ، لقد كان معتادا أن يقرأه مخطوطا بقلمه، أما أن يقرأه مطبوعا وفى مجلة أدبية ذائعة، فإن ذلك حلمٌ من أحلامه، وقد أبصره يتحقق، فينزل اسمه فى فهرس مجلة مع طه حسين والعقاد وأحمد أمين ونظرائهم، ويقرأ المقال مغتبطا، وكان حين عرف أن مقالا سينشر له فى مجلة الرسالة سارع فكتب مقالا ثانيا بعنوان: «ما هية الشعر» وقدمه إلى المجلة، فنشرته فى العدد التالى، استهله بالحديث عن تعريفات الشعر عند العرب، وفى الغرب، مبينا أنها جميعا قاصرة عن أن تحيط بمعناه، وناقش فى المقال فكرة الابتكار التى أثارها أرسطو فى كتابه عن الشعر وتحدث عن عناصره الأربعة: الفكرة، والعاطفة، والخيال، والموسيقى».



ويكرر صاحب هذه المذكرات الحديث عن شعوره بالسعادة فى المرة التالية:

«وأحس الفتى بسعادة غامرة، فحلمه يتحقق ثانية، وها هم رفاقه يقرأون المقالين ويناقشونه فى أفكاره، لقد أصبح محط أنظارهم وموضع تقديرهم، وكتب كثيرا بعد ذلك، كتب مقالات وكتبا لكنه لم يشعر يوما بمثل هذه السعادة وهو طالب فى السنة الثالثة بقسم اللغة العربية يكتب مع الأعلام من الأدباء ومن أساتذته فى مجلة الرسالة الأسبوعية، وكتب فيها سريعا مقالا ثالثا بعنوان: «رسالة الشعر» ومقالا رابعا بعنوان: «الشعر والفنون» تحدث فيه عن العلاقة الوثيقة بين الشعر والفنون الجميلة موضحا كيف أن كثيرين من الشعراء الغربيين يعنون بدراسة هذا الفن أو ذاك من الفنون الجميلة بحيث يكون الشاعر مثلا شاعرا ورساما فى آن واحد».



على أن الدكتور شوقى ضيف حريص على أن يدلنا على معنى مهم وهو ما اكتشفه من اكتساب أسلوبه للامحه المميزة منذ مرحلة مبكرة:

«وكان عجب الفتى شديدا حين عاد إلى هذه المقالات فى سن متأخرة ليرى بواكير كتاباته إذ رآها بنفس الصورة التى يكتب بها حين علت سنه: صورة الأسلوب الرصين الذى يعنى صاحبه فيه باختيار الألفاظ وحسن موقعها فى الأسماع، مع الاهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة يريد أن يجعله أسلوبا سائغا، وكان يظن أن رصانة أسلوبه أتته ـ بمر الزمن ـ من قراءته الكثيرة فيما بعد للجاحظ، وإعجابه بروعة أسلوبه، ويبدو حقا ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص،وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة».

(١٧)

وتحفل هذه المذكرات ـ كما ذكرنا فى المقدمة ـ بضروب من التعبير الأدبى الجميل عن نوازع النفس وطبائعها ، وفى كل فقرة من فقرات المذكرات نجد ما يدلنا على تمكن هذا الأستاذ الكبير من كل أدوات البيان والتعبير ، ومن قدرته اللامتناهية على اقتطاف المعانى المبتكرة وتنمية الإحساس بها ، وليس فى وسعنا أن نستعرض كل المواضع التى حفلت بهذا التعبير ، لكنه بوسعنا بالطبع أن نورد بعض الأمثلة الممتعة فى بنائها ومحتواها ، ومن هذه المواضع ما يروى به صاحب المذكرات انطباعه عن الفارق الكبير بين الحصول على ثمار البلح من على النخيل والحصول عليه من الفكهانى ، وهو المثل الذى يضربه الدكتور شوقى ضيف للفارق بين الأسلوبين فى كل شىء من ثمار وفاكهة وخضار وزهر.

يروى صاحب المذكرات بعض ملامح طفولته فى القرية فيقول:

«وكان التسلق على النخيل أكثر صعوبة من التسلق على شجر الجميز ، ولكن جمال لون البلح وحمرته الساطعة كانتا تدفعانه دفعا ـ دون تريث ـ إلى صعود أشجاره وجنى البلح الأحمر من أعذاقه وشماريخه الطويلة ، وكان يعجبه منه الملون: ذو اللونين المتقابلين:اللون الأحمر واللون الضارب إلى الصفرة ، وكان اجتماع اللونين فيه يجعله أجمل وألطف شكلا ، وحين يظهر فى الشماريخ بعض الرطب كان يتسابق هو وبعض الصبية من أبناء عمومته إلى الصعود على النخيل لاقتناصه ، وبَونٌ بعيد بين طعم هذا البلح الذى كان يجنيه بيديه الصغيرتين ، وطعم البلح المماثل الذى طَعمه فيما بعد بالمدن حين شب عن الطوق وبعد عن الريف».

«وكذلك كل ثمار القرية مقرونة إلى ما يُجنى منها ويرسل به إلى بعض المدن ، حتى الخيار، فخيار الريف فى حقله شىء آخر غير الخيار الملقى على العربات فى المدن أو فى

الدكاكين ، لا لأنه طازج فحسب ، بل أيضا لأن جانيـه هو طاعمه الذى يختاره بيده ، وهو فى حقله. وقل ذلك فيمـا يختاره الصبية بالريف من الفـواكه وغيرها ، فما يقطفونه يكون حـبيبا إلى نفوسهم ، وكأن هذا القطف نفسه له تأثير فى القاطفين ، تأثير بعيد».

ثم يبلور الدكتور شوقى ضيف خبرته النفسية فى هذا الصدد فيقول:

«ودائما يوجد فـرق بين ما يقطفه الإنسان بيـده وبين ما يقطفه له غيـره ، وهو فرق ما بين إرادته ورغبـته الكاملتين وإرادته ورغبـته الناقصـتين. ونفس رؤية الثمار على أشـجارها شيء يختلف تمـام الاختلاف عن رؤيتـها مجـموعـة فى الدكاكين ، وهل يمكن لدكـان من دكاكين الفواكه أن يتـيح لك رؤية البلح الأحمر فى عذقـه مثلا غارقا فى أضـواء الشـمس ، أو رؤيته ـ وهى ساطعة عليه ـ مختلطا ببعض الرطب أو بعض البلح المخدد الملون».

بل إن الدكتـور شوقى ضيف يمتـد بهذه القاعـدة إلى الحياة كلهـا على نحو ما كـشفت له الأيام والخبرات:

«وهذا نفسـه ما لاحظه الصبى فيـما بعد حين رأى الورود والرياحين فى مـحلات الأزهار بالمدينة ، وما كان يراه منها فى القرية ، فالوردة المزهوة التى كان يبصرها فى صباه رافعة الرأس على ساقها أو مـائلة ميل خُيلاء تختلف من كل وجه عن الوردة الغريبـة المنكسة فى واجهات مـحلات الأزهار ، فـتلك وردة نابضـة بالحـياة دافـقة بالـنضرة ، وهذه وردة فـارقت منبـتهـا وموطنها، قُطفت من شجرتها عنوة ، لتوضع فى زهرية ، فهى تعطى اللون والشذى إلى حين، ولكن لا تعطى الحـيوية ولا مجـموعـة الألوان البراقـة التى تعطيهـا الوردة حين تشرق عليـها الشمس وحبـات الندى تلمع علي أوراقها ، وفى الظهيـرة حين تنسكب فيها أشـعة الشمس ، وفى المساء حين تفضى الشمس إلى الغروب وتـستقبلها ألوان الشفق الزاهية ، والوردة فى كل هذا النعيم للطبيعة تتمايل على أغصانها والنسيم من حولها يداعبها طوال الليل والنهار ، وماء القنوات يجرى منسابا متدفقا من تحتها ، والطير تغنى وتشدو ، وتملأ الحقول شدوا وغناء».



كمـا يقدم لنا الدكتـور شوقى ضيف نمـوذجا لأثرأقصـوصة قصـتها عليـه جدته فجـعلته حريصـا دائما على كـراهية حب الاستطلاع ، ثـم يعلق على هذه الأقصوصـة بالحديث عـما انطبع فى شخصيته من خلق يعده من الأخلاق السامية كنتيجة لسماعه هذه الأقصوصة ، وهو يعبر عن هذا المعنى بقوله:

«ولعل هذه الأقصوصة التى لقنتـها الصبى جدته وهو صغير السبب الحـقيقى فى أنه تعود أن يأخذ نفسه بألا يلح فى أى شـيء ، وألا يفكر فى التعرف على أى خبر يمس شخصـا مهما تكن صلته به ، وظل طوال حـياته لا يزدرى شيـئا ازدراءه للتطفل والمتطفلين الذين يتـسقطون

أخبار الناس ، وهى خصلة زرعتها فى نفسه هذه الجدة الريفية الأمية من جدات الجيل الماضى اللائى كن يعرفن كيف يلتقطن من الأقاصيص والأخبارما يربين به أحفادهن تربية قويمة».

(١٨)

وتقدم هذه المذكرات بانوراما كاملة للتكوين الأدبى والثقافى للدكتور شوقى ضيف ، ونحن نجد الدكتور شوقى ضيف فى تأمله لبواكير حياته حريصا على أن يروى - بعد أن نضج - طبيعة الأسباب المختلفة لإعجابه بأدباء ذلك العهد على اختلاف أساليبهم ومناهجهم فى الوقت الذى كان لا يزال فيه فى مطلع دراسته الابتدائية الأزهرية ، أى حين كان فى حدود الخامسة عشرة من عمره.

يتأمل الدكتور شوقى ضيف ما ترسب فى نفسه من انطباعاته المبكرة ويعيد تشكيل هذه الانطباعات ويقول:

«وكان الصبى يعجب بهيكل لأسلوبه الشفاف ، وكذلك بالعقاد لقوة منطقه ووضوحه ، وكان طه حسين أكثر منهما قربا إلى نفسه ، ربما لأنه بدأ حياته أزهريا مثله ، ولما يمتاز به أسلوبه من سهولة ويسر ونصاعة ، وكان هؤلاء كثيرا ما يتحاورون فى بعض المسائل الأدبية حوارا طويلا فيحتل بعض حوارهم أو بعض مقالاتهم صفحة فى الصحيفة اليومية السيارة».



ومن البديع أن ننقل للقارئ ما يروى به صاحب التجربة كيف كان إعجابه لأول مرة بشعر شوقى ، وبخاصة أنه صاحب أروع وأكمل الدراسات عن شعر هذا الشاعر العظيم ، فضلا عما اختصه به من دراسات أخرى ضمن تاريخه للأدب العربى ، ونحن نرى بداية إعجابه بشعر شوقى تمتزج بمشاعره الوطنية المتأججة فى صباه والتى كانت ترتبط بصعود شأن الحركة الوطنية وزعيمها الكبير سعد زغلول باشا ، وهو يروى فيقول:

«... ومضى سعد زغلول يستعد للسفر إلى لندن ، ومصر جميعها حانية عليه عاطفة ، آملة أن يحقق لها جميع مطالبها ، فترفع انجلترا يدها عن حماية قناة السويس وعن السودان ،ويتم لها استقلالها ، ودارت هذه المعانى فى صدر شاعر مصر شوقى ، كما كانت تدور فى نفس سعد ، فيحييه قبيل إبحاره من الإسكندرية بقصيدة رائعة نشرها بصحيفة الأهرام فى ٢٤ من يوليو سنة ١٩٢٤ وفيها يهتف:

ويا سعد أنت أمين البلاد   قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تُقد القناة   ويبتر من مصر سودانها

فـمـصـر الرياض وسـودانها	عـيـون الـرياض وخلـجـانها
ومـا هـو مـاء ولكنـه	وريـد الحـيـاة وشـريـانها
تـتـمم مـصـر ينـابيـعـه	كـمـا تـعم الـعـين إنسـانها

«وكانت هذه أول مرة يقرأ الفتى لشوقى قصيدة وطنية ، وأخذ يردد أبياتها وينشدها خاصة الأبيات الثلاثة الأخيرة ، فقد ظلت لا تبرح ذاكرته أبدا ، وظل إعجابه بشوقى وشعره يزداد مع الأيام».

كما يحدثنا الدكتور شوقى ضيف عن بداية معرفته بشعراء المهجر واطلاعه واتصاله بهذا الشعر المتميز ، وذلك من خلال المصادفة التى صنعتها مجاورة تاجر لبنانى فى مدينة دمياط ، وهو يحدثنا عما لفت نظره في هذا الشعر عند بدء معرفته به ، وما أثر به على نفسيته فيقول:

«وكان من أهم ما لفت نظر الفتى فى أشعار هذا الطراز كثرة ما يجرى فيها من الصور والاستعارات والأخيلة ، حتى لكأنما غاية الشعر أن يأتى بطرائفها المبتكرة ، ولم يكن الفتى قد عرف أن أصحابها يتأثرون بالنزعة الرومانسية الغربية ، وأنهم لذلك مولعون بالتشبيهات والاستعارات وبتصوير العواطف الحارة إزاء جمال الطبيعة ومفاتنها ،وإزاء الإنسانية وآلامها وأوصابها ، وقد غرست هذه الأشعار فى نفس الفتى محبة التصوير فى الأدب وما يحمل من خيالات وأطياف مبتكرة».

(١٩)

وفى هذه المذكرات يجيد الدكتور شوقى ضيف الحديث عن معظم أو أهم ملامح البيئة الثقافية التى قدر له أن يعيشها فى شبابه ، وهو يجيد تصوير الأثر الذى تركته عناصر هذه البيئة على شخصيته وعقليته ونفسيته ، ونحن نراه يجيد تصوير أثر هذه البيئة من خلال حديثه الطبيعى عن عناصر الالتقاء بين نفسه وبين ما يجده ، فهو بحكم دراسته الأزهرية السابقة يعشق البلاغة والبيان ولهذا يعجب بالمقالات والخطب.. وهكذا يعبر أيضا عن إعجابه بالصحافة والسياسة وما شابههما من أدب:

«وكانت المقالات فى الصحف اليومية على حظ غير قليل من البلاغة ، إذ كان يكتبها أنبه الأدباء حينئذ مثل هيكل وطه حسين فى صحيفة السياسة ، والعقاد وعبد القادر حمزة فى صحيفة البلاغ الوفدية ، ومن حين إلى حين كانت تنشر الصحف خطبة بارعة لأحد السياسيين الكبار».

«وامتاز سعد زغلول خاصة في هذا المجال ببيانه الساحر الذى كان يستولى به على قلوب الشعب ، وكان الشبان كثيرا ما يحفظون شظايا من خطبه ويرددونها ، كقوله فى بعض الأحداث وقد ثار الشعب ضد بريطانيا وقال مندوبهم إن سعدا هو الذى يثير تلك القلاقل: «تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه» ، وقوله السالف واضعا للشعب شعاره فى مطالبته بتحرير بلاده من نير الإنجليز: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» ، وقوله: «يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن يقوم الحب بين الناس مقام القانون».

«فى هذا الجو من خطابة سعد وأمثاله ، ومن كتابات الأدباء ومرافعات المحامين المفوهين فى القضايا السياسية ، وما كان أكثرها حينئذ ، كان يتنفس الفتى هو وجيله فى العشرينيات ، وهو ما لم يتح للأجيال التالية فى مصر ، مما كان له آثاره العميقة فى نفس الفتى ونفوس جيله إذ أحسوا بقوة التعبير البيانى وحاولوا أن يصدروا عنه فى كتاباتهم ، وبحق أصبح نفر منهم - فيما بعد - من كتاب مصر المعاصرين وأدبائها النابهين».

(٢٠)

ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن كتاب الدكتور شوقى ضيف يمثل نموذجا بديعا للوطنية المتأججة التى لا تشوبها شائبة ، وقد أشرت من قبل إلى حرص الدكتور شوقى ضيف على تضمين كتابه حديثا عن تاريخ الحركة السياسية والوطنية فى مصر بالموازاة لكل خطوة يخطوها من حياته ، كذلك فقد أشرت إلى معرفته بشعر شوقى وبلاغة سعد زغلول من خلال اندماجه بمشاعره الوطنية فيما كان يجرى على أرض الوطن ،وبالإضافة إلى هذا وذاك فإن المذكرات تحفل بكثير من الفقرات التى تنم عن شعور وطنى متأجج فى نفس صاحبها وقد لازمه هذا الشعور طيلة فترة التكوين ، ونحن نقتطف للقارئ هذه الفقرة التى يتحدث فيها عن وفاة سعد:

«وما إن حل اليوم الثالث والعشرين من أغسطس حتى تجهمت سماء مصر وتلبدت بغيوم كثيفة وأخذت ترعد وتبرق بنبأ وفاة زعيم الأمة الخالد ، وقائد نهضتها وموقظها وراد حقها عليها فى تقرير مصيرها بعد مئات السنين: سعد زغلول ، وكان الناس فى مصر يتلقون الخبر بالوجوم ، وسرعان ما يتفجرون باكين حتى العجائز والصبية ، فقد كان الجميع يشعرون بهول الفجيعة ، فقد اختطف منهم أبو الوطن البار الذى رد إلى مصر وجودها وشخصيتها ، وأعدها لتظفر بكل ما اكتسبته سياسيا ، مع أنها لم تكن تملك سلاحا سوى سيوف كلماته الحادة القاطعة».

«واشترك الشرق كله فى الشعور بعظم المصاب ، إذ عُدّ سعد زعيم كل الشعوب المهيضة الجناح أمام المستعمرين الغاشمين ، ويكفى أن غاندى زعيم الهند على بعد داره شهد بأنه زعيمه ، عنه تلقى دروس الوطنية الصارمة فى المفاوضة الصامدة حتى آخر الأنفاس».

«وباتت الأمة على النشيج والنواح ، حتى إذا كان الصباح أخذت الجماهير تتدفق إلى منزل الزعيم سيولا جارفة ، وظلت الطرقات تمتلئ بأمواجها تعج وتضج من منزله إلى قبره المؤقت بحى الإمام الشافعي ، واستمرت الصحف المصرية تنعاه وتبكيه أياما متوالية ،وظلت تنقل نعى الصحف العربية والأجنبية».

كذلك تحفل المذكرات بكثير من الحديث عن انتشار وتغلغل الاتجاهات الوطنية فى نفوس طوائف الشعب المختلفة ، حتى على مستوى المؤسسات العلمية ، وهو على سبيل المثال يتحدث عن مدرسة القضاء الشرعى وتحيزها للوفد ، ويستطرد من هذه الجزئية إلى الحديث عن موقف مصر كلها من توجهها الوطنى الساحق بتأييد الوفد:

«وكان شيوخ الفتى ـ خاصة الخريجين من مدرسة القضاء الشرعى ـ ينزعون منزعا وفديا متطرفا ، إذ كانت مدرستهم وفدية متطرفة لقيام عاطف بركات عليها ، وكان من أقرباء سعد ونفى معه إلى جزائر سيشل سنة ١٩٢١ ، وكان طلابه يحبونه حبا جما ، ومصر نفسها جميعها كانت وفدية إلا قليلا من الإقطاعيين ومن حفوا بهم فى مدارهم ومدار القصر».



بل إن الدكتور شوقى ضيف يجيد الحديث عن انتشار الولاء للحركة الوطنية التى تبلورت فى الوفد حتى على مستوى القرية:

«وكان الفتى قد عاد إلى دمياط فى الإجازة الصيفية ، وعلى عادته زار قريته وقرية أخواله ، وفى القرية الأخيرة وجد أهلها لا يزالون يتداولون قصة ، منذ انتخابات عدلى يكن المارة ، مؤداها أن ريفية من القرية ذكروا له اسمها واسم زوجها سألته حين عاد من الانتخابات: انتخبت سعدا أو عدلى؟ وكان عدلى لا يزال فى رأى الكثيرين من أهل الريف يرمز إلى حزب الأحرار الدستوريين رغم استقالته المبكرة منه».

«وكأنما كان قد استقر فى أذهان بعض أهل القرى الريفية بأن من ذهب إلى الانتخابات إما أن ينتخب سعدا رغم وفاته ، وإما أن ينتخب عدلى رغم اعتزاله الحزبية ، وأجاب الرجل زوجته مازحا أو غير مازح: انتخبت عدلي ، وفوجئ بها تستر وجهها من دونه ، وتقول له: لقد حرمت عليك ولم تعد زوجي ، وعبثا حاول الزوج أن يصحح لزوجته القروية فكرتها ، فقد ظلت تماريه طويلا معتقدة أنها أصبحت محرمة عليه ، ولما أعياه إقناعها خرج فبحث عن مأذون القرية حتى وجده وأتاها به ، فأقنعها بخطئها وما ظنته بزوجها من مفارقته لدينه».

ويعبر الدكتور شوقى ضيف عما قادته إليه تأملاته فى هذا الصدد فيقول:

«ولعل فى ذلك ما يصور ـ من بعض الوجوه ـ كيف أن الانتماء لحزب الوفد ولزعيمه سعد تحول فى نفوس بعض أهل الريف البسطاء إلى ما يشبه العقيدة، حتى ظن بعضهم أنه جزء من الدين الحنيف على نحو ما ظنت تلك المرأة الريفية الساذجة. ولم يكن ذلك غائبا عن أذهان خصوم الوفد من المشتغلين بالسياسة، ومع ذلك كانت تغرهم الأمانى من حين إلى حين فيظنون ظنا واهما أنهم يستطيعون أن يزعزعوا مكانة الوفد الراسخة فى نفوس الأمة على نحو ما غرت «زيور» سنة ١٩٢٤، وعلى نحو ما غرت محمد محمود فى صيف سنة ١٩٢٨، وكما تغر إسماعيل صدقى الآن فى يونيو سنة ١٩٣٠ [هكذا كتب الدكتور شوقى ضيف مذكراته متقمصا التاريخ فى الموضع الذى لابد من تقمصه فيه] إذ سولت له شياطينه أنه يستطيع سحب ثقة الأمة بالوفد، وأغواه بذلك القصر والإنجليز فألف الوزارة فى نفس اليوم الذى استقال فيه النحاس».



ومع نمو سن الدكتور شوقى ونمو مداركه يتطور إعجابه بصنوف الجهاد الوطنى وما تحققه هذه الصنوف من اتجاهات ذات شأن، وهو يجيد ـ على سبيل المثال ـ وصف النشاط الوطنى الذى تميزت به الحركة الطلابية عام خمسة وثلاثين، وهو يصف مظاهرات الطلبة فى ١٩٣٥ وصفا دقيقا مفصلا إلى أن يصل إلى واقعة استشهاد اثنين من الطلاب فى هذه المظاهرات ونتائج هذا على مستوى الشعور القومى:

«ولبست القاهرة ثياب حزن رهيب وحداد أليم على أبنائها الشهداء الأبرار، وشاد طلاب الجامعة فى فنائها نصبا تذكاريا لشهدائنا تخليدا لذكراهم العطرة، وحفروا أسماءهم على قاعدته، حتى لا تنساهم الأجيال القادمة أبدا. وفى اليوم السابع من ديسمبر أزاحوا الستار عن النصب فى احتفال مهيب، واندفعوا إلى القاهرة فى مظاهرة كبرى يهتفون بسقوط الاحتلال وإعادة دستور سنة ١٩٢٣».

(٢١)

وتحفل مذكرات أستاذنا الدكتور شوقى ضيف بكثير من الوصف الدقيق والملاحظات الثرية التى تكفل تصويرا أدق لتاريخنا الاجتماعى فى الفترة الزمنية التى تتحدث عنها، ومن المؤكد أن الدكتور شوقى ضيف كان معنيا بالحديث عما رأى أهمية الإحاطة به فى الوقت الذى كتبت فيه المذكرات حيث ثارت مفاهيم جديدة على المجتمع تدعى انتسابها إلى قيمه

الأصيلة على حين كـان الدكتور شـوقى ضيف ـ بحكم ما عـرفه وخبـره ـ يرى هذه المفاهيم غريبة على العناصر الأصيلة فى بناء هذا المجتمع.

وهو على سبـيل المثال يوظف دقتـه فى وصف الظواهر الاجتماعـية ليعـبر بها عن موقـفه الفكرى تجاه الظواهر الجديدة فى المجـتمع ، ومن ذلك على سبيل المـثال وصفـه للسـيدات المصريات فى الريف بقوله:

«وجـمـيـعهن لا يعـرفن البرقع ولا الحـجاب ، فـهن مـثل أخواتهن فى ريف مـصر دائمـا سافرات ، فـحجابهن وبرقعهن الحـياء المترقرق فى أسارير وجـوههن ، وهن لا يعرفن الثرثرة ولا النظرات المغرية ولا الإيماءات والغمزات الكاذبة ، فالبراءة تتألق على جباههن».

«وكما أن للرجـال والشباب من أهليهم الجلباب الأزرق لا يخلعـونه ، كذلك لهن الثوب الأسود سـواد الطين الذى يعـملن فيـه لا يزايل أجسـادهن ، فهـو كل ما يملكن وكل حليـهن وزينتهن ، لا يعـرفن شيئا وراءه إلا ما يرينه علـى نساء الموسرين فى القرية ، لا يعـرفن الثياب الشفـافة والأخرى الحريرية المزركـشة ، ومعـاذ الله أيضا أن يعرفن المسـاحيق البيضـاء بياض الياسمين ، أو الحمراء حمرة الورد والياقوت».

«ومع ذلك فكثيرات من هؤلاء الريفيات البائسات تجـرى فى وجوههن نضرة الحياة بأكثر مما تجرى فى وجوه كثيرات من بنات الموسـرين فى القرى أو البنات الحضريات لفارق مهم هو نفس فارق الأزهار التى تعيش طلـيقة فى الطبيعة ، ناعـمة بمهدها من التربة وما يحـتضنها من أشعـة الشمس ، وبما يـتلألأ عليـها سحـرا من حبـات الندى ، والأزهار الأخرى التى تـعيش حبيسة فى الأصص والظلال داخل البيوت والجدران».



وهذه فقرة من مذكرات الدكتور رشدى سعـيد «رحلة عمر» تؤكد على صدق ما عبر عنه الدكتور شوقى من مشاركة المرأة المصرية فى مسـئوليات الحياة وتبعاتها، وهو مايدلنا على أن وضع المرأة المصرية فى الصعيد لم يكن يختلف عن وضعها فى الوجة البحرى .

يتحدث الدكتور رشدى سعيد عن جدته فيقول:

«وفى ظنى أنهـا لم تكن فـريدة فى هذا المضـمـار عن باقى فـلاحات مـصـر، اللواتى كن يضطلعن بدور مهم فى إدارة شـئون المنزل والمزرعة، بالإضـافة إلى رعاية الأطفال وتربيـتهم، والتى كثيرا ما كانت تقع بالكامل على عـاتقهن لأن الكثيرات منهن كن يترملن فى سن مبكرة نظرا لتدهور الأحوال الصحية لسكان مصر فى ذلك الوقت».

ويزيد الدكتـور شوقى ضـيف هذا المعنى وضوحا حين يتـحدث بعـد تسعين صفـحة عن دخول الفتاة المصرية للجامعة ومزاملته لها فيها فيقول:

«وبدأ عـام دراسى جـديد وفـيه انتظم الـفتى فى الـسنة الأولى بكليـة الآداب مع الطلاب المدنيين الذين يدخلون الكلية فى أول كل عام ، ومع كل مَنْ كان يدخلها معهم من الآنسات ، فقد كـان أحمد لطفى السيد مـدير الجامعة حينئذ (قـد) فتح أبواب الجامعة للفـتيات ودخلت كثـيرات منهن كليـة الآداب ، وتذكر الفتى أيـام صباه فى القـرية ، وكأنما عـاد من جديد هذا الاختلاط الذى بدأ به حياتـه التعليمية فى القرية ، وكانت الآنسات سـافرات وكثيرون يظنون أن دعوة قاسم أمين إلـى سفور المرأة المصرية انتظرت حـتى دخلت الفتيات الجـامعة ، والواقع أنها كانت قد نجحت النجاح المنتظر مع الـثورة المصرية سنة ١٩١٩ ،إذ خرج نحو ثلاثمائة من كرام العائلات فى القاهرة تقودهن صفية زغلول فى مظاهرة كـبيرة محتجات بقوة على سفك الإنجليز للدماء الزكية فى الثورة».



وعند هذه النقطة يؤكد الدكتور شوقى ضيف المعنى الذى سبق له الحديث عنه فيما يتعلق بطبيعة وتاريخ الحجاب:

«وفى الحق أن الحجـاب إنما كان منتشـرا بين النساء فى المدن المصرية بتـأثير الأسر التركـية التى عاشت طويـلا فى المجتمع المصـرى ، وكان يحاكى أسـر المدن بعض أسر الريف خـاصة الثرية.أما عامة الريـفيات فكن يشتغلن فى الحقول مزامـلات للرجال من قديم ، سافرات دون أى حجاب أو نقاب».

(٢٢)

ولا تخلو المذكرات بالطبع مـن بعض الحنين إلى العادات القديمة التى هجـرها المحدثون ، ومن العجيب والطريف أن نرى الدكتور شوقى ضيف وهو يستنكر على المصريين المحدثين أن يتخلوا عن عـادة تقبـيل يدى الآباء ، وهو لا يزال يحاول معـرفة السبب فـى التراجع عن هذه العادة الكريمة:

«وكان الطفل يبدأ يومه دائما بتحية أبويه ، ولم تكن التحية كلاما ، بل كانت تقبيلا لليدين الكريمتين ، يد الأب ويـد الأم: واجب يومى كـان الطفل يؤديه صبـاح كل يوم ، كـمـا يؤديه أطفال القرية من حـوله ، بل كما يؤديه أطفال الريف المصـرى جميعا. وقـد أقلعت الكثرة من الأسر فى مصر الآن عن هذه العادة ، خاصة الأسر المثقـفة ثقافة عصرية ،أو التى تدعى لنفسها شيئا من المـدنية كأنها تعد ذلك ضربا من العـبودية أو من الذلة ، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقـاد ؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلمـوا فيه ولم يروا

هذه العادة هناك ، فظنوها عادة سيئة ، وهى إنما تكون سيئة أشد السوء إذا وُجهت لغير الأب والأم ، أما هما فحرى بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما تجلة لهما واحتراما».

«وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى إبطال هذه العادة الطيبة التى كانت تحيل الأب والأم إلى ما يشبه قديسين فى نظر الأبناء ، أما وقد أبطلت فلم تعد لهما عند كثيرين منهم هذه القداسة ، ولا ما كان لهما من الإجلال».

(٢٣)

كذلك يبدو الدكتور شوقى ضيف حريصا على أن يستنكر فى رشاقة وهدوء أى محاولة للزعم بوجود صراع طبقات أو صراع طبقى فى المجتمع المصرى الذى عاشه فى طفولته وشبابه ، ويتجلى هذا فى حرصه فى أكثر من موضع على أن يصور العلاقات بين الأغنياء والفقراء فى القرية على نحو ما كانت عليه من طبيعية ومثالية:

«كانت تقوم الصلات فى القرية بين جميع أهلها ، كأنهم أسرة واحدة ولذلك مظاهر كثيرة ، فابن المالك للأرض لا ينادى أجيرا أو فلاحا إلا ويسبق اسمه بكلمة «عمى» أدبا لطيفا، والملاك والأجراء يأكلون معا فى المواسم والأعياد ، ومَنْ كن يقمن على الخدمة فى الدور من الفتيات كن يأكلن مع صاحبة البيت وبناتها ولا يشعرن أبدا بشعور الذلة أو الضعة أو أنهن خادمات لسيدات أو سادة ، فرب البيت ينادينه بلفظ عمى ، ويشعرن بحق أنهن يعملن فى دورهن لا مستأجرات».

«وكما يجتمع الرجال فى المسجد للصلاة لا فرق بين موسر ومعسر ، كذلك كان يجتمع أبناؤهم فى المدرسة الأولية للتعليم دون أى فارق فى الانتفاع به ، بحيث إذا أظهر أحد أبناء الأجراء أو الصيادين فى القرية استعدادا واضحا للنبوغ والتفوق فى إكمال التعليم لم تُسد أمامه الأبواب ، بل فُتحت على مصاريعها اعتزازا من القرية بابنها المتفوق النابغ».

(٢٤)

ونأتى إلى ملمح رابع من ملامح تاريخنا الاجتماعى الذى استطاع الدكتور شوقى ضيف أن يجيد توصيفه ووصفه حين صور مدى ما يمكن أن يتحقق كنتيجة للأثر الضار للجهل بالصحة ومدى ما ينشأ عنه هذا الجهل من ضرر كان هو نفسه أحد ضحاياه:

«... والشيء الوحيد الذى دها الصبى من القرية جاءه مما كان يسودها من جهل بالطب والأطباء ، فقد رمدت عينه اليسرى وهو فى المهد ، وأمه لا تزال تضمه إلى صدرها ، فلم يذهب به أبوه إلي طبيب عيون ، إذ لم يكن فى دمياط ـ على ما يبدو ـ طبيب عيون فى العقد الثانى من القرن الحاضر ، فذهب به الأب إلى طبيب كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم ، وكان على هذا الطبيب حين رأى عين الصبى الرمداء أو المريضة وأن سحابة هبطت عليها أن ينصح أباه باستشارة طبيب عيون ، وبدلا من ذلك أجرى للصبى عملية فى عينه ، وظن الأب أنها نجحت وهى لم تنجح فقد ظلت السحابة تحجب نظر العين ، وفقد الصبى عينه اليسرى إلا بصيصا ضئيلا».

«وكل ذلك حدث والصبى فى المهد لا يدري عنه أي شيء ، فلما أخذ يخطو خطواته الأولى ومضى فى الحياة لم يلاحظ هذا القصور فى بصر العين اليسرى ، أو لعله لاحظه بوضوح ، غير أنه لم يهتم به أى اهتمام ، إذ كانت عينه اليمنى سليمة ونظره فيها قويا كاملا ، وربما كان ذلك من أخف الأشياء التى كانت تحدث لأبناء الريف بسبب الجهل وانعدام الرعاية الصحية ، وكم من أطفال وصبية ريفيين فقدوا لا عينا واحدة ، بل العينين معا ، بسبب نقص المعرفة والرعاية الطبية وسريان الجهل حينئذ فى القرى وانتشاره».

(٢٥)

ويحفل حديث الدكتور شوقى ضيف عن أساتذته بقدر لا حدود له من الحب والتقدير العميقين ، وهو لا يذكر من حياتهم إلا محاسنها ، ولا من أساليبهم إلا أفضلها ، ولا من آثارهم إلا أخلدها ، وهو ممتن كل الامتنان لهؤلاء الباقة من الأساتذة ، ويأتى طه حسين فى مقدمة هؤلاء وإن أتى الحديث عنه متأخرا بحكم أنه ظل مبعدا عن التدريس فى كلية الآداب طيلة السنوات الثلاث الأولى من دراسة شوقى ضيف.

وهو يتحدث عنه فيقول:

«وكان الفتى ورفاقه يستمعون إلى محاضرات أستاذهم طه حسين فى هذه الكتب الثلاثة معجبين بملاحظاته وما ينثر من أفكاره التحليلية النقدية ، وكان يخلب ألبابهم بصوته الساحر ، صوت غذاه فى صباه من قديم بعلم التجويد حين كان يتلو القرآن الكريم ويرتله على شيخه وعريفه فى الكتاب ، صوت تتشد فيه الكلمات ومقاطعها ونبراتها ، وكأنما توقع على آلة موسيقية».

ولم يعرف الفتى محاضرا شد إليه الأسماع وجذب إليه القلوب كما عرف ذلك عند

أستاذه طه حسين. فقد كانت محاضراته وصوته فيها مهوى الأفئدة ، وكان أحيانا يلقيها بالجمعية الجغرافية أو بقاعة إيوارت فى الجامعة الأمريكية ، فكنت لا تكاد تجد مكانا لا للجلوس فحسب ، بل أيضا للوقوف ، وكل ذلك ـ أو قل كثير منه ـ بفضل صوته المحبب الرائع الذى اكتسبه لنفسه خلال تعلمه لتجويد الذكر الحكيم ، وكان قد أتقن هذا التجويد صبيا ، وكثيرون مثله فى أيامه أتقنوه ، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يلائم بينه وبين محاضراته ومخارج كلامه وصورة إلقائه كما لاءم طه حسين».

ويواصل شوقى ضيف تحليل مواطن الجمال فى حديث طه حسين ومحاضراته فيقول:

«وكان طه حسين يضيف إلى ذلك ملكة أدبية خصبة وقدرة بارعة فى اختيار الكلمات وبث نسق صوتى بديع فيها: نسق يقوم على حسن الأداء واكتمال الجرس فيه حتى يبهر السامعين ويخلبهم بجمال لغته المصفاة العذبة. وقد يبدو فى أساليبه وكلامه شيء من التكرار ، وكان بعض رفاق الفتى يلاحظ ذلك فكان الفتى يراجعهم فيه محاولا أن يلفتهم إلى أن تكراره ليس تكرارا لفظيا ، كما قد يتبادر إلى بعض مَنْ يسمعونه أو يقرأونه ، بل هو تكرار معنوى لا يزال يدخل عليه إضافات ذهنية وخواطر عقلية بحيث يترابط بناؤه ويرتفع كصرح مشيد دون أى خلل أو نقص أو عوج ، بل مع النسق الصوتى الفريد ، ومع المتاع بالفكر الخصب الذى يعنى أشد العناية بالكليات ، أو بعبارة أخرى الفكر الثرى الذى يستطيع أن يستخلص دائما من الجزئيات الحقائق الكلية الكبرى ، مع عرضها فى صور وهيئات تجليها وتدفع دفعها إلى تمثلها عن اقتناع. وقد يكون إعجاب الفتى بمحاضرات أستاذه وما كان يوفر لها من جرس صوتى بديع سببا من أسباب عنايته بأسلوبه وانتخاب ألفاظه ، وربما كان يتأثر أستاذه طه حسين أيضا فى عنايته بالكليات فى كتاباته ، إذ يحرص فيها دائما على التحول بما يقرأ من الدقائق والجزئيات إلى الكليات العامة».

(٢٦)

ونأتى إلى حديث شوقى ضيف عن أستاذه أحمد أمين ، وهو يقدم ثنائه عليه ممتزجا بسيرة ذاتية مختصرة لحياته وكأنما هو يصور حياته نفسها شيئا متميزا كشخصيته العظيمة:

«كان من خريجى مدرسة القضاء الشرعى ، عليه درس فيها أستاذ اللغة الفارسية (يقصد الدكتور عبدالوهاب عزام) وأستاذ البلاغة والتفسير (يقصد الشيخ أمين الخولى) ، وحين تخرج فى مدرسته اختاره ناظرها عاطف بركات ليكون معيدا له فيما يدرس من علم الأخلاق لطلاب القسم العالى بالمدرسة ، وكان يوضع له كرسى ليستمع مع الطلاب إلى عاطف

بركات ، وهو يلقي دروسه في علم الأخلاق ، وكان مما درسه معهم رسالة عن مذهب المنفعة للفيلسوف الإنجليزى «ستيوارت ميل» جاء في مقدمتها:« منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم على الشيخ فيثاغورس» ، فلقب الطلاب الشاب المعيد لأستاذهم: الشاب سقراط ، وكان قد عكف على اللغة الإنجليزية فتعلمها ، وتبوأ مكانة فى قسم اللغة العربية سنة ١٩٢٦ ، ورأى أن يغير زيه وكان قد نُقل إلى كلية الآداب من القضاء الشرعى فغير عمامته إلى الطربوش ، وخلع الجبة والقفطان ولبس البذلة انسجاما مع بيئته الجامعية الجديدة».

«وكان أحمد أمين يُعد فى طليعة من جمعوا بين الثقافتين القديمة والحديثة جمعا رائعا ، يعينه عقل بصير ونظر دقيق ودأب لا يماثله دأب في البحث ، واستيعاب لا يدانيه استيعاب لكنوز الفكر الإسلامى وذخائره ، وكان يحاضر الفتى ورفاقه فى الحياة العقلية الإسلامية ، ولم تكن صورة هذه الحياة واضحة فى نفوس المثقفين فأكب عليها يدرسها ويذلل صعابها وعقابها ، فإذا كل ما كان يحجبها عن الأعين ينزاح لا يفترق فى ذلك جانب عن جانب ، بل كل الجوانب يسلط عليه ضياء قوى ، وساعدته على تسليط هذا الضياء ثقافته القديمة فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وثقافته الغربية الحديثة وما قرأه من آراء المستشرقين».

«وكان الفتى يعجب إعجابا شديدا بكل ما يعرضه أستاذه أحمد أمين خاصة حين يراه يتعمق فى وصف الظواهر العقلية للأمة العربية ، وما وضعته من العلوم ، وما صاغته من الأفكار ، وكان دائما يوصى الفتى ورفاقه أن يعنوا بتسجيل معلوماتهم فى جذاذات ، وأن يتعودوا فى بواكير حياتهم أن يلتقطوا من الكتب التى يقرأونها خير ما فيها ويدونوه فى هذه الجذاذات أو الوريقات حتى إذا احتاجوا إليه فى المستقبل وجدوه مد أيديهم وتحت أبصارهم».

«وكان يذكر للفتى ورفاقه أن الكتب القديمة غير مفهرسة ، وأن الباحث إذا لم يستخدم طريقة الجذاذات فى أثناء قراءتها أفلتت منه المعارف الطريفة التى وقع عليها واضطر إلى قراءة الكتب ثانية ، ولم يعرف الفتى قيمة هذه الوصية إلا بعد أن عُنى بالبحث وعرف بوضوح أنه فاته الكثير بسبب إهماله هذه الطريقة واتكاله الخاطئ على ذاكرته ، والذاكرة كثيرا ما تخون صاحبها ، وقد يذكر الإنسان الفكرة التى تصادف أن قرأها وينسى المصدر الذى جاءت فيه».

«وكان ينهى طلابه أشد النهى عن الجدل العقيم وما يحمل من مغالطات ، ويكرر أن طريقة الجدل اللفظى عند القدماء حلت محلها فى العصر الحديث طريقة التحليل والاستقراء. ولعل هذا ما جعل الفتى فيما بعد يحرص علي ألا ينزلق فى مجادلة عقيمة لا تجدى نفعا ، وجانب مهم فيه كان يعجبه هو ورفاقه ، وهو حسن انتقائه للنصوص التى تصور الفكر

العربى الإسلامى ، وكأنما كانت لديه حاسة يلتقط بها أدق ما يقرؤه وأروعه ، وكان يألف الفتى ويوده مودة صادقة ، وهى مودة ظلت تزداد مع الأيام دعما وتوثيقا».

(٢٧)

أما حديثه عن الشيخ مصطفى عبد الرازق فيحفل ـ على عادة كل الأحاديث وكل المذكرات ـ بكل ما هو ممكن من الثناء على هذه الشخصية الفذة النبيلة المعطاءة بغير حدود ، ومع أن علاقة شوقى ضيف بأستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق لا تصل إلى حدود علاقة طلاب قسم الفلسفة من أمثال نجيب محفوظ وعبد الرحمن بدوى ، إلا أن حب شوقى ضيف لهذا الرجل الفذ لا يقل عن حبهما ، كما أن تعبيره عن هذا الحب لا يقل عن تعبيرهما:

«وعُين الشيخ مصطفى بكلية الآداب أستاذا مساعدا للفلسفة الإسلامية ، وظل يحتفظ بزيه الأزهرى فى صورة أنيقة دون بهرجة ، وكان يحف به وقار ومهابة وجلال ، كما كان يحف به حب طلابه لسماحة نفسه وكريم شمائله ، إذ كان يفتح قلبه لهم ، وكان غاية فى التواضع وأدب الحديث دون أى ترفع ، وكأنه أب رءوف أو صديق عطوف».

«وكان يذهب فى محاضراته مذهبا لم يُسبق إليه ، هو أنه ينبغى ألا يعوّل فى دراسة الفكر الإسلامى على كتب الفلسفة الإسلامية وبيان جذورها وفروعها فيه ، بل يعوّل على كتب أصول الفقه والتشريع الإسلامى حيث يتضح اتضاحا تاما استقلال هذا الفكر وأنه لا يستمد من مصادر أجنبية ، بل يعتمد على ذاته إذ نشأت مقوماته وتطورت داخل العقل العربى الإسلامى الخالص ، وكان يتتبع حياة هذا الفكر وأصوله تتبعا علميا خصبا».

«وكان الفتى ورفاقه يشغفون شغفا شديدا بمحاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق وما يثير فيها من آراء وأفكار ، وكان قد تعمق الثقافتين: الأزهرية القديمة والفرنسية الحديثة ، فكان محافظا وفى الوقت نفسه كان مجددا ، أو بعبارة أخرى كان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه ، فهو من الرعيل الذى استظهر إلي أقصى حد شخصية أمته الإسلامية العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربى الحديث تزودا من شأنه أن يجلو هذه الشخصية ويبرز خصائصها العقلية على نحو ما كان يبرز الشيخ مصطفى عبد الرازق الفكر الإسلامى بخصائصه ومقوماته وطوابعه».

«وكان لا يزال يعرض على الفتى ورفاقه فى محاضراته آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين والعرب من أمثال رينان وكارادى فو وجولد تيسهر والشهرستانى وابن القيم وابن خلدون ، ويناقشهم جميعا محاولا بكل قوته أن يرفع صرح الفكر العربى الإسلامى فى مجال أصول

الفقه ، لبنة من فوقها لبنة ، وفكرة تعلوها فكرة ، وكان حين يتناول آراء القدماء والمحدثين من العرب والغربيين يحصيها ويستقصيها مع الإنصاف الشديد فى عرضها دون أى تحيف أو تعصب لفكرة أو لشخص ، وكأنما كانت فى يديه موازين عادلة ، فهى تزن بالقسطاس دون أن تميل يمنة أو يسرة ، وكان لهذا الإنصاف والعدالة فى الأحكام والآراء أثرهما البعيد فى نفس الفتى ، إذ تعمقا ضميره ووجدانه».

....

«ورأى الشاب أن يزور أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقد لقيه فى منزله لقاء كريما ، ولم يكن منزلا أو قصرا للأسرة فحسب ، بل كان أيضا منتدى كبيرا يجمع الأزهرى العصرى والمثقف ثقافة قديمة ، والمثقف ثقافة حديثة ،والوزير وغير الوزير من رجال الفكر والقلم ، وكان أستاذه كوكب هذا النادى بما يجمع من الثقافة الحديثة والفكر الجديد مع التمسك الشديد بالشريعة الإسلامية وروح الإسلام».

«وكل مَنْ عاش هذه الحقبة فى تاريخ مصر يعرف ما كان لهذا المنتدى من التأثير الواسع فى الفكر المصرى حينئذ ، فلما ألم به الشاب راعه وقار المجلس ومَنْ فيه ، ولاحظ ذلك عليه أستاذه ، فأخذ يتلطف إليه وبلغ من تلطفه أن كان حين يعرِّف جلساءه به واحدا بعد واحد ، يذكر لهم منصبا جامعيا رفيعا آملا أن يشغله الشاب بعد حين ، وأخذ يقترب منه فى الحديث مع أدب بالغ حتى يدنيه منه ، وحتى يرفع عنه ثقل ما أحسه فيه من كلفة ، حتى إذا رأى الشاب الانصراف ضرب له موعدا آخر يلتقى به».

«ولم يكن هذا اللقاء الكريم للشاب شيئا آثره به الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد كان يلقى تلاميذه جميعا هذا اللقاء الباش البار ، وإن الشاب ليذكر ذلك كأنه بالأمس ويذكر معه لطف أستاذه طه حسين ـ بل لطف أساتذته جميعا ـ فى لقائه إذ لم يكونوا أساتذة لتلاميذهم فقط ، بل كانوا أيضا آباء يمتلئون لهم برا وعطفا ، ولا يذكر الشاب أنه لقى واحدا منهم إلا وكان طلاقة وجه مجسدة ، ومؤانسة ، ومودة ، وبفضل هذه المنزلة التى كانوا يرفعون إليها تلاميذهم ، وبفضل الثقة التى كانوا يضعونها فيهم ، وبفضل ما غرسوه فى نفوسهم من مثل عليا ، استطاع تلاميذهم أن يحققوا على الأقل بعض ما كانوا يؤملونه فيهم من شغف بالبحث والدرس».]

(٢٨)

وبالإضافة إلى هؤلاء الأعلام الثلاثة فإن الدكتور شوقى ضيف يذكر أربعة آخرين من أساتذته فى الجامعة بما يستحقون من ثناء كامل وتمجيد لفهمهم وطرق تدريسهم وعلمهم.

وهو يثنى بكل ما يمكنه من ثناء على أستاذه أحمد الإسكندرى:

«وكانت الوزارة قد نقلت إلى قسم اللغة العربية الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذ الأدب بدار العلوم ليشغل مكان طه حسين فيه ، وكان شيخا جليلا ، وله مؤلفات فى الأدب وغيره ، وكان حجة لا يبارى فى اللغة واشتهر ببحوثه اللغوية الفريدة ، وكان يأخذ الفتى ورفاقه بالجد فى الدرس ناصحا لهم مرشدا ما استطاع من الإرشاد والنصح ، وذكر لهم يوما فيما ذكرمن إكبابه على البحث أنه قرأ القاموس المحيط للفيروزابادى بمجلداته الأربعة وفى يده قلم ليكتب توا كل كلمة يجدها فى هذا المعجم صالحة لأداء معنى حضارى جديد أو مصطلح علمى حديث ، وبذلك ومثله كان يدفع الفتى ورفاقه للعكوف على القراءة والتحصيل والانتفاع بما يحصِّلون ويقرأون».



ويتحدث بنفس القدر من الامتنان عن أستاذه إبراهيم مصطفى:

«يدرس لهم النحو بطريقة جديدة لم يألفها الفتى فى الأزهر ولافى تجهيزية دار العلوم ولا فى كتب النحو القديمة التى اطلع عليها ، طريقة نقدية تحليلية ، يُدرس فيها الباب من أبواب النحو دراسة تاريخية ، تصور آراء النحاة القدماء فيه على مر الأجيال ، ولا يكتفى الأستاذ بذلك ، بل يعرض الباب مبينا ما جاء عن العرب من شواهد شعرية فيه ، محاولا أن ينفذ من خلال ذلك إلى رأى جديد يبسطه للفتى ورفاقه ، وكان قد وضع نصب عينيه أن يخلِّص النحو من شوائبه الكثيرة التى جعلته أشبه بغابة ملتفة ، وكان يحاول بكل جهده أن يفتح الأبواب أمام الفتى ورفاقه كى ينقدوا الآراء المتشعبة للنحاة فى الباب أو فى المسألة الواحدة وما أثروه من علل وأقيسة ، وكان الفتى يعجب بهذا الاتجاه الجديد فى دراسة النحو ، ويحاول النفوذ ـ على غرار أستاذه ـ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكثيرا ما كان الأستاذ يبتسم ويقول له: ما أحراك أن تُعنى تأليف القصص ، فإن عقلك كثير الخواطر كثير الاقتراحات والآراء».



ويشبه حديثه عن الشيخ أمين الخولى حديثه عن أستاذه أحمد أمين من حيث الإشارة إلى اجتماع كثير من العناصر المتكاملة فى شخصيته:

«تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى: مدرسة عاطف بركات ، وعين إماما فى سفارة مصر بإيطاليا وألمانيا ، فرأى الغرب ووقف على جوانب من الحضارة والفكر فيه ، وجعله ذلك يجمع بين القديم والجديد مع محافظة واضحة على القديم فى زيه ، فقد عاد بعد رجوعه من الغرب إلى الزى الأزهرى ، وهو مع ذلك يكره الجمود ويحب التجديد ، وكان يحاول أن

يصطنع نهجا جديدا فى تدريس البلاغة ، وكان لا يزال يدفع الفتى ورفاقه إلى نقد كل ما يقرأون ، وأيضا إلى نقد كل ما يدلى به من آراء ، وكان يتقبل أفكارهم بصدر رحب وسعة أفق غير مظهر لأى طالب تبرما أو ضجرا مهما طال فى حواره معه ، وفى مناقشته وجداله ، وكان الفتى ورفاقه يعجبهم فيه هذا الجانب ، فكانوا يستعدون دائما لجداله ويأخذون الأهبة لمناقشته وهو هاش لهم ، بل لا يزال يستزيدهم محاولا أن يوضح لهم الصواب من الخطأ ، وكان قد اختار فى التفسير للفتى ورفاقه أقسام القرآن الكريم فى مطالع بعض صوره لدراستها طوال العام ، وأخذهم بقراءة كتاب التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ، وظل يحاول معهم بيان النسق القرآنى بين القسم فى مفتتح سوره وما يليه ،وكانت دراسة أدبية طريفة مرن فيها الطلاب من بعض الوجوه على التذوق الفنى لآى الذكر الحكيم».



وقريب من هذا فى نهجه وروحه حديثه عن الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يشير إلى النزعة الإسلامية فى شخصيته ، وإلى دوره فى تقريب الأدب الفارسى واللغة الفارسية إلى طلابه:

«تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى: مدرسة عاطف بركات ، وعين إماما فى سفارة مصر بلندن ، وهناك التحق بجامعتها دارسا فيها اللغة الفارسية ، وكان مثلا رفيعا من أمثلة الدأب العلمى الخصب ، وهو أول أستاذ مصرى علم الفارسية للطلاب فى جامعة القاهرة ، وكان يؤمن بالعروبة والإسلام إيمانا عميقا ، شاعرا بأن الوطن العربى جميعه وطنه ، بل إن الوطن الإسلامى جميعه وطنه ، ويصور ذلك كتابه: «الأوبد» تصويرا حيا ، وجعلته دراسته للآداب الفارسية يتعمق التصوف عند شعرائه الفرس ،وكانت لذلك أصداء بعيدة فى نفسه ، إذ تميز بنزوع حقيقى إلى التصوف. وكان عبد الوهاب عزام أديبا بارعا ، عرفه الفتى فى أول سنة من سنيه فى كلية الآداب ، حين رآه وهو يناقش فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه».

«وكانت دروسه فى الفارسية محببة إلى الفتى ورفاقه ، وسرعان ما عرفوا الفارسية ، وكان يقتطف لهم منها أزهارا يانعة من قصص الشيخ سعدى ، ومن أشعار حافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى ومحمد إقبال شاعر باكستان العظيم ، وكان خفيف الظل لا يعبس فى وجوه تلاميذه ولا يتجهم ، بل يتلقاهم دائما صافى الروح وادع النفس».

مذكرات المفكرين والتربويين
تكوين العقل العربي

2

سيرة حياتي

مذكرات:

عبد الرحمن بدوي

دار الخيّال

(١)

أبدأ فأقرر ـ بكل اطمئنان ـ وثقة أن مكانة هذه المذكرات بين المذكرات المكتوبة باللغة العربية ، توازى مكانة صاحبها فى الفكر العربى المعاصر ، وهى مذكرات حافلة.. رصينة.. متنوعة.. مخلصة.. صريحة.. شجاعة.. جسورة.. دقيقة.. موحية.. معبرة.. وليس فيها ما يعاب مما عيب عليها على مدى العامين الماضيين منذ صدرت وحتى توفى صاحبها.

وبودى أن أنبه إلى الخطورة الكامنة فى اندفاع كثير من الأقلام فى الهجوم على المذكرات وعلى صاحبها ، بسبب ما فيها من صراحة زائدة فى تناوله للشخصيات العامة ، وتتمثل هذه الخطورة فى نظرى فى أننا بمثل هذا النقد نوحى لأصحاب المذكرات بالتراجع عن قول ما يعتقدون فى صوابه وفى صدقه ، وهى آفة خطيرة أرجو الله سبحانه وتعالى وأدعوه ليلا ونهارا ألا تتمكن منا أو من مذكراتنا.

وبوسعى أن أتساءل: كيف أمكن لنا أن نتوقع من هذا الفيلسوف العالم الكاتب الشاعر الناقد الأكاديمى الفنان أن يتحفظ فى إبداء آرائه ومعتقداته وهو الذى بذل حياته كلها من أجل الحقيقة ، وتفرغ طيلة هذه الحياة لهذا الهدف الأسمى فدرس ودرّس وقرأ وشاهد وسافر ونقد وناقش وألف وصنف وترجم وحقق وفهرس وقيم من أجل هذه الحقيقة فى أسمى صورها؟! كيف يمكن لنا بعد هذا كله أن نتصوره قادرا على أن يتقبل وضع نفسه فى موضع المداهن أو

المنافق أو المجامل؟ أو قادرا على أن يمسك العصا من الوسط؟ أو قادرا على أن يكتم شهادة الحق من أجل قومه ، وبنى قومه؟!

مبلغ علمى أن ما بين أيدينا من مذكرات عبد الرحمن بدوى يمثل الحد الأدنى لما كنا ننتظره من مذكرات هذا الرجل الشجاع الجسور الذى لم يورط نفسه فى فساد ، ولم يقبل أن يورطه غيره فى جهالة ، وهو لهذا يشعر بالشمم فى ذاته وفى سلوكه ، ولهذا فقد كان من حقه ، بل من واجبه ، أن يكتب مذكراته على هذا النحو.

ومن العجيب أن بعض قادة الإفك فى بلادنا دفعوا ببعض صبيانهم ومواليهم للهجوم على هذا الرجل انتقاما مما أورده فى حقهم من شهادة صريحة.

ومن العجيب أيضا أن هؤلاء لم يجدوا فى أنفسهم قدرة على التصدى للهجوم على هذا الرجل العظيم فاكتفى معظمهم بأن ينقل للقراء بعض النصوص التى تتكون منها شهادته المدينة فى مجملها أو فى جزء منها لبعض أقطاب حياتنا الأدبية والسياسية ، وقد قاد الجبن هؤلاء إلى أن يكتفوا بنقل هجوم عبد الرحمن بدوى على بعض الراحلين وأن يغضوا النظر عن هجومه على بعض أسيادهم ممن لا يزالون يحركونهم!!

ومعظم الكتابات التى عرضت كتاب عبد الرحمن بدوى لم تخرج عن هذا الإطار ، بل إن بعضها نقل جهاراً نهاراً من البعض الآخر من دون أن يلمس كتاب عبد الرحمن بدوى ، دعك من أن يطالعه أو يقلب صفحاته ، وهكذا أصبحت صورة هذه المذكرات فى أذهان كثير من القراء مقصورة على صورة مذكرات الرجل الشجاع الذى لم يبق على شىء إلا وهاجمه حتى إنه (على حد تصويرهم) هاجم كل مَنْ كان فى وسعه أن يهاجمه.

وأنا حريص على أن أقول إن من العجيب أن يحدث هذا لأن كتاب حياة عبد الرحمن بدوى حافل بالإشادة بكثير من الأعلام والثناء عليهم ، وذكر فضلهم وعلمهم وخلقهم ونبلهم ، بل إن الذين أثنى عليهم عبد الرحمن بدوى يفوقون فى عددهم وفى قدرهم بالطبع هؤلاء الذين هاجمهم وعرّض بهم ، ولكن التقديم العقيم الذى قدم به هذا الكتاب فى صحفنا ومجلاتنا تعمد بالطبع أن يتخلى عن هذا الحق ، ليقدم الرجل الصريح الواضح فى صورة رجل مهاجم للآخرين على طول الخط.

ومع هذا فإن من حسن حظ حياتنا الأدبية أن ثارت هذه الثورة على هذا الكتاب على هذا النحو الذى أثيرت به ، فقد كفلت هذه الزوبعة أن يعرف الكتاب على مستويات متعددة ، منها مستويات الباحثين فى التاريخ والسياسة والنقد والفلسفة والجامعة ، الذين سيفيدون أيما إفادة من استيعاب أفكار هذا الرجل العظيم.

(٢)

تتجلى عبقرية عبد الرحمن بدوى الأدبية فى براعة الاستهلال التى يبدأ بها سيرة حياته ، ولهذا فقد كان من حسن تصرف الناشر أن جعل فقرة الغلاف هى نفسها الفقرة الأولى من الكتاب التى نجح بدوى فى صياغتها على نحو مؤثر وبارع موظفا حادثا وقع لوالده قبل ميلاده ، كان كفيلا بعدم وجوده هو ، ومع هذا فإن هذا الحادث نفسه لم يكن له علاقة من قريب ولا من بعيد بمولد صاحب السيرة ، لكنها براعة المثقف فى خلق موقف بديع يبدأ به السيرة.

يقول عبد الرحمن بدوى:

«بالصدفة أتيت إلى هذا العالم ، وبالصدفة سأغادر هذا العالم!».

«وآية ذلك أنه لو لم تتطاير ورقة وتتساقط على الأرض فينحنى والدى لالتقاطها ، لكان قد ودع الحياة فى ذلك اليوم من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣ . فقد استأجر أحد خصومه قاتلا ، جاء إلى حيث يجلس فى بيت العمدية فى مساء ذلك اليوم ، ثم أطلق عدة رصاصات فى اتجاهه ، وفى هذه اللحظة عينها تطايرت هذه الورقة الرسمية التى كان يراجعها (وهى من أوراق المحكمة الشرعية) فانحنى لالتقاطها ، فلم يصب الرصاص إلا الطرف الأعلى من العمامة واستقر فى باب كان خلفه. وصاح: الله حى! وصمت صمتا تاما جعل القاتل يظن أنه أصاب من والدى مقتلا ، وأخذ يعدو إلى منزل مَنْ استأجره ، لكن والدى نهض فورا وعدا فى إثره ، مدركا بحدسه المرهف أنه لابد فى طريقه إلى بيت ذلك الخصم الشرير الذى كان يدعى جادو زرد ، ونادى والدى على المارة أن يهبوا معه إلى منزل ذلك الرجل ، حتى حاصروه ، وفى أقل من نصف ساعة كانت القرية كلها قد تجمعت واقتحمت ذلك المنزل ، ولما لم تجد الجانى لأنه هرب إلى منزل مجاور مكشوف انقض عليه أحد الرجال وهو مختبئ فى أحد أركانه وتم تكبيله بالحبال ، والقبض على مَنْ استأجره ، وقام والدى بتبليغ الحادث بنفسه إلى مركز الشرطة ، فجاء رجال الشرطة من فارسكور ، على مسافة ثمانية كيلومترات من شرباص ، وقام هؤلاء بالقبض على الجانى ومَنْ استأجره ، وسيقا إلى مركز الشرطة فى فارسكور».

«وكان ميلادى بعد ذلك بأربعين شهرا ، فى الرابع من فبراير سنة ١٩١٧».

ومع هذا الجمال فى العرض والتسبيب فإن المنطق فى هذا الاستهلال يفتقد إلى منطق

ولست أدرى لماذا لجأ الدكتور بدوى إلى تبريره على هذا النحو الذى يبدو به حكيما يصوغ الحكمة من المصادفة مع أنه لم يستوعب قول الله سبحانه وتعالى فى المعنى نفسه فى كتابه الكريم: ﴿وجعلنا لكل شيء سببا﴾ يقول عبد الرحمن بدوى:

«ولو فتشت تاريخ حياة أى إنسان ، لوجدت أن نوعا من الصدفة هو الذى تسبب فى ميلاده: صدفة فى الزواج ، صدفة فى الالتقاء بين الحيوان المنوى فى الرجل والبويضة فى الأنثى.. إلخ. وواهم إذن من يظن أن ثمة ترتيبا ، أو عناية ، أو غاية ، إنما هى أسباب عارضة يدفع بعضها بعضا لتؤدى إلى إيجاد مَنْ يوجد ، وإعدام مَن يُعدم».

على أن أفضل ما فى شخصية عبد الرحمن بدوى على نحو ما تعرضها هذه المذكرات هو إيمانه غير المعلن ولا الصارخ بالأصالة ، وهو إيمان صادر عن ثقة بالنفس مكنته من أن يكون على الدوام مبتكرا على الرغم من انشغاله التام والكلى بتراث الأقدمين والسابقين عليه ، ويكفى للدلالة على هذا المعنى ما نفهمه من هذه القصة التى لم ترد إلا فى صفحة ٣٤٩ من الجزء الثانى من مذكراته ولكنى أراها ضرورية للبدء بها فى عرضنا لهذه المذكرات.

يقول عبد الرحمن بدوى فى معرض حديثه عن المحاضرات واللقاءات التى حضرها فى إيران:

«على أن الإيرانيين فى نطقهم للكلمات العربية المنقولة إلى الفارسية إنما ينطقون نطقا مباينا بالجملة لنطق العرب لها ، لهذا يصعب كثيرا على العربى أن يميز الكلمة العربية التى ينطق بها الإيرانى ضمن لغته الفارسية».

«وأذكر مرة أن محمد محيط طباطبائى طلب منى قراءة قصيدة لجلال الدين الرومى كنت قد استشهدت بها فى إحدى محاضراتى عن التصوف فى كلية الاهيات وعلوم إسلامى ، ولم يكن قد سمع بهذه القصيدة من قبل ، فقال لى بعد أن قرأت القصيدة: أنت تحسن النطق بالكلمات الفارسية مثلنا تماما ، أما الكلمات العربية فى القصيدة فأنت لا تنطق بها مثلنا ، فعليك لإتقان الفارسية تماما أن تنطق ما فيها من كلمات عربية كما ننطق بها نحن ، لا كما ينطق بها العرب».

«فأجبته: كلا ياسيدى! لن أفعل هذا أبدا ، لأننى لن أسمح لنفسى بتشويه لغتى العربية من أجل إتقان النطق بالفارسية!!».

ثم يعقب صاحب المذكرات بقوله:

«هذا ومن المؤسف حقا أن بعض أساتذة اللغة الفارسية فى مصر بلغت بهم الببغاوية فى المحاكاة حدا يجعلهم ينطقون الألفاظ العربية فى الفارسية على النحو المشوه الذى اعتاده

الإيرانيون! ومثلهم مثل ببغاوات اللغات الأوروبية الحديثة الذين ينطقون أسماء الأعلام العربية كما ينطقها أصحاب هذه اللغات ، فيقولون: ماهومت (محمد) ـ كايرو (القاهرة) ـ أومار (عمر) ـ سيرى (سوريا) ـ ألى (على). وهذا الحمق التام قد بلغ القمة عند اللبنانيين والتونسيين والجزائريين والمغاربة!! شفاهم الله من هذا الداء الوبيل ، الذى يتباهون مع ذلك به دون أى حياء ولا خجل. ألا فليعلموا أنه لا علاقة مطلقا بين هذه الببغاوية الشائنة وبين اتقان اللغة الفارسية أو اللغات الأوروبية الحديثة ، بل هى علامة إفلاس وعجز لغوى فى العربية وفى هذه اللغات الأجنبية على السواء ، ولئن ألتمس العذر لغير العرب عند عجزهم عن نطق بعض الحروف العربية ، فأى عذر لدى هؤلاء الناطقين بالعربية؟!».

ومع أنى لم أتعود الخروج من مذكرات الآخرين إلى عرض تجاربى ، إلا أنى لاأملك إلا أن أشير إلى أنى منذ منتصف الثمانينيات كنت فيما أكتب وأحاضر أضرب مثلا شبيها بل مماثلا تماما بهذا الذى يتحدث عنه الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وذلك ضمن ما كنت أطالب به من ضرورة تعريب المصطلحات الطبية والتعليم الطبى ، وكنت أصل فى هذا الحد إلى القول بأننا صرنا إلى الحال الذى إذا اكتشف فيه عالم مسلم اسمه محمد مرضاً وسمى المرض باسمه نقلنا اسمه على نحو ما يسجل به فى المراجع الأجنبية وسميناه «مرض موهامد».

(٣)

يلى هذا فى نظرى قدرة عبد الرحمن بدوى على إدراك الحق والصواب إذا ما توافرت له وسائل هذا الإدراك بعيدا عن النظريات والأيديولوجيات والنصوص شبه المقدسة ، ويتحلى هذا الخلق بوضوح فى مواقف عبد الرحمن بدوى من المسلمات السائدة فى عصره ، خصوصا فى المسائل الإنسانية المتعلقة بالتربية وبناء الإنسان ، ومن أمثلة هذا هجومه المتكرر والمبرر على التربويين المحدثين:

«.. والمسئولية عن هذا الانحطاط المدمر الذى أودى بالتعليم فى مصر تقع كلها على «فرسان التربية» (البيداجوجيا) الذين خربوا ـ بمناهجهم التربوية (العلمية) المزعومة ـ التكوين اللغوى والفكرى للتلميذ المصرى. إن الكارثة التى جلبها هؤلاء «البيداجوجيون» على التعليم فى مصر أفظع من كل كارثة أخرى أصابت البلاد ، لأنها دمرت خير ما فيها ، أعنى عقول أبنائها».

هكذا يقرر عبد الرحمن بدوى فى وضوح ، وعنده مبرراته التى يفصلها فى كثير من

المواضع فى مـذكراته الحافلة ، وهو لا يكتفى بهذا الجانب من الجوانب السلبية فى البيداجوجيا، ولكنه يستطرد إلى أخطاء أخرى أوقعنا فيها البيداجوجيون:

«وإلى جانب تدميرهم لتعليم اللغة العربية ، قضوا قضاء تاما على تعلّم اللغات الأجنبية. إن اللغة مفتاح لعالم بأسره ، ومَنْ لا يعرف لغة أجنبية حديثة ذائعة الانتشار ، حافلة بالمؤلفات العلمية الجيدة لا يعرف شيئا ، وليس جديرا بأن يعيش. لقد تفتق ذهن هؤلاء البيداجوجيين الضيق الفاسد عن دعوى كاذبة كل الكذب ، وهى أنه مما يضر باللغة القومية أن يتعلم التلميذ لغة أجنبية فى المرحلة الابتدائية! ويحكم أيها الضالون المضللون![هكذا يخاطب الدكتور بدوى التربويين المحدثين فى غمرة حماسه] إن العبرة كما قلنا من قبل هى بالنتائج ، فهل أعرف بلغته العربية من تلميذ الأمس الذى تعلم لغة أجنبية إلى جانب العربية فى المدرسة الابتدائية؟! هذا أمر لا يستطيع أن يدّعيه أحد ، مهما كان مكابرا بيداجوجيا!».

❑

ولهذا السبب الذى أوضحه عبد الرحمن بدوى فى الصفحات الأولى من مذكراته نرى ونفهم طبيعة إصراره [وإصرار زملائه] وحرصهم على تميز كلية آداب عين شمس فى مناهجها ونظمها ، وهو الحديث الذى لا يأتى إلا فى الجزء الثانى من المذكرات حيث يقول:

«... وقد حاولنا منذ البداية أن نجعل هذه الكلية متميزة تماما فى نظامها التعليمى عن نظيرتها فى جامعة فؤاد ، واتفق رأينا ـ فى سبيل ذلك ـ على اتخاذ نظام الشهادات بدلا من نظام السنوات ، فحددنا لكل قسم عددا معينا إلزاميا من الشهادات التى إذا حصل عليها الطالب حصل على الليسانس ، بيد أننا رأينا من العسير تطبيق نظام الشهادات المعمول به فى الجامعات الفرنسية كما هو ، أعنى بترك الحرية للطالب يختار من الشهادات المقررة عليه فى قسمه مايريد الالتحاق به والامتحان فيه ، بل جمعنا فى الواقع بين نظام الشهادات ونظام السنوات: فالمواد الرئيسة فى كل قسم صار لكل منها شهادة ، وعلى الطالب أن يحضر للشهادات بحسب ترتيب محدد لا يحيد عنه ، ويستغرق أربع سنوات ، فهو لا يستطيع ـ على عكس الطالب الفرنسى ـ أن يختار شهادة قبل أخرى ، ولا أن ينتقل من سنة إلى تالية إلا إذا نجح فى الشهادات المقررة للسنة السابقة ، ولا يستطيع أن ينتهى من دراسته ويحصل على الليسانس إلا بعد قضائه أربع سنوات دراسية كاملة».

❑

ولا تقف عقائد عبد الرحمن بدوى عند حدود وطنه ، لكنه شأن الطبيب يدرك المرض وحدوده فى أى مكان مادام قد وجد العناصر المشخصة للمرض ، ومن هذا ـ على سبيل المثال

ـ ما نجده من انتقاده للجامعات الفرنسية فى تساهلها مع الطلاب الوافدين (ومنهم العرب والمصريون) اعتمادا على أنهم لن يعملوا بشهاداتهم فى داخل فرنسا:

«... وللتدليل على هذا التساهل المخزى ، والاستخفاف الإجرامى من جانب الأساتذة فى الجامعات الفرنسية مع المتقدمين للحصول على الدكتوراه ، يكفى أن نسوق إليك بيانا برسائل الدكتوراه التى تقدم بها الفرنسيون فى ميدان الدراسات العربية ، وبالرسائل التى تقدم بها بعض الحاصلين على دكتوراه الدولة من البلاد العربية».

ويقدم الدكتور عبد الرحمن بدوى هذا البيان بالفعل متضمنا المقارنات التى تؤيد وجهة نظره!!



ويعرض الدكتور عبد الرحمن بدوى لنفس هذه الفكرة عند حديثه عما يسميه فشل البعثات المصرية إلى أوروبا فى العصر الحاضر فيقول:

«فلو قارنت بين رسالة الفرنسى ورسالة العربى لتبينت فى الحال الفارق بين الثريا والثرى، بين السماء والأرض ، بين الأصالة العميقة وبين السطحية التافهة. والأمر نفسه تجده حين تقارن بين رسائل الفرنسيين ورسائل العرب (أو الأجانب) فى ميدان الدراسات الأوروبية فى أى فرع كان من فروع العلوم الإنسانية ، والأمر واضح ها هنا من أن يعوز إلى ذكر أسماء أصحاب الرسائل وعنواناتها».

(٤)

يؤمن عبد الرحمن بدوى بأهمية التعمق والتمعن والدراسة والوصول إلى الأحكام بعد جهد كفيل بالوصول إليها ، وقد حاول أن يربى تلاميذه على هذا المنهج ، لكنه كان يفاجأ بالمجتمع المصرى خارج المدرجات وهو أميل إلى تصديق الروايات الأولى فيما لا يمسه من أمور ، وهو يجأر بالشكوى من تدهور عقلية المصريين المعاصرين فيقول:

«والمصرى بطبعه لا يتمعن من أى شىء يقرؤه أو يسمعه ، بل يصدق أى شىء مادام الأمر لا يتعلق بمصلحته الشخصية.. ومن العجيب فى أمره أنه إذا وقر فى ذهنه أى شىء ، حتى أكذب الأكاذيب ، فإنه لا يتخلى عنه بعد ذلك مهما أتيت إليه على عكسه بألف دليل ودليل.. ولهذا كان من المحزن حقا أن تسمع من أفواه المستشارين فى القضاء وكبار المحامين والأطباء والمهندسين.. إلخ نفس هذا الجهل الفاضح عن الوجودية الذى تلقاه من كتابات الصحفيين

الموغلين فى أحط درجات الجهل ، وذلك لأنهم لا يكلفون أنفسهم عناء قراءة أى كتاب جاد فى أى موضوع خارج عن مهنتهم ، ولا يحققون فى صحة ما يسمعون أو يقرأون ، وهذا فى نظرى أعضل داء أصيبت به عقول المصريين.. فما بالك إذا انضاف إلى هذا الجهل المركب العنيد الحقد الأزرق المدمر؟!».

على مثل هذا النحو يمضى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى استنكاره الغاضب وتعبيره العاصف عن هذا الغضب الذى هو غضب مشروع من أجل العلم ومن أجل الفكر.



ويتجلى هذا الضجر من لامبالاة المصريين بصفة واضحة فى حديث عبد الرحمن بدوى عن ملامح فكره السياسى الذى بلغ أقصى درجات النضج حين اختير للمشاركة فى وضع الدستور عقب قيام ثورة ١٩٥٢ ، وكيف أنه فى هذه المرحلة كان أقرب إلى العازف المنفرد ، ونراه ينتقد مناورات على ماهر كما ينتقد فى الوقت نفسه ما سماه ببلاهة وجهالة رئيس مجلس النواب الوفدى عبد السلام فهمى جمعة حين اقترح أن تعهد اللجنة إلى الدكتور السنهورى بوضع الدستور:

«... ومنذ الاجتماع الثانى للجنة الدستور ، بدأ على ماهر مناوراته مستعينا بالمقربين إليه من أعضاء اللجنة ، وهم عبدالرزاق السنهورى ، ومصطفى الشوربجى ، ومصطفى مرعى ، فلما عرضت مسألة نظام الحكم ـ وكان قد امتلأ غيظا من رجال الثورة بسبب طرده من الوزارة فى ٨ سبتمبر ـ أوعز إلى مصطفى الشوربجى بالدفاع عن النظام الملكى ، وقام مصطفى الشوربجى يدافع عن النظام الملكى لأكثر من ساعة رغم مطالبتى بوقفه عن الكلام لتجاوزه الوقت المقرر لكل عضو ، لكن على ماهر ، وهو رئيس الجلسة ، كان يفسح للشوربجى فى الكلام ، بل ويستحثه على الإطالة».

«كما حاول عن طريق عبدالرزاق السنهورى أن يستأثر بوضع مواد الدستور ، ودفعت البلاهة والجهالة بعضو ـ هو عبد السلام فهمى جمعة ، الذى كان رئيسا لمجلس النواب الوفدى ـ أن يطلب من السنهورى وضع مشروع دستور».



ويتحدث عبد الرحمن بدوى عن رد فعله تجاه هذه البلاهة والجهالة على حد تعبيره فيقول:

«وهنا قمت وصرخت فى وجه على ماهر والسنهورى والبلهاء من الأعضاء: «إذن ما الفائدة فى تشكيل هذه اللجنة إن كان أحد الأعضاء ـ وهو السنهورى ـ سيتولى القيام بوضع

الدستور بدلا عنها؟! هل نحن هنا تلاميذ نتلقى درسا من السنهورى؟ إن هذه إهانة بالغة لأعضاء اللجنة ، وإهدار للغرض من تشكيلها ، واستخفاف تام بمن دعوا إلى وضع الدستور فعينوا لذلك العمل هذه اللجنة».

ثم يروى عبد الرحمن بدوى كيف استقبلت ثورته بنوع من الفهم وتغيير أسلوب العمل إلى ما يتفق مع فكرته هو [وإن كان هو لا يقدر قيمة هذا التحول الجيد الذى حدث] وكيف تقدمت طريقة عمل اللجنة:

«فالتهب الجو ، وأسقط فى يد السنهورى ، واضطر على ماهر إلى رفع الجلسة ، ولما عادت تقرر أن ينقسم الأعضاء إلى خمس لجان ، تتولى الاجتماع لأداء المهمة المكلفة بها ، وتقرر ألا يحدث بعد ذلك أى اجتماع للجنة الدستور بكامل أعضائها ، إلا بعد فراغ اللجان الفرعية من مهامها ، من أجل إقرار الصورة النهائية للدستور».

«واخترت أن أكون عضوا فى لجنتين هما: لجنة الحقوق والواجبات ، ولجنة الشئون الانتخابية ، وصارت كل لجنة تجتمع مرة واحدة فى كل أسبوع».

(٥)

ويقدم الدكتور عبد الرحمن بدوى فى مذكراته تفصيلات مهمة وحيوية عن مشاركاته فى وضع الدستور من خلال اختياره العمل عضوا فى لجنة الحقوق والواجبات ، ومن حديثه ننقل للقارئ هذه الفقرات:

«رأس هذه اللجنة محمد على علوبة ، وكان أعضاؤها هم: د. طه حسين ، ومصطفى مرعى. ود. إبراهيم فهمى المنياوى ، وفريد أنطون ، وسيد ياسين (صاحب مصنع الزجاج) ، ود. عثمان خليل ، وعبدالقادر عودة ،ويواقيم غبريال ، وأنا».

«وكان محمد على علوبة محاميا قديرا ، وخطيبا مفوها ، وواسع الأفق ، جيد الثقافة ، وكان يدير الجلسات بصدر رحب وأناة وحصافة ، وأظنه [يقول الدكتور بدوى] كان العضو الوحيد الذى اشترك من قبل فى وضع دستور سنة ١٩٢٣».

نتوقف هنا لنشير إلى الصواب فى هذه الجزئية ، فقد كان علوبة باشا واحدا من ثلاثة شاء لهم القدر أن يشتركوا فى وضع دستور ١٩٢٣ ، ثم أن يختاروا فى لجنة وضع الدستور بعد ثلاثين عاما بعد قيام الثورة ، أما الآخران فهما على ماهر باشا رئيس اللجنة نفسه ، وعلى المنزلاوى.

ونعود إلى الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو يروى كيف أخذ الأمر بجدية قصوى ، وكيف أعد نفسه للعمل فى هذه اللجنة ، وهو يعدد فى المذكرات (بالتفصيل التام) الكتب والدراسات والدساتير التى راجعها قبل أن يبدأ عمله فى اللجنة:

«وللعمل فى هذه اللجنة أعددت نفسى إعدادا جيدا بالاطلاع على كل الدساتير التى صدرت فى الدول المختلفة الأنظمة بعد الحرب العالمية الثانية ، فضلا عن الإلمام بالقانون الدستورى بصورة عامة».

ويشير الدكتور بدوى إلى فضل هذا الاطلاع الواسع فيما حصل عليه من وضع متميز داخل اللجنة ومناقشاتها:

«وهذا الاطلاع الواسع على أحدث الدساتير هو الذى مكننى من التصدر فى اللجنة ، حتى على القانونيين فيها ، لأن هؤلاء الأخيرين اقتصرت معلوماتهم فى القانون الدستورى على الدساتير القديمة السابقة على الحرب بمدة طويلة ، وباستثناء د. عثمان خليل لأنه كان يقوم بتدريس القانون الدستورى آنذاك ، كان سائر القانونيين قد نسوا ما تعلموه فى كلية الحقوق فى القانون الدستورى ، وكانت تعليقات بعضهم تدعو إلى الإفراط فى الضحك والتهكم. فمثلا كان مصطفى مرعى كثيرا ما يعترض على ما نقترحه قائلا: «لكن هذا مخالف للدستور ، ياجماعة!» (وكرر هذه الكلمة عدة مرات) ، وهنالك أنبهه باسما: لاحظ يامصطفى بك أننا نضع دستورا جديدا فلا يعنينا أن يتفق مع دستور سنة ١٩٢٣ أو يخالفه».

«أما د. عثمان خليل فرغم اطلاعه على أحدث الدساتير ، فإنه كان ذا نزعة تقليدية تميل إلى الإكثار من القيود على الحريات. فكلما قررنا حقا ، كان هو يقترح فى آخر المادة: «فى حدود القانون» ، وبهذا كان يريد أن يفرغ مواد الحريات من مضمونها بأن يترك للقوانين الجزئية الحق فى وضع ما تشاء من القيود على الحريات ، فكنت أعارضه فى ذلك ، وأقول له مداعبا: «أنا أعلم أنك تطمح أن تصبح وزيرا للداخلية» ، فيضحك وتخف حدة المناقشة».

(٦)

ويدلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى على أن لجنة وضع الدستور قد أخذت بكثير من آرائه وقدرت بعضها الآخر ، وانتبهت بحكم السمو النفسى لأعضائها (وهو ما لم ينتبه إليه عبدالرحمن بدوى بالقدر الكافى) إلى كثير من الصواب والحق فيما أقرته من نصوص:

«رأيت من العبث التام أن ينص على حق من الحقوق ثم يشفع بهذه العبارة: «فى حدود القانون» ، لأن معنى ذلك أن القانون الذى تتحكم فى وضعه السلطة التنفيذية القائمة ـ ومن ورائها أغلبيتها فى البرلمان ـ هو الذى يتحكم فى الحق: فيقيده كما يشاء ، بل ويهدره إهدارا. فما معنى أن تقرر فى الدستور أن: «حرية الرأى مكفولة فى حدود القانون» ، ثم تأتى القوانين بعد ذلك فتضع القيود على النشر ، وعلى الصحافة ، وتحظر تناول موضوعات معينة (سياسية أو دينية أو اجتماعية... إلخ). إنها ستكون إذن كحرية السجين داخل زنزانته ، لهذا كنت أطالب بأنه فى الحالة التى لابد فيها ـ للضرورة القصوى ـ من وضع هذه العبارة: «فى حدود القانون» أن نشفع وضعنا للدستور بوضع القوانين المكملة له أينما وردت هذه العبارة فى أية مادة من مواد الدستور ، وذلك حتى نأمن أن تصدر القوانين عن نفس الروح التى صدرت عنها مواد الدستور».

من ناحية أخرى يبدى عبد الرحمن بدوى قدرة هائلة على تصنيف الاتجاهات والتوجهات المتباينة داخل لجنة الدستور ، وهو يخص نفسه بالوعى الدائم إلى الأخذ بأقصى درجات الحرية:

«لكن الاتجاهات فى لجنتنا كانت من التباين بحيث لم يكن من الميسور الأخذ بالحقوق والحريات كما وردت فى المشروع الفرنسى (مشروع دستور ١٩ أبريل سنة ١٩٤٦):

١ ـ فالتقليديون (مصطفى مرعى ، وإلى حد كبير محمد على علوبة) يريدون الاستناد إلى دستور سنة ١٩٢٣ كأساس ، مع إضافة مواد قليلة جديدة ، والتمسك قدر الإمكان بصيغ المواد كما وردت فى دستور سنة ١٩٢٣.

٢ ـ والإخوان المسلمون (عبدالقادر عودة) يريدون النص على استمداد مواد الدستور من الشريعة الإسلامية.

٣ ـ والأقباط (إبراهيم فهمى المنياوى وفريد أنطوان) يريدون الابتعاد عن كل ما يشعر بأنه مستمد من الشريعة الإسلامية ، ووضع مادة تنص على عدم ذكر الديانة فى المعاملات الرسمية.

٤ ـ وكان د. عثمان خليل يميل إلى وضع القيود على الحريات وعلى ممارسة الحقوق ، مع ميل عام إلى النزعة الإسلامية ولكن باعتدال شديد.

٥ ـ وكان د. طه حسين قليل المشاركة بالرأى ، وإنما كان يشارك فى صياغة عبارة المادة.

٦ ـ أما أنا فكنت واعيا دائما إلى الأخذ بأقصى درجات الحرية: فى الرأى ، والبحث

العلمى ، والنشر ، والاجتماع ، والملكية ، والتجارة والزراعة والصناعة ، والعقيدة الدينية والفكرية.

٧ ـ وكان يواقيم غبريال معتدلا يميل إلى التوفيق ، أما سيد ياسين فلم يحضر إلا جلسة واحدة.



ويخلص بنا عبد الرحمن بدوى بعد هذا كله إلى تصوير مدى الجهد والعناء الذى كان عليه أن يبذله فى هذه اللجنة:

«ولهذا كان علىّ أن أحارب فى كل الجبهات تقريبا ، ومن هنا فإن أقوالى فى محاضر جلسات هذه اللجنة تستغرق أكثر من نصف صفحاتها التى زادت على خمسة آلاف صفحة ، وأظن أن هذه المحاضر لا تزال محفوظة فى أرشيف مجلس النواب.. وعلى كل حال فأنا لا أزال أحتفظ بنسخة منها».

يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الأستاذ صلاح عيسى فى فترة مواكبة بالكاد لنشر عبدالرحمن بدوى مذكراته ، كان قد نشر نصوص مشروع هذا الدستور ، وقد قدم القصة على أنه وجد هذه النسخة من هذا المشروع فى صفيحة قمامة! على أى الأحوال نستطيع من قراءة ما سبق أن نتبين طبيعة المشاركة السياسية النشطة للدكتور عبد الرحمن بدوى فى مطلع عهد الثورة ، وهى مشاركة لم تستفد بها الثورة لأنها ، فيما يبدو لنا الآن ، لم تكن تنوى هذه الاستفادة على الرغم من الجدية التى تعامل بها أعضاء لجنة الدستور مع التكليف التى كلفوا به.

(٧)

وربما يجدر بنا أن نعود إلى تأمل طبيعة فكر عبد الرحمن بدوى السياسى فى المرحلة السياسية السابقة على الثورة ، ومن المعروف أنه كان ضد الوفد ، لكنه لم يكن مع الأحزاب الأخرى ، وإنما كان ميالا إلى توجهات مصر الفتاة ثم الحزب الوطنى الجديد.

وهو يشير فى مذكراته إلى أن بدايات مشاركاته الحزبية الفاعلة والمنظمة كانت من خلال المحاولة التى بذلت لتجديد دماء الحزب الوطنى الجديد ، وهى الحركة التى يروى أنه هو نفسه كان أحد أقطابها الثلاثة ، بالإضافة إلى فتحى رضوان ونور الدين طراف ، فإذا ما تأملنا أن

الأخيرين كانا قد أصبحا بعد ستة أسابيع من قيام الثورة وزيرين بارزين ، أدركنا مدى ما كان متوقعا لعبدالرحمن بدوى من مكان متقدم فى المشاركة السياسية فى العهد الجديد ، وعلى كل الأحوال فمن المفيد أن نقرأ ما يرويه عن جهده فى تجديد شباب الحزب الوطنى:

«لهذا رأينا أن ننضم إلى الحزب الوطنى ، لكن على أساس أن نجدد شبابه ، ونبعث فيه الحيوية والديناميكية ، وأن نقرّب بين مبادئه القديمة وبين الاتجاهات الحديثة فى السياسة. وكان على رأس القائمين بهذه الحركة ثلاثة: فتحى رضوان ، ود. نور الدين طراف ، وأنا. وكان رئيس الحزب الوطنى حافظ باشا رمضان قد دخل وزارة أحمد ماهر وزيرا للعدل ، وتولى الاتصال به فى هذا الشأن فتحى رضوان ، فرحب حافظ رمضان بالفكرة ، كيما تكون لحزبه قاعدة من الشباب كان يفتقر إليها الحزب الوطنى أشد الافتقار ، إذ كان لا يضم آنذاك إلا شيوخا فى حدود الستين فأكثر ، وهؤلاء الشيوخ لم يطمئنوا منذ البداية إلى انضمامنا إليهم: ومنهم مَنْ عارض صراحة مثل عبدالرحمن الرافعى وعبد العزيز الصوفانى ، ومنهم مَنْ وافق على حذر مثل زكى على ، ومنهم مَنْ رحب مثل فكرى أباظة. أما حافظ رمضان رئيس الحزب ، فقد أخذ الأمر من وجهة نظر أبوية متعالية ، لا تخشى شيئا من هؤلاء «الشباب».



هكذا لم يكن وجود عبد الرحمن بدوى وأقرانه بمثابة الأمر المرحب به تماما حتى على مستوى قيادة الحزب الوطنى ، ومع هذا فإن هؤلاء الشباب بدأوا بالفعل يمارسون ما يعتقدون أنه كفيل بتجديد شباب الحزب:

«ورأينا نحن «شباب الحزب الوطنى» أن أول عمل يجب أن نقوم به هو أن نصدر مجلة تعبر عن آرائنا ، وكان طبيعيا أن نفكر فى تسميتها باسم «اللواء» اسم صحيفة الحزب الوطنى الذى أنشأه مصطفى كامل ، وأضفنا إلى الاسم ما يعبر عن اتجاهنا الجديد فى الحزب ، فسميناها باسم «اللواء الجديد» ، وأصدرنا العدد الأول منها ـ وهى أسبوعية ـ فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وتوليت أنا الإشراف على طبعها فى مطبعة «لجنة التأليف والترجمة والنشر».



ومع هذا فإن عبد الرحمن بدوى يسجل بكل شجاعة رأيه فى تنكر مجموعة القيادات الشابة لهذا الفكر الوطنى بعد وصولها إلى السلطة فى بداية عهد الثورة وهو يقول:

«وحتى المنتسبين إلى أحزاب الشباب كانوا هم الآخرون يؤملون فى أن يجدوا مكانا بارزا فى السياسة ، لما أن عز عليهم أن يجدوه بين الصفوف الأولى المتكتلة فى الأحزاب القديمة.

ولما وصل بعضهم إلى كرسى الوزارة فى المرحلتين الأولين بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، نسوا كل ما نادوا به من مبادئ من قبل ، وتورطوا فى كل المظالم وصنوف الاستبداد وتدمير الكرامة للإنسان المصرى ، ولم يرتفع لواحد منهم صوت طوال تلك السنوات الرهيبة ، رغم ما تعرضوا له فى كرامتهم من امتهان منقطع النظير».

(٨)

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور عبد الرحمن بدوى كان حريصا فى هذه المذكرات على أن يجاهر بآرائه السياسية بكل قوة ، حتى فى الموضوعات التى لم تنتصر آراؤه فيها ، وهو الأمر الذى يدلنا على أنه لم يكن من طبعه أن يركب موجة ولا ينضم إلى اتجاه طاغ أو مرجح ، وإنما هو حريص على الاعتزاز برأيه أيما كان هذا الرأى ، حتى لو أنه لم ينتصر ولم يثبت نجاحه.

ولعل أبرز مثال أدلل به على هذه الفكرة هو أن أشيرإلى إصراره الشديد على فكرة أن المصريين كانوا يودون انتصار ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ، وهو يقدم تبريرات مهمة لهذا الموقف المصرى على حد تعبيره:

« وكان المصريون جميعا ـ باستثناء الخونة من أذناب الإنجليز وعملاء الشيوعية ـ يتمنون انتصار ألمانيا ، لأن هذا الانتصار هو الذى سيحل مشاكل كل البلاد العربية:

١ ـ فتتخلص سوريا ولبنان من الانتداب الفرنسي؟

٢ ـ وتستقل تونس والجزائر ومراكش استقلالا تاما.

٣ ـ وتتخلص مصر والعراق ودول الخليج من الاستعمار البريطانى باختلاف أشكاله.

٤ ـ وتقتلع الصهيونية من جذورها وتمحى من الوجود ، وتصبح فلسطين عربية خالصة لأهلها العرب وحدهم.

«فأى مكابر ـ مهما بلغ من العناد ـ يستطيع أن يجادل فى هذا؟!»



بل إن الدكتور عبد الرحمن بدوى يمضى فى الانتصار لهذا الرأى إلى حدود قصوى ، منها أن يسفه آراء الذين كانوا يقولون بغير هذا الرأى ، وهو يحاول بكل ما أوتى من منطق ومن بيان أن يدحض آراء هؤلاء الذين كانوا يرون غير رأيه هذا:

«وإذن لكانت البلاد العربية قد وفرت مئات الآلاف من الأرواح ، وآلاف الملايين من الدولارات ، وحينئذ لن يجد الطغاة أية فرصة لفرض طغيانهم ، لكم من حكومات طاغية لم تجد ذريعة لقيامها غير الاتجار بالقضية الفلسطينية ، أو بالاستقلال الوطنى عن المستعمرين! سيقول الخونة والأذناب والعملاء لبريطانيا وأمريكا وروسيا وفرنسا: لكن ألمانيا كانت ستحل محل هؤلاء ، وسيستبدل استعمار باستعمار».

«وهذه الدعوى داحضة مضللة: لأن ألمانيا كانت ستكتفى بسيطرتها على دول أوروبا ، ولن تحتاج إلى غيرها من الدول لبسط نفوذها عليها ، بل يكفيها فقط ضمان الحصول على المواد الأولية ونشر التجارة مع الدول الإفريقية والآسيوية. أما حليفتها إيطاليا فإنها من الهوان والضعف فى الحرب بحيث لم يكن يحق لها أن تطالب بشىء ،وبالتالى لن تمكنها ألمانيا من الحصول على أية مكاسب ، بل ربما حملت على إزالتها من مستعمراتها الإفريقية. أما اليابان فحسبها دول شرقى آسيا ، وسط تجارتها مع دول آسيا وإفريقيا».

«صحيح أنه من الصعب أن نتنبأ فى التاريخ ، لكن مَنْ هو العاقل الذى يخشى من مستقبل لم يقع وهو غير يقينى ، ولا يتخلص من كارثة تمسك بخناقه بالفعل؟! إن عليه أن يتخلص أولا مما هو فيه من بلاء ، فإن جاء بلاء آخر فعليه أن يعمل للتخلص منه فى حينه إن وقع».

«لهذا كان شعور البلاد العربية نحو ألمانيا وتمنيها لانتصارها شعورا صادقا عميقا صادرا عن غريزة لا تخطئ ووجدان صائب ، وأولئك الذين كانوا يصيحون فى المظاهرات العارمة فى شهر يناير سنة ١٩٤٢ ثم فى شهرى يونيو ويوليو من نفس العام: إلى الأمام ياروميل! إنما كانوا يعبرون عن الوجدان الصادق لمصر».

ويصل الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تمسكه بهذا الرأى إلى حد أن يقول:

«لهذا لم يكن غريبا أن يعتبر المصريون يوم ٥ مايو سنة ١٩٤٥ يوم الحداد الوطنى الكبير».

(٩)

ولا تقف شجاعة آراء عبد الرحمن بدوى السياسية عند الحرب العالمية الثانية فحسب ، وإنما هو يجاهر فى شجاعة أيضا برأيه «الغريب» فى الوحدة العربية ، ومع أنه رأى غريب كفيل بأن يجلب عليه الهجوم والانتقاد إلا أنه يتمسك به ويجاهر باقتناعه التام برأيه فى

استحالة الوحدة العربية فى أكثر من موضع ، لكنه يعرض هذا الرأى بطريقة واضحة عند مروره بتجربة الوحدة مع سوريا ، ويعاود عرضه فى أكثر من موضع من روايته لتجربة الاعتقال التى مر بها فى ليبيا عام ١٩٧٣.

ونبدأ بأن نقدم ما يرويه عبد الرحمن بدوى عما أدركه من شعور السوريين تجاه الوحدة:

«إن معرفتى بالسوريين عامة ، والداعين إلى هذه الوحدة بخاصة ، وكنت أعرف منهم جيدا رجال حزب البعث ، تجعلنى لا أحبذ التعامل السياسى معهم: فهم طامعون فى بسط نفوذهم الدائم على سوريا ، وطامعون فى استغلال مصر اقتصاديا وعسكريا إلى أقصى درجة».

«وقد ظهرت مطامعهم هذه جلية منذ اللحظة الأولى ، فضلا عن تدفق التجار السوريين ببضائعهم المزجاة لبيعها فى مصر وعقد الصفقات المشبوهة ، فقد حاول السياسيون السوريون ابتزاز أموال مصر ومرافقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وبلغت الوقاحة ببعض الوزراء السوريين أن طلبوا من جمال عبد الناصر أن يهدى إلى سوريا أحد الخطين الحديديين القائمين بين مصر والإسكندرية ، وقالوا له: «سيادة الرئيس! سافرنا بالأمس بالقطار إلى الإسكندرية ، وقد لاحظنا أن الخط الحديدى مزدوج ، وسوريا فى حاجة شديدة إلى خط حديدى ، فهلا تتفضل مصر فتتنازل لها عن أحد شقى هذا الخط المزدوج؟!» أى والله قد قالوا له هذا بكل وقاحة ، وكأن خطوط السكك الحديدية فى مصر ملك لعبد الناصر ، أو ممتدة فى ضياعه الخاصة!».



ويورد الدكتور بدوى ما يقدمه على أنه شبه خبرة ذاتية أحس بها حين زار دمشق فى أثناء الوحدة لحضور مؤتمر المستشارين الثقافيين وذلك حين يقارن معاملة الناس له فى ذلك الوقت بسابق معاملاتهم له من قبل:

«لكن حين زرت دمشق فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ لحضور ذلك المؤتمر ، شعرت بعامة الناس يعاملوننى بحذر ، بل وبنفور وكراهية وغيظ ، وكان هذا كله بسبب الوحدة التى فرضت على الشعب السورى فرضا من جانب عسكريين وسياسيين مغامرين غير مخلصين ، وما ترتب على ذلك من إرهاب وقد مارسه عبد الحميد السراج وزبانيته ، وكل ذلك باسم الوحدة مع مصر فيما يزعمون ، وهو زعم كاذب كل الكذب. إن أوزار هؤلاء العسكريين وأذنابهم السياسيين السوريين قد انصبت كلها على رأس مصر ، ومصر منها براء كل البراءة».

(١٠)

ونأتى إلى تجربته الشخصية الأشد مرارة وهى التجربة التى انتهى بها عمله فى ليبيا:

«واستيقظ الناس فى ليبيا صباح يوم الأثنين ١٦ أبريل ليجدوا بلدهم بغير قوانين تحكمها ، ولا موظفين مطمئنين فى وظائفهم ، ولا محاكم تتولى الفصل فى منازعاتهم ، بل فوضى شاملة وعماء فى عماء ، وأخرج صغار التلاميذ من مدارسهم الابتدائية والإعدادية ليجوبوا الشوارع تأييدا لهذا القرار الذى لا مثيل له فى التاريخ البشرى».



ويصل الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى رواية بعض تفاصيل اعتقاله على يد ضابط شرطة ليبى من المباحث العامة:

«وفى الساعة الثالثة والنصف من مساء يوم الأربعاء ١٨ أبريل طرق باب شقتى ضابط شرطة بملابس مدنية وأطلعنى على بطاقة هويته وفيها أنه ملازم أول فى المباحث العامة ، وطلب تفتيش الشقة فتركته يفتش فى الكتب ، واستغربت حين رأيته يأخذ كتاب «منطق أرسطو» وسائر ما وجده من كتب أرسطو ، واحترت فى تفسير ذلك وقلت فى نفسى: وما ذنب أرسطو وما شأنه بما يجرى فى ليبيا من أحداث! واستولى على بعض الأوراق ، ومنها محضر مجلس الكلية ، وكنت أنا أمين المجلس ، إذ وجد فيها أسماء طلبة».

«ثم طلب إلىّ السير معه إلى مبنى المباحث وهو قريب من منزلى ، وبعد أن صعد إلى رؤسائه وبقى معهم بعض الوقت اقتادنى إلى مركز شرطة قسم النزهة ، وهناك وقع على سجل بأنه سلمنى إلى قسم الشرطة لاحتجازى ابتداء من الساعة الخامسة والدقيقة ١١ من عصر ذلك اليوم ، ١٨ أبريل سنة ١٩٧٣».

«وهناك فى قسم الشرطة وجدت بعض مَنْ أعرفهم وكانوا قد اعتقلوا هناك قبل ذلك بيوم أو يومين ، ومنهم المحامون والأطباء والقضاة.. إلخ ، فاحتججت بشدة أمام ذلك الملازم على احتجازى ، وتدخل سائر المعتقلين لهذه المشادة بينى وبين ذلك الملازم ، وبعد ذلك بساعتين جاء عميد كلية التربية فى طرابلس ، وقد اعتقلوه وهو يحضر اجتماع مجلس الجامعة فى مساء ذلك اليوم وانضم إلينا».

«وهناك فى سجن الكويفية اعتقلت حتى مساء يوم السبت ٥ مايو سنة ١٩٧٣ ، أى أننى بقيت معتقلا سبعة عشر يوما وساعتين و٢٤ دقيقة ، لأننى خرجت من السجن فى الساعة السابعة و٣٥ دقيقة مساء ذلك اليوم».

ويشير الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى فضل كل من الرئيس السادات والدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية فى التوسط لإطلاق سراحه ، وهو يتطرق من خلال هذه الواقعة إلى الحديث السريع عن علاقته بالرئيس السادات ، وهو يكاد يحصر هذه العلاقة فى علاقة قارئ مقتنع [هو الرئيس] بمؤلف بارز [هو صاحب المذكرات] ، وقد قدر للطرفين أن يلتقيا مبكرا عند عزيز المصرى:

«ويرجع الفضل الأكبر بل الوحيد لإطلاق سراحى إلى الرئيس أنور السادات ، وكان وزير الخارجية الدكتور محمد حسن الزيات ، وهو صديقى وزميلى فى الدراسة ، قد علم بنبأ اعتقالى بعد يومين أو ثلاثة من اعتقالى ، فأبلغ الرئيس السادات وكان ممن التقيت بهم عند الفريق عزيز على المصرى باشا ، وكان شديد الإعجاب بكتابى «نيتشة» ، وكما صرح فيما بعد فى خطبة ألقاها للأدباء فى الإسكندرية فإنه كان متأثرا تمام التأثر بكتابى هذا وبنيتشة فى الفترة التى قام فيها بأعمال وطنية عنيفة ضد الجنود الإنجليز فى المعادى وغيرها ، وظل مؤمنا بفلسفة القوة التى دعا إليها نيتشة وعرفها هو من كتابى هذا إلى أن انتصر فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فبدأ بعدها يجنح للسلم ، ومن ثم كانت عملية السلام مع إسرائيل».



ويعرض الدكتور بدوى تجربة خروجه من السجن ثم من ليبيا على نحو يبدو فيه وقد ازداد تحفظه وتجهمه ، وهو يروى كيف اكتشف أن اسما سقراط وسارتر قد اختلطا على ضابط المباحث المكلف بالقبض عليه:

«... وكإجراء شكلى لتبرير خروجى من السجن ، جاء رئيس المباحث ومعه ضابط ، وكلّف هذا الضابط فى حوالى الساعة الثانية عشرة بإجراء تحقيق معى ، وهو التحقيق الوحيد الذى أجرى معى طوال تلك المدة ، فسألنى هذا الضابط ـ وكان مهذبا مؤدبا ـ سؤالين اثنين:

«س ١ : ما رأيك فى سارتر؟».

«جـ : سارتر أديب أكثر منه فيلسوف ، وأنا قد عبّرت عن رأيى فيه فى كتابى: «دراسات فى الفلسفة الوجودية» وقلت عنه إنه ضئيل القيمة من الناحية الفلسفية ، وأما من الناحية السياسية فأنا لا أقيم له أى وزن ، لأنه متقلب يركب الموجة الرائجة ولا مبدأ عنده يستقر عليه».

هكذا كان الدكتور بدوى يجيب بجدية من دون أن يعرف سبب السؤال وعن أى الجوانب يراد منه أن يجيب! :

«س ٢: لماذا لم تتزوج؟ (وأشفع ذلك بقوله: إن فى وسعى أن أمتنع عن الجواب ، لأنه أمر شخصى)».

«جـ: لأني آثرت التفرغ للعلم وحده ، ولم أرد أن يشغلنى عن العلم والبحث العلمى شيء ، وأنت تعلم مشاغل الأسرة والأولاد».

«واكتفى الضابط بهذين السؤالين.. وسألنى: هل أريد إثبات شيء؟ فأجبت: أريد أن أعبر عن رغبتى فى ترك العمل فى ليبيا ، ويكفى أننى عملت فيها ست سنوات».

«ومن ثم ذهبت إلى رئيس المباحث فى الغرفة المجاورة فأفهمنى أنه سيفرج عنى فى هذا اليوم».



كما يعترف الدكتور بدوى ـ دون قصد ـ بأنه كان متحفظا مع زملائه فى المعتقل حين عاد إليهم بعد الاستجواب الممهد لخروجه ، وكأنه كان حريصا على أن ينجو بنفسه ، وألا يسبب بكلامه مع الآخرين ما قد يؤخر نجاته من هذا السجن:

«ولما عدت إلى زملائى المعتقلين وتحلقوا حولى لمعرفة ماذا جرى فى التحقيق ، فاكتفيت بعبارات قليلة ولم أفصح عن شيء ، وكان سؤال الضابط عن سارتر هو الذى فسّر لى أخذ ذلك الملازم لكتاب أرسطو ، فقد اختلط عليه اسم سارتر وأرسطو!».

«وعند الساعة السابعة مساء طلبنى القائم على السجن ، وسلمت عهدتى وتسلمت نقودى التى أودعتها حين إدخالى السجن ، وخرجت من ثم فى الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة ، ومعى الضابط الذى كان قد حقق معى عند الظهر ، وذهبنا أولا للقاء رئيس المباحث ، الذي أبدى بعض الأسف على ما حدث وجاملنى بجملة أو جملتين ، ثم طلب إلىّ الحضور إلى هناك فى صباح اليوم التالى».



ثم يروى عبد الرحمن بدوى اللحظات الأخيرة لوجوده فى ليبيا شاكرا للجامعة الليبية موقفها الكريم وذاكرا فرحته بالعودة إلى أرض الوطن:

«وذهبت فى صباح اليوم التالى ، الأحد ٦ مايو ، وبعد انتظار ساعة أو ساعتين أخبرنى أحد الضباط ، برتبة نقيب شرطة ، بأنه مطلوب منى مغادرة ليبيا ، فشكرت له ذلك بهدوء ، وطلبت منه إعادة الكتب التى أخذوها ، وكان نفس الملازم الذى اعتقلنى قد جاء إلى السجن

قبل ذلك بأسبوع وطلب منى مفتاح الشقة لإعادة التفتيش ، فأعطيته مفتاحا (وكان معى ثلاثة مفاتيح) واستولى على عدد كبير من كتبى ، فأجابنى ذلك النقيب بأنها كثيرة بحيث لا أستطيع أخذها الآن ، على أن أطالب بها فيما بعد ، فأخبرته بأن يردوا على الأقل إلى مكتبة الجامعة ما استعرته منها ، وقد علمت بعد ذلك بعام أن كتبى قد أعطيت لمكتبة الجامعة فى بنغازى».

«ومن هناك ذهبت إلى إدارة الجامعة ، وكان موقفها ـ منذ اعتقالى ـ موقفا كريما جدا رغم جو الإرهاب الشديد آنذاك ، فسويت أمور مستحقاتى المالية لدى الجامعة».

«وفى الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء ، ذهبت إلى المطار بصحبة مندوب من الشرطة ومندوب من الجامعة ، واستقبلت الطائرة فى حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف ، وعدت إلى القاهرة فى الساعة الثالثة تقريبا».

«وما كانت أشد فرحتى لما غادرت ليبيا ووصلت إلي أرض الوطن».

(١١)

قبل هذا فإن عبد الرحمن بدوى يستعرض موقف ليبيا السياسى (والجماهيرى) من مصر والمصريين بعد قيام ثورة ١٩٦٩ وحقيقة الدعوة إلى الوحدة وهو يورد آراءه فى غاية التوجس والشك ، ربما بحكم ما مرّ به (بعد ذلك) من تجربة مريرة لخصناها فى الفقرات السابقة ، وربما أنه لم يكن يفكر فى الأمور على هذا النحو لولا ما عاناه من ليبيا فى فترة لاحقة ، وربما أنه كان بالفعل يستشرف هذه الحقائق فى تأمله للأحداث المتتالية.

وعلى كل الأحوال فسننقل للقارئ بعض ما يصور به صاحب المذكرات موقف ليبيا والليبيين من مصر ومن الوحدة وذلك ما رواه فى الصفحات السابقة على حديثه عن ذكرياته عن تجربة اعتقاله ، وسنلاحظ بكل وضوح حرص عبد الرحمن بدوى على «الاتعاظ» من تجربة مصر فى سوريا قبل أكثر من عشر سنوات ، وكأنما تركت هذه التجربة السابقة مرارة فى نفسه تجاه التجربة الجديدة ، ولو أنصف عبد الرحمن بدوى لأدرك أن هذه التصرفات التى صدرت عن بعض أفراد الشعب فى كلتا التجربتين لم تصدر إلا كنتيجة لتصرفات أجهزتنا المخابراتية التى عاملت الآخرين باستعلاء وشك.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى:

«أما فى ليبيا فباستثناء «هيئة المنتفعين» ، بدأت الظاهرة التى شاهدتها من قبل فى سوريا فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ أعنى: «كراهية المصريين المحتلين الجدد» ، فازداد أفراد الشعب الليبى كراهية لنا نحن المصريين المقيمين منذ سنوات للعمل فى ليبيا ، ولم يكتفوا بالتطاول والتحرش بل أخذوا فى ترتيب هجمات ليلية على المصريين ، كانت تخرج منهم مجموعات من أربعة أشخاص أو أكثر ، فإن صادفوا سائرا اشتبهوا فى أنه مصرى سألوه عن الساعة مثلا أو غير ذلك ، وسرعان ما يتبينون من لهجته أنه مصرى ، فينقضون عليه بالضرب المبرح ثم يهربون ، وكان من بين مَنْ تولوا هذه الحملة بعض التجار والمثقفين!!».

ويرصد الدكتور عبد الرحمن بدوى ظاهرة لم تلق حظها من الدراسة فى الحديث عن تطور مساعى الوحدة المصرية ـ الليبية ، ومن المهم أن نتأمل حقيقة وحدود ما لفت الدكتور عبد الرحمن بدوى نظرنا إليه من خلال روايته لما رآه فى غضون هذه الواقعة المهمة ، والتى لا ينكر أحد أن تفصيلاتها على هذا النحو قد حدثت بالفعل ، ولكن كلا من انعدام الشفافية ، وتغليب المجاملات الرسمية أجهض الحديث عنها بما فيه الكفاية:

«... وتزايد حقد الليبيين وعنفهم على المصريين حتى انفجر انفجارا عنيفا فى فبراير سنة ١٩٧٣ على أثر إسقاط إسرائيل لطائرة مدنية ليبية فى ٢١ فبراير كانت قد ضلت طريقها فوق سيناء ، وقتل جميع من فيها (١٠٨) من المصريين والليبيين ، ومن بينهم صالح بويصير الذى كان وزيرا فى إحدى وزارات ما بعد انقلاب الأول [يقصد: الفاتح على حد التعبير المفضل عند الليبيين] من سبتمبر ، وكأن مصر هى المسئولة عن سقوط الطائرة ، وكأنه لم يكن فى الطائرة من المصريين أكثر مما كان فيها من الليبيين ، وكأن سيناء لم تكن احتلتها آنذاك إسرائيل!!».

«ففى صباح يوم الجمعة بعد حادث هذه الطائرة انطلقت الجماهير فى شوارع بنغازى وهى تصيح فى حالة جنونية هستيرية: «وحدة لا.. وحدة لا».. أى لا وحدة أبدا مع مصر ، وإذا صادفوا مصريا فى الطريق انهالوا عليه بالضرب ، فجرحوا العشرات من المصريين الذين تصادف سيرهم آنذاك وهم فى الطريق إلى أداء صلاة الجمعة أو لقضاء حاجاتهم المعتادة».

«ولما كنت ساعتئذ فى البيت ، وهو على بعد أمتار قليلة من شارع الاستقلال الذى كان تموج به تلك الجماعات الثائرة الهائجة ، فقد استطعت أن أسمع كل هتافاتهم ضد مصر والمصريين ومطالبتهم بإلغاء أية صورة من صور الاتحاد مع مصر ، ولم أشاهد شرطيا واحدا ليبيا يعترض طريقهم أو يدعو إلى التفرق أو الكف عن الهتاف الهستيرى ضد مصر».

(١٢)

ولا يجد الدكتور عبد الرحمن بدوى حرجا فى أن يروى تفصيلات كثيرة تشى بما يريد تصويره من انعدام الروح الساعية إلى الوحدة ، ويضرب على هذا مثلا بما حدث على مستوى القيادة التى وقفت موقفا مريبا من حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، ويشير عبد الرحمن بدوى إلى ثلاثة مواقف قذافية غريبة الشأن والوقع وهى: الإعلان عن عدم الموافقة على خطة الحرب ، والمؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس فى باريس ، ومطالبته بإعادة الطائرات الحربية قليلة العدد التى كانت معارة لمصر.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى:

«ولما شنت مصر الحرب على إسرائيل فى ٦ أكتوبر أعلن قائد الانقلاب الليبى عدم موافقته على خطة مصر فى حربها ضد إسرائيل ، وجاء إلى باريس بترتيب من جريدة «لوموند» وعقد مؤتمرا صحفيا تولى تنظيمه ـ مع الأسف الشديد صديقنا جاك بيرك!! ـ هاجم فيه مصر وحربها مع إسرائيل ، ولما عاد من باريس راح يطالب مصر بإعادة الطائرات الحربية ـ لا تزيد على العشرين ـ التى كان قد أعارها لمصر!».

«ومن هنا بدأت فترة توتر حاد متزايد الشدة فى العلاقات بين مصر وليبيا».



وعلى مدى صفحات طوال يلخص عبد الرحمن بدوى كثيرا من المواقف التاريخية التى تجعله يميل إلى المجاهرة بصواب رأيه القائل باستحالة الوحدة العربية ، وهو يهاجم دعاة الوحدة بضراوة فيقول:

«وأمام هذه الحقائق الدامغة فإننا نجزم بأن «دعاة الوحدة» إنما هم دجالون مضلِّلون (بتشديد اللام الأولى وكسرها) متاجرون بالشعارات الباطلة تحقيقا لأطماعهم الخسيسة وهم مجرد طبالين وزمارين للمتطلعين إلى زعامات وهمية على سائر الشعوب العربية ، وهيهات ،هيهات أن يظفروا بأمانيهم الكاذبة».

(١٣)

وتحفل هذه المذكرات بكثير مما لعبد الرحمن بدوى من آراء أصيلة وظاهرة الصواب

ومحكمة المنطق فى السياسة الدولية ، سواء فى ذلك العلاقات العربية ـ الأوروبية ، والعربية ـ الإيرانية ، والإسرائيلية ـ الأوروبية.

ومن هذه الآراء نقرأ بعض ملامح رأيه السياسى الواضح فى علاقة إسرائيل والفاتيكان ، وهو رأى كان كفيلا بجر المتاعب على عبد الرحمن بدوى ، الذى صارح السفير المصرى فى الفاتيكان بعدم التعويل على سياسة الفاتيكان فى مشكلة القدس لأنها سياسة مرنة ملتوية تقوم على المصالح الخاصة ، وهو يفرق بين عدم اعتراف الفاتيكان بإسرائيل من ناحية ، واتصال الفاتيكان المستمر بإسرائيل ، والمؤتمر اليهودى ، بل وزيارة البابا لإسرائيل ولقائه برئيسها:

«وفى حديث بينى وبين الأستاذ محمد التابعى (وهو السفير المصرى الشهير فى الفاتيكان) قلت له رأيى فيما يتصل بسياسة الفاتيكان ، فقلت له: «أرجو ألا تتوقع الكثير من سياسة الفاتيكان فيما يتصل بمشكلة القدس ، والمشكلة الأوسع بيننا وبين إسرائيل ، فسياسة الفاتيكان مرنة ، ملتوية ، تترضى الأطراف المتعارضة حسبما تمليه مصلحتها الخاصة ، ولا تُقيم كبير وزن لعدم اعترافها الرسمى بإسرائيل ، فإن مصلحة الكاثوليك فى البلاد العربية هى التى تملى عليها هذه السياسة ، لكنها بطريق غير رسمى تتصل بإسرائيل ، وبرئيس المؤتمر اليهودى العالمى ناحون جولدمان ، وانظر إلى رحلة البابا فى ٤ إلى ٦ يناير فى الأردن وفلسطين: إنه كما زار مخيما للاجئين الفلسطينيين ، فإنه زار النصب التذكارى لما يسمى ضحايا الإبادة (شلوة) ، وكما التقى بالملك الأردنى الملك حسين فى عمان ، التقى برئيس إسرائيل سلمان شازار ، ولا تصدق كل ما ينقله إليك رجال الكنيسة الكاثوليكية فى البلاد العربية الوافدون على الفاتيكان ، وخصوصا منهم اللبنانيون ، فهم يبالغون فى تصوير مشاعر الفاتيكان نحو مشكلة القدس والمشكلة الفلسطينية بعامة ، فلا تأخذ كلامهم إلا باحتياط وبعد تحقيق منه دقيق».



ويعتز عبد الرحمن بدوى بأن الأيام قد أثبتت صواب آرائه فيما يتعلق بالعلاقات الإسرائيلية ـ الفاتيكانية ، وذلك فى مطلع عام ١٩٧٣ ، وهو يورد قصة غير مشهورة ولكنه شهد وقائعها وهو فى روما فى أثناء زيارة جولدا مائير للبابا وكيف أنها حرصت على أن تعلن عدم اكتراثها لهذه الزيارة ، حتى إنها لم تضطر لشراء قبعة جديدة تغطى بها رأسها ، وإنما حرصت على أن تعلن على الملأ أنها طلبت إحدى قبعاتها من تل أبيب... وذلك على الرغم من معرفتها بمدى ما فى هذا التصرف وما فى الإعلان عنه من إهانة شديدة للبابا:

«هذا ما قلته فى يناير سنة ١٩٦٨ ، وما لبث ظنى أن تحقق بكل سطوع: فقد استقبل هذا

البابا نفسه ، بولس السادس ، رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير فى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٧٣ فى قصر الفاتيكان ، وكنت أنا آنذاك فى زيارتى الشتوية السنوية المعتادة لروما ، وقرأت فى الصحف الإيطالية كيف أبدت هذه المرأة السليطة الوقحة ، عدم اكتراثها لهذه الزيارة ، وكان البابا هو الذى توسل إليها لتقوم بزيارته!! ذكرت الصحف أن مائير لما علمت أن من مقتضيات المراسم البابوية أن تكون مائير مغطاة الرأس حين يستقبلها البابا ، فإنها أرسلت إلى تل أبيب كى يبعثوا إليها بقبعة من قبعاتها الموجودة فى بيتها ، لأن هذه الزيارة للبابا لا تستحق فى نظرها أن تشترى من أجلها قبعة جديدة من روما! وصرحت بهذا القول للصحفيين علنا وبكل وقاحة ، متباهية متفاخرة ، فنقلوا عنها هذا القول وأبرزوه فى صحفهم!!

ثم يعلق الدكتور عبد الرحمن بدوى بعد هذا كله بقوله:

«فقلت فى نفسى وأنا أقرأ هذه الأخبار: إن البابا يستحق هذه الإهانة وأكثر منها جزاء وفاقا لصنيعه هذا!».

(١٤)

ولا يجد صاحب هذه المذكرات أى قدر من الحرج وهو يوجه انتقاداته لبابا الفاتيكان على مسلكه الدنيوى البالغ فى التمتع بمباهج الحياة الدنيا والتظاهر بكل ما فيها من بهرج لا يليق برجال الدين ، وهو يصف موكب البابا فى الاحتفال بعيد الميلاد المجيد ، وملابسه وفصوص الجواهر التى تحلى بها والأشعة التى كانت تصدر عن هذه الجواهر ، وزهوه وكبره فى مشيته معلقا على كل جزئية من هذه الجزئيات:

«ويسوقنى هذا إلى التحدث عن مشاهدتى لأول مرة للاحتفال بعيد الميلاد فى كنيسة القديس بطرس فى صباح يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٨».

«الاحتفال كان فخما ، والحشود فى داخل الكنيسة وخارجها لا يبلغها الحصر ، المراسم تتسم بالأبهة وتعدد الألوان: الكرادلة بثيابهم البورفورية الزاهية اللامعة ، والأساقفة وسائر المراتب الكهنوتية بملابسهم المتعددة الألوان والأزياء. وأخيرا دخل البابا بولس السادس محمولا على محفة واسعة تحملها ثلة من شباب روما ، ومن فصوص الخواتم التى حلّى بها أصابعه كانت إشعاعات متعددة الألوان تنطلق ذات اليمين وذات اليسار فتبث ما يشبه البروق فى صحن الكنيسة وعلى رءوس الحاضرين ، وراح يتطلع يمنة ويسرة فى زهو وخيلاء ولسان حاله كأنه يقول: أنا ربكم الأعلى».

وبعد هذا الوصف يعلق الدكتور عبد الرحمن بدوى بقوله:

«وتابعت أنا هذا المشهد وأنا أقول فى نفسى:

«أين مشهد هذا البابا المزين بأفخر الجواهر المتدثر بأنفس الثياب ، المتربع على عرش يحمله ثلة من أجمل وأنضر شباب روما ، من مشهد الطفل يسوع الراقد فى مذود بقر ، المقمط فى خرق بالية (إنجيل لوقا ٧:٣)».

ويواصل عبد الرحمن بدوى انتقاداته لبابا الفاتيكان:

«وما هذا الشموخ والكبرياء والتعالى فى مظهر وملامح البابا؟ ألم يقرأ قول يسوع: «مَنْ يتاطى يُحطّ (لوقا ١٤:١١)؟ ألم يسمع بقول القديس أوغسطين: «الدين المسيحى قوامه كله هو التواضع؟».

ويتأمل عبد الرحمن بدوى ما لاحظه فى موكب البابا الكاثوليكى من شطط لا يتجلى مع روح العقيدة وسلوك رجال الدين:

«وما لهذا الإسراف فى الترف والتحلى بأفخر الجواهر التى يزيد ثمنها على مائة مليون دولار؟ ألم يتأمل موعظة الجبل (إنجيل متى ، الفصول ٥ ـ ٧) وما قاله فيها يسوع: «لا تكدسوا كنوزا على الأرض.. بل كدسوا كنوزا فى السماء.. وحيث يوجد كنزك يوجد قلبك» (٦:١٦ ـ ٢١). «لماذا تهتمون بالملبس؟ انظروا إلى زنابق الحقول كيف تنمو: إنها لا تتعب نفسها ولا تغزل ، وإنى لأقول لكم إن سليمان نفسه ، فى كل مجده ، لم يلبس مثل واحدة منها» (٦: ٢٨ ـ ٢٩)».

ويعلق عبد الرحمن بدوى بصفة خاصة على المحفة التى امتطاها البابا وحمله عليها ثلة من أروع وأجمل شباب روما:

«ولماذا يمتطى محفة فاخرة يحملها ثلة من أروع وأجمل شباب روما ، بينما لا يرى يسوع يحمله أحد من الناس ، وقصارى أمره أن يركب حمارة يتبعها جحش (متى ٧:٢٠) أو جحشا لم يمتطه أحد من قبل (لوقا ١٩:٣٠)».

«وكان منظر هذه المحفة أشد المناظر إثارة للنفور والازدراء فى نفسى».

ويروى عبد الرحمن بدوى طرفا من الحوار الذى دار بينه وبين بعض الرهبان حول فكرة حمل البابا فى محفة ، ويجاهر بوصفه لهؤلاء بالمنافقين:

«وحدث بعد يومين أن التقيت ببعض الرهبان ، وعبرت لهم عن شدة امتعاضى من هذا المنظر البغيض المنافى لكل ما دعا إليه المسيح ، فأجابوا وهم مسربلون بالخجل الوقح: «إن المقصود بهذه المحفة هو تمكين الناس من مشاهدة البابا!!».

وهنا مباشرة يعلق عبد الرحمن بدوى بقوله :

«ذرة من الحياء أيها المنافقون! إن فى وسع المشاهدين أن يروه لو كان سائرا على «البلدكان» الضخم القائم عند بداية المحراب ، وترتفع المنصة حوالى متر أو أكثر عن مستوى الأرض ، وفى وسع الجميع حينئذ أن يشاهدوه بكل وضوح ، فليتخل هؤلاء المنافقون من الرهبان ورجال الدين عن هذا التبرير السخيف الواهى لاستعمال تلك المحفة ، والأولى بهم أن يعترفوا بأنها فضيحة ومصدر عار ، وليطالبوا «حبرهم الأعظم» هذا بالتخلى عن هذه العادة الموروثة عن أباطرة الرومان ، نعم! إن البابا يحاول دائما محاكاة أباطرة الرومان ، وآية ذلك أن لقبه هو لقب الإمبراطور الرومانى ،أعنى إنه ظن نفسه دائما خليفة قيصر روما ، لا النائب الرسولى ليسوع الناصرى».

(١٥)

وتحفل مذكرات عبد الرحمن بدوى بوعيه للدور المشبوه الذى يقوم به بعض العلماء اليهود فى إيذاء التراث العربى الإسلامى ، وسنتناول بعض حديثه المميز عن دورهم فى إنهاء مؤتمرات المستشرقين ، ولكننا نبدأ بأن نشير هنا إلى حديثه عن المؤتمر الذى اشترك فيه فى نيويورك وحرص على ألا تفوته الفرصة لمهاجمتهم من خلال الحديث عن أمانة الترجمات العربية للنصوص اليونانية ،وزيف الترجمات العبرية للنصوص نفسها ، وهو يروى هذه الواقعة فيقول:

«وكان يحضر جلسات المؤتمر بعض اليهود ، ويستفزون الحاضرين بطاقياتهم الصغيرة الموضوعة على رءوسهم ، وقد ضقت ذرعا بهذا المنظر ، فاهتبلت فرصة بحث أُلقى عن الترجمات العربية عن اليونانية ، فعلّقت عليه وأفضت فى المقارنة بين دقة وأمانة الترجمات العربية عن اليونانية وبين عبث وزيف الترجمات العبرية عن العربية ، واستشهدت خصوصا بالترجمات العبرية لمؤلفات ابن رشد وكيف عبث بها المترجمون اليهود فى القرون من الثالث حتى الخامس عشر ، وذكرت ـ من الذاكرة ـ شواهد لهذا العبث الفاضح والتزييف البشع ، ولم يستطع أحد من الأساتذة اليهود الحاضرين أن يرد بكلمة واحدة لقوة أسانيدى وتمكنى من الموضوع ، وكان حاضرا منهم حينذا: رتشرد فلتر ، وفرانتس روزنتال ، وجوستاف جرونيبام ، ولم أحفل بوجودهم ولا بوجود أصحاب الطواقى اليهودية ، ولا كونى فى قلب عاصمة نفوذهم الأكبر ، نيويورك».

قبل هذا نجد الدكتور عبد الرحمن بدوى ـ كما ذكرنا ـ حريصا على أن يدلنا على دور «الصهيونية» فى إلغاء مؤتمرات المستشرقين الدولية للأبد ، وذلك بطريقة خبيثة استدرج إليها كبار المستشرقين أنفسهم ، وهو يورد تفصيلات دقيقة عن آخر مؤتمرات المستشرقين الذى شارك هو نفسه فيه وحاول دون جدوى أن يحول دون إتمام هذه الخطوة الخبيثة:

«وكان هناك من يتآمرون على إلغاء «مؤتمر المستشرقين» بعامة ، وكان على رأس هؤلاء المتآمرين برنارد لويس الأستاذ آنذاك فى مدرسة اللغات الشرقية فى لندن ، والأستاذ فيما بعد فى جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهو صهيونى ضالع بنشاط كبير فى المؤسسات الصهيونية ، ومستشار هذه المؤسسات فى انجلترا ، وبعد ذلك فى قلعة الصهيونية ، أعنى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولاشك فى أنه كان مكلفا من قبل هذه المؤسسات الصهيونية لنسف مؤتمر المستشرقين ، لأن مؤتمر المستشرقين ـ وإن كان يشتمل على أقسام عديدة: المصريات ، بابل وآشور ، والهند ، والصين ، وإيران ، وتركيا ، وأرمينيا ، وآسيا الوسطى ـ فإن أبرز أقسامه هو قسم الدراسات الإسلامية والعربية ، ولهذا كان مؤتمر المستشرقين مجالا دوليا ممتازا لإبراز معالم الحضارة العربية ودراسة أوجه الحضارة الإسلامية بعامة فى سائر البلاد الإسلامية: إيران ، وتركيا ، والهند ، ومن هنا كان القضاء على مؤتمر المستشرقين هدفا كبيرا من أهداف الصهيونية العالمية».



ثم يتحدث الدكتور عبد الرحمن بدوى بالتفصيل عن بعض جوانب التخطيط الصهيونى للفكرة الجهنمية القاضية بإلغاء انعقاد مؤتمرات المستشرقين:

«وتولى تدبير هذه المؤامرة «برنارد لويس» بحماقته واندفاعه وتهريجه ، يعاونه يهودى آخر يدعى «بشم» وهو إنجليزى الجنسية ومتخصص فى الدراسات الهندية ، واستطاعا التأثير فى رئيس المؤتمر وهو الأستاذ فليوزا المتخصص فى الدراسات الهندية ، وهو عالم مهذب الأخلاق لكنه ضعيف الشخصية ، فاستطاع ذانك الخبيثان لويس وبشم استدراجه إلى مؤامرتهما الدنيئة ، وهكذا قرر الثلاثة ـ ومعهم باقى أعضاء «الاتحاد الأكاديمى الدولى» وهو المشرف على عقد مؤتمرات المستشرقين ـ حل مؤتمر المستشرقين ، وتجزئته إلى عدة مؤتمرات خاصة ، أطلق على المتعلق منها بالدراسات الإسلامية والعربية اسم «مؤتمر العلوم الإنسانية للشرق الأدنى وشمال إفريقيا» ، وهو عنوان سخيف طويل ثقيل يدعو إلى الخلط والغموض فى هدفه وموضوعه ، ولهذا ـ ولعدم فهم المؤسسات التى دعيت فيما بعد لإيفاد مندوبين عنها ـ بعثت هذه المؤسسات بِمَنْ لا شأن لهم أبدا بالدراسات العربية والإسلامية بالمعنى الذى كان مفهوما فى مؤتمرات المستشرقين ، فكانت مهزلة ما بعدها مهزلة لما أن عقد المؤتمر فى المكسيك

ثم فى اليابان ، وبهذا لم يبق أى أثر لمؤتمر المستشرقين المعروف منذ أكثر من مائة سنة ، وعلى هذا النحو تحقق الهدف الأصلى الذى كان يستهدفه أولئك الصهاينة الخبثاء: برنارد لويس ، وبشم ومَنْ وراءهما من المؤسسات الصهيونية العالمية!».

«ومنذ بداية المؤتمر وقد روج هذان لهذه الفكرة ، فكرة إلغاء مؤتمر المستشرقين ، وثب بعض الأساتذة اليهود للترويج لهذه الفكرة فى مختلف أقسام المؤتمر ، وتولى الترويج لها فى قسم الدراسات الإسلامية والعربية الأستاذ كلود كاهان ، فانبريت فى الحال للهجوم عليها ، وكذلك فعل د. إبراهيم مدكور ، ورغم ذلك قام أستاذ تونسى يدعى د. محمد الطالبى يؤيد هذه الفكرة الخبيثة تملقا للأستاذ كلون كاهان وحماقة منه وجهلا بالقصد من ورائها».



ويشير صاحب المذكرات إلى مواصلته لمحاولاته التغلب على هذه المؤامرة من خلال الفرصة التى أتيحت له باختياره لإلقاء كلمة أعضاء المؤتمر دون جدوى:

«ولما اختارنى رئيس المؤتمر الأستاذ فليوزا لألقى كلمة أعضاء المؤتمر فى الجلسة الختامية عاودت الهجوم على هذا المشروع ، وكان أعضاء اللجنة العليا للمؤتمر قد أعلنوا قرارا بذلك قبل إلقاء كلمتى ، لكن دون جدوى! ولهذا أخذت فى «تأبين» مؤتمر المستشرقين ، وإبداء الحزن والأسف البالغ على هذا «الفقيد» العظيم الذى ظل يؤدى خدمات جليلة للبحث العلمى فى الحضارات الإنسانية طوال مائة عام ، وذكّرتهم بمحاولة سابقة من هذا النوع جرت فى مؤتمر باريس الذى انعقد فى صيف سنة ١٩٤٨ ، وكيف تصدى لها بكل قوة رئيس المؤتمر «باكو» المتخصص فى علوم إقليم التبت وآسيا الوسطى ، وأنه قال: «لن أقبل أبدا أن أكون حفارا لقبر مؤتمرات المستشرقين».



ويصل الدكتور بدوى إلى إبداء الأسف وهو يرى بناظريه النهاية التى صار إليها الأمر:

«وعلى الرغم مما قوبلت به خطبتى المؤثرة هذه من تصفيق حاد طويل ، فقد أنهى المؤتمر جلسته الختامية دون الرجوع علنا عن ذلك القرار ، وخرج المؤتمرون حائرين لا يتبينون من الأمر شيئا».

«ومن ذلك المؤتمر المنعقد فى باريس فى يوليو سنة ١٩٧٣ لم يعقد للمستشرقين مؤتمر حتى اليوم ، أما ما صار يعقد بعد ذلك من اجتماعات لبعض المستعربين فى فرنسا أو أسبانيا أو ألمانيا فهى ألاعيب ناشئة جهلة عابثين ، أو بدوات بعض الشيوخ العاجزين الذين يؤمّون هذه الاجتماعات للتذكير بأنهم لا يزالون على قيد الحياة!».

(١٦)

بعد هذا الحديث عن هذه المجموعة من القضايا العامة يجدر أن نتأمل بعض الجوانب الإنسانية فى مذكرات عبد الرحمن بدوى ، ولعلى أبدأ بالإشارة إلى عظمة وروعة الثناء والمديح الذى أسداه صاحب المذكرات إلى مَنْ كانوا يستحقونه فى نظره ، وهذا على عكس الفكرة المغلوطة الشائعة عن المذكرات ، ونحن نرى جزءى المذكرات وهما يحفلان كما ذكرنا بالثناء على مَنْ يرى أنهم يستحقونه ، ولعل أول أمثلة ثنائه على الأشخاص ثناؤه على والده:

«وكان والدى قوى الشخصية إلى أقصى حد ، مرهف الذكاء ، ذا حافظة جبارة ، مستقيم السلوك والرأى ، لا يتنقل من رأى إلى رأى حسب الظروف ، ولا يناور ولا يداور ، ولا يقبل الضيم من أحد مهما كان مركزه: فى السياسة كان من حزب الأمة ثم حزب الأحرار الدستوريين الذى خلف حزب الأمة ، واستمر على هذا الموقف حتى انهيار حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٥٠ ، وفى تعامله مع الفلاحين كان كأنه واحد منهم: يأكل من طعامهم إذا لم يوافه الطعام من المنزل ، ويجالسهم أو يحادثهم حين يكون فى الحقل ، ويشاركهم فى العمل عندما تقتضى الحاجة».

....

«وكان والدى قوى الإيمان شديد الحرص على أداء الصلاة فى مواعيدها ، والزكاة فى مواسمها ، وحج إلى بيت الله الحرام فى مكة فى شتاء سنة ١٩٣٧ ، لكنه فى الوقت نفسه كان واسع التسامح الدينى: فكان طبيبه المعتاد فى المنصورة قبطيا ، وكان فى الأمور الاقتصادية كثيرا ما يتعامل مع نصارى من كل المذاهب».

(١٧)

[أما أبرز الذين يحظون بثناء الدكتور عبد الرحمن بدوى من أساتذته فهو الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وليس هذا بغريب ، فكل المذكرات التى بين أيدينا لا تكف ولا تمل من الثناء على هذا الرجل العظيم الذى لم يجد الزمان حقيقة بمثله على حد ما تصفه مذكرات زملائه وتلاميذه.

ويكفى فى هذا الصدد أن نشير إلى رأى الدكتور شوقى ضيف فيه ، أو أن نشير إلى رأى الأستاذ نجيب محفوظ ، أو الدكتور محمد على العريان ، ونحن نقرأ فى هذه المذكرات ما

يشير به عبدالرحمن بدوى إلى أن علاقته بالشيخ مصطفى عبد الرازق ربما تزيد فى عمقها على علاقته بطه حسين:

«ويوازى هذه العلاقة [يتحدث عن علاقته بطه حسين] وربما يزيد عليها عمقا ، علاقتى بالشيخ مصطفى عبد الرازق».



بل إن عبد الرحمن بدوى يشير إلى سرعة الألفة بينه وبين هذا الأستاذ العظيم:

«سرعان ما نشأت بينه وبينى علاقة وثيقة بعد مرور شهر واحد من بدء الدراسة».



وتفيض مذكرات عبد الرحمن بدوى بالثناء على الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مواضع عديدة ننقل منها قوله فى إحدى الفقرات واصفا شيخه:

«لقد كان النُبل كله ، والمروءة كلها. كان دائما هادئ الطبع ، باسم الوجه ، لا يكاد يغضب ، وإن غضب لم يعبر عن غضبه إلا بالحمرة فى وجهه وصمت كظيم: لقد كان آية فى الحلم والوقار ، لكنه وقار عفو الطبع ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، وفى حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء أو التلاميذ كان ودودا محبا للسخرية الخفيفة ، وإذا أراد التقريع لجأ إلى التهكم اللاذع».

«وكان آية فى الإحسان إلى الآخرين ، ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه ، أو صاحب حاجة إلا بذل له ما استطاع حتى لو كان من ماله. وكم له من أياد بيضاء على بعض طلابه الذين سألوه المساعدة ، رغم أنهم لا يستحقونها ، كما تجلى فى سلوكهم فيما بعد!».

«وكان عزوفا عن المناصب الإدارية ، ويتنازل عنها لمن هو حريص عليها. أذكر أنه فى شهر مايو سنة ١٩٣٦ أجريت انتخابات لمنصب العمادة فى كلية الآداب بعد أن شغر بنقل منصور فهمى إلى دائرة الكتب ، فنال الشيخ مصطفى أكبر عدد من الأصوات ، وتلاه الدكتور طه حسين ، وحينئذ أعلن الشيخ مصطفى أنه لا يريد تولى منصب العميد ، فكان أن عين طه حسين عميدا ، كذلك كان الشيخ مصطفى رئيسا لقسم الفلسفة ، فلما جاءنا الأستاذ أندريه لالاند فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ تخلى له الشيخ مصطفى عن رئاسة القسم تقديرا لمكانة لالاند».

....

«كان متحرر الفكر اجتماعيا ، يدعو إلى تحرير المرأة ، ومن هنا كان يكتب فى مجلة «السفور» مقالات ذات نزعة تحريرية للحياة الاجتماعية ، وقد أعيد طبع هذه المقالات فى الجزء الأول (والوحيد الذى ظهر) من كتاب «آثار مصطفى عبدالرازق» الذى أشرف على

جمعه وإخراجه أخوه الأستاذ على عبد الرازق ، وهذا التحرر الاجتماعى هو الذى كان هدف هجمات الأزهريين عليه ، خصوصا حين صار شيخا للأزهر فى ديسمبر سنة ١٩٤٥».

(١٨)

ويمكن القول إن كتاب مذكرات عبد الرحمن بدوى حافل بالثناء على الدكتور طه حسين فى كل مواقفه إلا فى موقف واحد وهو بالطبع أمر لا ينتقص من قدر طه حسين الذى لم يقل أحد إنه كان ملاكا طاهرا ، ولكن العبرة فى ثناء عبد الرحمن بدوى على أستاذه بهذا الحب العميق الذى يكنه له ، وهو يمتد بهذا الحب ليشمل إعجاب التلميذ بالأستاذ ، والقارئ بالكاتب ، ولعل هذا الثناء يعتبر دليلا واضحا على أن مذكرات بدوى لم تكن مسرحا للهجاء والشتائم فقط ، على حد وصف البعض لها ، ويتبدى إعجاب عبد الرحمن بدوى بطه حسين عندما يقارنه بصنوه العقاد فيقول:

«لقد كنت بعد قراءة فصل أو كتاب لطه حسين أشعر بحرارة تسرى فى مشاعرى ، وحماسة للخلق الفنى المبكر تزداد كل يوم أوارا ، وتعاطف وجدانى وفكرى يخيل إلىّ أن طريقه هو طريقى المقبل. أما العقاد فلم أكن أشعر بعد قراءته إلا بالبرود والسأم ، ومهما غالبت نفسى على قراءة مقالاته ، فإن شعورى بالنفور كان يزداد تمكنا من نفسى. كان أسلوب طه حسين كالنهر المنساب فى إيقاع عذب رقيق ، بينما كان أسلوب العقاد كالسيل المتشنج فى انحداره من جبل أجرد».

(١٩)

ومن الجدير بالإشارة أن الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى صُور فى بعض الكتابات جافا وقاسيا يقدم لنا فقرات كثيرة فى الحديث عن أثر الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى فى وجدانه ، وهو يثنى عليه معبرا عن روح الامتنان العميق التى يحسها فتى نابه تجاه من أثروا بروحهم وأدبهم الفذ فى شخصيته فى مرحلة مبكرة ، ولعل هذا الثناء (ومثله مما سنورد) يقف شاهدا أمام كل من يظنون عبد الرحمن بدوى لا يثنى إلا على نفسه ، وها هو يعترف بأثر المنفلوطى الممتد فى شخصيته وأسلوبه ومشاعره فيقول:

«... وكان له تأثير بالغ فى أسلوبى وفى مشاعرى ، وظل هذا التأثير مدى طويلا.. حتى

بعد أن عرفت أساليب أخرى واطلعت على روائع الأدب العالمى ، ولا أزال أحن حتى اليوم إلى معاودة قراءة هذا الكتاب ، ولم تنقص قراءتى لأصله الفرنسى من إعجابى بتلخيص المنفلوطى هذا لرواية «تحت الزيزفون» (سنة ١٨٣٢) تأليف ألفونس كار (١٨٠٨ ـ ١٨٩٠). صحيح أن الفارق كبير بين الأصل والتلخيص ، وأن العديد من الصفحات الموجودة فى تلخيص المنفلوطى لا مناظر لها فى الأصل الفرنسى ، والعكس بالعكس ، لكن المنفلوطى بنزعته الرومانتيكية المثالية لم يشأ أن يبقى على ما فى الأصل الفرنسى من أعمال شائنة منسوبة إلى بطل الرواية (استيفن) حتى تظل صورته مثالية رفيعة ، زاهية الألوان ، جامعة لأجمل الشمائل».

ويصل عبد الرحمن بدوى إلى أن يبلور كل هذا الثناء فى عبارة واحدة يقول فيها:

«إن لأسلوب المنفلوطى سحرا لا يعرفه إلا الشباب المرهف الحساسة».



ومن الجدير بالذكر أن مذكرات عبد الرحمن بدوى حافلة بالثناء على أصحاب الأعمال الأدبية التى قرأها فى مراحل حياته المختلفة ، وهو يقدم فى هذه الثناءات نماذج حية للنقد الموجز الذى يصدر عن المثقفين المتميزين من أمثاله ، وفى هذا الإطار يمكننا أن نطالع على سبيل المثال ثناءه على ترجمة الشاعر حافظ إبراهيم للبؤساء حيث يقول فى تركيز شديد:

«وكانت ترجمته هى نفسها قطعة من النثر الفنى العربى الرائع الأسلوب».



كذلك يحرص الدكتور عبد الرحمن بدوى على الثناء على الدكتور محمد حسين هيكل وعلى ثقافته وفكره وأدبه وتأريخه ، وذلك على الرغم من تحفظه فى الوقت نفسه على إدارته لحزب الأحرار الدستوريين:

«وكان رئيسه [أى رئيس حزب الأحرار الدستوريين] محمد حسين هيكل ، رجلا ضعيف الشوكة ، مفكك الشخصية والإرادة ، لقد كان كاتبا ممتازا ، واسع الثقافة ، حر الفكر ، ومؤرخا أدبيا للسيرة النبوية وبداية الخلافة ، يتسم بالوضوح والتفتح فى الفهم ، وكان صحفيا سياسيا يحسن الجدل والتقويم للأحداث السياسية».



ويحظى وزير التربية والتعليم فى عهد الثورة الأستاذ أحمد نجيب هاشم بثناء عبد الرحمن بدوى على نحو ما حظى قبل هذا بثناء كل من الأستاذين أحمد عبد السلام الكردانى ومحمد عبدالله عنان فى مذكراتهما وهو يصفه فيقول:

«وهو رجل يتحلى بالنزاهة ، ونبالة الأخلاق ، وحسن التقدير».

(٢٠)

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن عبد الرحمن بدوى كان كثيرا ما يثنى على أصحاب المواقف العابرة ، كما كان حريصا على أن يقدم الثناء فى إطار تقييمه للشخصية التى صادفت مجرى حياته ، وفى هذا الإطار نراه على سبيل المثال وهو يثنى الثناء كله على أستاذه حسن جوهر مدرس مادة الجغرافيا فى السعيدية:

«كان مدرسا جادا ، واسع الاطلاع ، قد صقلت ذهنه إقامته فى انجلترا ، وكان يؤثر العلم والتحصيل ، ولهذا كان يؤثر الطلاب المجتهدين ويرعاهم رعاية خاصة ، ولإيثاره للعلم والتحصيل أنشأ فى قاعة صغيرة بالطابق الثانى من البلوك الذى يسكن فيه الطلاب الداخليون مكتبة صغيرة ، لكنها ثمينة لأنها كانت تحتوى على عدد من أمهات الأدب العربى».



كما يتمثل هذا الخلق فى ثنائه على مدرس اللغة الألمانية فى كلية العلوم الذى تعلم على يديه هذه اللغة:

«وكان الأستاذ فرنك شديد الإخلاص لعمله هذا ، متحمسا لآرائه ، محبا للغته ، فأفادنى كثيرا طوال العامين (١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ ، ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) اللذين التحقت بهذه المدرسة فيهما».

«ونظرا لما كان لهذا الأستاذ ـ فرنك ـ من فضل عظيم علىّ فى تعلم اللغة الألمانية ، فإنى حزنت عليه حزنا شديدا ، لما أن علمت بمقتله وهو يحارب فى بلجيكا فى الفترة ما بين ١٠ و٢٨ مايو سنة ١٩٤٠ ، إبان الغزو الألمانى لبلجيكا وهولندا».



ويتمثل خلق عبد الرحمن بدوى الممتن لأساتذته فى ثنائه على مجموعة مدرسى المدرسة السعيدية فردا فردا بقدر الإمكان.

ويختص الدكتور عبد الرحمن بدوى أستاذ اللغة العربية فى المدرسة السعيدية الشيخ عثمان أبو النصر بقدر واضح من الثناء يقول فيه:

«لقد كان الشيخ عثمان أبو النصر مدرسا مهيب الطلعة بجبته وقفطانه وعمامته ، وكان جادا حريصا على كرامته ، لا يتبذل ولا يترخص مع التلاميذ».

«وقد تتلمذت عليه فى السنة الثانية ، ولاجتهادى وتفوقى فى اللغة العربية وآدابها كان يؤثرنى بتقديره ، ولم أره بعد ذلك إلا فى الامتحان الشفوى للغة العربية فى البكالوريا ، فعرفنى على الفور وطلب منى أن أنشد قصيدة من شعرى أنا ، بدلا من شعر غيرى الذى كان مطلوبا من سائر الطلاب ، وأعتقد أنه أعطانى الدرجة النهائية فى شفوى اللغة العربية ، وأقول: أعتقد ، لأن الشفوى كان يضم إلى التحريرى ، فلا أعلم على وجه الدقة ماذا كان نصيب كل واحد منهما فى الدرجة التى ظفرت بها ، وهى على كل حال ٣٩ من ٤٠».

وهو يورد تفصيلات واقعة مهمة فى حياته يحرص من خلالها على الثناء على ناظر المدرسة السعيدية الأستاذ عبد اللطيف محمود ويلخص الأستاذ عبد اللطيف محمود وصفه وثناؤه عليه فى قوله:

«كان أستاذا فاضلا عاقلا ذا رؤية ونزاهة ، يؤثر المجتهدين ويحرص على العلم».

(٢١)

أما ثناء الدكتور بدوى على أساتذته فى مدرسة فارسكور الابتدائية فنراه مقترنا بإبداء رأيه فى تحبيذ الطرق التربوية القديمة ونقد الطرق التربوية الحديثة ، معتمدا فى حكمه هذا على ما حققته كل من الطريقتين من نتائج :

«كان مدرسو اللغة العربية فى الغالب من خريجى دار العلوم ، أما سائر المدرسين فكانوا يحملون الكفاءة (وهى تناظر الآن: الشهادة الإعدادية) ، بيد أنهم لتفانيهم فى أداء مهمتهم كانوا أفضل من حملة الليسانس والبكالوريوس اليوم بمراحل عدة. كانوا قساة يتفننون فى ألوان العقاب: الضرب بالمؤشر أو بالخيزرانة ، الصفع بالكف على الخدود ، الركل بالقدم ، الضرب بالخيزرانة أو المؤشر على الأرداف ، الركوع على الأرض والضرب على الرأس.. إلخ. لهذا كان خوف التلاميذ منهم شديدا ، غير أن هذه الشدة نفسها هى التى أفادت فى تقويم التلاميذ ، وحملتهم على الجد والاجتهاد فى المذاكرة ، ولا أحسب أن قسوة هؤلاء المدرسين كانت بدافع «السادية» (حب القسوة) أو الاستعلاء ، بل كانت فى الأغلب الأعم للإفراط فى الحرص على التحصيل».

«وشتان بين طريقتهم تلك ، وبين طريقة المدرسين فى المدارس الابتدائية اليوم! لكن الأمور يجب أن تقاس بنتائجها. ولاشك فى أن نتيجة الطريقة القديمة أفضل بألف مرة من نتيجة الطريقة الحالية: لقد كان التلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية يحصل من العلم ويبلغ من الفهم وحسن التقدير أكثر مما عليه نظيره اليوم بمائة مرة أو يزيد».

(٢٢)

ولا تخلو مذكـرات عبد الرحمن بدوى من حـديث مشبـوب بالعاطفة عن حبـه وتقديره لعدد من أعـلام الوطن ، ويأتى فى مقـدمة هؤلاء البطل أحـمد عبـد العزيز ، وهو يشـير إلى موقفه البطولى فى حرب فلسطين لا من واقع معايشته لهذه الحرب ، ولا مما ينقله عن أنبائها ، ولكنه يتحدث عنـه من واقع لقاء بينهما فى بيت البطل أحـمد عبد العزيز الذى كـان قد قرأ ـ شأنه فى هذا شأن أنور السادات ـ كتاب «نيتشة» لعبد الرحمن بدوى وأعجب به وتمثل فكرته فى الجسارة حتى إنه أوصى بكتابة إحدى عبارات نيتشة على قبره:

«لكن أشد هؤلاء الضبـاط حماسة للكتاب كـان الضابط البطل أحمد عـبد العزيز ، الذى استشـهد فى فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وكان القـائد المظفر الوحيد فى تلك الحـرب ، وكان آنذاك مدرسا فى كلية أركان الحرب ، وقد أخبرنى أنه فرض على طلابه آنذاك قراءة كتابى «نيتشة» ، وقد أوصى بأن يكتب على قبره هذه العبارة التى كتبـها نيتشة وأوردتها فى كتابى: «لكى تجنى من الوجـود أسمى مـا فـيه عش فى خطـر!» ، وفى اللقاء الوحـيـد بينه وبينى فى بيـته بمصـر الجديدة ، راح يردد لى عن ظهر قلب كثيرا من الجمل المنحوتة الحماسية فى كتابى».



وتحفل مذكرات الدكتور عبد الرحمن بدوى بأقدار كـثيرة من الثناء على شخصيات كثيرة قدر له أن يصـادقها أو يزاملهـا على مدى حيـاته الحافلة. ومن حديثـه عن هؤلاء نقتطف هذه الفقرة التى يتحدث فيها عن نشأة صداقته للمثال عبد القادر رزق واستمرارها:

«وعند وصولى إلى الأكاديمية المصرية فى روما ، وكانت بناء من طابقين صغيرين ، وتحيط بهـا أشـجـار من الـصنوبر ، سـألـت عن المدير فلم أجـده ، لكنى وجـدت بـعض الطلاب فاستقبلونى بترحيب حار ، وعلى رأسهم عبد القادر رزق الذى كان يواصل دراسة النحت فى روما مـبعوثا من مدرسـة الفنون الجميلة بالزمـالك بالقاهرة. ومنذ اللحظة الأولى التى التـقينا فيها نشأت صداقة حميمة بقيت قوية عميقة حتى وفاته فى سنة ١٩٧٧».

وفى موضع آخر يشير إلى فضله فيقول :

«أما عبـد القادر رزق فقد كان يصـحبنى فى زياراتى للمتاحف والكنائس ، أحـيانا وحده وأحيانا فى صحبة فنانين مصريين آخرين».

ويمثل ثناؤه على السـفير محـمد التابعى نموذجـا للثناء على الأصدقـاء أو المعارف الذين ورث صداقتهم عن عائلته:

«... وأفاض عليّ إبانها من كرمه وسماحة أخلاقه وحرارة استقباله سفير مصر لدى الفاتيكان الأستاذ محمد التابعي ما ضاعف من سعادتي ، ولقد كان بين والده ووالدي مودة حميمة طويلة ، وكان والده هو الذي يرسل إلى والدي برقيات النجاح والشهادات العامة (الابتدائية ، الكفاءة ، البكالوريا) ، إذ كان يحرص على تسجيل أرقامي في هذه الشهادات ، وينتظر إعلان النتائج في الصحف وهو في بلدة المنصورة ، ومتى ما اطلع عليها ، وكانت الصحف تصل إلى المنصورة قبل أن تصل إلى قريتي شرباص بيوم و يومين ، فكان هذا الوالد الفاضل الكريم أول مَنْ يبشر والدي بنجاح أبنائه في الشهادات العامة».

(٢٣)

وتحفل مذكرات عبد الرحمن بدوي بفقرات كثيرة من الثناء والمديح الذين يوجهما إلى كثير من المستشرقين من أساتذته المباشرين وغير المباشرين وممن زاملهم في المؤتمرات العلمية المتعددة التي حضرها على مدى تاريخه العلمي الحافل ، ونبدأ بإيراد ثنائه على أستاذه في قسم الفلسفة بآداب القاهرة ، الأستاذ لالاند ، ونحن نرى صاحب هذه المذكرات وهو لا يزال مسكونا بحبه وتقديره لهذا الأستاذ العظيم وهو يقول:

«أي تأثير كان للالاند عليّ؟ بث النزعة العقلية في تفكيري ، وتوجيه عنايتي إلى مناهج البحث العلمي ، وإلى الحرص على الدقة في تعريف المصطلحات الفلسفية (ولا عجب ، فهو صاحب أهم «معجم فلسفي»). ثم إني كنت أنزع إليه في الحصول على معلومات دقيقة عن الفلاسفة الفرنسيين الذين عرفهم عن قرب ، والاسترشاد بأحكامه عليهم».



ويصور الدكتور بدوي ما يفسره بمثابة مآثر لهذا المستشرق العظيم:

«ومن مآثره عليّ أنه هو الذي تحمس لتعييني معيدا في قسم الفلسفة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨ غداة حصولي على الليسانس: لقد اقترح على عميد الكلية د. طه حسين تعييني وزكاني تزكية حارة ، وكان هو ـ بوصفه رئيس قسم الفلسفة ـ صاحب الرأي الأول في هذا الشأن».

ويضيف الدكتور عبد الرحمن بدوي عبارات أخرى يعترف فيها بأفضال الأستاذ لالاند عليه فيقول:

«كما أنه فى السنة التالية ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٣٩ جعلنى معيدا لدروسه التى كان يلقيها على طلاب السنة الأولى للماجستير ، فكنت أعيد هذه الدروس عليهم بالفرنسية والعربية ، خصوصا ، وقد كانوا لا يكادون يفهمون حرفا منها لجهلهم الشديد باللغة الفرنسية، وحين وضع جدول بدراسة هؤلاء الطلاب فى السنة الأولى للماجستير أصر على أن يظهر اسمى فى الجدول مقرونا باسمه ، مما أثار حفيظة سائر أعضاء هيئة التدريس بالقسم ، فلم يحفل باحتجاجهم!».



على أن الأهم من هذا كله أن هذا الأستاذ العظيم لا لاند كان واسع الصدر ، وكان يتقبل آراء تلميذه حتى لو جاءت مخالفة لآرائه ، وهو الخلق الذى لا يتأتى إلا للعلماء ، كما أنه الخلق الذى يسمح للطلاب المتفوقين بأن يحسوا فى أنفسهم الزهو الذى يتطلعون إليه:

«ومما أذكره له أيضا أنه كلفنا ـ ونحن فى الليسانس ـ بكتابة بحث عن موقف كل من جاليليو وديكارت من المنهج التجريبى ، فاعترضت على رأى أبداه فى كتابه: «نظريات الاستقراء والتجريب» مفاده أن ديكارت كان من أنصار المذهب التجريبى ، فاعترضت على هذا الرأى استنادا إلى نصوص لديكارت نفسه مؤداها أنه كان يستطيع أن يكتشف اكتشافاته فى الفيزياء دون اللجوء إلى أية تجربة ، فانشرح صدر لالاند لهذا الاعتراض وكتب تعليقا يقول فيه: «إنك على صواب فى اعتراضك هذا ، وأن فى كتابى فى هذا الموضع سوء تحرير ، وسأعمل على تصحيحه فى الطبعة القادمة» وأعتقد أنا أنه كان سيفعل ذلك لو أنه أصدر للكتاب طبعة ثانية ، لكن لم تصدر له طبعة ثانية حتى الآن».



ويبلور الدكتور عبد الرحمن بدوى بعد هذا كله حكمه على هذا الأستاذ فى عبارة واحدة بليغة تحمل كل معانى التقدير:

«لقد كان تتلمذى على لالاند نعمة لا أستطيع أبدا نسيانها ، ولا وفاءها حقها من الشكر وعرفان الجميل».

(٢٤)

يثنى الدكتور عبد الرحمن بدوى على أستاذه كويريه الذى أشرف عليه فى مرحلة الماجستير ، وهو يثنى على أستاذيته وعلمه وعقليته وفضله فيقول:

«كان لكويريه عليّ فضل عظيم ، لأنه كان يجمع بين النزعة الميتافيزيقية والنزعة العلمية ، وكان يهتم بالتيارات الصوفية (يعقوب بيمه ، فالنتان فايجله.. إلخ) قدر اهتمامه بتاريخ العلم الحديث (جاليليو ، نيوتن ، كيلر) ، وله إنتاج غزير فى كل هذه الميادين».

ويشير الدكتور بدوى إلى بعض المزايا العلمية التى تميز بها أستاذه:

«وثمة ميزة أخرى لكويريه أفدت منها كثيرا وهى معرفته الجيدة باللغة الألمانية وبالفلسفة الألمانية ، لأنه وإن كان روسى الأصل (ولد فى سنة ١٨٩٢ ، وتوفى فى باريس سنة ١٩٦٤) فإنه تلقى دراسته فى جامعة جتنجن الشهيرة بألمانيا فى الفترة ما بين سنة ١٩٠٨ و١٩١١ ، حيث تتلمذ على هسرل مؤسس مذهب الظاهريات ، وعلى هلبرت الرياضى الفيلسوف».



ويشير الدكتور عبد الرحمن بدوى أيضا إلى بعض ما كان يتميز به كويريه على لالاند ، ومدى الفائدة التى عادت عليه وعلى رسالته العلمية من إحاطة هذا الأستاذ بالفلسفة الوجودية:

«لهذا وجدت فيه عزما كبيرا فى تفهيمى مذهب الظاهريات ، وتوجيهى فى ميدان الفلسفة الوجودية ، وقد كان على علم دقيق بها ، على عكس لالاند. ومن هنا أفدت من إشرافه على فى تحضير رسالة الماجستير لما أن تولى الإشراف عليها ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٣٩ بعد سفر لالاند ، لسعة اطلاعه على الفلسفة الألمانية ، ولأنه لم يعترض على توسعى فى القسم المتعلق منها بالموت عند الفلاسفة الوجوديين ،وبهذا استعدت خطتى الأصلية وهى أن تنصب الرسالة فى مجموعها على آراء الفلاسفة الوجوديين فى مشكلة الموت بحيث كان ثلثا أو ثلاثة أرباع الرسالة فى هذا الباب».



وبعد هذا كله يشير عبد الرحمن بدوى إلى فضل هذا الأستاذ على روحه المعنوية حين أخذ يشجعه على ألا يتأثر بقرار مجلس الكلية تأجيل مناقشته ، على الرغم من استيائه هو نفسه من هذا التأجيل الذى يحرمه من المشاركة فى مناقشة تلميذه الدكتور بدوى:

«ولما أتممت الرسالة وأمر هو بطبعها على الآلة الكاتبة ، كتب تقريرا مبدئيا عنها من أجل تحديد موعد مناقشتها ، ثم كان ما كان مما حال دون مناقشتها فى ذلك الوقت (فبراير سنة ١٩٤١) لأسباب شكلية سخيفة تتعلق بميعاد وتسجيل عنوان الرسالة ، وأذكر أنه كان مستاء لهذا التأجيل كل الاستياء ، لأنه لن يقوم هو بمناقشتها ، لأنه سيغادر مصر فى الشهر التالى (مارس سنة ١٩٤١) متجها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ،وشعر بمرارة شديدة لتصرف هذا

العميد الحقود أحمد أمين ، وراح يواسينى قائلا: «أنت أصدرت كتابين حتى الآن ، وهذا هو كتابك الثالث ، ألا تعلم أن كل كتاب تصدره هو بمثابة خنجر تطعن به الزملاء العاجزين الحاقدين مهما بلغت مرتبتهم فى الوظيفة!».



ويردف الدكتور بدوى بالاعتراف بأن هذه النظرة التى نقلها إليه أستاذه كويريه ظلت مسيطرة عليه طيلة حياته:

«وكان لكلمته القوية هذه أثر بالغ فى نفسى ، جعلنى بعد ذلك طوال حياتى لا أحفل بحقد أى حاقد ، وأمضى فى طريقى فى الإنتاج العلمى متحديا كل حاقد أو حسود ، مهما يبلغ قدره فى المنصب ، ومهما يكن عمره ، ومهما يكن نفوذه العملى فى شئون الدنيا».



وعند هذا الحد يبلور عبد الرحمن بدوى فلسفته فى الحياة التى كان لهذا الأستاذ الجليل فضل فى صقلها على هذا النحو:

«لقد ازددت إيمانا بصواب السلوك الذى اخترته لنفسى فى الحياة ، والذى يتلخص فى كلمة واحدة: التحدى!».

(٢٥)

وبالإضافة إلى أساتذته فى الفلسفة يثنى الدكتور بدوى بإعجاب شديد على الأستاذ باترى أستاذ اللاتينية متحدثا عن فضله فى تعليمه وتعميق معرفته باللغة اللاتينية وآثارها الأدبية:

«درَّس لنا اللاتينية أستاذ سويسرى هو باترى ، وكان فى الوقت نفسه مولعا بالموسيقى وتاريخها ، ويعزف عزفا جيدا على البيانو ، وقد درّس لى اللاتينية فى السنتين الثالثة والرابعة ، ولما رأى تفوقى البارز فى اللاتينية ، فقد تطوع لكى يقرأ معى من الثامنة إلى التاسعة فى يومى الثلاثاء والخميس «آنيادة» فرجيل ، فأتممناها فى عامين ، وجعلنى أحفظ عن ظهر قلب النشيد الأول منها ، وكان هذا منه فضلا عظيما يستحق عرفان الجميل ، وقد التقيت به فى سويسرا فى سنة ١٩٥٧ إبان أن كنت مستشارا ثقافيا فى السفارة المصرية ، وتذاكرنا معا عهد إقامته بمصر ، وكان اللقاء فى جنيف حيث يقيم».

(٢٦)

وتحفل المذكرات بالثناء على المسئولين عن المكتبات والمعاهد العلمية التى أتيح للدكتور بدوى أن يجرى بحوثه فيها ، أو أن ينسخ مخطوطاتها ، أو أن يلقى محاضراته فيها ، ومن هذا ثناؤه على جبرييل بونور مدير المدرسة العليا فى بيروت حيث يقول:

«كان بونور ناقدا أديبا ممتازا له مقالات عديدة فى النقد الأدبى ، نشرت فى «المجلة الفرنسية الجديدة» المشهورة التى كان يشرف على تحريرها أندريه جيد».

....

«وكان مديرا للعلاقات الثقافية فى السفارة الفرنسية ببيروت منذ سنة ١٩٢٤ ، وهى إدارة لها أهمية كبيرة ، لكثرة عدد المدارس الفرنسية فى لبنان».

«لما كان بونور مفكرا حرا ، فقد كان على خلاف مستمر مع اليسوعيين. وكان أيضا منصفا بين الطوائف ، وهذا أوغر صدر الطائفة المسيحية ومن ورائها اليسوعيون».



ومن بين الشخصيات الإيرانية الكثيرة التى قدر له أن يعبر عن سعادته بالتعامل معها نتخير ثناءه على العالم الإيرانى الأستاذ افشار مدير المكتبة المركزية فى جامعة طهران :

«وكان يدير المكتبة المركزية بجامعة طهران عالم ممتاز جمع بين غزارة العلم وبين سراوة الأخلاق والحرص على مساعدة أهل العلم ، وهو الأستاذ ابرج افشار ، الذى استطاع بنشاطه وحرصه على العلم واتساع علاقاته مع سائر مكتبات العالم التى تحتوى على مخطوطات عربية وفارسية ، أن يزود هذه المكتبة بمقدار هائل من «فيكرونات» التى تحتوى على أنفس المخطوطات: فى تركيا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة ، وباكستان ، والهند ، وأفغانستان ، وفى الوقت نفسه استطاع أن يضم إلى تلك المكتبة مجموعات عديدة من المخطوطات المشتتة فى أنحاء طهران ، وقم ، ومشهد وشيراز إلى آخره: إما بالاقتناء ممن يملكونها من الأشخاص أو الأسر وإما بالتصوير على ميكروفيلمات ، فصارت بذلك أغنى مكتبة مخطوطات فى العالم ، فضلا عن إيران نفسها».



ومن بين القادة الجامعيين فى الوطن العربى يخص الدكتور عبد الرحمن بدوى عميد كلية الآداب فى الجامعة الليبية الأستاذ عبد المولى دغمان بثناء وافر وهو يصفه فيقول:

«وكان على شبابه واسع الاطلاع على آخر الأبحاث فى علم الاجتماع ، إذ كان قبل ذلك بفترة قصيرة طالبا يحضر للدراسات العليا فى إحدى الجامعات بالولايات المتحدة ، وحصل من هناك على الماجستير فى علم الاجتماع ، وعاد قبل أن ينجز رسالة الدكتوراه ليتولى منصب مدير للجامعة الليبية ، وكان أول مدير ليبى كفء مختص يتولى هذا المنصب ، بعد أن تولاه قبل ذلك أشخاص لا شأن لهم بالعلم ولا بالجامعة».

(٢٧)

ونأتى إلى حديث المذكرات الحافل والمتعدد والمتنوع عن قادة أوروبا وشخصياتها البارزة ، ويمكن لنا القول بأن أهم ما يمكن لنا أن نخرج به من حديث الدكتور بدوى عن الرئيس الأسبانى الجنرال فرانكو أنه يعكس نوعا من الإعجاب الخفى بشخصية المستبد العادل ، وهو يتحدث عنه وعن سياساته بإنصاف فيقول:

«لقد كان فرانكو حاكما حكيما ، بارد الأعصاب ، صبورا ، أبعد ما يكون عن ثرثرة السياسيين وصلف الدكتاتوريين ، ورعونة المغامرين العسكريين ، جمع بين الحزم والمرونة ، بين الوطنية واتساع الأفق العالمى ، بين النظام العام وإطلاق الحريات الخاصة ، ووقف حاجزا دون طغيان الأصناف المختلفة من أنصاره: رجال الكنيسة ، رجال الجيش ، رجال المال والعقار، وحزب الفالانج فلم يسمح لأية فئة من هذه الفئات بأن تمارس أى طغيان على سائر أبناء الأمة ، وكان الكارليون يطالبون بإعادة الملكية ، وكان الفالانج يطالبون بإقامة حكم وطنى نقابى دكتاتورى».

«واجه المواقف بحكمة وثبات ، مع وضع الحلول الملائمة».



ويحرص الدكتور بدوى على الإشادة بقدرة الزعيم الأسبانى الجنرال فرانكو السياسية فيما يتعلق بمعالجة الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وصياغته لسياسة جيدة ومتينة مع العالم العربى:

«وحرص فرانكو دائما وإلى آخر عمره ، على تقوية علاقاته مع العالم العربى:

«أ ـ فلم يعترف أبدا بإسرائيل ، ولم يسمح بإقامة أية علاقات معها من أى نوع كان».

«ب ـ وتخلى طوعا عن المنطقة التى كانت تحتلها أسبانيا فى شمالى دولة المغرب (إقليم

الريف) للحكومة المغربية ، كما تخلى لها أيضا عن إقليم إفنى (فى ٢٥/ ٤/ ١٩٦٩) ، وكان موقفه المسالم هذا على النقيض تماما من موقف فرنسا من مراكش: ذلك الموقف الحافل بالعنف والمقاومة ونفى السلطان محمد الخامس... إلخ».

«وكافأته البلاد العربية على سياسته هذه تجاهها بأن كانت تؤيد أسبانيا فى كل المحافل الدولية (قبولها فى هيئة الأمم ، معارضة كل مشروع قرار يقصد منه الإساءة إلى أسبانيا.. إلخ)».

«ولهذا فإن أسبانيا منذ انتصار فرانكو النهائى فى الحرب الأهلية ضد الجمهوريين وحلفائهم الشيوعيين فى أول أبريل سنة ١٩٣٩ ، لم تنعم بالأمن والنظام والوحدة فى كل تاريخها بمثل ما نعمت به طوال حكم فرانكو من أول أبريل سنة ١٩٣٩ حتى وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥».

(٢٨)

ومن بين الشخصيات العالمية التى عاصرها صاحب هذه المذكرات يثنى عبد الرحمن بدوى على كثير من تصرفات وسياسات الرئيس شارل ديجول ، بيد أن هذا الثناء يدخل فى نسيج حديثه المتصل والمتكرر عن الأحوال السياسية والداخلية فى فرنسا وما يرتبط بهذا من تفصيلات حديثه عن كثير من الساسة الفرنسيين بمن فيهم بومبيدو وديستان وميتران وغيرهم من الساسة.

وليس كتابنا هذا بقادر على تلخيص كل ما أورده عبد الرحمن بدوى من تفصيلات السياسة الفرنسية مما عاشه ومما لم يعايشه ، ولكن يهمنا من حديثه عن الرئيس الفرنسى ديجول ذلك الجزء الذى يقارن فيه بين سلوك الزعماء العرب ودول العالم الثالث وسلوك الرئيس ديجول الليبرالى الذكى:

«ولقد كان الكتّاب و«المثقفون» بوجه عام يشتركون فى المظاهرات والإضرابات العنيفة التى قد تؤدى أحيانا إلى تخريب المنشآت وترويع المواطنين بل وقتلهم ، وعلى ذلك لم يشأ ديجول أن يمنح هؤلاء «شرف» الاعتقال ولو مرة واحدة ، ويكفى أن نذكر موقفه من جان بول سارتر وأمثاله ممن كانوا يحرّضون على إحداث القلاقل ويشاركون فى المظاهرات البالغة العنف والتخريب ، ولو كان واحد من أمثالهم فى البلاد العربية أو دول العالم الثالث ، ناهيك بالكتلة الشرقية!! لكان مصيره الإعدام أو التصفية الجسدية فى غياهب السجون ، فضلا عن

التعذيب المتواصل بكل الوسائل الجهنمية التى اخترعها عصرنا هذا ، وما أبشع ما اخترع من وسائل تعذيب وإفناء لبنى الإنسان!!».

«وبالرغم من هذا كله ، كان هؤلاء «المثقفون» يتبجحون ، ويصولون ، ويصرخون فى الصحف والمسارح والإذاعات ، وتتوالى توقيعاتهم الرخيصة فى بيانات تستغرق أعمدة الصحف اليومية والأسبوعية ومنهم محترفون ، تقرأ توقيعاتهم على كل البيانات ، أيا كانت الجهة الصادرة عنها أو الاتجاه أو الرأى الذى تدعو إليه ، ومن هؤلاء «المحترفين» فنانون وفنانات ، وكتّاب وكاتبات ، وصعاليك متطفلون لا تذكر أسماؤهم إلا فى هذه البيانات».

«وكم أحسن ديجول صنعا حين ترك هذه «الفقاقيع» تنتفخ وحدها ، ولا تلبث أن تفنى وحدها من تلقاء نفسها!».

(٢٩)

ولا يقف عبد الرحمن بدوى بثنائه على الأشخاص ، لكنه فى كثير من الأحيان يعمد إلى الحديث باستفاضة عن إعجابه بالمؤسسات العلمية وبالمكتبات وبالجامعات والجمعيات العلمية والهيئات المشتغلة بالبحث العلمى ، وكل هذا طبيعى ويأتى فى محله ، وكتاب عبد الرحمن بدوى حافل بمثل هذه التعريفات والتعميمات.

لكنى أود أن ألفت النظر إلى نموذج لثنائه على بعض الكيانات الحضارية ، وهو ثناؤه المبكر على شركة النيل الزراعية التى تولت النهوض بالأراضى الزراعية فى المنطقة التى وجدت فيها أرض عائلته ، ورأيى أن فى هذا الثناء قدرا كبيرا من الأهمية لأنه يقدم النموذج الذى لابد أن تحتذيه مؤسساتنا التنموية فى هذا العصر الذى نهدف فيه إلى تحقيق مجموعة من المشروعات الكبرى فى المجال الزراعى:

«لابد أن نذكر ها هنا ما كان لـ«شركة النيل الزراعية» تلك من فضل كبير فى شق الترع الداخلية ووضع الآلات البخارية لأخذ مياه النيل ، وتحسين البذور ، وترتيب الطرق ، وزراعة الأشجار العالية (الأثل والكافور والنخيل) مما جعل من هذه الضيعة ضيعة زاهرة. ولا أزال أذكر كيف كان شيوخ الفلاحين يمتدحون الترتيبات والتنظيمات فى الزراعة والرى فى عهد باغوص نوبار وعهد «شركة النيل الزراعية»! وأنى هذا مما ستفعله «هيئة الإصلاح الزراعى» بما ستستولى عليه من ضياع!!».

«ولا يزال البيت الريفى الذى أقامه باغوص باشا نوبار قائما مأهولا حتى اليوم ،تحيط به

أشجار مطاط عملاقة ، وعن شرقيه بستان كان وافر الأشجار المثمرة الفريدة والعديدة الأنواع».

....

«ومن مآثر هذه الشركة أيضا أنها أقامت وابورا كبيرا للرى على النيل وماكينتين صغيرتين للرى فى الطرف الأقصى من هذه الضيعة تأخذان من ترعة تدعى «البطرسية» (نسبة إلى بطرس غالى باشا ، رئيس الوزراء.. فيما أظن) ، ولما كانت منطقتنا هذه تشتهر أساسا بزراعة الأرز ، والأرز يحتاج إلى رى دائم ، فقد كان لهذه الآلات الثلاث فائدة عظمى فى الزراعة ، فازدادت غلة الأرض عدة أضعاف».



وبعد أن يقدم عبد الرحمن بدوى كثيرا من التفصيلات عن طبيعة نشاط وعمل هذه الشركة ، يختم كلامه بذكر هدفه من مثل هذا الحديث:

«وقد أفضت فى هذه النقطة إقرارا بالفضل وعرفانا للجميل ، بعد أن حاولت أجهزة الدجل والتهريج والاتجار بالشعارات الجوفاء ، أن تطمس هذه الحقائق. إن المهم دائما هو أن تفيد الآخرين بقدر ما تستفيد أنت ، وهذا كان حال هذه الشركة: استفادت أموالا كثيرة ، وأفادت الأهالى للتيسير عليهم فى امتلاك الأرض ومعرفة أساليب استغلالها على خير وجه ، وتوفير الوسائل المؤدية إلى تحقيق ذلك».

«وما كانت «شركة النيل للزراعة» بدعا فى هذا الباب ، بل أحسب أن هذه كانت حال سائر الشركات الزراعية الأجنبية فى مصر».

«تلك كلمة إنصاف يجب أن تُقال عرفانا للجميل ، بعد الهجوم الكاذب الذى كانت هذه الشركات هدفا له على لسان مَنْ لم يفعلوا شيئا ، بل خربوا ما كان قائما من قبل ، ولم يستغلوا أرضا جديدة إلا فى الأكاذيب والوعود الزائفة».

«وقد أشاعت هذه الشركة فى القرية وما حولها جوا متحضرا شبه أوروبى ، إذ كانت تدير هذه الضيعة كما تدار الضياع فى فرنسا وبلجيكا».

(٣٠)

ويجيد عبد الرحمن بدوى الحديث عن فلسفة الاستبداد والطغيان فى العصر الحديث ، وهو يتخذ من الرئيس جمال عبد الناصر النموذج الذى يقدم من خلال تأمل سلوكه الأمثلة

التى يضربها لبيان طبائع الاستبداد ومفاسده ونتائجه ، ويقدم عبد الرحمن بدوى خطبة عصماء فى التدليل على اكتشافه لهذه الطبائع وكيف تصاغ وتقدم للشعب ، والحقيقة أن خطبة عبد الرحمن بدوى التى ترد ضمن حديثه المسترسل تمثل نصا أدبيا وفكريا رائع الصياغة ، واضح الفكرة مهما اختلفنا مع بعض جزئياتها:

«وما من مستبد طاغية فى العصر الحاضر إلا وادعى أن ما يصدره من قرارات وقوانين إنما هو لـ «مصلحة الشعب».

«فباسم «مصلحة الشعب» صادر عبدالناصر الأموال والعقارات الزراعية والعمائر المشيّدة والأسهم والسندات ، ثم بدد هذا كله على «مخابراته» ومغامراته المخفقة فى اليمن وسائر البلاد العربية وعلى المرتزقة فى وسائل الإعلام ، وكل هذا فى سبيل تمجيد شخصه ، و«مصلحة الشعب» من هذا كله براء».

«وباسم «مصلحة الشعب» صادر حريات الناس جميعا وأنزل بهم شتى صنوف العذاب ، واعتقل عشرات الآلاف من الأبرياء ، وكل هذا كان إشباعا لأحقاده ومن أجل الاستئثار وحده بكل سلطة ولإذلال الجميع وإخضاعهم ، فأين هذا كله من «مصلحة الشعب؟!».

«وباسم «مصلحة الشعب» جر البلاد إلى حربين مدمرتين (حملة السويس سنة ١٩٥٦ ، وحرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧) بسبب حماقته وخرقة تصرفاته واندفاعه الأهوج دون تبصر ، فقتل الآلاف من الجنود ومن المدنيين ، ودمرت مرافق عديدة ، وبددت على الأسلحة أموال لا تحصى ، فهل قتل آلاف المصريين فى هاتين الحربين كان لـ «مصلحة الشعب»؟! وهل ضياع كل هذه المرافق والعتاد والأموال قدم لـ «مصلحة الشعب؟!».

«وباسم «مصلحة الشعب» أغلق حدود مصر على أهلها ، فمنع المصريين من الخروج من مصر طلبا للرزق ، فأضاع عليهم فرصا عديدة جدا وعظيمة جدا للكسب بالعملة الصعبة ، خصوصا فى تلك السنوات التى كانت فيها أبواب دول النفط وأمريكا وكندا واستراليا مفتوحة على مصاريعها لاستقبال العاملين ، فهل كان إفقار المصريين وحرمانهم من الأموال بالعملات الصعبة وتدمير قيمة الجنيه المصرى وحرمان مصر من هذه المزايا فى «مصلحة الشعب؟!».

«والقائمة طويلة تستغرق عدة صفحات من هذه القرارات والتصرفات التى أصدرها عبدالناصر باسم «مصلحة الشعب» ، فقضى بها على مقدرات هذا الشعب المصرى المسكين ، الذى كان تُساق غوغاؤه فى مظاهرات كاذبة مفتعلة لتأييد هذه القرارات «الشعبية» ، كما كان حَمَلَة مباخر عبد الناصر يسودون صفحات جرائده الهزيلة لإحراق البخور حول هذه القرارات «بصراحة».

يشيـر الدكتور بدوى بالكلمـة الأخيرة إلى عنوان المقال الأسـبوعى للصحـفى الأوحد فى عصر عبد الناصر ، مؤثرا الحديث عنه بصيغة الجمع فى قوله: «حملة المباخر».



أما نقطة الافـتراق بين عبد الرحـمن بدوى وبين الثورة فتـأتى على ثلاث مراحل ، المرحلة النهائية تظهـر لنا فى مذكراته عندما ترك منصبه كـمستشار ثقافى فأصـبح بعيدا عن كل صلة رسمية أو تنفيذية مع السلطة ، وقبلهـا عند وقوع هزيمة ١٩٥٦ ، أما بداية الافتراق فعند توقيع اتفاقية الجلاء.

ويصل الدكتور بدوى إلى تقـرير حقيقة أن حرب ١٩٥٦ وليس حـرب ١٩٦٧ (كما فى حالة غيره) كانت كافية لأن تطلعه على حقيقة الثورة:

«لهـذا زالت الغشـاوة عن عـينى ، وزال مـا تبقى من حـمـاسة عنـدى لثورة ٢٣ يوليـو ، وأصبحت أوقن كل الإيقان أن هذه الثورة هى أكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثمانى سنة ١٥١٧».

وهو يستطرد من هذا المعنى إلى قوله:

«وكانت حمـاستى للثورة قد تزعزعت قبل ذلك بعـام لما أن عقد رجالها اتفاقـية السودان التى بمقتـضاها استـقل السودان عن مصر! استـقلالا تامـا ، بعد أن ظلت مسـألة السودان هى العقـبة الكأداء فى كل المفاوضـات التى أجرتها مـصر مع بريطانيـا منذ سنة ١٩٢٠ حتى ذلك التاريخ. لقد قلت لنفسى آنذاك: فيم إذن كان كل نضالنا طوال خمسين عاما إن كانت النتيجة هى هذا التسـليم المطلق فى مسـألة السودان؟! وكان أعجب المفارقات أن اسـتقل السودان عن مصر وبريطانيا استقلالا تاما فى أول يناير ١٩٥٦ ، بينمـا بقيت القوات البريطانية فى احتلالها لمصر حتى ١٥ يونيو من العام نفسه!!».

(٣١)

وبالإضافة إلى هذا الموقف الواضح يحفل كتاب الدكـتور عبد الرحمن بدوى بالانتقادات التى يوجههـا لسياسات الثورة وسـياسات الرئيس عبد الناصـر ، وسنحاول أن نلخص بعض أمثلة لهـذه الانتقادات عـارضين وجهة نظر هذا المفكر الكبـير والفيلسـوف الجليل التى تحفل بالكثير من مبررات القبول وموجبات الصواب ، إلا أننا لابد أن نتحفظ بالقول بأن الصورة لم تكن قاتمة تماما ، وإنما هى أمانى لم تكن حقا ولكن عاش بها بعض الناس بعض الزمن الرغد،

ونبدأ بأن نعرض لجوانب انتقاداته لأداء الرئيس عبد الناصر فى أزمة قناة السويس ١٩٥٦ ، سواء فى التأميم ، أو قبل الحرب ، أو الحرب نفسها:

يتتقد الدكتور بدوى قرار تأميم قناة السويس على نحو ما أعلنه به الرئيس عبد الناصر ، ويصل فى هذا إلى تعميم حكمه هذا على كل قرارات الرئيس عبد الناصر:

«لكن جمال عبد الناصر لم يكن يهمه من الأمر أية منافع اقتصادية ، بل كان يريد عملا سياسيا مفاجئا مثيرا يكفل له الشهرة والدوى ، حتى لو جر على مصر الخراب ، وقد قام بعمله هذا بمفرده دون أن يستشير أحدا من زملائه ووزرائه ، ولم يعرض الأمر على هؤلاء إلا بعد إعلانه وتنفيذه للتأميم. وقد تبين فيما بعد أن عبد الحكيم عامر اعترض عليه فى جلسة مجلس الوزراء التالية للإعلان بحجة ما سيؤدى إليه من عواقب عسكرية سياسية ، كما اعترض فتحى رضوان بحجة أن هذا العمل يضعف حقنا فى المطالبة بالتأميم ، لأن هذا العمل خرق لاتفاق قانونى مسنود دوليا».

ويستطرد الدكتور بدوى من هذا إلى تعميم حكمه هذا على كل قرارات الرئيس جمال عبدالناصر:

«وهكذا كانت وستكون كل تصرفات جمال عبد الناصر خارجيا وداخليا: تصرفات حمقاء طائشة لا تحسب حسابا لأى شىء غير الدوى الأجوف العقيم حول شخصه ، مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر وشعب مصر ومكانة مصر فى المجتمع الدولى».



يشير الدكتور بدوى إلى ما حرصت قيادة الثورة [بعد ذلك] على تجاهله من طبيعة سلوكها البدائى فى مواجهة حملة دول العالم ضد مصر بعد قرار تأميم القناة:

«دعا وزير الخارجية الأمريكى دالاس إلى عقد مؤتمر فى لندن يضم المنتفعين من قناة السويس ، وقد أطلق عليهم آنذاك نادى المنتفعين (أو المستعملين) لقناة السويس ، وانعقد المؤتمر فى أغسطس سنة ١٩٥٦ ، فهل تدرى بماذا واجه جمال عبد الناصر وصحبه هذا المؤتمر؟».

يجيب عبد الرحمن بدوى عن هذا السؤال بما شهده فى ذلك الحين بنفسه حيث كان مستشارا ثقافيا فى سفارتنا فى سويسرا:

«لقد طلبوا من السفارات فى بعض الدول الأوروبية أن يتجمع المصريون فى ميدان واسع فى عواصم البلاد التى يوجدون فيها ، وأن يقفوا حدادا فى هذا الميدان ساعة افتتاح مؤتمر لندن؟! وأن تؤخذ لهم صورة وهم فى وضع الحداد هذا! واتصل بى القائم بأعمال السفارة

ـ لأنه لم يكن فى السفارة آنذاك سفير ـ وذلك بعد أن عزل السفير السابق ـ أحمد ثروت ـ فى أواخر يوليو ، وطلب منى أن أطلب من الطلاب فى جنيف وزيورخ أن يفعلوا ما طلبته وزارة الخارجية المصرية ، فقلت له: ما هذه المسخرة؟ فقال: أنا معك بأنها مسخرة لا معنى لها، لكن ماذا أعمل؟! مضطر إلى تنفيذ التعليمات الصادرة ، فقلت له: أما هنا فى برن فلا ، لكنى سأتصل بالكلية فى جنيف ليفعلوا ذلك ويرسلوا صورة لهم وهم فى هذا الوضع! واتصلت بطلاب جنيف وطلبت منهم أن يفعلوا ذلك ، وفعلوا ذلك وهم يستهزئون ، بدليل أن معظمهم كان يبدو فى الصورة وهو يضحك!».

ويعقب الدكتور بدوى على هذا بقوله:

«ولست أدرى ماذا فعلت السفارات فى البلاد الأخرى ، لكن هذه هى «الحيلة» الجبارة التى تفتقت عنها عبقرية القائمين على الحكم فى مصر!».

(٣٢)

يجاهر الدكتور بدوى بانتقاد ضعف الأداء والجهل فى موقف وزير الخارجية محمود فوزى من التعامل مع المجتمع الدولى فى أثناء نشوب النزاع بين مصر والدول الأخرى بعد تأميم قناة السويس ، وهو يقدم صورة فى منتهى الكاريكاتيرية لأداء الدكتور فوزى فى هذه الأزمة ، ومع أن أداء الدكتور محمود فوزى يحظى بانتقادات شديدة فى كثير من الكتابات ، إلا أن صورته لم تصل فى أى كتابة ناقدة إلى هذا المستوى الذى يصفها به الدكتور بدوى من السذاجة والبلاهة:

«وتدخلت هيئة الأمم فوكلت إلى سكرتيرها العام داج همرشولد مهمة التوسط فى النزاع ، واتفق هذا على اللقاء بوزير الخارجية المصرية محمود فوزى فى جنيف لبحث الموضوع».

«وجاء محمود فوزى خلال شهر أكتوبر ، وكنت فى جنيف ، فاشتركت فى استقباله فى مطار جنيف ، ولما نزل من الطائرة ، سأله بعض الصحفيين عن رأيه فى الموقف ، فأجاب: «الجو جميل فى جنيف ، والسماء صاحية» ، فدهش الصحفيون من هذا الجواب ، فكرروا السؤال ، فكرر هو نفس الجواب ، وازدادت الدهشة من هذا الوزير ، ورد عليه أحد الصحفيين قائلا: ما هذا الذى يقوله وزيركم؟! ماذا أصابه؟ فابتسمت وقلت: ربما كان هذا هو ما يسمى بالدهاء الدبلوماسى!».

ويستطرد الدكتـور بدوى إلى عجبه من أن يكون مسـتوى أداء الدكتور فوزى متدنيا إلى هذا الحد:

«وأصـابتنى حيـرة وخـجل من هذا الوزير الذى لا يسـتطـيع أن يرد بجـملتين تـتعلقـان بالموضوع ولا تلزمانه بشىء ، كأن يقول مثلا: «أنا قادم إلى جنيف للالتقاء بسكرتير عام الأمم المتحـدة لبحث موضـوع تأميم القناة ، وأرجو أن نصـل إلى حل فى هذه المسألة!» أو ما يشـبه ذلك من عبارات مفيدة لا تقيده بشىء ، أما أن يقول ما يقوله فهذه هى البلاهة بعينها».



ثم يصل الدكتـور عبد الرحمن بدوى إلى قـمة الهجوم على الـدكتور محمـود فوزى من خلال ما تتضمنه وجهة نظره فى الحكم على سلوكه:

«وازددت يقينا من بلاهة هذا الرجل ، الذى زمر له بعض الصحفيين (يقصد أنهم هللوا له ولقدرته) منذ أن كان ممثلا دائما لمصر فى هيئة الأمم المتحدة من سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٥٢، لما أن جاء إلى برن ، وأقام له السفير عشاء حضره أعضاء السفارة ،وكان الهدف من الاجتماع به استـيضاح الأمـور الجارية والإفادة مـن توجهاته ، لكنه أمـضى السهـرة كلها ، طوال ثلاث ساعات ، دون أن يـنطق بكلمة واحدة فى موضـوع السـاعة. وانبرى مـستشار السـفارة ـ وهو شخص ناقص العقل ـ وتحدث عن صيد الأسود فى الصـومال وكينيا ، يوم أن كان عضوا فى هيئة الوصاية على الصـومال قبيل استقلاله ، وكلما حاولت أن أسـأل محمود فوزى عن رأيه فى الموقف الحالـى كان يشيح بوجـهه ويطلب من ذلك المسـتشار المأفـون أن يتابع حـديثه عن صيـد الأسود فى الصومـال وكينيـا! وهمست فى أذن الملحق العسكرى لـيدخل ويوقف هذا الهراء ، فاعتصم بالصمت!».



ويبلور الدكتور بدوى الرأى الذى وصل إليه فى شأن وزير الخارجية المصرى بقوله:

«وهكذا أيقنت أن وزير الخارجية المصرى محمود فوزى ، ما هو إلا رجل معتوه جهول لا يدرى فى السياسة شيئا».

«ثم سمـعته بعد ذلك ، بعـد العدوان الثلاثى ، يخطـب فى مـجلس الأمن عند عرض هذا العدوان على مجلس الأمن ، فسمعت شخصا عييا غبيا لا يستطيع أن ينطق بحجة ، فضلا عن صوته الذى كان يموء به مواء القط المخنوق ، خصوصا وقد تلاه فى الخطابة أبا أيبان بفصاحته وبلاغته وصـوته الجهورى الأخاذ ، فـامتلأت نفسى حـسرة وغما ، وأنا أسمع المـناقشات فى

مجلس الأمن من الراديو السويسرى وهو ينقلها على الهواء مباشرة من نيويورك ابتداء من منتصف الليل».



ثم يتساءل الدكتور بدوى عن طبيعة العلاقة بين الرئيس عبد الناصر وهذا الوزير:

«ألم يخطر ببال عبد الناصر أن يستمع إلى كلام ممثله فى مجلس الأمن فى أثناء عرض قضية العدوان الثلاثى على مصر فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، ويدرك منه مدى عىّ وعجز هذا المندوب ، محمود فوزى؟».

«لكن يبدو أن هذا العىّ والعجز هما الصفتان المطلوبتان فى وزرائه وأعوانه».

(٣٣)

ينتقد الدكتور عبد الرحمن بدوى غفلة أجهزة المخابرات المصرية عن إدراك النيات الواضحة المنبئة عن الاستعدادات التى تمت فى أوروبا من أجل شن الهجوم على مصر فيما عرف بعد ذلك باسم «العدوان الثلاثى» ، ويشير إلى اشتغال الملحقين العسكريين فى سفارتى لندن وباريس بالتجسس على المصريين فحسب:

«وفى الوقت نفسه أخذت بريطانيا وفرنسا تستعدان لشن حملة عسكرية على مصر ابتداء من منتصف أغسطس ، كانت أرتال من الدبابات والمدرعات تسير فى الطرق الرئيسية فى فرنسا متجهة إلى طولون ، وأرسلت بريطانيا تعزيزاتها البحرية وبعض بوارجها إلى قبرص ، وكان على الأسطولين الفرنسى والإنجليزى أن يتجمعا فى قبرص ، ومن هناك تبدأ الحملة».

«وكل هذا كان يجرى فى فرنسا ، وفى انجلترا ، دون أن يعلم الملحق العسكرى فى كل من سفارتى باريس ولندن بأى شىء عن هذه التحركات ، لأنه مشغول فقط بالتجسس الرخيص التافه على المصريين المساكين المقيمين فى فرنسا وانجلترا ، ليعرف مَنْ جلس مع مَنْ فى المقهى، ومَنْ يصاحب مَنْ من الفتيات ، ومَنْ ينتقد أى شىء يجرى فى مصر ، إلى آخر هذه الترهات التى أنفق عليها جمال عبد الناصر وزبانيته فى المخابرات الشطر الأكبر من العملة الصعبة التى فى حوزة الخزانة المصرية!».

(٣٤)

يتحدث الدكتور بدوى بمرارة شديدة عن ألمه الفظيع لمستوى الأداء العسكرى المصرى المتدنى فى حرب ١٩٥٦ على نحو ما شاهدها فى السينما السويسرية ، فالطائرات دمرت كلها، وقائد بورسعيد سلمها بعد ٣ ساعات فقط من الهجوم عليها ، وسيناء تم اجتياحها فى ٣٦ ساعة فقط.. وهكذا. ومن العجيب أن كثيرين منا لا يزالون يجهلون هذه الحقائق:

«وكنت خلال أيام العدوان الثلاثى أتجرع أشد الغُصص مرارة ، وأنا أشاهد فى السينما السويسرية نشرة أنباء القتال ، وكلها حافلة بمخازى القوات المسلحة: المطارات المصرية تدمر عن آخرها بما فيها من طائرات ، والضباط والجنود وهم يهربون مجردين من الملابس العسكرية وأقدامهم حافية ، وقائد حامية بورسعيد (الموجى) وهو يسلم المدينة بعد ثلاث ساعات فقط من الهجوم البحرى الإنجليزى الفرنسى ونزول قوات المظلات فى جنوب بورسعيد ، والقوات الإسرائيلية بقيادة موشى ديان تجتاح شبه جزيرة سيناء فى ٣٦ ساعة فقط ، كل هذا كانت تعرضه «جريدة الأنباء» (التى كانت تعرض قبل عرض الأفلام) فى جميع دور السينما فى سويسرا ، ويعلق المعلق بشماتة عجيبة وكأن القوات السويسرية هى التى قامت بهذه العمليات العسكرية!».

❑

وتحفل رواية عبد الرحمن بدوى بتفصيلات حرب ١٩٥٦ حسبما عاشها فى المجتمع الغربى بكثير من التفصيلات المضيئة لحقائق التاريخ وحقيقة المواقف المختلفة داخل جبهة الأعداء ، ومن هذه المواقف ننقل للقارئ ما يرويه صاحب المذكرات عن هذا الموقف المهم:

«وبهذه المناسبة أذكر أنه فى أثناء أزمة تأميم قناة السويس سافر سفير فرنسا الكونت دى شايلا إلى باريس ليتحدث مع وزير خارجيته كرستيان بينو فى هذه المشكلة ، وكان الكونت دى شايلا رجلا حصيفا عاقلا ذكيا فاهما الأحوال فى مصر ، فقال لوزير الخارجية: «أرجو ألا يكون صحيحا ما يتردد من استعداد فرنسا لغزو مصر ، لأننا سنضيع بذلك ما لنا من رصيد هائل من التقدير فى مصر» ، فرد عليه بينو ، وكان أحمق متعجرفا: «اعلم ياسيد دى شايلا أننا نرسل سفراءنا إلى الخارج لينفذوا تعليماتنا ، لا ليقدموا إلينا نصائح» ، وكان جزاء دى شايلا، لأنه كان على حق ، أن نُقل إلى سفارة فى أمريكا الجنوبية. ومن عجيب أن يأتى كرستيان بينو هذا بعد ذلك بخمس عشرة سنة فيزعم فى «مذكراته» أنه كان ضد اشتراك فرنسا فى الغزو العسكرى لمصر فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٦! فيا لها من وقاحة!».

(٣٥)

يتتقـد عبـد الرحمن بدوى الأداء الإعـلامى المصرى فى أثناء حرب ١٩٥٦ ، ويـصور لنا الأمر بالطريقـة التى ندرك بها بكل وضـوح أن ما حدث فى ١٩٦٧ لم يكن إلا صـورة مكبرة لبـروفـات حدثت فى ١٩٥٦ علـى نطاق ضيـق ولم يتح لهـا أن تلقى الذيوع بسـبب تخلف ظروف الاتصـالات فى ذلك الوقت واعتـمادها الـبطىء على البرقـيات ، وإلا فـقد كـان من الممكن لأجهزة إعلامنا أن تملأ الدنيا فى ١٩٥٦ ضجيجا بما ملأته به فى حرب ١٩٦٧:

«وكان الملحق العسكرى (وحيد رمضان) يتلقى من وزارة الحربية بلاغات كلها كاذبة عما أسقطناه من طائـرات العدو (الإنجليز والفـرنسيين) ، وكان يطلب منى أن أتـصل برئيس قسم الشئـون الخارجيـة فى جريدة (Neue Zuricher Zeitung) التى تصـدر فى زيورخ وتعـد أكبر صحـيفة يومية فى سويسرا ، وكنت أعـرفه معرفة وثيقة بتوصـية من أستاذى روبرت ران الذى صار مـستـشارا ثقافـيا للسـفارة السويسـرية بالقاهرة وأوصى بى لدى بـعض الأساتذة والمثقفين والصحفيين السويسريين عند تعيينى فى منصبى هذا ، فاتصلت به ، كما اتصلت بمَنْ أعـرفـه فى جـريدة (La Tribune de Geneve) لينشـروا هذه البرقيـات ، فأخـبرونى أن البـرقـيـات الواردة إليـهم من المصـادر المحـايدة ـ وكـالات الأنبـاء: رويتـر ، يونيـتـدبرس ، أسوشيتـدبرس.. إلخ ـ تناقض كل المناقضة تلك البرقيـات ، وكنت أنا أعلم هذا تماما ، وقلته للملحق العـسكرى فى وقته ، لـكن كان علىّ تبليغ رسـالته ، ولما عاود الملحق الـعسكرى فى اليوم التالى الاتصال بى لتبليغ برقياته ، قلت له: لا داعى للاستمرار فى هذا ، فلن نضلل أحدا ، بل سنصير أضحوكة فى نظر الناس ، والأولى متابعة الأخبار».

(٣٦)

يتحـدث الدكتـور بدوى عن التناقض الرهيب بين صورة الهـزيمة العسكرية على نحـو ما رآها فى ١٩٥٦ وبين الصورة التى كـان يقدمها الإعـلام المصرى حافلة بالأغانى والأنـاشيد ، ويخلص إلى الاندهاش مـن الحديث عن قـوة الجيش المصـرى!! ويصل فى هذه الحـالة إلى فقدان آخر ما تبقى من حماس للثورة:

«وهذا كله يحـدث أمامك بالصور ، بينمـا لو فـتـحت الإذاعة المصرية كـنت لا تسمع إلا أناشيد النصر: «الله أكبر فوق كيد المعتدى...» ، أو الأغانى الحماسية من فايدة كامل وغيرها،

وكأن مصر فى عالم آخر لا تدرى شيئا عما جرى على أرضها فى سيناء ومنطقة شمالى القناة!!».

(٣٧)

ويصف الدكتور عبد الرحمن بدوى بكل دقة الهزيمة المعنوية التى واكبت الهزيمة المادية العسكرية فى ١٩٥٦ ، ويروى موقفين ورأيين مختلفين لاثنين من العسكريين المصريين اللذين زاملهما فى أثناء عمله فى السفارة المصرية فى سويسرا فى أثناء الحرب وبعدها:

«وكنت أسأل الملحق العسكرى (وحيد رمضان) والملحق الجوى (عمر الجمال) كيف حدثت هذه الكارثة للجيش المصرى الذى لم يصمد ولو لبضع ساعات ، سواء فى سيناء وفى منطقة بورسعيد؟ فيلوذ أولهما بالصمت أو يخوض فى كلام لا معنى له يتهرب به من الجواب ، أما الثانى فكان صريحا من اللحظة الأولى فكان يقول صراحة: إنه لا قبل لنا بمواجهة هذا العدوان ، لا فى الجو ولا على الأرض ، وإن طيراننا ضعيف عُدة وتدريبا ، ولما أخبرته بما سمعته فى الإذاعة المصرية من تصريح لقائد سلاح الطيران (صدقى) من أن سلاح الطيران المصرى لا يزال سليما وأنه مستعد ـ وكان ذلك بعد وقف القتال ـ للقضاء على كل من تسول له نفسه العدوان على مصر ـ علق قائلا: متى نكف عن هذه الأكاذيب الصبيانية؟! ولماذا إذن لم يرد على هجوم الطيران البريطانى فى الليلة الأولى لقيام العدوان؟!».

«وهنا قلت فى نفسى: إن الهزيمة هزيمتان: هزيمة مادية عسكرية ، وأخرى معنوية مدمرة لكياننا المعنوى ، والثانية أشد وأنكى ، لأن معناها هو أننا سنواصل التضليل والكذب على أنفسنا وعلى الشعب المصرى ، ولن نسعى لتلافى ما وقعنا فيه من أخطاء ، بل سنظل فرائس للخداع ، والأوهام. إن أول خطوة للإنقاذ هى الوعى بمدى الكارثة والاعتراف الذاتى بالأخطاء الفاحشة التى ترتكبها القيادة السياسية والعسكرية ، ومحاولة التغيير الجذرى الشامل للأوضاع التى أدت بنا إلى هذه الكارثة الفظيعة».



يعبر الدكتور عبد الرحمن بدوى عن جزعه وفزعه من تفضيل القيادة المصرية اللجوء إلى الأكاذيب التى يرى أنها أكثر العوامل تدميرا لمعنوية أى أمة:

«لكن الذى فعلته القيادة السياسية والعسكرية كان على العكس تماما: إذ راحت عن طريق

الإذاعة والصحافة توهم الناس أننا انتصرنا نصرا عسكريا كاسحا مؤزرا ، وأن «المقاومة الشعبية» فى بورسعيد هى التى ردت أساطيل الغزاة الإنجليز والفرنسيين على أعقابها ، وساقت الحناجر المزيفة للتغنى بهذا النصر العظيم ، وتشبع الجو بهذه الأباطيل».

«وليس ثمة عامل أكثر تدميرا لمعنوية أمة من الأمم أشد من الأكاذيب.. لكن هذه ستكون الوسيلة التى سيعتمدها الحكام فى مصر طوال السنوات التالية».

(٣٨)

وننتقل من حديث الدكتور بدوى عن حرب ١٩٥٦ إلى حديثه عن حرب ١٩٦٧ ، ويبدى الدكتور بدوى آراء ذات قيمة كبيرة فى حديثه عن هزيمة يونيو ، فهو يرجع السبب الرئيسى فى الهزيمة إلى الغفلة التامة:

«ولا تفسير للنجاح الهائل الذى أصابته هذه الغارة الجوية الإسرائيلية إلا الغفلة التامة التى كان فيها القائمون على الجيش المصرى بكل أسلحته: فلم يرتبوا شيئا لاحتمال وقوع هذه الغارة ، من تخزين الطائرات فى مخازن تحت الأرض ، واليقظة التامة لأى تحرك إسرائيلى ، ونصب أجهزة الدفاع عن المطارات إذا أغير عليها واستعدادها للتصدى للطائرات المغيرة ، وتأهب الطائرات المصرية المقاتلة للتصدى للطائرات المغيرة».



ويشير الدكتور بدوى إلى أن الرئيس جمال عبد الناصر كان مندفعا بالطبيعة دون أى تبصر للوقائع ، وهذا على خلاف ما يود البعض من تصوير خطأ عبد الناصر فى ١٩٦٧ على أنه خطأ وحيد تمثل فى عدم تقدير الموقف:

«ولما كان المعادون لعبد الناصر فى العالم العربى ـ وما أكثرهم! ـ يسخرون منه لأنه يسمح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى خليج العقبة منذ أوائل سنة ١٩٥٧ بعد وضع قوات الطوارئ الدولية فى شرم الشيخ ، فقد اندفع كعادته دون تبصر بالعواقب ، وعلى طريقة «التهويش» التى جرى عليها دائما فى كل تصرفاته ، وقرر منع مرور السفن الإسرائيلية من خلال مضايق تيران ، وذلك فى يوم ٢٢ مايو ، وكانت إسرائيل قد أعلنت من قبل أنها ستعتبر منع مرور سفنها فى خليج العقبة عملا حربيا».

(٣٩)

ويشيـر الدكتور بدوى إلى أن عبـد الناصر قد أتاح لإسـرائيل الفرصة المرتقبـة ،وهو يعدد الأسباب التى صـور بها الرئيس عبد الناصـر نفسه ومدى استـعداده ومدى تمكنه ، والخطوات التى اتخذها من أجل المعركة بينما كان فى حقيقة الأمر يلقى بنفسه فى مصيدة إسرائيل:

«وبتسرعه المعهود واندفاعه الأهوج وعدم تبصره بعواقب الأمور ، أتاح جمال عبد الناصر الفرصـة السانحـة لكى تقوم إسـرائيل بضربتـها ، فصـرّح فى ٢٦ مايو سنة ١٩٦٧ أمـام اتحاد النقابات العربية قائلا: إن الوقت قد حان للعمل ، وقال ما معناه: نحن نشعر الآن بأننا أقوياء، ولدينا القدرة الكافية لخوض المعركة ضد إسرائيل ، وبمعونة الله سننتصر ، وعلى هذا الأساس قررنا المضى قدما ، واستيلاؤنا على شرم الشيخ مـعناه أننا مستعدون للدخول فى حرب شاملة ضد إسـرائيل ، وقد قمت بتحـركاتى الأخيرة لهـذا الغرض ، والآن خوّلتنى اللجنة التنفـيذية العليـا للاتحاد الاشـتراكى أن أقـوم بتنفـيذ هذه الخطة فـى الوقت المناسب ، وقد جـاء الوقت المناسب الآن إذ صارت سـوريا مهددة بالعدوان ، ونحن واثقـون أننا متى خضنا المعركـة فإننا سننتصر».

ويصل الدكتـور عبـد الرحمن بدوى إلى استنتـاجات مـهمة فـيما يتـعلق بحركـة الجيش المصرى فى سيناء فى ١٩٦٦ و١٩٦٧ ، وتتبلور هذه الاستنتاجات فى حكمه على عبد الناصر بالجنون المطبق ، إذا ظن أن الفرصة كانت سانحة لخوض معركة مع إسرائيل:

«ويظهر من تصريحات لعبـد الناصر فيما بعد أنه قام بتحركـات فى سيناء فى أكتوبر سنة ١٩٦٦ وفى مايو سنة ١٩٦٧ بناء على توجيهات من الاتحاد السوفيتى، ثم إن الاتحاد السـوفيتى هو الذى ضغط على عبد الناصر لتوقيع ميثاق دفاع عن سوريا فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٦٦».

«فى هذه الظروف البـالغـة السـوء والتـعـقـيـد ، أليس من الجنون المـطبق إذن أن يدّعى عبدالناصر أن الفرصة سانحة لخوض معركة ضد إسرائيل؟».

(٤٠)

لكن الدكتور عـبد الرحمن بدوى بعد تأمل فـى نفسية عبـد الناصر فى ذلك الوقت يصل إلى حقيقة مهمة يعبر عنها مباشرة بالسخرية من انتصارات الرئيس جمال عبد الناصر الوهمية

التى دفعته إلى مثل هذا الغرور المطلق ، وهو يعدد الأسباب التى هيأت لعبد الناصر ـ من وجهة نظر عبد الناصر نفسه ـ كل هذا القدر من الغرور:

«لكن الغرور كان قد تملكه تماما حتى أعماه عن كل شىء ، ولِمَ لا يستولى عليه الغرور وقد «انتصر انتصارا هائلا» على «الإقطاعيين» فى مصر ، انتصارا لا تدانيه كل انتصارات الإسكندر المقدونى ، ويوليوس قيصر ، وسعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، ونابليون؟!!».

«وكيف لا ينتصر على إسرائيل بجيشه الذى كان قائده هو المشير عبد الحكيم عامر الذى حقق انتصارا عظيما فى المعركة التى خاضها ضد «الإقطاع» بواسطة «اللجنة العليا للإقطاع» التى رأسها وضمت وزير حربيته شمس بدران ، وأبطال «المعارك العظمى»: على صبرى ، وعباس رضوان ، وكمال رفعت ،وأمين هويدى ، وصلاح نصر ، أولئك القادة العظام الذين يقصر دونهم ـ وبمراحل عديدة ـ فون مولتكه ، وهندنبورج ، وفوش ،ومونتجمرى!!».

لقد انصرف هؤلاء «الأبطال العمالقة» عن الحرب وشئونها ، والتدريب والإعداد ، والتخطيط والتحسين لما هو أهم من هذا كله ، ألا وهو «القضاء على فلول الإقطاع فى مصر»، فظلوا يعقدون الجلسات من كل أسبوع طوال عام ١٩٦٦ وأوائل ١٩٦٧ ليبحثوا ويتعقبوا قيراطا من الأرض لم يسجله «إقطاعى» فى إقراره المقدم إلى «الإصلاح الزراعى» لأنه دون هذا «القيراط» المنسى تهون سيناء كلها (رغم أنها تمثل خمس مساحة مصر كلها) ، وقناة السويس بما تدره من أرباح ، وبترول سيناء!!».

(٤١)

ويعلق الدكتور بدوى على سلوك الرئيس عبد الناصر بعد وقوع الهزيمة بآراء فى غاية الجرأة والقوة والمنطقية ، وهو لا يتصور الأمور التى حدثت تخرج عن نطاق المسرحيات المفتعلة التى تستخف بعقول المشاهدين:

«وقد بلغ استخفاف عبد الناصر بعقول المصريين حدا جعله يقول فى الخطبة التى ألقاها فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ، أى بعد الهزيمة المنكرة بشهر ونصف شهر ، إن إسرائيل لم تحقق هدفها ، لأن هدفها هو إسقاط عبد الناصر والقضاء على الثورة فى مصر! أى والله ، وكأن هرتزل وزعماء الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بازل فى سنة ١٨٩٩ إنما كانوا يهدفون من

حركتهم الصهيونية كلها أن يسقطوا بعد سبعين عاما حاكما فى مصر ، ويقضوا على ثورة قام بها؟!».

«وكانت مسرحية الاستقالة الرهيبة فى مساء يوم ٩ يونيو من أحقر المهازل وأخسها! لقد دبرها مع على صبري وسائر زبانيته على أساس أن تخرج جماعات مأجورة فى الشوارع تطالب بعودته إلى الحكم ، وانطلت الحيلة على السُذج من العامة التى فقدت عقلها بسبب الهزيمة النكراء ، وراحت حناجرها الكاذبة تطالب بعودته ، أى والله ، عودة القائد الذى مُنى بأبشع هزيمة فى تاريخ مصر كلها منذ حينها حتى ذلك اليوم! ولا يعرف التاريخ قائدا هُزم هذه الهزيمة ثم طالبت الجماهير بعودته!».



ويستطرد الدكتور بدوى إلى عقد بعض المقارنات بين موقفى عبد الناصر فى أعقاب الحربين:

«ولم يكن عنده فى هذه المرة الحجة التى تذرّع بها فى هزيمة حرب السويس (٢٩/ ١٠ إلى ٧/ ١١ سنة ١٩٥٦) ، وهى أنه كان يواجه دولتين كبيرتين هما: انجلترا وفرنسا ، وليس فقط «ذيلهما» إسرائيل ، رغم أن هذه الحجة واهية تماما لأن إسرائيل كانت قد اكتسحت معظم سيناء ووقفت على بعد عشرين كيلومترا شرقى قناة السويس ، قبل دخول انجلترا وفرنسا هذه الحرب ، وانسحب الجيش المصرى من كل سيناء إلى غربى قناة السويس. فحتى هذه الحجة الواهية لم يعد لها وجود هذه المرة فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، لقد كانت مصر فى مواجهة إسرائيل وحدها فى المعارك الفعلية لهذه الحرب».

(٤٢)

ويجاهر الدكتور عبد الرحمن بدوى بانتقاد الرئيس عبد الناصر فى اتجاهه إلى إلقاء المسئولية عن هزيمة ١٩٦٧ على عاتق المشير عبد الحكيم عامر وهو يقول:

«وإمعانا فى التضليل الوقح الكالح الوجه ، راح يلقى المسئولية كلها على القائد العام للجيش عبد الحكيم عامر ، وقائد سلاح الطيران ،زاعما فى صفاقة منقطعة النظيرأنه نبه هذا القائد العام فى يوم الجمعة ٢ يونيو بأن إسرائيل ستهجم فى يوم الأثنين ٥ يونيو ،وأنها ستوجه ضربتها الأولى إلى سلاح الطيران بالذات ، فإن كان صحيحا ما زعمه هذا المتنبئ الكذاب ،فلماذا لم يقم بنفسه بالتأكد من استعداد سلاح الطيران وسائر الجيش للتصدى لهذا

الهجوم؟ أليس هو رجلا عسكريا وحارب فى سنة ١٩٤٨/ ١٩٤٩؟ ثم إذا كان هذا صحيحا، فلماذا انتظر حتى تضرب إسرائيل أولا وأبسط قواعد ما تعلمه فى فن الحرب هى أن يعاجل العدو بالضربة الأولى قبل أن يقوم هذا العدو بها ، خصوصا وقد كانت لديه فسحة من الوقت - ثلاثة أيام - كى يوجه هو هذه الضربة الأولى لإسرائيل؟! لكنه الكذب الفاضح المفضوح الذى تعوّد عليه خلال خمس عشرة سنة قد سول له أن يفترى هذه الأكذوبة الأخرى».

«ثم ما معنى إلقائه المسئولية على القائد العام وقائد سلاح الطيران وغيرهما من القوّاد ، بينما كان هو المستبد وحده بكل شئون الحكم ، والمتصرف الوحيد فى سياسة مصر ، وهو الذى انفرد باتخاذ القرارات والتصرفات التى أعطت إسرائيل الحجة والفرصة للهجوم على مصر؟! إن مسئوليته عن الهزيمة مثل مسئولية هؤلاء القوّاد سواء بسواء ، وتزيد عليها كثيرا جدا من حيث السياسة التى أدت إلى نشوب هذه الحرب ، فأى تضليل أكبر من أن يحاول التخلص من المسئولية الكاملة بإلقائها على قادة الجيش؟! نعم هم مسئولون مسئولية فادحة عن الهزيمة العسكرية ، لكنه هو أيضا مسئول عنها بنفس الدرجة ، ويزيد عليهم بمراحل بمسئوليته عن الأسباب التى أدت إلى اندلاع الحرب».

(٤٣)

ولا يخل الدكتور عبد الرحمن بدوى بكثير من الحقائق التى أتاحت له إقامته فى باريس أن يدركها عن مجريات الأمور فى حرب ١٩٦٧:

١ - فعلى حين كان ديجول متحفظا وأقرب إلى الحياد فإن: «موقف رئيس وزرائه جورج بومبيدو كان موقف المؤيد لإسرائيل ، والدليل على ذلك عمليا هو أنه هو الذى أوعز إلى جريدة «فرانس سوار» أن يكون عنوانها الضخم فى الطبعة الأولى التى أصدرتها فى الساعة التاسعة من صباح يوم ٥ يونيو هو: «مصر تهاجم إسرائيل» ، وهنالك تدخل ديجول وجعل مدير مكتبه يتصل بهذه الجريدة وتغيير العنوان فى الطبعة التالية ، وفعلا صدر العنوان فى الطبعة التالية - حوالى الظهر - هكذا: «الحرب بين مصر وإسرائيل» ، وقد ذكرت هذا الخلاف بين ديجول وبومبيدو مجلة Nouvel Observateur (بتاريخ ٧ إلى ١٣ يونيو سنة ١٩٦٧)».

٢ - يشير إلى أن هناك ما يبرر هذا المسلك الذى اتخذته الصحافة الفرنسية:

«لكن ينبغى أن نـذكر هنا أن أول برقيـة لوكالات الأنباء فى صباح ذلك اليوم عن القـتال هى تلك التـى بعث بهـا مـراسل وكـالة رويتـر فـى تل أبيب واسـمـه Fabien Vecomte وسجلت على آلة «التكر» فى باريس فى السـاعة السابعة و٢٤ دقـيقة كان نصهـا هو: «مصر تهاجم إسرائيل على الحدود الجنوبية»».

٣ ـ يشير إلى أن السوفيت دفعوا ثمن تورطهم فى تضليل مصر وسوريا:

«وإذا كان تفسيرنا نحن هذا هو التـفسير الحقيقى لما قصده السوفـيت بتبليغ مصر وسوريا أنباء كـاذبة عن اعتزام إسـرائيل الهجـوم على سوريا ، فإنهم سـيدفعـون ثمنا غاليـا جدا: من مساعـدات اقتصادية وتزويدات عسكرية وامتـهان لكرامتهم وسقـوط لمنزلتهم بين دول العالم الثالث».

(٤٤)

يعبر عبد الرحمن بدوى عن حيـرته فيما يتعلق بموقف الشعب المصرى من هزيمة ١٩٦٧ ، وهو يعترف بحيرته فى تفسير هذا الموقف:

«وأحاول أن أجد تفسيرا لموقف الشعب المصرى هذا ، موقف الخزى والاستسلام والخنوع المفرط ، فلا أجد ، وأروح أعزى نفسى بقول الشاعر أحـمد شوقى فى بداية مسرحيته «مصرع كليوباترة»:

«حابى: اسـمع الشـعـب «ديـون» كـيـف يوحـون إلـيـه
مـلأ الجـو هـتـافـا بحـيـاتى قـاتليـه
يـا لـه من ببـغـاء عـقـله فـى أذنيـه
ديون: حـابى! سمـعت كـمـا سمـعت وراعنى أن الرمية تحتفى بالرامى»

ويقول الدكتور بدوى:

«ثم بدّلت كلمات الأبيات التالية لهذا البيت حتى تستقيم مع الحال الراهن ، فقلت:

هتفـوا بمن جلب الهوان علـيهم وأحـالهـم قطـعـا من الأغـنـام
وسـعى بكل الحمق نحـو هزيمـة عـار لمصـر على مـدى الأعـوام
ومضى يعـربد كالمكاذب فـاجرا متـرديا فـى البُطل والأوهام

«كنت أسائل نفسى: هل خمسة عشر عاما من الظلم والقهر والاستبداد تكفى لإرهاب روح شعب؟ ولجعله أعمى لا يبصر شيئا، وأبله لا يرى ما ينبغى عليه أن يفعل، ومسلوب العقل بحيث يتصرف على النقيض مما ينبغى أن يكون عليه تصرف العاقل؟ وهل خمسة عشر عاما من العيش فى الظلام تكفى لتُغشى على الأبصار؟ صحيح أن مصر فى كل تاريخها لم تعرف استبدادا أقسى وأشمل من الاستبداد الذى استولى عليها طوال تلك السنوات الخمس عشرة، لأن أدوات القهر لم تبلغ مثل هذه الدرجة من الإحكام والشمول والفاعلية كما بلغت فى هذا العصر التعيس، المتباهى مع ذلك بهذا التقدم «التكنولوجى» الهائل حتى فى أدوات وأساليب التعذيب والقهر. كان الناس قبل هذا «التقدم» الشرير يفرّون بأنفسهم إلى البوادى أو الجبال فلا تلحق بهم قوات السلطة الغاشمة، أما اليوم فقد صارت الطائرات المحورية (الهليكوبترات) تستطيع أن تتعقبهم فى أعماق الصحراء وفى كهوف الجبال الشاهقة، وكانت الأسلحة متكافئة بين المتمردين وأصحاب السلطة، أما الآن فلا قبل مطلقا للأفراد، ولا للجماعات بمواجهة الطائرات والمدافع والدبابات والصواريخ التى يملكها صاحب السلطة القائمة».

وقبل هذا نرى الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو يواصل طرح الأسئلة المعبرة عن اندهاشه وعجبه من وصول الأمور إلى هذا الحد رغم كل ما ذاع وشاع:

«أين إذن «أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط»؟ وأين إذن هذه «القوات المسلحة» التى سلمت لها مصر كل شيء، ابتغاء تكوين جيش قوى يدافع ـ على الأقل ـ عن مصر؟ وأين التضحيات الجسيمة التى ضحى بها الشعب المصرى: من حريات وأموال، وما عاناه الكثيرون من إهانات واستبداد واغتصاب للأموال والحرمات والمناصب القيادية، إذا كانت هذه هى النتيجة حين يجد الجد ويتوجب على القوات المسلحة المسيطرة على كل مقادير الأمور فى البلاد أن تقوم بواجبها؟!».

(٤٥)

وننقل من حديث عبد الرحمن بدوى عن الحربين الكبيرتين اللتين هزم فيهما نظام الرئيس عبد الناصر إلى بعض حديثه عن بعض جوانب الحياة العامة والسياسية فى عهد الثورة، ونبدأ بأن ننقل ما يبديه الدكتور عبد الرحمن بدوى من مرارة شديدة من تردى أحوال السلك الدبلوماسى المصرى، ويصف هؤلاء بالجهل والتفاهة والتملق، ومن العجيب أن نجد واحدا

من رجال الثورة هو الوزير أحمد طعيمة يجاهر فى مذكراته بانتقاد السلك الدبلوماسى المصرى بأكثر من انتقادات عبد الرحمن بدوى ، وليس بوسعنا إلا أن نتحفظ على مثل هذه الآراء التى تعمد إلى التعميم ، بينما وقفت خبرتها عند حدود معينة:

«وهذه حال رجال السلك السياسى المصرى دائما ، ولا سبيل مطلقا لتخلصهم منها ، ذلك أن الجهل والتفاهة والتملق هى المؤهلات الأساسية عندهم جميعا ، وبفضلها وحدها يترقون فى سلم المناصب الدبلوماسية ، وينعمون بالعمل فى عواصم البلاد الكبيرة المتمدنة ، وإذا ظهر بينهم واحد أوتى شيئا من العلم أو الاهتمام بوطنه ، فالباقون جميعا أعداؤه ، وأهم ما يتباهى به الواحد منهم هو ملابسه ، وكيف يراعى البروتوكول: فى الوقوف والجلوس والسلام وترتيب الجلوس على موائد الطعام.. إلى آخر هذه التفاهات ، لأن المثل الأعلى عند الواحد منهم أن يكون رئيس جرسونات! ».

«أما عن جهلهم بشئون البلد الذى يوجدون فيه ، وبشئون السياسة العالمية ، بل وبشئون مصر كلها حتى ما تعلموه فى المدارس منها.. فحدّث ولا حَرَج! جهل مطبق مركب ، لا حياء فيه ولا خجل منه ، ولو أردت ذكر ما عرفته من شواهد على هذا الجهل الفاحش ، لاحتجت إلى مجلد كامل يندى له جبين مصر ، التى هى الضحية الدائمة للعبث فى اختيار ممثليها فى الخارج».

(٤٦)

يصف عبد الرحمن بدوى سلوك عبد الناصر تجاه الشعب فيما بعد الانفصال وفى الستينيات وصفا جارحا يصوره فيه بالزوج الجريح فى كبريائه وهى صورة غير معبرة فى رأينا عن الواقع الذى أراد الدكتور بدوى تصويره :

«... كما ينهال الزوج الجريح فى عملة المفلس مما كان فى يده ، على أهل بيته بالتنكيل والركل والتصرفات الحمقاء الطائشة ، انهال جمال عبد الناصر على أهل مصر بالحراسات والاعتقالات والعزل السياسى».



ويفيض عبد الرحمن بدوى فى انتقاد سلوك رجال النظام وشرطته وموظفيه ولجنة تصفية الإقطاع ولجان الحراسات على نحو ما سنتناوله بالتفصيل بعد قليل ، ثم يصل إلى تسجيل العبرة الإلهية فى نهاية حديثه :

«ويشاء ربك ألا تمضى إلا بضعة شهور ، وإذ بهؤلاء الأبطال البواسل ، قادة معركة «تصفية الإقطاع» يصابون بأبشع هزيمة فى تاريخ مصر ، هزيمة حرب ٥ ـ ٨ يونيو سنة ١٩٦٧ أمام دويلة صغيرة طالما [يقصد : دائما ما] وصفوها بأنها عصابة من شذاذ الآفاق!!».

«ويشاء ربك أن ينتحر ـ أو يدس له السم ـ رئيس هذه اللجنة والمشير العام للجيش الذى لم يصمد أكثر من ثلاثة أيام أمام عصابة شذاذ الآفاق هذه! وأن يخطف الموت العادل أحدهم وهو كمال رفعت ، وأن يودع السجن لعدة سنوات على صبرى وشعراوى جمعة وعباس رضوان وأمين هويدى ، وأن يفر شمس بدران هائما على وجهه من حكم العدالة».

«وهكذا نال هؤلاء «الأبطال البواسل» أعضاء اللجنة العليا لتصفية الإقطاع «بعض» العقاب العادل عما اقترفوا ضد الأبرياء المخلصين ممن فرضوا عليهم المصادرة والحرمان من الحقوق المدنية ، وأقول «بعض» العقاب ، لأن ما نالهم ـ باستثناء رئيسهم فقد نال جزاءه الكامل ـ لا يكافئ عشر معشار ما يستحقون من عقاب».

(٤٧)

ويشير عبد الرحمن بدوى إلى بعض ما نما وترعرع فى نفسيات صغار الموظفين نتيجة لشيوع سياسات القهر والظلم على يد الثورة وقراراتها المتعاقبة ، وهو يشير إلى نموذج محدد تعرض هو نفسه له:

«وهنا لابد أن أشير إلى ظاهرة أليمة عند الموظفين المصريين ، وهى الولوع بالمزيد من الظلم: فقد نص قرار الحراسة بالنسبة إلىّ وإلى إخوتى الستة الآخرين الموظفين على أن تقتصر الحراسة على الأطيان الزراعية دون سائر الأموال: من ودائع البنوك أو أرباح أسهم ، أو إيجار بيوت ، أو أى حال آخر غير الأراضى الزراعية».

«فذهبت ذات يوم فى نوفمبر سنة ١٩٦٦ لسحب بعض النقود من حسابى الجارى فى بنك مصر (المركز الرئيسى) ، وإذا بالموظف المختص يتردد ويداور ، فقلت له: لماذا لم تصرف لى الشيك الذى قدمته إليك؟ فقال: أرجو أن تراجع قلم القضايا فى الطابق الأول ، فذهبت إلى الطابق الأول وأخبرت الموظف المسئول بما فعله معى موظف صرف الشيكات ، فقال لى: «نحن نبهناهم من قبل ، حين حل موعد صرف كوبونات أسهمك ، أن الحراسة خاصة فقط بأراضيك الزراعية ، ولا شأن لها بحسابك أو أسهمك أو شيكاتك ، وها هو ذا نص قرار الحراسة» ، وجاء معى إلى قسم الشيكات وأطلعهم على قرار الحراسة وذكّرهم بأن إدارة

القضايا قد أبلغتهم بذلك بصراحة ووضوح ، فما كان من موظفى قسم صرف الشيكات إلا أن بادروا إلى صرف الشيك ، وقد عجبت كل العجب من تصرف هؤلاء الموظفين: هل هو المبالغة فى الخوف والحذر؟! أو هو الولع بالمزيد من العذاب والتنكيل بالناس؟ وكان رأيى هو ترجيح الشطر الثانى من هذه القضية الشرطية المنفصلة».

(٤٨)

يستطرد عبد الرحمن بدوى فى حديثه عن المضايقات الشرطية التى تعرض لها بدون مبرر بعد صدور قرار فرض الحراسة عليه:

«لكن هذه المضايقة ليست شيئا يذكر بالقياس إلى المضايقات اليومية من جانب مباحث الشرطة ، لا يمر يوم أو يومان إلا وأجد فى المنزل أو مع البواب إشارة من شرطة مباحث الجيزة تستدعينى للحضور إلى مقرها فى الدقى ، فأضطر إلى الذهاب ، وإذا بضابطين أحدهما طيب الخلق ، والثانى سافل حقير ، يطالباننى بإقرارات مختلفة عن أملاكى الخاصة ، وأملاك سائر إخوتى ، وفى كل مرة تتكرر نفس الطلبات والإقرارات. وفى ليلة ١٧ إلى ١٨ سبتمبر كان قد جاءنى فى الواحدة بعد منتصف الليل ضابط لتبليغى بقرار الحراسة ، وبقرار عدم مغادرة منطقة القاهرة ، وبعد أسبوع جاء ذلك الضابط الطيب وأبلغنى ، وهو فرح ، قرارا بإلغاء تحديد إقامتى فى منطقة القاهرة وبأننى حر فى التنقل فى كل أنحاء مصر».

«وبعد ذلك قلَّت مضايقات مباحث الشرطة هذه ، حتى كفت نهائيا منذ أول ديسمبر سنة ١٩٦٦».

(٤٩)

يروى الدكتور عبد الرحمن بدوى رأيه فى محنة صديقه الدكتور رشوان فهمى وما تدل عليه من مناخ سياسى عجيب فاسد ، فقد أوذى الرجل الذى أيد الثورة لسبب وحيد فقط هو أنه حاول التنبيه إلى خطورة إلقاء التهم جزافا على إدارة قصر العينى مع عدم توفير الإمكانات لهذه الإدارة:

«فى صيف سنة ١٩٦٦ أقام أساتذة كلية الطب فى جامعة القاهرة ، حفلة عشاء فى نادى الجزيرة توديعا لعميدها عبد العزيز سامى ، وعند أواخر العشاء قام د. رشوان فهمى أستاذ

طب العيون فى كلية طب جامعة الإسكندرية ، فخطب مشيدا بعبد العزيز سامى ومدافعا عنه، وكان جمال عبد الناصر قد صرّح فى خطبة له بـأنه لو كان قصر العينى يدار كما أدار محمود يونس هيئة قناة السويس ، لما رأينا هذا الفساد فى قصر العينى ، فقال رشوان فهمى مشيرا إلى قول عبد الناصر مع تحاشى ذكر اسمه: لو أتيحت لعبد العزيز سامى الإمكانات بل عُشر الإمكانات التى أتيحت لمحمود يونس ، لكان قد جعل من قصر العينى نموذجا كاملا لخير المستشفيات».

وفهم الحاضرون إشارته ، فأصابهم وجوم تام استمر بضع دقائق ، قطعه د. عثمان وهبى بأن قال وهو يصفق تصفيقا شديدا: هذا الكلام عظيم... فلماذا لا تصفقون؟!».

«وانتهت حفلة العشاء حوالى منتصف الليل ، وفى الساعة الرابعة صباحا ، كان قد صدر قرار بفرض الحراسة على رشوان فهمى ، وفى الحال أخذت الشرطة الجنائية (أو العسكرية ، لا أذكر) فى تفتيش شقته فى الإسكندرية ، وعاد رشوان فهمى إلى الإسكندرية ليجد فى انتظاره بالشقة مندوبين من الشرطة والحراسة ، وما لبثوا أن أخذوا فى استجوابه عن أمواله ، فلم يجدوا معه غير عشرة جنيهات وليس فى حسابه بالبنك مبلغ يذكر ، ولا يملك أى عقار ، ذلك أنه كان مبذرا جدا ، ينفق مرتبه كله فلا يبقى منه شىء ، ولم تكن له عيادة ، وهى وحدها التى تدر الأموال على الأطباء».

(٥٠)

ويردف الدكتور بدوى بفقرة حافلة بالسخرية يصور فيها عبد الرحمن بدوى الحوار الذى دار بينه وبين الدكتور رشوان فهمى حول موقف كل منهما من الثورة ، ونحن نرى بدوى وكأنه يزهو على رشوان فهمى بذكائه الذى مكنه من الاكتشاف المبكر لحقيقة الثورة:

«وأذكر أنى التقيت برشوان فهمى فى يناير سنة ١٩٦٧ بالإسكندرية ، فوجدته وهو يمشى معى يتلفت دائما إلى الوراء لأن المخبرين كانوا وراءه أينما وصل وحيثما سار».

قلت له: لا عليك فهذا أمر هين ، وجلسنا فى ركن من مقهى فى شارع توفيق ، وأخذت أداعبه قائلا:

«لماذا تحزن؟ إنك تستحق هذا كله! ألست أنت أول مَنْ أرسل برقية تأييد للثورة نيابة عن جمعية هيئة التدريس فى جامعة الإسكندرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، بينما كان الملك فاروق لا يزال فى الإسكندرية ولا يدرى أحد هل ستنجح هذه الثورة أم لا؟!».

«ماذا أفدت من تعريض نفسك للخطر ، وهاأنت ذا لم تظفر بشيء في عهد الثورة وطوال أربعة عشر عاما ، بينما الخونة وأذناب الإنجليز قد نالوا أرفع المناصب!».

«فقال لي: لكن أنت أيضا كنت مؤيدا للثورة في بدايتها».

«فقلت له: كنت مؤيدا ولكن بتحفظ شديد ويأس تام من أن تستقيم الأمور ، بدليل مقالاتي في شهور أكتوبر إلى فبراير ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ، وكلها تنقد رجال الثورة على سلوكهم وتقريبهم للخونة وأذناب الإنجليز ومحاسيب العهد الماضي ، وهي المقالات التي أدت إلى وقف مجلة «اللواء الجديد». أنا ياسيدي أعرف تواريخ الثورات جيدا ، بحيث لا أنخدع أبدا بألفاظ رجالها ودعاواهم».

«فقال: ماذا كان ينبغي أن نعمل إذن؟»

«فقلت له: لا شيء.. فدعهم يعبثون حتى ينهاروا من تلقاء أنفسهم ، ونحصر همنا كله ـ ونحن أساتذة في الجامعة ـ في التفرغ للبحث العلمي وتعليم الطلاب ، وفي حالتك أنت أن تهتم بمرضاك».

«وهكذا مضى الحديث بين الندم والأسف: الندم على مبادرته بتأييد الثورة قبل أن ينكشف من أمر أصحابها شيء ، والأسف على ما وصلت إليه الحال في مصر من استبداد لم يعرف له التاريخ مثيلا ، حاكم لا يحتمل أية عبارة قد يشتم منها رد هادئ بريء عليه! وهو مع ذلك يمزق أسماع الناس في كل مناسبة بكلمات الحرية والكرامة. كيف يصل الأمر إلى حد أن كلمة رقيقة بسيطة كتلك التي قالها رشوان فهمي تثير ثائرة هذا الطاغوت الرهيبة! وكيف يجرؤ بعد هذا أحد من الوزراء أو المشاركين له في السلطان أن يرد له قولا ، أو ينبس بأرق [يقصد: أهون] مخالفة لرأيه؟! وهل هناك أدل على ما أصاب نفوس كبار المثقفين من جبن وخور وانحلال ، هل هناك أدل على هذا من الذهول الشديد الذي أصاب أساتذة الطب حينما سمعوا عبارة رشوان فهمي؟! إن هذا الذهول معناه أن هذه الفئة المفروض فيها أنها من أرفع الفئات ثقافة وعلما قد صارت تتألف من دمى مذهولة ، وشخوص جبانة ، فقدت كل ملكة للتفكير المستقل المستقيم. هذا على الرغم من أن أبناء هذه الفئة (الأطباء) هم أقل الفئات اعتمادا على «الميري» لأن ٩٠٪ من دخلهم يرد إليهم من المرضى الخصوصيين».

«الفزع والهلع ، والجبن والخور ، والتملق والنفاق ، تلك كانت الأحوال النفسية والخلقية السائدة لدى الطبقات المثقفة في المجتمع المصري في عهد عبد الناصر».

«وإذا كانت هذه حال المثقفين ، فكيف يرجى لهذا المجتمع أي نهوض؟! إن المثقفين هم ضمير الأمة ، فإن فسد الضمير فعلى هذه الأمة العفاء».

«ويحار المرء في فهم هذه الحال التي سيطرت على نفوس هؤلاء المثقفين ، وخصوصا

أساتذة الجامعات ، فإن لديهم فى البحث العلمى والتفوق فيه ما يغنيهم عن التطلع إلي أى منصب إدارى ، ولو استقرى [من الاستقراء] المرء منهم مَنْ تولوا الوزارة ، لكان عليه أن يرضى عن نفسه لأنه لم يتول أية وزارة. لقد صار منصب الوزير لأى مدنى مصدرا للذل والهوان ، وهدفا للتنكيل والتخلص من المسئولية وإخفاق سياسة الدولة. إن حدثت كارثة أو أزمة سارع عبد الناصر إلى إلقاء مسئولية حدوثها على الوزير الذى تقع الكارثة أو الأزمة فى دائرة اختصاصه ، رغم أن المسئول الوحيد هو عبد الناصر نفسه بسياسته الخرقاء الطائشة. وما أسرع ما تنهال وسائل الإعلام لتصب الذنوب كلها على رأس هذا الوزير المسكين ، وفى غمرة هذه الحملة الظالمة ينسى عامة الناس المشكلة الأصلية ، ولا يعود أحد يتحدث عنها ، وكأن السلعة المفقودة قد عادت فغمرت الأسواق ، أو المرفق الفاسد قد صلحت أموره وعاد يؤدى مهمته ، أو الأرض التى احتلها العدو قد جلا عنها وتحررت ، حتى صار الشعب المصرى يعيش فى الأوهام ، ويتغذى بالأوهام ، ويعالج كل أموره الفاسدة بخلق المزيد من الأوهام».

(٥١)

ويعبر الدكتور عبد الرحمن بدوى عن ألمه الشديد من الفظائع الوحشية التى ارتكبت على يد نظام الرئيس عبد الناصر فى الفترة من مايو ١٩٦٥ حتى يونيو ١٩٦٧ :

«ولابد للمرء أن يصاب بأقصى درجات الذهول وهو يسمع أو يقرأ تفاصيل ما ارتكبته زبانية جمال عبد الناصر من فظائع فى كمشيش ، ثم فى الكثير غيرها من قرى القطر المصرى شماله وجنوبه ، طوال الفترة من مايو سنة ١٩٦٥ حتى هزيمة مصر الهائلة فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ والأيام الثلاثة التالية».

«كيف تبلغ الوحشية بإنسان أن يرتكب كل هذه الفظائع ، مهما كانت الأسباب؟! فما بالك وهى لم يكن لها أى سبب؟! فملاك الأراضى الزراعية الذين أهدرت كراماتهم ، وصُودرت أموالهم ، وانتهكت حرياتهم ، لم يرتكبوا أى ذنب ، ولم يخالفوا أى قانون أصدره عبد الناصر وزبانيته الأبالسة ، بل كانوا يملكون ما يملكون وفقا للقوانين واللوائح التى أصدروها (الضمير يعود على عبد الناصر وزبانيته!!) بسلطانهم الكامل ، وطغيانهم المستبد الذى لم يلق أدنى مقاومة. فبأى شريعة إذن «حُوكم» هؤلاء الملاك الذين التزموا التزاما تاما بما شرعه هذا الطاغوت وأبالسته؟!».

«ثم العجيب الذى يستنفد كل العجب هو من هؤلاء الجلادين المنفذين بقسوة منقطعة النظير ومبالغة فى التعذيب تفوق كل وصف! ماذا حملهم على هذا الإجرام الرهيب ، وليس بينهم وبين ضحاياهم ثأر فيثأرون ، أو خصومة فيكيدون ، أو منافسة فيطيحون؟! وما أغرب نذالتهم وخستهم وانعدام كل معانى الإنسانية فيهم! أمن أجل مزيد من الأشرطة أو النجوم الصفراء أو النسور النحاسية على الأكتاف يرتكب هؤلاء الأبالسة ما ارتكبوا من فظائع يندى لها جبين كل إنسان فى كل زمان ومكان؟!».

«ثم ما بال «الكتّاب» الذين أتينا على ذكرهم يهللون ويضفرون أكاليل المجد للطاغوت وأبالسته وجلاديهم ، بل ويحرّشونهم لارتكاب المزيد من التخريب والتعذيب! وشاركهم فى هذا التحريش والتأليب ثلة من أساتذة الجامعات كانوا يتآمرون لارتكاب أمثال هذه الفظائع فى نطاق الجامعات والإدارات الحكومية التى كانوا يتطلعون للانقضاض على المراكز العليا فيها: من أجل دريهمات قليلة ومناصب هزيلة يستبيحون كل رذيلة وخِسة وحقارة؟!».

«قُتل الإنسان.. ما أحقره!».

«إنى أحار فى تفسير سلوك هؤلاء جميعا! أية لذة يجدها هؤلاء الجلادون فى تعذيب فرائسهم ، والتنكيل بضحاياهم؟! لو كان انتقاما لجريمة ارتكبوها فى حق أنفسهم لقلنا مع هوميروس إن «الانتقام أشهى من العسل» ، لكن لم يكن بينهم وبين ضحاياهم أى داع للانتقام».

«وقد تفنن هؤلاء الجلادون فى أدوات التعذيب وأساليبه ، مما ذكر بعضه حكم محكمة الجنايات ، لكن هذا ليس إلا قطرة فى بحر ما كان الجلادون يقومون به فى السجن الحربى وسجن إدارة المخابرات المجاورة لقصر القبة: من إطلاق الكلاب المتوحشة على المسجونين والمتهمين ، والنفخ فيهم من استاههم ، وتوصيل خصيهم ومذاكيرهم بتيار كهربائى ، وصب المياه فوق رءوسهم ، وتسليط الأضواء الشديدة حتى لا يغمض لهم جفن طوال الليل ، والضرب بالسياط على ظهورهم ووجوههم وكل موضع حساس فيهم».

(٥٢)

ويجاهر الدكتور عبد الرحمن بدوى بوصف ما تردى إليه الحال من لجوء الثورة - دون أى داع - إلى أسلوب الدولة البوليسية والمخابراتية:

«وكانت وسائل التنصت والتجسس كفيلة بإبلاغ كل نقد أو تذمر حتى لو كان خافتا شبه

صامت إلى زبانية المخابرات الذين استباحوا كل حرمة ، واختصوا أنفسهم بكل ما يطلبون من العملة الصعبة ، هذا فى الوقت الذى كانوا فيه يجهلون كل شيء عما يدبره أعداء مصر من إعدادات للهجوم ومؤامرات للإطاحة بمصر ومكانتها وأسباب معاشها ، وماذا كان يهمهم من أعداء مصر فى الخارج؟! كل ما يهمهم هو أعداؤهم هم فى مصر ، حقيقيين كانوا أو وهميين ، وكان التنافس فى خدمة المخابرات شديدا للغاية ، خصوصا بين «المثقفين»: أساتذة الجامعات ، وكبار الموظفين فى الوزارات ، والأدباء والفنانين ، لأنهم رأوا فى ذلك أنجع وسيلة للوصول وأسهلها ، حتى صار التفسير الشائع بين الناس لوصول أحد إلى منصب كبير هو أنه من «رجال المخابرات» ، فإذا كان المنصب أقل شأنا قيل عن صاحبه إنه من «عملاء المخابرات» ، وصار «التجسس» و«التبليغ» هما الزلفى الكبرى لدى الحكّام ، والمؤهل الرئيسى لتولى المناصب الرفيعة أو ما دونها».

(٥٣)

ويعاود الدكتور عبد الرحمن بدوى انتقاء ما سمى بلجان تصفية الإقطاع وهو ما يسميه تدخل الجيش فى الحياة السياسية والاقتصادية للمواطنين:

«ثم تدخل الجيش فى الحياة السياسية والاقتصادية للمواطنين وقام بما سمى باسم «تصفية الإقطاع» ، وتولى المشير عبد الحكيم عامر هذه المهمة ، بدلا من الاهتمام بالجيش والسلاح ، فلا عجب بعد ذلك أن ينهار الجيش المصرى من الضربة الأولى التى كالها له فى يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ جيش صغير لدولة من أصغر الدول فى العالم ومن أحدثها ، فكانت هزيمة من أنكر الهزائم التى عرفتها مصر فى كل تاريخها».

(٥٤)

ومما يرتبط بهجوم عبد الرحمن بدوى على الشيوعيين المصريين حديثه المفصل الذى حرص علي أن يضمنه مذكراته عن حادث كمشيش ، وهو يلخص حوادث كمشيش من وجهة نظره فيشير إلي أن شرارة هذا الحادث كان حادثا تافها عابرا وهو حادث قتل لأسباب نسائية ، ولكن الشيوعيين استغلوه كبداية لمخطط رهيب للتحرش بمن يخالفهم وتحريض [هكذا يستخدم الدكتور بدوى هذا المصدر] السلطات عليه:

«وبدأوا هذا المخطط الرهيب بتحويل حادث تافه عـابر يحدث أمثاله فى أرياض مصر كل يوم دون أن يلتفت إليه أحد ، ويحولوه إلى نار حـامية أشعلوها فى الريف المصرى كله ، وهو حادث قتل لأسباب نسائيـة فى قرية صغيرة من قرى محافظة الغربية اسـمها كمشيش ، وأبرز أسرة فيها كانت أسرة الفقى ، فاستغل الشيوعيون هذا الحادث التافه العادى وجعلوا منه قضية كبـرى هى قـضيـة الإقطاع فى مصـر ، رغم أن ما يُدعى بـ«الإقطاع» فى مـصر ـ وهـو كذب تاريخى بشع يدرك زيـفه كل مَـنْ له إلمام بمعنى «الإقطاع» فى التـاريخ ـ كـان قـد زال منذ أن قضى قانون «الإصلاح الزراعى» المزعوم! الأول الصادر فى ٨ سـبتمبر سنة ١٩٥٢ ، ثم الثانى الصادر فى يوليو سنة ١٩٦١ ـ على ما كان بين يدى الموسـرين من أطيان زراعية ولم يعد لهم فى بلادهم حول ولا طول ، حتى هجـر بعضهم الريف والتجـأوا إلى المدن الكبرى (القاهرة ، الإسكندرية.. إلخ) حيث لا يعرفهم أحد يتشفى فيهم أو يرثى لحالهم».

(٥٥)

ويحـرص الدكتـور عبـد الرحمن بدوى على أن ينقل فـقرات كـاملة من حيـثيـات حكم المحكمة فى قضية كمشيش:

«وحسـبى هنا أن أنقل بعض ما ورد فى حيـثيات حكم محكـمة الجنايات التى رفع بعض أشلاء هذه الأسـرة الكريمة ، أسرة الـفقى ، قضـيتـه أمامـها لإنصـافهم ، وكان ذلـك فى عام ١٩٧٨».

«قالت المحكمة فى حيثيات حكمها فى هذه القضية:

«إن محكمـة الجنايات تسجل ، للتاريخ ، أن الفـترة التى جرت فيـها أحداث هذه القضـية المثيرة ، هى أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث ، ففيها ذبحت الحريات ، وديست كرامة الإنسان المصرى».

«وإن المحكمة ، وهى تسجل هذه الفظائع ينتابها الأسى العـميق والألم الشديد من كثرة ما أصاب الإنسان المصرى فى هذه الحـقبة من الزمان: من إهدار لحريته ، وذبح لإنسـانيته ، وقتل لمقوماته كافة ، ورجولته ، وأمنه ، وأمانيه ، وعرضه».

«وإن المحكمة تسـجل ، للتاريخ أيضا ، وقـلبها ينفطر ، أن مـا حدث فى هذه القضـية لم يحدث مـثله فى شريعـة الغاب ، ولا البربرية الأولى ، وأن المبـاحث العسكرية الجنائيـة أمرت الرجال بالتـسمى بأسماء النسـاء ، ووضعت ألجمة الخـيل فى فم رب العائلة وكبـير الأسرة ،

ولطمت الرءوس والوجوه فيها بالأيدى ، وركلتها بالأقدام ، وهتكت أعراض الرجال أمام بعضهم البعض ، وجيء بنسائهم وهددوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم ، ودُربت الكلاب على وطء الرجال ، وتم ذلك بالفعل على المتهم الأول ، وهُدد رب العائلة وإخوته بإخراج جثة والدتهم ـ وكانت حديثة الدفن ـ للتمثيل بها أمام الناس ، والتشهير بهم وإذلالهم أمام أهليهم».

«وتسجل المحكمة أن المخلوق الذى ينسى ربه ، ونبيه ، ويأمر الأبن بصفع أبيه ، هو مخلوق وضيع وتافه ومهين (راجع النص فى جريدة «الأخبار» بتاريخ ٢٣ يونيو سنة ١٩٧٨)».

(٥٦)

وبالإضافة إلى كل هذه القضايا المتعلقة بالحرية السياسية وحقوق الإنسان يشير الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى كثير من المظاهر السلبية فى عهد عبد الناصر وهو يشير على سبيل المثال إلى تردى الأحوال الاقتصادية للشعب طيلة النصف الأخير من عهد الرئيس عبدالناصر ولا يفوته أن يشير إلى أن طبقة الحاكمين لم تكن تلقى مثل هذا العناء:

«وكان النقص فى كل مرافق الحياة وأسباب العيش هو الصفة الغالبة فى كل شيء: فى المسكون والمأكول والملبوس ووسائل الانتقال ، وفقد الحد الأدنى الضرورى من كل هذه الأمور عند كل الطبقات ، باستثناء الطبقة الحاكمة ومَنْ يلوذ بها وينفذ مظالمها: فكل شيء كان مكفولا وكان عندها موفورا ، وهل كانت للملحقين فى الخارج مهمة غير هذه؟!».

(٥٧)

ومن ناحية ثالثة يشير الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى ما ترتب على إجراءات القمع والانغلاق التى تبنتها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من انقطاع الاتصال الثقافى بالعالم الحر:

«وانقطعت العلاقات الثقافية مع العالم الحر المتحضر: فلا استيراد للكتب ، ولا استيراد للمجلات العلمية ، ولا تبادل للمعلومات والخبرات ، ولا استقدام للعلماء والأدباء والمفكرين ، حتى باتت مصر فى عزلة فكرية رهيبة «لا تتسرب» إليها الكتب والأبحاث

العلمية إلا اختلاسا وبمصاعب جمة: مرة بسبب الرقابة ، وأخرى بسبب انعدام العملة الصعبة، وهكذا لم يعد فى طاقة الباحث أن يتابع ما يجرى فى العالم من دراسات وأبحاث».

ويشير الدكتور بدوى كذلك إلى ما قادت إليه الثورة من تردى النشر العلمى والحياة الثقافية على وجه العموم:

«وانحسرت دور النشر والمطابع بسبب التأميم ومنع استيراد أدوات الطبع (من ورق ، وحبر ، وآلات طباعة ، ومواد تغليف أو تجليد.. إلخ) ، حتى كاد النشر ينحصر فى دور حكومية (الدار القومية ، الهيئة العامة للكتاب...إلخ) سيطر عليها الشيوعيون سيطرة تامة ، وحاولوا قصر النشر فيها على أنفسهم أو أذنابهم من الكتّاب والمؤلفين ، وراموا أن يجعلوا من «اتحاد الكتاب» أداة لحصر النشر فى أيدى الشيوعيين وأذنابهم ، على غرار نظيره فى الاتحاد السوفيتى ، وراحوا يسخرون من المؤلفين الأحرار قائلين: اكتبوا ما شئتم ، لكنكم لن تجدوا مَنْ ينشر لكم!».

❑

ويلخص الدكتور بدوى هذا كله بالقول بأن مصر تحولت إلى سجن كبير يشعر بالسعادة لخروجه منه:

«وتحولت مصر كلها إلى سجن كبير لا يسمح بالخروج منه إلا للسجانين».

«لهذا كم كانت فرحتى عظيمة حين سمح لى بالخروج من هذا السجن الكبير ، فى يوم الأحد التاسع عشر من شهر فبراير سنة ١٩٦٧».

(٥٨)

قبل هذا كله يلخص عبد الرحمن بدوى رأيه فيما أحدثته ثورة ١٩٥٢ على نحو مكثف ومؤثر ويقدم هذا فى لهجة خطابية لم يكن يلجأ إليها إلا فى القليل مما كتبه حيث يقارن ببراعة شديدة بين حالى مصر قبل الثورة وبعدها فيما يتعلق بالحرب والكرامة والأمن والنفاق والتفريط والهزيمة وضياع الأموال والأحوال التموينية والعلاقات العربية وقبول المصرى فى الخارج وحقوق الإنسان المصرى والاقتصاد المصرى والإسكان وحقوق السفر والعلم والأحوال الثقافية:

السنة الكبرى: «هى سنة ١٩٥٢ وهى سنة الفصل بين عهد وعهد».

«كانت الحرية نعمة ينعم الكل بظلالها الوارفة ويطالب دائما بالمزيد ، وإذا بها فى العهد الجديد حكرا لفرد تحيط به عصابة».

«وكانت الكرامة من أعز ما يعتز به المصرى ، فصارت هدفا لكل اضطهاد ومصدراً لكل حرمان وشقاء».

«وكان الأمن على النفس والمال موفورا لكل شخص ، فصار الخوف على كليهما يَقض كل فرد وكل أسرة».

«وكان النفاق مقصورا على فئة من الوصوليين وعديمى الضمائر ، فأضحى خصلة لشعب بأسره يتنافس الجميع فى ممارستها ويتباهى بالتفوق فيها».

«وكان التفريط فى أى حق من الحقوق الوطنية خيانة تنهار بسببها الحكومات ، وإذا بالتخلى عن أكبر هذه الحقوق ـ وهو حق مصر فى السودان ـ يعد إنجازا عظيما يتباهى به الحكام».

«وكانت الهزيمة البسيطة فى فلسطين سنة ١٩٤٨ كارثة تزعزت بسببها الثقة فى الحاكمين، وإذا بالهزيمة الساحقة الماحقة فى يونيو سنة ١٩٦٧ تحتشد لها جماهير ٩ و١٠ يونيو للهتاف بحياة مَنْ تسببوا فى الهزيمة ، ويرقص لها ممثلو الشعب فى مجلس الأمة ابتهاجا باستمرار المسئولين عن الهزيمة فى التحضير لهزائم تالية».

«وكان ضياع آلاف قليلة من الجنيهات فى شراء أسلحة فاسدة جريمة هائلة طالت من أجلها المحاكمات ، وإذا بالتخلى لإسرائيل عن أسلحة تقدر بآلاف الملايين أمر هين يكافأ عليه فاعلوه بالمزيد من التمكين لهم من البطش والاستبداد».

«وكان النقص فى سلعة من السلع أمرا نادر الوقوع ، فصار النقص فى معظم السلع هو القاعدة وتوفير سلعة هو الاستثناء».

«وكانت العلاقات مع البلاد العربية والإسلامية تتسم بالمودة وتبادل المنافع وبالتقدير ، فصارت القطيعة والعداوة وعدم التعاون هى الصفات السائدة فى هذه العلاقات».

«وكان المصرى فى سائر بلاد العالم مقبولا لا يثير نفورا ولا ارتيابا ولا ازدراء ، فإذا به يصبح هدفا لكل مظنة فاسدة ، ومدعاة للحذر أو الاحتقار».

«وكانت حقوق الإنسان المصرى مكفولة بالدستور والقوانين ، فإذا انتهكها حاكم رده القضاء إلى الصواب وأنصف المظلومين ، فإذا بهذه الحقوق تصبح تعطفا متعاليا من الحاكم على المحكومين ، أو تهدر دون مراجعة ولا جزاء ، ويضحى الدستور والقوانين ألعوبة فى أيدى الحاكم وزبانيته يعبث بها كما يشاء هواه».

«وكان الاقتصاد المصرى يقوم على أسس راسخة وأرقام صادقة واضحة وينهض بأعبائه رجال وشركات خاصة تخلص فى أعمالها وإداراتها ، وإذا به يصبح أرقاما بهلوانية يتلاعب بها وزراء مال (يقصد وزراء المالية) لا علم عندهم ولا ضمير ، يقدمون موازنات زائفة ويخططون خططا وهمية خمسية وغير خمسية ، مما أدى باقتصاد مصر إلى الإفلاس وتكاثر الديون وانهيار سعر الجنيه المصرى انهيارا متواصلا لا يصده شىء ، حتى أصبح ـ فى مقابل العملات القوية ـ يساوى أقل من عشرة فى المائة من سعره القديم».

«وكان الإسكان ميسورا ، يعلن فى كل مكان عن شقق خالية للإيجار ، وتتزايد المبانى بما يزيد على حاجة الساكنين ، وإذا بالملايين لا يجدون مساكن لهم ، فضلا عن عشرات الآلاف من المنازل القديمة التى تنهار كل عام على رءوس ساكنيها».

«وكان لكل مصرى الحق فى أن يغادر وطنه طلبا للرزق أو للعلم أو للتجارة أو غير ذلك من مطالب الحياة ، وإذا بمصر تتحول إلى سجن كبير يعتقل فيه كل المصريين ، ولا يسمح بالخروج منه إلا لحفنة قليلة جدا من المحسوبين والمقربين إلى الحاكم وزبانيته».

«وكانت أدوات الثقافة تتدفق على البلاد فى حرية تامة ودون انقطاع أو تشويه ورقابة ، وإذا بهذه الأدوات تُمنع من الدخول تدريجيا حتى فقدت مصر الاتصال بمصادر الفكر العالمى».



ويخلص الدكتور عبد الرحمن بدوى من هذا كله إلى قوله:

«وما أريد بهذه المقارنة أن أمجد العهد السابق على سنة ١٩٥٢ ، فهيهات ، هيهات! ولكن الأمر كما قال الشاعر:

رُب يوم بكيت منه فلما ... صرت فى غيره بكيت عليه



ربما نتوقف هنا لنشير إلى أن الدكتور محمد على العريان ، وهو أول الدفعة التالية لدفعة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كلية الآداب ، كان هو الآخر كثيرا ما يلجأ إلى التعبير عن شعوره بالاستشهاد بهذا البيت ، وذلك على نحو ما نرى فى مذكراته التى تناولناها فى هذا الكتاب ، ولا ندرى هل كانت نظرة الرجلين إلى الحياة متشائمة حتى صار اليوم السابق واليوم الحالى يستحق البكاء ، أم أنها الحقيقة المرة!

ونعود إلى الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو يستدرك مشيرا إلى أنه لا يمجد عهد ما قبل الثورة وهو الذى ناضل ضده ، لكنه يريد أن يعترف بأن ما فيه من شرور لا يعادل واحدا فى الألف مما حدث بعد ٢٣ يوليو.. هكذا وإلى هذا الحد كان الدكتور عبد الرحمن بدوى ينظر إلى شرور الثورة وأخطائها:

«ولا يعقل منى أن أمجد العهد السابق على سنة ١٩٥٢ ، وأنا الذى ناضلت طوال الأعوام السبعة عشر السابقة على ذلك التاريخ ضد مفاسد ذلك العهد ، وما استشرى فيه من خيانات فى حقوق الوطن ومن مفاسد ومحسوبيات ومظالم واستهتار بالحقوق وعدوان على الحريات، لكن هذه المفاسد والشرور لا تعادل واحدا فى الألف مما حدث بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢».

(٥٩)

ويتحدث عبد الرحمن بدوى عن كثير من صور معاناته السياسية والفكرية فى ظل حكم الثورة ، وهو يعترف بأنه لم يكن فى وسعه أن يهاجم الثورة بما يجب فى أثناء سطوتها ، وهو يقدم مبرراته لهذا السلوك:

«لقد استخدمت إذاً «أسلوب الحكيم» كما يقال فى كتب البلاغة العربية ، أو «الخطاب غير المباشر» كما يقال فى كتب البلاغة الأوروبية ، إذ لم يكن فى وسعى أن أنشر فى الصحف أو أصدر كتبا تتناول الرد على المد القرمزى (= الشيوعى) فى مصر بطريقة مباشرة ، فإن الرقابة كانت بالمرصاد ، والنفوذ الشيوعى فى إدارة الدولة ، خصوصا من سنة ١٩٦٤ وما يليها ، كان كفيلا بالقضاء على كل صاحب قلم يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والاشتراكية «العلمية» وما تفرع عنها من اتجاهات. إذ فى سنة ١٩٦٤ استولى الشيوعيون على كل أدوات الإعلام العام والهيئة العامة للكتاب ، وراحوا يوزعون فيما بينهم رئاسة تحرير هذه الصحف وإدارة المسارح وقطاع السينما والإذاعة ، والهيئة العامة للكتاب ، بل وزعوا مكافآت للتأليف والترجمة على أنفسهم عن كتب لم يشرعوا فيها ولن يشرعوا أبدا ، وضاعت هذه المكافآت على الدولة ، فلم تستردها ممن تعاقدوا معهم وسلموهم المكافآت دون أن ينجزوا ما تعاقدوا عليه. وهكذا استخدموا سيف المعز وذهبه: السيف : بالشغب على مَنْ لا يسير فى موكبهم ، والتحريش عليه من السلطات الباطشة ، والذهب : بالأموال التى أغدقوها على أنفسهم ومَنْ تملقهم أو مشى فى موكبهم. وكان عجيبا حقا أن ترى مَنْ لم يُعرف عنه من قبل أى ميل إلى الشيوعية والماركسية ، يلهث وراء هؤلاء الشيوعيين والماركسيين».

(٦٠)

وفى موضع آخر يلخص عبد الرحمن بدوى موقفه من الثورة ومن نظام عبد الناصر فيما قبل قراره بالهجرة من وطنه:

«يئست نفسى إذن من كل شىء فى مصر: حاكم طاغية مستبد طياش، وشعب مسلوب العقل والإرادة، مطواع لكل ظالم قاهر، وطبقة «متعلمة» تتنافس وتزايد فى تملق الحكام والتزلف إليهم بمختلف الأساليب كيما يلقى إليها هؤلاء بعض الفتات المتناثر من موائدهم المحتكرة لكل أصناف السلطة».

(٦١)

ونأتى إلى آخر الأجزاء فى حديثنا عن مذكرات عبد الرحمن بدوى، وهو حديثه عن الجوانب العاطفية فى حياته ،وفى بداية هذا الجزء الأخير من نقدنا لهذه المذكرات يحسن بنا أن نشير إلى أن عبد الرحمن بدوى نفسه كان يأسف لمرور الزمن على الأشياء، مع أن هذا من طبائع الأشياء التى لم يكن له أن يأسف عليها.

انظر مثلا حديثه عن حديقة اللوكسمبور ومقهى المركيز ومطعم صوفى:

«وبهذه الوحشة المروّعة التى سَرَت فى حديقة اللوكسمبور فقدت ملاذا جميلا طالما [يقصد: كثيرا ما] كنت آوى إليه عصر كل يوم فى باريس، وسبّب لى ذلك انطواء لم أعهده من قبل، وألجأنى إلى المقاهى المكتظة بالشباب من الجنسين، وما يجرّه هذا الزحام من صخب وامتعاض، خصوصا أن سنى لم تعد تسمح لى الآن بالتعاطف مع هذا الشباب، كما كانت الحال فى السنوات الأولى من زياراتى لباريس (من سنة ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٥٠)».

«وحتى المقهى الذى كنت آوى إليه فى الخامسة من كل يوم، وهو مقهى المركيز والذى كان قائما فى الزاوية التى ضلعاها شارع راسين وشارع مدرسة الطب، قد صار تماما غير المقهى الذى طالما [يقصد: كثيرا ما] عرفته: فصاحبه توفى، وزوجته التى تولت الأمر من بعده كانت متبرمة بالعيش متضايقة من عملها فى المقهى، تشعر بالوحشة لفقد زوجها، رغم أنه كان ـ بحسب ما أخبرتنى ـ كثيرا ما يخونها رغم تقدمه فى السن. ولاستقلال ابنها بمقهى آخر (إما فى بداية شارع المدارس، أو فى شارع سوفلو، لست أدرى، لأنى لم أتردد عليه)، ولقد وجدت المقهى متغيرا تماما يساير مظاهر التحديث الذى شمل كل المقاهى فى باريس، فتغير

رواده ، وصاروا من الطلاب المفلسين السخفاء ذوى الضجيج الصبيانى ، لهذا لم أطق التردد عليه ، واكتفيت بالجلوس فيه مرة واحدة ، حادثتنى هى إبانها عن أحوالها وأحوال المقهى ، وكان حديثها كله مملوءا بالشكوى واليأس ، ولهذا اضطرت إلى بيعه خلال الشتاء التالى ، فلما عدت فى صيف السنة التالية (سنة ١٩٦٨) ، وجدته قد تحول إلى ما يسمى Pub بإدارة شخص آخر ، ما لبث هو أيضا أن باعه ليصبح محلا لأزياء النساء بعد عام واحد ، ولا يزال هكذا حتى اليوم ، مع تعاقب أصحابه».

«وهكذا فقدت مَعْلما آخر من معالم إقامتى فى باريس».

«ثم فقدت معلما ثالثا لما أن هرعت ساعة الغداء إلى المطعم الذى كنت معتادا تناول طعام الغداء والعشاء فيه حين أكون فى الحى اللاتينى ، وهو «مطعم صوفى» فى شارع سوميرار الموازى لشارع المدارس والمجاور لمتحف كلونى».

«وصوفى صاحبة هذا المطعم ، كانت أرمنية جاءت إلى باريس فى سنة ١٩٢٤ ، وأقامت هذا المطعم الذى كان يقدم أطباقا شرقية خالصة ، والتركية منها بخاصة: شيش كباب ، وضولمة ، وبسطرمة ، وسجق ، ويوغورت ، ومسقعة ، وكنافة ، وبقلاوة ، ومهلبية.. إلخ».

(٦٢)

تتأكد لنا ملامح رأى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى الحب والعواطف الإنسانية فى كثير من المواضع فى هذه المذكرات ، ونرى تفاصيل هذه العلاقة فى فقرة مهمة كتبها عن فترة إقامته الطويلة فى سويسرا حيث يشير إلى طبيعية العلاقة الجنسية بين الفتيان والفتيات ، وخلوها من التعقيد والمشكلات النفسية ، وهو يقول:

«والعلاقة الجنسية بين الفتيان والفتيات ، أو بين الرجال والنساء بعامة ، علاقات بسيطة هينة خالية من كل تعقيد أو احتجاز ، فلا غيرة ، ولا مناورات ، ولا دسائس غرامية ، ولم أقرأ فى الصحف ، ولم أسمع من الناس عن أية «جرائم غرامية» ، أى متعلقة بالحب طوال السنوات الثلاث التى أقمتها فى سويسرا».

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن هذا هو الوضع الذى ينبغى أن تقوم عليه مثل هذه العلاقات:

«ومن رأيى أن هذا هو الوضع العاقل السليم ، إذ لا ينبغى أن تكون العلاقة بين الرجل

والمرأة مصدرا للعذاب ، وكفى الإنسان همومه الأخرى ، وإنما الواجب هو أن تقوم هذه العلاقة على التراضى ، والحرية المتبادلة دون قهر ولا إرهاب من أحد الطرفين ضد الطرف الآخر».



على أننا نفاجأ برأى غريب للدكتور بدوى يلقى فيه بالمسئولية عن ثمار الحب على عاتق المرأة وحدها:

«إن الحب علاقة بين طرفين ، فإذا شاء أحد الطرفين قطعها ، فليقطعها دونما حرج ، ودون أن يرى الطرف الآخر فى ذلك إهانة له ، وإذا نجم عن الاتصال الجنسى حَملٌ ، فعلى المرأة وحدها أن تتحمل نتائجه الآن وقد كفلت لها وسائل منع الحمل أن تتجنبه».



وينتقد الدكتور عبد الرحمن بدوى سلوك رجال الدين تجاه العلاقات الجنسية ويقول:

«إنها لحماقة كبرى من رجال الدين أن يجعلوا من العلاقات الجنسية مشكلة حادة ينفقون فى الكلام عنها معظم نشاطهم.



وهو يفند آثار علماء الدين فيما يتعلق بهذه العلاقات ويقول إن الأسر لا تقوم بالقهر:

«إنهم يزعمون أن الأمر يتعلق بصيانة كيان الأسرة ، ولكن الأسرة لا تقوم بالقهر ، بل بالرضا التام بين الطرفين المكونين لها ، وليس عنصر الجنس إلا واحدا من عناصر عديدة فى تركيب الأسرة ، ولو فتشت عن أسباب الانفصال بين الزوجين لوجدت عنصر الجنس أقلها تأثيرا ، فلماذا يحصرون كل همهم وهنائهم فى هذا العنصر الذى لا يمثل إلا ٥٪ من أسباب الانفصال؟!



كما أنه ينتقد موقف رجال الدين الداعى إلى تحريم وسائل منع الحمل ، ويشير إلى أن هذه الوسائل لا تقتل كائنا حيا وإنما تمنع ولادته:

«وأعجب من هذا تدخلهم فى مسألة وسائل منع الحمل ، حتى إن بابا روما الحالى (يوحنا بولس الثانى) جعلها الموضوع الرئيسى فى نشاطه البابوى ومواعظه الرعوية التى طوّف بها فى مختلف بلاد العالم على نحو يدعو إلى أشد العجب من هذا البابا الرحّالة السندباد الجوى! ذلك أن وسائل منع الحمل لا تقتل كائنا حيا ، وإنما تمنع ولادة كائن حى».

وينتقد الدكتور بدوى أصحاب التيارات الإسلامية الذين يتدخلون فى أمور المرأة ، ويرى أنهم أفلسوا من العلم والأخلاق:

«والتيارات الإسلامية المتطرفة تجعل من المرأة مشكلتها الأولى ، فتريد أن تتدخل فى تحديد ملابسها وعملها وسيرها وسعيها للرزق وتعليمها وسائر أمورها ، ذلك أن بعض أصحابها أفلسوا من العلم والأخلاق التى هى الفضائل فى التعامل بين الناس ، فلم يجدوا وسيلة للإثارة وجذب الاهتمام بهم طمعا فى نيل السلطة غير هذا الهوس حول المرأة».

(٦٣)

وعلى الرغم من اطلاع الدكتور عبد الرحمن بدوى فى مرحلة مبكرة من حياته على نمط الحياة الغربية الذى يسمح للشبان والفتيات باللهو إلى أقصى الحدود ، فى أوقات محددة ، إلا أن الدكتور بدوى لم يتيقن من حقيقة أن هذا اللهو المسموح به لا يتعدى حدودا معينة ، ولهذا فإن هؤلاء الشبان يحرصون على أن يمارسوا لهوهم بأقصى متعة فى ذلك الوقت المتاح للهو ، ثم يعودون إلى الجد والاجتهاد والعمل وإلا فقدوا كيانهم ووجودهم والعوامل الكفيلة بتحقيق طموحهم ، ولكننا نرى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى بعض فقرات هذه المذكرات وهو أسير للقاعدة المصرية السائدة تماما فى الريف المصرى من أن هذا اللهو كفيل بإضاعة الفرصة على صاحبه فى أن يتفوق وفى أن يؤدى عمله ، وتتضح هذه الفكرة فى فقرة يعلق فيها الدكتور عبدالرحمن بدوى على ما رآه من تمرس تام لأحد الشباب فى مجال الرقص:

«كان طالب فى العشرين من عمره يتقن الرقص بكل أنواعه الجديدة ، وكان الجديد آنذاك هو رقصة الروك آند رول ، وخصوصا المصحوب بأغانى ألفيس برسلى ، وكان آنذاك فى بداية شهرته ، فكان هذا الطالب فى يوم الأثنين من كل أسبوع يغشى مرقص الكورسال ، وبحركاته البهلوانية النشيطة يحيل «البيست» (أرض الرقص) إلى دوامة عاصفة ، مراقصا هذه ، ومخاصرا تلك ، وملوحا بذراعه الطويلة من فوق الراقصتين بتيه وافتخار ، ولا أظن أن شابا هذا شأنه كان له فى الدراسة الجادة نصيب».

(٦٤)

ومن ألطف عبارات الدكتور بدوى فى هذه المذكرات تلك التى يصور بها علاقته بأول فتاة أحبها فى ميونخ ، حين كان لا يزال طالبا مبتعثا إلى الخارج ، وهو يروى كيف شده الإعجاب بهذه الفتاة فيقول:

«وفى زحمة موكب الفن العظيم قدر لى التعرف إلى فتاة فى السادسة عشرة من عمرها: كانت قصيرة القامة ، بضة الجسم ، كلها نضارة وحرارة ، وعيناها زرقاوان زرقة السماء فى ذلك اليوم الضاحى فى منشن (ميونخ) ، ووجهها غاية فى البياض المشرب بالحمرة ، وشعرها الذهبى غير الطويل يحيط رأسها بهالة صفراء ناصعة ، وعلى رأسها قبعة كحلية اللون ، وفستانها أبيض ومنقط بنقط بنية ، فأخذت بلبى ، وسحرتنى فعلا ، لهذا ألححت على المكوث إلى جوارها طوال مرور الموكب ، فلما انقضى الموكب دعوتها إلى تناول شراب فى مقهى قريب».



ثم يتحدث الدكتور عبد الرحمن بدوى عن سلوكه فى التقرب إليها:

«وببراءة ناعمة لبت الدعوة ، ورحت أتملق غرورها ، وأسم لها أنى أحببتها حبا كأنه ضربة صاعقة ، وبعد ساعة أو يزيد رغبت فى العودة إلى أهلها ، فأوصلتها إلى بيتها ، بعد أن تواعدنا على اللقاء والعشاء بعد ثلاثة أيام».



ثم هذا هو صاحب المذكرات يحكى تفاصيل اللقاء الثانى مع فتاة ميونخ ، مشيرا إلى اشتعال عاطفة الحب والتعبير عنه:

«ووفت بوعدها ، وجاءت إلى مقهى رجينا فى شارع مكسمليان ،وتناولنا العشاء ، ثم أخذنا فى المشى فى الطرقات فى الظلام ، ودخلنا «الحديقة الإنجليزية» ، وجلسنا على مقعد تحت زيزفونة ضخمة نتساقى أحاديث الغرام وملاطفات الهوى ، حتى انتصف الليل ، وعزمت على العودة إلي أهلها ، فمشينا فى الطريق الطويل ببطء مقصود ، وكان عناق حار وتقبيل طويل ومزيد من الوعود ، لكنى لم أرها بعد ذلك أبدا».



ثم يندم عبد الرحمن بدوى على قصر عمر هذا الحب السريع ، ويعترف بأنه حاول أن يتصل بها أو أن يعرف طريقها دون جدوى:

«فيالك من حب ما كان أقصر منك عمرا! ويالها من تجربة سريعة لكنها عميقة حافلة بالأحاسيس الحارة، والوجدانات العَرِمة، والخيالات الزاهية!».

«حاولت بكل سعى أن ألقاها، لكنها وأهلها كانوا قد ذهبوا للريف، حسبما أخبرتنى إحدى الساكنات فى البيت الذى أوصلتها إليه، ولا أحد يدرى متى يعودون، وإقامتى فى منشن لن تطول إلا لأسبوعين بعد لقائنا هذا».



ويتذكر عبد الرحمن بدوى محبوبته الأولى على نحو يذكرنا بما نقرؤه فى الأدب القديم، وهو ينظم فيها الشعر على نحو ما كان أسلافه من الشعراء يفعلون:

«وكنت أعزى نفسى بالسير فى الطرقات التى سرنا فيها، وإذا مرت فتيات كنت أقول فى نفسى ما كانت تقوله شوليت فى سفر «نشيد الأناشيد»: «يابنات منشن، هل رأيتن حبيبتى؟!».

«ورحت أناجيها فى الخيال بهذه القصيدة:

يا ابنة «الإيزر» يا أحلى فتاة	أين أنت الآن؟ آه منك آه!
شعلة الحب التى أوقدتها	نورت للقلب أسباب الحياه
بسمة العينين وحىٌ وسنا	وغذاء النفس من شهد الشفاه
ونداء النهد ريان الصدى	يعصر الشهوة فى كأس الجناه
وصنوف الزهر فى روض المحيا	هى للعاشق أقصى مشتهاه

على هذا النحو يصور عبد الرحمن بدوى اشتياقه ثم قبلاته وكأنما كان على محبوبته أن تبحث عنه لتفى بالوعد الذى أخذ عليه العهد بقبلاته:

أين وعدٌ منك خطته القبل؟	أين عهدٌ بالوفا حتى الأجل؟
أين حلفٌ شهد البدر على	صدقه والثغر بالثغر اشتعل؟
أين أحلامٌ بنيناها على اللقـ	ـيا بيوم حافل المعنى جلل؟
كان ذا لغوا ولهوا يا ترى؟	أو خداعا وانطلاقا فى الأمل؟
أيما كان فقلبى ذاكرا	متعة عشت بها أحلى المثل



ثم يروى الدكتور عبد الرحمن بدوى بعض ما يحاول أن يصور به لوعة المشتاق، وهو يذكر اسم محبوبته ويدعو لها الله أن ينجيها وبلادها من البرابرة الأمريكيين:

وفى أثناء الحرب ، خصوصا فى عام ١٩٤٤ والأشهر الأربعة الأولى من عام ١٩٤٥ ، حينما كنت أسمع أو أقرأ أنباء الغارات الوحشية التى قامت بها الطائرات الأمريكية على منشن ، كنت أتذكرها وأناجيها من بعيد: رحماك يابوهان جابلر وكان الله معك فى هذه المحنة الرهيبة! إن برابرة هذا العصر ـ هؤلاء الأمريكيين الذين خلوا من كل وازع إنسانى وخلقى ـ يصبون على بلدك الجميل نار عذاب دونه نار الجحيم ، وليس فى إجرامهم هذا أية شجاعة ، لأن الدفاع الجوى عن منشن لم يعد له وجود ، وهؤلاء الجبناء قد استغلوا ذلك لتدمير منشن بوصفها عاصمة الحركة النازية ، لا لارتباط ذلك بأى نصر عسكرى».



ويختتم الدكتور بدوى حديثه عن محبوبته بأمنية يستغل براعته كى يصورها بعيدة التحقق بينما الأمنية لم تكن كذلك:

«بودى لو كنت بجانبك أشاركك بعض هذه المحنة! لكن هيهات ، هيهات!».

(٦٥)

وفى موضع آخر من مذكراته يتحدث الدكتور عبد الرحمن بدوى عن نوع آخر من الحب الذى لم يكن خالصا لواحدة دون غيرها من الفتيات ، لكنه كان يتوزع على مجموعة من الفتيات اللائى كن يزرن حديقة اللوكسمبور ، ولم تكن العلاقة سامية ولا خالصة لكنها كانت مزدوجة الأغراض ، ففتيات اللوكسمبور يطمعن فى الزواج ، وهو يستمتع بالشهوة حتى يحين الحين وتنقطع العلاقة عند اكتشاف الحقيقة.. هكذا يعترف الدكتور بدوى بحقيقة ممارساته العاطفية ، لكنه يقدم الجانب الممتع لنا والمقنع له ؛ على حديثه المعترف بطبيعة هذه العلاقة:

«وكم قضيت ساعات فى هذا الموضع مع فتيات من السويد ، أو النرويج ، أو النمسا ، أو هولندا ، نتبادل الأحاديث العذبة الرقيقة! لقد كنت آنذاك شابا أدور حول الثلاثين من العمر ، وللشباب سحره الذى لا يعوّض عنه شيء ، فواحسرتاه اليوم على نفسى وأنا أرتاد هذا الموضع الآن دون صاحبة ولا رفيقة! وإنى لأناجيهن فى الذكرى وأقول:

«أين أنتن الآن ، أيتها الصواحب!».

«وماذا حل بكن ، وماذا فعل المصير بكن!».

«كان الوصال إما قصيرا ، وإما طويلا ، وفى كلا الحالين كان الفراق نهائيا».

«كان الوصال كهذه الأزهار الماثلة أمام عينى: برعم ، ثم يتفتح حلاوة من الزمان ، ثم تذبل الزهرة ، وتموت بلا بعث ولا رجعة».

«كانت العلاقة على دخل: استمتاع بالشهوة من جانبى ، وطمع فى الزواج من جانبهن ، فكان لابد للعلاقة أن تنقطع ، مهما طالت المناورة بينى وبينهن».



ويعدد الدكتور بدوى أسماء بعض مَنْ كانت له علاقة بهن من خلال اللقاء فى حدائق اللوكسمبور ثم يطلب من الله الغفران لهن لو كن نسين ما كان فى علاقته بهن من وصال:

«سلما ، أولا ، هندريكا ، نلكا ، ردا ، أنكرنا.. إلخ ، أسماء ترن الآن أصداؤها فى أذنى ، وأهتف بها فى داخل ذاكرتى ، لكن لا سميع ولا مجيب!».

«إن نسيتن فهذه أشجار القسطل شواهد باقيات على ما تبادلنا من قبلات ، وما دار بيننا من أحاديث وزفرات ، وما استولى على مشاعرنا من مواجيد وانفعالات ، وما تحدر من عيوننا من عَبَرات».

«غفر الله لكن إن كنتن نسيتن ، أما أنا فما زالت الذكرى مشبوبة ، والدموع مصبوبة ، والحظوظ مندوبة».



ثم ينظر الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى العلاقة نظرة تفلسف وتأمل ويقول:

«لكن سواء لدىّ أن تكن حاضرات أو غائبات ، لأنكن لن تجتمعن معا ، ولن تغبن معا».

«لن تجتمعن معا لأننى لن أستطيع الجمع بينكن».

«ولن تغبن معا لأنكن بضعة من حياتى».

(٦٦)

على هذا النحو من الاستمتاع الفكرى بذكرى الحب كان الدكتور بدوى يؤثر أن يوجه مشاعره وأفكاره ،وليس أدل على هذا مما يرويه هو نفسه عن فتاة هولندية عرفها فى أثناء جولة مع صديقة أخرى ، ثم إذا به بعد سنة يذهب ليبحث عنها فى شوارع المدينة التى كانت تسكنها وهو يعجب لأمر نفسه ولكنه سعيد بما يرويه!!:

«كنت فى زيارة لمدينة شارتر مع صاحبتى الهولندية ، فتعرفنا إلى طائفة من الفتيات الهولنديات الفاتنات اللواتى كن فى سن دون العشرين ، وجذبت انتباهى منهن خصوصا فتاة ناعمة رقيقة وردية الخدين ، زرقاء العينين ، بضة ، غضة ، تدعى Nelcke (= بنفسجية) وآثرتها بالحديث تاركا لصاحبتى التحدث إلى مواطناتها الأخريات ، وعرفت منها أنها تسكن فى ألكمار ، وأعطتنى عنوانها هناك ، فآليت إن سافرت إلى هولندا فى العام التالى أن أزورها فى بلدها ، وعدت إلى هولندا فى العام التالى لكن عنوانها ضاع منى! لهذا كان منظرا مضحكا منى أن أتجول ـ ومعى صديقتى ـ فى سوق ألكمار وطرقها الضيقة وأنا أهتف ضاحكا: نلكا ، نلكا! ولم يكن ثم مجيب ، ولأن صاحبتى عرفت أننى لا أحمل عنوان نلكا ، فقد شاركتنى هى الأخرى فى هذا المزاح ، ولا عليها ولا محل لغيرتها ، فإنها كانت تعلم علم اليقين أننا لن نعثر عليها ونحن نهتف باسمها عاليا فى شوارع ألكمار».



ويبدو الدكتور بدوى فى بعض الأحيان حريصا على التعامل مع من أحبهن بطريقة الاستقصاء العلمى ، فهو يعددهن ويذكر مزايا كل واحدة منهن ، ونراه يقدم كشف الهولنديات شاملا مَنْ عرفها فى ١٩٣٧ وهو فى العشرين ، ومَنْ عرفها فى ١٩٥٠ وهو فى الثالثة والثلاثين.. وهكذا ، وهو يقدم معلومات عن هؤلاء الفتيات وكأنما هو يقدم موسوعة شخصيات ،ولنقرأ هذا النص التفصيلى:

«وهنا يقتضى الوفاء أن أوجه تحية إلى اللواتى حبّبن هولندا إلى قلبى:

«وأولهن فتاة هولندية رائعة الجمال تدعى Ina Schoch عرفتها فى بيروجا وهى تدرس معى فى جامعة بيروجا للأجانب فى النصف الثانى من يوليو سنة ١٩٣٧ . كانت فارعة القوام ، وردية الخدين ، زرقاء العينين ، شقراء ، دائمة الابتسام ، وكان كلانا فى سن العشرين ، وتبادلنا أحاديث الغرام البرىء للمرة الأولى فى الحديقة الصغيرة المواجهة للبلدية والتى يتوسطها تمثال الشاعر كردوتشى ، لكن علاقتنا لم تستمر إلا أسبوعا واحدا ، لأنها كانت مضطرة إلى العودة إلى هولندا ، لكننا اتخذنا بورسعيد مكانا للقائنا وهى فى طريق سفرها إلى إندونيسيا لأن أسرتها تعمل هناك. ولما كانت السفينة التى ستستقلها ستبقى فى بورسعيد ثلاثة أيام فقد وعدتنى أن تكتب إلى بموعد وصول باخرتها إلى بورسعيد لأوافيها هناك ، لكن لم يصلنى منها وأنا فى مصر أى نبأ ، ولست أدرى ماذا صنعت بها المقادير ، لأنى لم أكتب إليها انتظارا لإبلاغها إياى بوصولها».

«وهكذا مضت هذه الزهرة دون أن تُخلّف فى نفسى غير الحسرة ، لكن ذكراها ظلت عبقة فى نفسى حتى اليوم».

«أما الثانية وتدعى Heidrike Koops فقد عرفتها فى متحف اللوفر بباريس فى يوليو سنة ١٩٥٠ ، وأنا واقف أتأمل لوحة «الجوكوندا» (موناليزا) لليوناردو دافنشى ، أقبلت ومعها فتاة أخرى تدعى كورى ، وتوقفا أمام اللوحة ، شأن كل زائر لمتحف اللوفر ، فاهتبلت الفرصة، لما أن سمعتهما تتحدثان بالهولندية ، للتعرف إليهما ، إذ نثرت أمامهما باللغة الألمانية معلوماتى عن هذه اللوحة ، وما حظيت به من تأويلات ، خصوصا تسميتها الحافلة بالغموض والأسرار ، وبعد جولة معهما فى قاعات قسم التصوير فى اللوفر دعوتهما إلى الغداء فى مطعم أرمنى كنت أديم التردد عليه ، هو مطعم صوفى بشارع سوميرار الموازى لشارع المدارس قبالة السوربون».

«ومنذ اللحظة الأولى كان هواى مع هندريكة (أو هنى كما تحب أن تدعى) ، فعملت على التخلص من الثانية ـ كورى ـ بأن أهديتها إلى صديقين ، وهكذا خلوت مع هندريكة ، وقد زادنى بها إعجابا ثقافتها الأدبية والفنية الواسعة».



هكذا خلا عبد الرحمن بدوى بمحبوبته ، فلنتأمل متعته معها وهو يختلس القبلات منها فى غفلة أو تغافل من أخيها الصغير:

«وبعد الظهيرة تجولت معها فى حديقة اللوكسمبور ، وأخذت أطارحها الغرام بالقرب من النافورة وأمام روضة الأزهار ، البديعة التنسيق بيد بستانى ، وفى المساء ذهبنا إلى مقهى غنائى تونسى ،يشرب فيه الشاى الأخضر وتسمع فيه الأغانى والموسيقى العربية ، بينما ترقص فتاة تونسية رقصا شرقيا خاليا من الفن ، وكان هذا المقهى فى شارع لاهارب ، وقد زال مع زوال المغاربة من حى سان سفران بعد استقلال تونس والمغرب فى مارس سنة ١٩٥٦ ، وقد أحضرت هى معها أخاها الأصغر ليشاهد هذا الفن الشرقى ، فكنا نتمايل كى نختلس القبلات الخاطفة على غفلة ـ أو تغافل ـ منه. وزادت هذه اللعبة من استمتاعنا بهذه السهرة ، ثم ودعتها بعد انقضاء السهرة على رجاء اللقاء غدا معها وحدها ، بعد أن تقنع أخاها وزميلتها بالقيام برحلة إلى فرساى ، وهكذا أمضيت معها وحدها طوال اليوم التالى ثم ودعتها فى المساء وكان عليها أن تستقل القطار فى اليوم التالى عائدة إلى أمستردام».



ويسعدنا عبد الرحمن بدوى باعترافاته عن تجدد علاقاته مع صديقته طوال الخمسينيات ،

حيث كان يدعوها إلى باريس ، ثم أصبح يسافر إليها فى أمستردام ، واستمرت هذه العلاقة حتى زواجها هى ولكن من غيره!:

«وتواصل التراسل فيما بيننا طوال العام الدراسى ، وفى الصيف عدت إلى باريس فدعوتها للحاق بى فى باريس لقضاء إجازتها السنوية ، فلبت الدعوة وأقامت فى باريس عشرة أيام ، وتوالى هذا اللقاء فى أعوام ١٩٥١ و١٩٥٢ و١٩٥٣ إبان شهر يوليو فى باريس، لكن ابتداء من سنة ١٩٥٤ انعكست الآية ، فكنت أنا الذى أسافر إلى أمستردام حيث قضيت أسبوعا فى عام ١٩٥٤ ، وأسبوعين فى عام ١٩٥٥ ، وثلاثة أيام فى فبراير سنة ١٩٥٦ وأنا فى طريقى إلى سويسرا ، وأسبوعا فى مايو سنة ١٩٥٦ ، وكان هذا آخر لقاء بيننا ، ذلك أنها تزوجت فانقطعت العلاقة نهائيا فيما بيننا ، وفى أمستردام كنا نلتقى مساء كل يوم فى مقهى دى بول الملحق بفندق يحمل نفس الاسم فى الشارع الكبير القادم من محطة السكة الحديد إلى ميدان الملك».



وبعد هذا التفصيل الكافى يحدثنا عبد الرحمن بدوى عن تأمله لما حظى به فى هذه العلاقة من متعة روحية وعقلية وعلمية:

«وكان اللقاء معها متعة للحس والذوق الفنى معا ، لأنها كانت واسعة الاطلاع فى الفن والأدب ، وبفضلها اهتممت بقراءة الأدب الهولندى المعاصر ، إما مترجما إلى الألمانية والفرنسية ، وإما ـ إن كان شعرا ـ باللغة الهولندية التى حملت نفسى على تعلمها إرضاء لها من ناحية ، ولتذوق الشعر الهولندى فى نصه الأصلى من ناحية أخرى ، وليس من أجل قراءة الأبحاث العلمية لأن العلماء الهولنديين ـ من مستشرقين وغير مستشرقين ـ غالبا ما يكتبون بغير الهولندية ، وخصوصا بالألمانية والفرنسية والإنجليزية بما يغنى عن تعلم اللغة الهولندية ، وهكذا قدر أبناء كثير من الدول ، وهى تلك التى لا يكاد يعرف لغتها إلا النادرون من غير أهلها».

«أما أيام الآحاد فكنا نقضيها فى إحدى المدن: فى أوترخت ، وألكمار ، ودلفت ، ومروج مارن بخليج زودرزى ، وهرتوجن بوش ، ومن ألكمار مضينا إلى شاطئ بحر الشمال عند مدينة Bergan Am Meer وهى التى عندها انتصر الجنرال الفرنسى برون على الإنجليز والروس فى سنة ١٧٩٩ ، وكان بحر الشمال كئيبا كابيا ، رغم أن الجو كان صافيا حارا ، فأين هو من البحر الأبيض المتوسط بزرقته الخلابة وعمق صفائه!».

«آه ما أجمل الأيام التى قضيتها فى هولندا ممتع الحس والعقل والعواطف!».



ويبدو لى أن الدكتور بدوى كان يحس أن قراءه سوف يلومونه على تفريطه فى هذه العلاقة الوثيقة فإذا به يلجأ إلى ما يسمى العذر الأقبح من الذنب ويشير إلى أن هذه العلاقات جميلة لو أنها عابرة ، أما فيما عدا هذا فهى مضجرة:

«لكن ميزة هذه الأيام هى أنها عابرة ، ولو استمرت أو طالت لأملّت وأضجرت ، ناهيك بها إذا ارتبطت بالتزام ، هنالك تصبح عذابا لا يطاق».

هكذا تبدو علاقة الدكتور عبد الرحمن بدوى بالمرأة خاضعة تماما للتفكير والتدبير ، فهو يرى بكل وضوح أن ارتباطه بالزواج أو الحب الأبدى كفيل بأن ينتقص من الحقوق التى منحها لجهوده البحثية ، ولما يتطلبه من مجد فى مجال تخصصه وعلمه ، ولهذا فإنه يضيق بهذا الوقت على المرأة وعلى نفسه من باب أولى.

(٦٧)

وفى مقابل هذا كله يبدو الدكتور عبد الرحمن بدوى فى أسف شديد حين اكتشف أن الحياة فى إيران لا تكفل ما كان يتصور إمكان حدوثه من معرفة المرأة الإيرانية ، وهو يروى هذا الأسف بقوله:

«فما أصعب التعرف إلى الفتيات أو السيدات فى إيران! ومهما قيل عن تحرر المرأة فى إيران منذ بدأ بذلك الشاه السابق رضا بهلوى فى سنة ١٩٣٥ ، فإن الاحتجاز والاحتشام استمرا طبعا أصيلا فى المرأة الإيرانية. لقد كان تحرر المرأة فى ملبسها فقط ، أما فى سلوكها فقد بقيت كما هى: شديدة المحافظة ، حريصة كل الحرص على عفافها ، وإن ابتسمت لم يكن فى ابتسامتها ما يشجع على طلب المزيد».

«ولهذا سرعان ما تبددت الصورة التى كانت فى مخيلتى عن المرأة الإيرانية ، تلك الصورة الوردية الزاهية التى طبعتها فى خيالى التزويقات التى تحلّى «رباعيات» عمر الخيام بخاصة فى طبعاتها الإيرانية العديدة ، وأدركت أن أكبر خطأ يرتكبه الإنسان هو أن يستمد من «رباعيات» الخيام فى نصها وفيما تحلى به من تزويقات أية فكرة صحيحة عن واقع الحال فى طهران وسائر المدن الإيرانية. فلا حانات فى طهران أو غيرها من مدن إيران ، ولا ساقى ولا

مغنية ، ولا ناى ولا عود ولا طنبور يعزف عليها فى أماكن عامة ، وكل ما يتداعى فى البال من «غزليات» حافظ هو محض تخيل وليس له مع الواقع أى سبب».

ويستنتج الدكتور عبد الرحمن بدوى ما لا حق له فى استنتاجه أو الوصول إليه بمنطقه:

«ولهذا أصبحت أعتقد اعتقادا جازما أن جل - إن لم يكن كل - ما ورد من صور ومعان فى «رباعيات» الخيام و«غزليات» حافظ ، وما شابه ذلك عند سائر شعراء الفرس هو من نسج الخيال المحض ، ومن رؤى محرومين لم ينعموا فى الواقع بأى متعة من المتع التى أفاضوا فى التعبير عنها فى شعرهم».



ويأبى الدكتور عبد الرحمن بدوى إلا أن يعبر عن هذه المعانى بلغة الشعر فيقول:

«وإزاء خيبة أملى هذه انطلقت أعبر عنها فى هذه القصيدة:

شكوت إليك يا خيا ... مُ من حالى بطهران

أتيت لدرس مخطوط ... وظبى غضة دانى

فضاع اليوم فى المخطو ... ط دون الظبى والبان

فلا «شيرين» تبسم لى ... ولا «زهرا» تمنانى

ولا مال لأبذله ... ولا سن الجوانان

مذكرات المفكرين والتربويين
تكوين العقل العربي

3

ثلثا قرن من الزمان

مذكرات:

عبد الله عنان

دار الخيّال

(١)

هذه مذكرات فريدة فى دسامتها ، وفريدة من حيث هى تحفل بالرأى الواضح الصريح القاطع فى كل ما تتناوله من أحداث ، وكأنما فرضت شخصية صاحبها وعقليته ونفسيته بصماتها على كل سطر من المذكرات ، صاحبها هو الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وهو واحد من أبرز العقليات المصرية فى القرن العشرين ، كما أنه صاحب فضل كبير على التاريخ ، وعلم التاريخ ، وعلى الدراسات الأندلسية ، وقد عاش حياة طويلة تفرغ فيها تقريبا للبحث والدراسة حتى جاءت بحوثه ودراساته الرائدة على مستوى رفيع ومرموق لا يتوافر عادة للبحوث الرائدة ، بل إن هذه البحوث والدراسات اتخذت هذا الطابع منذ بداية كتاباته ، وقد وفقه الله إلى أن يقبل هذا التفرغ ، وأن يضحى من أجله بكثير من الفرص الوظيفية التى أتيحت له ، وهو بهذا طراز نادر بين كل معاصريه ، وقد كان من حسن حظه أن تنضج دراساته وبحوثه وأن تصل إلى مرحلة المرجعية بينما كان لا يزال فى أوج نشاطه ، ولهذا السبب فقد شجعه نجاحه على مزيد من النجاح ، ونال كل ما يمكن للعلماء الباحثين أن ينالوه ، فانتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية ، ونال جائزة الدولة التقديرية ، كما حصل على وسام الجمهورية ، وكان عضوا دائما فى لجنة التاريخ فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، كما كان عضوا دائما فى جمعية الدراسات التاريخية.

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ عنان علم نفسه بنفسه ، وأنه وصل فى تأهيل نفسه بالعلم

إلى درجة رفيعة تتضاءل إلى جوارها درجات الكثيرين من الأساتذة الأكاديميين ، وهو فى التاريخ الأندلسى يحتل مكانة موازية لمكانة الأستاذ محمود شاكر فى التراث العربى.

قبل هذا كله كان محمد عبد الله عنان رائدا فى العمل الاجتماعى والثقافى ، وهو واحد من المؤسسين الثلاثة الأوائل لأول حزب اشتراكى مصرى ،لكنه انصرف عن هذا الحزب فى اللحظة التى أحس فيها بانسياق الحزب إلى خطوط أو مسارات كان يراها خطرة.

عاش الأستاذ عنان حياته مستقل الفكر والرأى ، وحظى من أجل هذا بالاحترام والتقدير ، كما سلم من تقلبات الحياة السياسية ، وإن لم يسلم من الشعور بالأذى والضيق والحنق لما رآه يحدث فى وطنه.

(٢)

ومع كل ما فى المذكرات من علم ومن تاريخ ومن سيرة حياة ، فإنها تكاد تكون حملة متصلة من الهجوم على ثورة يوليو ، بل إنه يجعل مذكراته فى قسمين ، القسم الثانى يبدأ من صفحة ٢٢٧ وحتى صفحة ٢٧٥ ، وعنوانه «تأملات عن أحداث عهد الثورة ونظمه» ، أما القسم الأول فيخصصه لحياته ، لكنه لا يخلو فى كثير من فقراته إلى الاستطراد بالهجوم على عقلية الثورة وسلوكها.

ومع هذا فإنى أستطيع أن أقول بكل وضوح إن الأستاذ عنان لم يكن فى كل ما كتبه عن الثورة ضد الثورة ، ولا من أعدائها ، ولم يكن بينه وبينها ذلك الطراز أو النوع من الحقد المتأجج ، ولكنه ظل يحكم عليها شأن الأستاذ المتمكن حين يحكم على طالب علم متوسط الأداء أو دون الأداء ، فهو لا يكف عن إظهار ضعفه فى اللغة والتعبير والخط والفكر والبحث، وهكذا يفعل عنان الذى كان قد وصل إلى الخامسة والخمسين من عمره حين قامت الثورة ، واستوى عوده ونضج فكره واستقرت له فى الحياة والأحياء مذاهب واضحة محددة ، وبهذا كان حكمه على الأمور يأتى من عل ، بل من علو شاهق ، وهو لهذا لا يستنكف انتقاد الثورة ولا ينى عن هذا الانتقاد ، إنما هو حفى به وبالتبصير بكل جزئياته ، بل إنه فى بعض الأحيان كان يرى هذا بمثابة واجبه الأول وإن لم يصرح بهذا المعنى.

ومع هذا فإن الأستاذ عنان شأنه شأن العلماء الباحثين لم ينضو فى حزب معاد للثورة ، ولا فى مجموعة مناوئة لها ، ولم يكتب أو يسجل نقده لها أو اعتراضه عليها هنا أو هنالك ، وإنما هو يحتفظ به كما نرى فى مذكراته وفى سياق فكره وتفكيره وكتابته ، حتى إننا نستطيع

أن نتصوره فى صورة الأب الحانى المنزعج بشدة من أخطاء ابنه أو أبنائه دون أن تقوده شدة الانزعاج إلى موقف إيجابى فى إيقاف تصرفات أبنائه عند أى حد يراه هو ، وهو لا يفتقد السلطة والقوة اللتين يمكنهما منه القلم ، لكنه يرى نفسه أبعد ما يكون عن أن يمسك بالقلم أو السلطة ليؤدى هذا الدور فى زمن مبكر أو فى زمن مناسب.

(٣)

على أن من المهم أن نذكر للقارئ أن هذه المذكرات صدرت فى سلسلة كتاب الهلال فى يناير ١٩٨٨ ، بينما تسجل صفحاتها أنها كتبت فى ١٩٧٩ ، ويبدو أنها ظلت محفوظة طيلة هذه الفترة حتى نشرتها دار الهلال ، وقد كان الأستاذ محمد عبدالله عنان نفسه من كتاب مجلة الهلال منذ مرحلة مبكرة من حياته.

ويسجل الأستاذ محمد عبدالله عنان دافعه إلى كتابة هذه المذكرات فى مقدمتها فيقول:

«دفعتنى إلى كتابة هذه المذكرات دوافع عديدة ، منها ما أتاحه لى المولى القدير ، من طول المدى ، وشهودى خلال ذلك كثيرا من الأحداث التى توالت على وطننا العزيز ، فى مدى أكثر من نصف قرن ، وما أصاب هذا الوطن من محن ، غيرت الكثير من أوضاعه التقليدية ، وقضت على كثير من قيمه المعنوية ، ومثله العالية ، ومظاهره الشريفة ، التى اقترنت طوال العصور بحياته الاجتماعية ، وازدان به تاريخه الطويل. ودفعنى إلى ذلك من جهة أخرى ما اقترن بحياتى الشخصية من أحداث مهمة يجدر تسجيلها ، وما توالى على حياتى العلمية من تطورات ، وزخرت به من تراث تاريخى وأدبى عريض ، كان مبعث اعتزازى طوال حياتى. كل ذلك قد بعث إلىّ شعورا بأنه من واجبى ، وأنا أقضى هذه الأويقات الباقية من حياتى ، أن أستعرض هذه الصفحات التى تلقى كثيرا من الضوء على فترة من تاريخ مصر الحديث ، من خلال حياة رجل شهد ثلاثة أجيال ، وشهد خلالها ما توالى على حياة وطنه ومواطنيه من الأحداث ، والتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية».

وفى أولى صفحات المذكرات يشير الأستاذ عنان إلى المزايا التى أنعم عليه الله بها فيقول:

«وإنى أكتب هذه الصفحات من حياتى ، وقد جاوزت الثمانين ، وقد ملأت هذه الحياة ـ كما سيرى القارئ ـ بالحركة المستمرة ، والعمل الدائب ، والرحلات المتوالية فى مشارق الأرض ومغاربها ، آنا للسياحة وغالبا للدراسة ، ووقفت على الكثير من الخواص الحضارية لمختلف الشعوب الأوروبية ، وتمتعت بالتجوال فى سائر جنبات أوروبا الجميلة ، من السهل

والجبل والمصايف الساحرة ، والمتديات الاجتماعية الأنيقة ، والحفلات المسرحية والغنائية ، والموسيقية الشائقة ، فى أشهر أوبرات القارة ، وتحدثت إلى كثير من أبناء هذه الشعوب بلغاتها القومية ، وأنا أتحدث بحمد الله خمسا من اللغات الأوروبية».

«أكتب هذه الصفحات وهى خاتمة ما يخطه قلمى ، الذى خط الكثير خلال هذه الحياة الطويلة الحافلة ، وأنا على استعداد فى كل لحظة إلى لقاء ربى ، قرير العين ، مغتبط النفس ، بما قدمته فى حياتى ، إلى وطنى العزيز مصر ، وإلى أمتى العربية العظيمة ، من ثمار تفكيرى وبحوثى ، راجيا أن تكون للخلف خير ذخر ، ولكاتبها خير ذكرى».

(٤)

ويحرص عنان على أن يؤكد على استقلاله فى الرأى فيما يكتبه فى المذكرات ، شأنه فى المذكرات شأن ما عرف عنه فيما كتب طيلة حياته وهو يؤكد على انتمائه لمصر وعلى انتفاء الميول السياسية الخاصة عنه:

«وأود أن أنوه قبل كل شىء بأن كل ما يصدر منى خلال هذه المذكرات من آراء وتعليقات، إنما يصدر منى أولا كمصرى ، لم تكن له طوال حياته أى ميول أو أهواء سياسية خاصة ، ولم يتصل مطلقا بأى حزب أو أية طائفة سياسية ، وقد عاش طوال حياته مصريا فقط ، ينظر إلى سائر الأحداث والتقلبات بنظرته المصرية ليس غير. وثانيا كمؤرخ ينظر إلى الحوادث ويحللها بمعياره وقوانينه التاريخية ، وأنه بالرغم من اشتغاله بالصحافة فترة من الزمن لم يشأ أن يغمس قلمه قط فى غمر المسائل السياسية الحزبية ، وأنه حرص طوال حياته على الابتعاد عن أى مؤثرات أو اتجاهات خاصة ، ولبث يحمل قلمه حرا ، منزها عن مثل هذه المؤثرات والاتجاهات ، وهو ما كان دائما ، ولا يزال موضع فخره واعتزازه. وبهذا القلم الحر النزيه يحاول أن يسجل اليوم هذه الصفحات من حياته ، ويستعرض ما شهده خلالها من الأحداث القوية والصور الاجتماعية».

ويشير عنان فى أكثر من موضع من مذكراته إلى أنه عاش تجربة كتابة المذكرات فى مرحلة مبكرة من حياته ، حين ساعد أحمد شفيق باشا على كتابة مذكراته الشهيرة «مذكراتى فى نصف قرن» ، ولهذا فإنه استعار فكرة اسم مذكراته من هذه المذكرات ، فجعلها «مذكراتى فى ثلثى قرن». ويبدو أن دار الهلال هى التى آثرت تحوير العنوان إلى العنوان الذى بين أيدينا.

يقول الأستاذ عنان:

«وقد رأيت أن أستعير لهذه المذكرات عنوانا على نسق العنوان الذى سبقنى إليه صديقى الأجل المرحوم أحمد شفيق باشا ، حيث أسمى مذكراته «مذكراتى فى نصف قرن» وأنا أسمى هذه المذكرات «مذكراتى فى ثلثى قرن» ، وهو المدى الزمنى الذى تشغله حوادث هذه المذكرات».



هذا إذن مؤلف واع كل الوعى لأن ما يكتب من مذكرات هو نهاية ما يكتبه فى حياته ، وهو مطمئن بنوع ما من الاطمئنان إلى أن الله سيهيئ له الزمن لكتابتها ولإتمامها ، وهو كذلك متيقن من أنه وصل إلى نهاية حياته وليس له بعد هذا من مطمع فى الحياة ، ومن العجيب أن هذا هو ما حدث بالفعل فقد توفى هذا الرجل بعد إنهائه لهذه المذكرات بفترة وجيزة.

(٥)

ونحن نرى فى مذكرات محمد عبدالله عنان كيف مكنته ثقافته الأولى ثم ثقافته القانونية من أن يخوض بحار العلم بقوة واقتدار ، وهو لا يرى لنفسه نبوغا ولا تميزا بقدر ما يرى فى التعليم الذى كان متاحا له ولأقرانه سببا قويا للتجهيز لمثل هذا النبوغ والتفرد والتميز.

وتحفل مذكرات عنان بالامتنان لزملائه وأساتذته وأقرانه الذين أتيح له أن يستفيد من عونهم وزمالتهم وبحوثهم ، وهو قادر على أن يستجلى مواطن العظمة فى كل من هؤلاء ، كما أنه قادر على إيفائهم حقهم من الشكر والتقدير.

ولا يخلو الأمر من أن يعرض محمد عبد الله عنان لبعض الشخصيات المعروفة تعريضا لا يخلو من قسوة ، أو من ظلم ، لكنه يفعل هذا دون أن يهتز له جفن ، لأنه يرى ويعتقد أن حكمه على هؤلاء صائب ما فى ذلك شك.

(٦)

وربما جاز لنا أن نبدأ حديثنا عن هذه الشخصية برواية ثلاثة جوانب شخصية فى حياة صاحبها ، وأدل هذه الجوانب هو حديثه عن أسفه عن أن أحداً من أبنائه الثلاثة رغم تفوقهم لم يرث مجده فى التخصص الذى نبغ فيه:

«وإذا كنت آسف على شيء فى حياتى العائلية ، فهو أننى لم أرزق مَنْ يمكن من أولادى أن يخلفنى فى حياتى الأدبية ، ويرعى تراثى التاريخى العريض ، ويقوم على الاستمرار فى نشر كتبى التاريخية والأدبية المختلفة ، لكى تنتفع بها الأجيال اللاحقة ، وإنى لأترك هذا التراث وديعة بين يدى الله سبحانه ، يرعاها ويحفظها وهو خير الحافظين».



ولعلنا ننطلق من هذا مباشرة إلى الجانب الثانى من جوانب حياة عنان لنتأمل عقليته الصريحة وقدرته على الحكم على الأمور من طريقته التى اتبعها فى زواجه من سيدة نمساوية فاضلة قدر لها أن تشاركه حياته:

«فى صيف سنة ١٩٣٠ سافرت إلى فيينا وفى نيتى أن أعمل إلى التعرف بآنسة نمساوية أقترن بها ، وكنت قد حاولت قبل ذلك بأعوام أن أحقق هذا العزم بمصاهرة إحدى الأسر المصرية المحترمة فسعيت إلى الاتصال بأكثر من أسرة بالقاهرة ، ولكنى شعرت أنه توجد ثمة أفكار وتقاليد رجعية لدى معظم هذه الأسر ، وفى مقدمتها أن طالب الزواج يحسن أن يكون موظفا فى الحكومة ، وأن الوظيفة تعتبر عنوان الكفاءة والقبول .. وقد ذكرت فيما تقدم أننى لم أفكر فى بداية حياتى العامة فى التوظف فى الحكومة ، وإننى آثرت العمل الحر فى المحاماة والصحافة ، ومن ثم فقد رأيت أن أترك الأسر المصرية وشأنها فيما تحب ، واتجهت إلى الزواج من فتاة أوروبية ، وآثرت أن تكون هذه الفتاة نمساوية أو ألمانية ، ومن ثم فقد سافرت إلى فيينا ولم يطل بحثى ، حيث تعرفت بأسرة نمساوية متوسطة ، عميدها مهندس زراعى ، وله ابنة شابة فى الثانية والعشرين من عمرها تدعى يوهنا ، وقد زرت الأسرة بمنزلها بحى براتر ، وكانت تتألف من الأب وزوجته ، وهى سيدة جميلة وقورة ، وهى ليست أم الفتاة ، إذ كانت الأبنة يتيمة الأم ، فراقنى ما شهدته لدى الأسرة من البساطة والتواضع والأدب الجم ، والقوام المعتدل ، والسحر المقرون بالحياء ، ومخائل الذكاء ، وأبديت فى الحال رغبتى فى الاقتران بها ، وفى اليوم التالى زارنى الأب وابنته فى الفندق الذى أنزل فيه ، واتفقنا على موعد عقد القران ، وتم عقد الزواج بالفعل فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، بمقر البلدية «الرات هاوس » ثم تم توثيقه بعد ذلك بأيام قلائل فى القنصلية المصرية بفيينا أمام قنصلنا المرحوم محمد سرور بك ، وعدت بعد ذلك برفقة زوجتى الشابة إلى القاهرة ، وأحمد الله العلى القدير أن كان زواجا موفقا لم تحدث به خلافات ، أو أزمات خطيرة».

(٧)

ونأتى إلى ثالث الجوانب الشخصية القادرة على تقريب صورة الرجل ، ونحن نرى تعبير الأستاذ محمد عبد الله عنان الواضح عن كرهه للوظيفة الحكومية وطباعها وتبعاتها فيما يرويه عن اضطراره ـ فى وقت من الأوقات ـ لقبول وظيفة حكومية:

«عندئذ فكرت فى أن ألتحق بوظيفة حكومية ، وهو ما رفضت التفكير فيه والاستجابة إليه عقب تخرجى من دراسة الحقوق ، وكانت فكرة مؤسفة ، ولكنى كنت أراها السبيل الوحيد فى هذه الظروف ، ولم أكن أتصور يومئذ أننى سوف ألقى بنفسى فى وسط موبوء منحل ، وأننى سوف أعانى بمخالطته الكثير من الآلام النفسية. وانتهى الأمر بأن التحقت بوظيفة من الدرجة الخامسة بإدارة المطبوعات بوزارة الداخلية ، وسهل علىّ الالتحاق بها أحد أقاربى ، وهو المرحوم حسن رفعت باشا ، كان يشغل يومئذ منصب وكيل الداخلية ، وتقع إدارة المطبوعات تحت إشرافه ، وما لبثت أن لاحظت أن هذه الإدارة التى كان عملها يختص بالإشراف على الصحافة ، وتنفيذ قانون المطبوعات ، كانت تقع يومئذ تحت سيطرة الشوام من سوريين ولبنانيين ، إنها كانت تعانى كثيرا من ضروب الفساد على يد هذه العصابة ، من قبيل اقتضاء الرشاوى ، للسعى فى تعيين الموظفين على اعتماد المصاريف السرية ، ومن قبيل اقتضاء الرشاوى ومن مختلف الصحف لمدها بمختلف الامتيازات ، ولاسيما الإعلانات الحكومية ، وكان رئيسها الأعلى أو وكيلها هو يومئذ سورى درزى يسهل لمرءوسيه كل شىء، ويؤمهم فى تلك الأعمال ، وكانت الصحف الأجنبية هى أكثر الصحف انتفاعا فى ظل هذا الفساد».

«وكنت خلال عملى بإدارة المطبوعات أمثل وزارة الداخلية فى لجنة قبول الصحفيين بمحكمة الاستئناف العليا ، وكانت هذه اللجنة تنعقد وفقا لقانون المطبوعات الجديد تحت رئاسة رئيس محكمة الاستئناف العليا ، وكان رئيسها يومئذ المرحوم محمد محمود باشا [يقصد محمد محمود خليل باشا رئيس مجلس الشيوخ الشهير وصاحب المتحف المشهور] ، وكان مستشارا بارعا ، جم الذكاء والأدب ، وكنت سعيدا بالعمل معه.. وقد ساعدت بمعلوماتى وتوصياتى الشخصية فى اللجنة فى قبول عدد كبير من الصحفيين والصحفيات».



ويبدو أن نزعة الأستاذ عنان الكارهة للوظائف الحكومية (أو الوظيفة على وجه العموم)

والتقيد بها لم تكن تقف عند حد ، ونحن نراه يروى أنه اعتذر للدكتور حافظ عفيفى عن عدم قبول منصب أحد المديرين الثمانية فى بنك مصر بسبب خوفه من أن تشغله الوظيفة عن أعماله الأدبية وهو يروى أنه ذهب للدكتور حافظ عفيفى ، وكان صديقه ، يشكو إليه تصرفاً للنقراشى باشا معه فما كان منه إلا أن طيب خاطره ، وقال له:

«... وأنا مستعد لأن آخذك للعمل معى فى البنك ، وأعطيك إدارة من إداراته الثمانى تكون مديرا لها ، وهى إدارة السكرتارية ، فتأثرت لوفائه ونجدته ، ووعدت بدراسة اقتراحه. وقد فكرت طويلا فى هذا العرض الكريم ، وقد كان عرضا سخيا سواء بمكانته أو مرتبه ، ولكنى بعد التفكير خشيت أن يكون وجودى فى المنصب المصرفى ، وفى هذا الوسط الجديد من الأعمال البعيدة فى نوعها عما ألفته ، مما يشغلنى عن أعمالى وجهودى الأدبية ، وقد استطعت حتى الآن أن أحافظ على مثابرتى فى معالجتها ، هذا فضلا عن أن هذه الوظيفة لم تكن لتتيح لى الأوقات الحرة التى تحتاجها رحلاتى الدراسية ، ولست أعرف إن كنت قد أخطأت أو أصبت فى هذا التفكير ، ولكن الذى حدث هو أنى اعتذرت عن عدم قبول هذا العمل ، وإن كان يسعدنى دائما أن أتعاون مع هذا الصديق الشهم الوفى».



ثم يروى الأستاذ عنان كيف فكر فى ترك وزارة الداخلية والانتقال إلى وزارة المعارف مع صديقه الدكتور السنهورى:

«والخلاصة أننى لم أر بعد صلف النقراشى ، ووضيع تصرفه ، إلا أن أترك وزارة الداخلية ، فذهبت لمقابلة صديقى المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف ، وأبلغته بما حدث ، فعرض علىّ أن أنقل تحت رعايته فى وزارة المعارف ، فقبلت هذا العرض ، وتم نقلى إلى المعارف بإدارة الثقافة العامة ، رئيسا لقسم الترجمة ، وقد كنت حين وجودى بالداخلية مرشحا للترقية إلى الدرجة الثانية ، وكنت أظن أن النقل من وزارة إلى أخرى لا يضيع حقى فى هذه الترقية ، لكن الدكتور السنهورى قال لى إنه ليس بوسعه أن يحقق لى هذه الأمنية خشية «أن يثور ضده المعلمون» ، فتركت الأمر وفى نيتى أن أترك خدمة الحكومة متى توافرت لى مدة الخدمة التى تعطينى الحق فى المعاش ، بيد أنه حدث بعد ذلك بنحو عام ونصف عام أن تولى صديقى المرحوم الدكتور طه حسين وزارة المعارف ، فى وزارة الوفد الأخيرة ، فعرضت عليه موضوعى ، فبادر بإصدار القرار بترقيتى إلى الدرجة الثانية ، التى كنت أستحقها منذ عامين ، وتعيينىَ مراقبا بإدارة الثقافة العامة ، ولما عرضت عليه رغبتى فى تولى إدارة دار الكتب قال بالحرف الواحد : «إنها من نصيب فلان ، وهذه رغبة السراى

بالأمر» ، وانتهى تجوالى فى الوظائف عند هذا الحد ، فلبثت أترقب الفرصة لمغادرة هذا الوسط الحكومى البغيض المتعفن».

ويذكر الأستاذ محمد عبدالله عنان أن الفرصة قد سنحت له لترك الوظيفة الحكومية نهائيا عقب قيام الثورة:

«وقد سنحت هذه الفرصة غير بعيدة عقب الحدث الخطير الذى وقع فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ففى العام التالى صدر قانون يجيز للموظفين اعتزال الخدمة بشروط معينة مقرونة ببعض المزايا ، وحفظ حقهم فى قبض مرتباتهم حتى بلوغ سن المعاش [وهى سياسة شبيهة بما نعرفه الآن من سياسات المعاش المبكر]. ففى الحال قدمت طلبى باعتزال الخدمة ، وكان وزير التربية (المعارف) يومئذ صديقى المرحوم الأستاذ إسماعيل القبانى ، فبعث إلىّ صديق الطرفين المرحوم الأستاذ فريد أبو حديد يطلب منى التريث فى ترك الوظيفة ، انتظارا لترقية سريعة مؤكدة ، فبعثت إليه بخالص شكرى واعتذارى ، وتم الأمر ، وغادرت الوظيفة مغتبطا سعيدا باسترداد حريتى ، والتفرغ لبحوثى التاريخية (ديسمبر سنة ١٩٥٣)».



ويتحدث الأستاذ عنان عن خطوة استقالته بوصفها خطوة مباركة أتاحت له التفرغ التام لبحوثه التى عجز عن إتمامها فيما قبل هذا وطيلة أعوام ممتدة:

«وكانت فى الواقع خطوة حاسمة مباركة ، كان لها أكبر الأثر فى إنتاجى التاريخى الذى كنت أخطط له منذ أعوام طويلة سابقة ، وكانت تعوقنى الوظيفة عن تنفيذه ، وكان المفروض أن معظم دراساتى وبحوثى سوف تجرى معظم الوقت بعيدا عن مصر ، فى المكتبات ومعاهد المخطوطات الخارجية».



ويشير الأستاذ عنان إلى الجانب الآخر من القضية وهو أن جو العهد الجديد فى مصر لم يكن يبعث على الاطمئنان النفسى:

«وكان هذا فى ذاته مزية كبيرة ، لأنى كنت أشعر شعورا عميقا بأن جو العهد الجديد وظروفه بمصر لا تحمل على الاطمئنان النفسى ، وكنت بعد لحظة قصيرة من التفاؤل الذى غمر الشعب عند وقوع الانقلاب ، أنظر إلى الدكتاتورية العسكرية الجديدة ، واتجاهاتها بتوجس وتشاؤم ، وأثبتت الأيام فيما بعد أننى كنت صادق الحس ، بعيد النظر فى فهمه وفى تقديره».

(٨)

ونبدأ فى تأمل بعض الأحداث والاسهامات اللتين احتوتهماهذه المذكرات.

وتمثل رحلة الأستاذ محمد عبد الله عنان الصحفية الأولى إلى بلاد الشام فى ١٩٢٦ (وهى الرحلة التى استمرت ثمانية وثمانين يوما) موضوعا من أهم الموضوعات التى شملتها هذه المذكرات ، لما فيها من آراء مبكرة عن طبيعة وتطور الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، ولقاءاته فى الجانب اليهودى:

«فى أواخر أبريل سنة ١٩٢٦ ، دعتنى «السياسة» إلى القيام برحلة صحفية إلى فلسطين وسوريا والعراق وتركيا ، فلبيت مغتبطا ، وغادرت القاهرة ، وسافرت إلى غزة بطريق خط سيناء الحديدى ، فى اليوم الثامن من مايو ، فوصلتها مبكرا فى صباح اليوم التاسع ، وركبت فى إحدى السيارات الذاهبة إلى بيت المقدس ، فوصلتها ضحى ، ونزلت فى الفندق الألمانى ، وكانت فلسطين يومئذ تحت الانتداب البريطانى ، وخرجت مبكرا فى صباح اليوم التالى فزرت المسجد الأقصى المبارك».



وبعد أن يروى الأستاذ عنان تفاصيل زياراته السياحية والتاريخية ، يعمد إلى ذكر ملخص لتفاصيل لقاءاته السياسية والصحفية:

«وكنت شديد الاهتمام بدراسة وضع اليهود وأحوالهم ، فى ظل تصريح اللورد بلفور ، الذى توافق فيه الحكومة البريطانية على قيام وطن قومى لليهود بفلسطين فى ظل الانتداب البريطانى ، ومن ثم فقد قمت بزيارة المستعمرات والمدارس اليهودية فى بيت المقدس ، ثم زرت الجامعة العبرية».

....

«وكنت أتوق للاستماع إلى وجهة النظر اليهودية ، وكانت تمثل اليهود عندئذ «الوكالة اليهودية» التى أقيمت بصفة رسمية لتعمل فى ظل الانتداب البريطانى ، وكان من حسن الطالع أن كان من بين أعضائها الأستاذ نورمان بنتوتشين ، أستاذى السابق بمدرسة الحقوق ، فسهل لى الاتصال بها ، وتحدثت مع عدة من أعضائها ، وفى مقدمتهم الأستاذ بيك الفيلسوف الألمانى الشهير ، والأستاذ ماير ، وسمعت منهم أنهم يلتزمون العمل بتصريح بلفور ، وليست لديهم أية نية للاعتداء بأية صورة على وضع الوطنيين أو حقوقهم».

....

«أما عن الشعب الفلسطينى ذاته ، وعن أحواله الاجتماعية يومئذ ، فإنه لم تتح لى فرص

كثيرة للامتزاج به ، ولم أخرج عنه بانطباعات خاصة ، وكل ما لفت نظرى هو اتصال الفلسطينيين فى بيت المقدس باليهود اتصالا عاديا فى الحياة العامة والخاصة ، ومعرفة الكثير من شبابهم للغة العبرية ، وتحدثهم بها مع اليهود ، وتزوج الكثير منهم بزوجات يهوديات فى غاية الحسن والجمال».

«وقد كانت إمارة شرق الأردن قد أخرجت من سلطة الانتداب البريطانى ، ووضعت تحت إمارة الأمير عبدالله بن الحسين ، وقد رأيت أن أسعى إلى زيارة الأمير ، وأحصل منه على حديث صحفى ، فسافرت بالسيارة إلى عمان مبكرا فى يوم الأثنين السادس عشر من مايو ، ومررت فى طريقى بمدينة السلط ، وهى مدينة صغيرة تقع فوق ربوة صخرية عالية ، ثم تابعت سفرى حتى وصلت إلى عمان بعد الظهر بقليل ، وقمت فى الحال بمقابلة رئيس الديوان حسن بك العارف ، فاتصل بسمو الأمير فى المقر ، وتفضل سموه بأن حدد لى الساعة الرابعة من نفس اليوم موعدا لزيارته».

(٩)

ويروى الأستاذ عنان انطباعاته عن اللقاء بالملك عبدالله الأول (الأمير عبدالله فى ذلك الوقت):

«وكنت قد سمعت الكثير عن ذكاء الأمير عبدالله وفطنته وحزمه ، وقد سمعت حين زيارتى للمندوب السامى السير سايمس وعلمه بنيتى فى زيارة الأمير ، سمعت منه هذ العبارة وصفا للأمير: The Emir is a shrwed man ، ولم أعرف إن كان يقصد أن الأمير رجل فطن أم رجل ماكر».

«واستقبلنى الأمير فى تمام الساعة الرابعة ، فى قصره المسمى «المقر» ، وكان يقع فوق ربوة عالية ، أجمل استقبال ، وكان الأمير رجلا متوسط القامة ، أسمر اللون ، بادنا بعض الشىء ، يرتدى الثياب العربية ، وعلى رأسه عقال مذهب ، فلبثت فى حضرته أربعين دقيقة ، وجادلته فيما شئت من الشئون السياسية والاجتماعية والأدبية. وأذكر حينما تحدثنا عن الحركة الأدبية فى مصر أن وصفها الأمير بـ«أنها تغلى كالمرجل» ، وكان الأمير يتحدث بعربية جميلة فصحى، ويبدو واسع الاطلاع والمعرفة فى سائر ما تحدثنا فيه».

«وودعت الأمير مرتاحا إلى جميل ترحيبه ، ووافر رقته وأدبه».

«وفى اليوم التالى (الثلاثاء) السابع عشر من مايو ، سافرت عصرا إلى تل أبيب ، فوصلت إليها عند الغروب ، ونزلت فى فندق هرتسليا ، وكانت تل أبيب يومئذ فى أطوار نشأتها الأولى ، ولكنها كانت تنمو بسرعة ، وأضحت تضم كثيرا من الأحياء والصروح الأنيقة ، وأذكر أن معظم المقاهى كانت تقع فوق أسطح العمارات ، وقد زرت فيما زرت من دور الأعمال بها مركز مشروع «روتنبرج» ، وقد كان يومئذ من أكبر المشاريع الكهربائية التى يقوم اليهود بإنشائها ، وكان لإقامته صدى عظيم ، وقابلت من رجاله المستر فاينهال ، فشرح لى أغراضه ومراحل عمله ، ثم زرت بعد ذلك دار جريدة «الهاآرتس» ، وقد كانت يومئذ ، ولاتزال إلى اليوم ، فى طليعة الصحف اليهودية».

وفى نهاية رحلته يشير الأستاذ عنان إلى المعنى الذى أشرنا إليه فيقول:

«وهكذا انتهت ـ بحمد الله ـ هذه الرحلة الأولى من رحلاتى الخارجية ، التى تعددت فيما بعد ، بعد أن استغرقت ثمانية وثلاثين يوما [كذا فى الأصل ، وهو يقصد ثمانية وثمانين ، وذلك أن الرحلة ابتدأت أواخر أبريل وانتهت فى آخر يونيو] ، وحفلت بكثير من المشاهدات والدراسات. وقد كتبت عن دراساتى فى هذه الرحلة ، وعن أحاديثى الصحفية المهمة بها،عدة مقالات نشرت تباعا فى «السياسة الأسبوعية» ، وقد كان أبرز ما فيها الفصول التى كتبت عن الحركة الصهيونية والإحياء اليهودى ، ثم عن تركيا والحركة الكمالية».

(١٠)

ويروى الأستاذ محمد عبدالله عنان فى هذه المذكرات بالتفصيل قصة مشاركته الفاعلة مع الأستاذين سلامة موسى وعلى العنانى فى تأسيس أول حزب اشتراكى مصرى ، ومسيرة هذا الحزب المبكرة فيقول:

«فى سنة ١٩٢٠ اجتمعت مع صديقى الدكتور على العنانى الأستاذ بمدرسة دار العلوم ، وكنا نشعر بالتعاطف المشترك لانتسابنا معا إلى الأسرة العنانية الكبرى ، وكان قد عاد حديثا من بعثة علمية طويلة ، قضاها فى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها ، والأستاذ سلامة موسى وقد كان يومئذ كاتبا معروفا ، تقرأ مقالاته فى مجلة الهلال وغيرها من المجلات والصحف ، وتحدثنا فى وجوب القيام بعمل إيجابى فى أعقاب الثورة الكبرى (ثورة سنة ١٩١٩) إلى جانب الجهود التى تبذل فى سبيل تحقيق أمانى مصر فى استرداد حريتها وتحقيق

استقلالها ، واقترح سلامة موسى - حسبما أذكر - أن نؤسس حزبا اشتراكيا ، لأن هذا النوع من الأحزاب لم يكن قد عرف بعد فى مصر ، وأيدناه فى ذلك أنا والدكتور العنانى وكان ذا نزعة اشتراكية حملها معه من ألمانيا ، واتفقنا على أن نصدر فى ذلك بيانا يعلن فيه هذه الفكرة، وما ترقى إليه من العمل على تأييد قضية الحرية والاستقلال ، وقد صدر هذا البيان بعد أن قمت أنا بتحريره واشترك معى زميلاى فى تنسيقه وتعديله إلى الصيغة المرغوبة ، ونشر فى الصحف الكبرى مذيلا بتوقيعنا ، واتفق على أن أتولى سكرتارية الحزب المذكور حتى يتم إنشاؤه».



وبعد فقرات يؤكد الأستاذ عنان على مراميه وأهدافه من المشاركة فى تأسيس مثل هذا الحزب فإذا به حريص على نفى استهدافه للأهداف الاشتراكية الاقتصادية أو الطبقية ، ويبدو أن الأستاذ عنان يكتب فقراته فى هذا الصدد متأثراً بما عرف عنه ، وما عرف به بعد هذا من كراهية المذهب الشيوعى والهجوم عليه إلى الحد الذى جعله يرفض زيارة روسيا على الرغم من زياراته لأوروبا كلها:

«وأود أن أبادر بالقول بأن فهمى لمهمة الحزب المذكور يومئذ ، لم يكن منصبا على أغراض اقتصادية أو طبقية مما تدعو إليه النظرية الاشتراكية».

«واتخذنا شقة فى العمارة المواجهة لحديقة الأزبكية على مقربة من ميدان الخازندار لتكون مكتبا للحزب واجتماعاته ، وكنت يومئذ مازلت أمارس مهنتى فى المحاماة بميت غمر وأقضى أواخر الأسبوع بالقاهرة ، وأهتم بتنظيم شئون الحزب الجديد بقدر الإمكان».



ويعرض صاحب هذه المذكرات تفصيلات بعض نشاطه فى الحزب ، كما يروى قصة استقبال سعد زغلول لوفد من الحزب:

«وكان من أهم ما قام به الحزب عقب تكوينه أمران ، الأول: هو لقاء المرحوم سعد زغلول باشا زعيم الأمة ورئيس حزب الوفد يومئذ ، واستقبلنا مع عدد من أعضاء الوفد ، وألقيت بين يديه خطابا قصيرا نوهت فيه بإنشاء الحزب الاشتراكى ، وأشرت فيه إلى ما اتسم به سعد باشا من الشجاعة والبسالة ، وكونه لم يخش سطوة الإنجليز ولا حرابهم المشهرة ، فلاحظ سعد باشا علىّ مبتسما بقوله: «بل كنا خايفين شوية».



كما يشير الأستاذ عنان إلى حفل أقامه الحزب لنواب حزب العمال البريطانى:

«والأمر الثانى هو أننا أقمنا حفلة شاى احتفالا بلقاء نواب حزب العمال البريطانى ، وكانوا ثلاثة ، وفدوا إلى القاهرة لدراسة المسألة المصرية ، وذلك بنادى حديقة «السيروس» الواقع يومئذ فى منتصف سليمان باشا ، وألقيت أنا فيها كلمة بالإنجليزية نوهت فيها بأهمية القضية المصرية وعدالتها ، ورجوت تعضيد حزب العمال البريطانى لها ، وسعيهم إلى حلها بطريقة عادلة محققة للأمانى المصرية».

(١١)

ويشير الأستاذ عنان إلى أن بعض التطورات التى طرأت على الحزب دفعته هو نفسه إلى ترك الحزب نهائيا بعد أن تمكن حسنى العرابى وروزنتال الجوهرى من تفعيل إسهامهما فى الحزب وتوجيهه نحو الشيوعية العالمية:

«وبينما نحن فى هذا الوضع التمهيدى إذ طرأ على الحزب عنصر جديد ، يتمثل فى انضمام اثنين من دعاة الاشتراكية القدامى إليه هما الأستاذ حسنى العرابى وهو من أعيان المحلة الكبرى ، وكانت له سوابق فى الدعوة إلى اعتناق الاشتراكية ، والمسيو روزنتال الجوهرى بالإسكندرية ، وكان له فى هذا الميدان نشاط معروف وذائع ، وقد تبين منذ البداية أن هذين العضوين الجديدين كانا مدربين على أعمال الدعاية ، كما تبين أن مسيو روزنتال كانت له صلات بالحزب الشيوعى الروسى وغيره من الهيئات الاشتراكية الأوروبية ، وأنه كان ينفق بعض المال فى سبيل الدعاية الاشتراكية وغير ذلك ، وكذا كان يعمل زميله الأستاذ العرابى ، كذلك تبين أنهما يسعيان إلى أن تكون لهما مساهمة فعالة ، بل مساهمة قيادية فى تسيير الحزب والسيطرة على توجيهه ، وفى هذه الفترة بالذات كان يأتى بعض الرسل من وافدى أوروبا يدعى بعضهم الانتماء إلى بعض الأحزاب الاشتراكية والشيوعية الأوروبية ، ويدعوننا إلى الاتصال بأحزابهم. وهكذا بدأت تتضح المساعى التى نظمت لتحويل الحزب الاشتراكى إلى هيئة عاملة لبث المبادئ الاشتراكية والشيوعية ، ومحاولة الاتصال بالأحزاب الأوروبية ، وتنظيم علاقات معها ، وتحوله بذلك عن غايته الأصلية التى أنشأناه من أجلها ، وهى تدعيم الجهود التى تبذل لحل القضية المصرية ، وحصول مصر على استقلالها وحرياتها».



ويعتبر الأستاذ عنان أن هذه الأنشطة والمشاركة فى العلاقات الدولية كانت تمثل من وجهة نظره تحولات عن الأهداف التى ابتغاها عند تأسيس الحزب ، وهو يروى كيف أن شابا

أوروبيا «أفجـدور» كان بنشاطه الفعـال بمثابة السبب فى استدعـاء السلطات للأقطاب الثلاثة للشهادة أمام النيابة:

«وهنا أخذت السلطات تراقب الحزب ونشاطه ومَنْ يتردد عليه ، وكان من المبعوثين الذين حاولوا الاتصال بالحزب وتوجيه نشاطه شاب أوروبى يدعى أفجدور ، [وقد بالغ] فى الدعوة إلى العمل ، والاتصال بالأحزاب الخارجية ، والنضال ضد الاستعمار والنظم المستعبدة ، وغير ذلك ، وكان عـنيفا فـى خطبه ودعوتـه ، فلفت إليه نظر السلطات وقـبض عليه ، ودعـيت أنا والدكتور على العنانى وسلامة موسى إلى الشهادة بما نعلم عنه وعن أعمال الحزب واتجاهاته ، وكان التحـقيق أمام رئيس نيابة مصر بمـبنى محكمة الاستئناف ببـاب الخلق ، فأدلينا بأقوالنا ، وسرد كل منا قـصة إنشاء الحـزب وأغراضه كمـا وقعت ، وقدمنا إلى النيـابة بيانه التأسـيسى الذى سبق نشره فى الصحف».



وعند هذا الحد وجـد المؤسسون الثـلاثة للحزب ـ على ما يروى صـاحب هذه المذكرات ـ أن الأمور قد خرجت من أيديهم فآثروا الاستقـالة من الحزب ، وهى على حد ما نعرف واقعة طريفة وفريـدة أن يترك المؤسسون للحزب الذى أسـسوه لِمَنْ هم أقدر منهم على توجـيهه إلى اتجاهـات يعـارضونهـا ، وهـى واقـعة تـدلنا على مـدى ما تمتع به هـؤلاء الأقطاب الثلاثة من ثقة فى النفس وتـسام وتسامح وديمقـراطية ، كمـا أنها تدلنا فى الوقت ذاته على مـدى العبث الذى نمارسه الآن حين يتنـافس ويتناحر أكثـر من عشرة فـصائل على حزب واحـد ، والسبب واضح وجلى وهو أن أحـزاب اليـوم مدعـومـة من الدولة وتفيـد مـاديا ومعنـويا من اللافتـة المرفوعـة عليها ، فـضلا عن أن المستفـيدين منها يعلـمون أن عليهم بذل جهـود مضنية وغـير مضمونة من أجل إنشاء حزب جديد ، ومن ثم فإنهم يؤثرون استنفاد أغراضه من خلال ما هو قائم بالفعل:

«وهنا شعـرنا نحن الثلاثة بأن الأمـور قد خرجت من أيدينـا ، وأن الاستمـرار فى وجودنا على رأس الحزب أو حتى بين أعـضائه مما يثير الشبـهات حولنا دون مبرر ، خـصوصا أن هذا الاتجاه الذى يأخذه الحزب تحت توجيه العرابى وروزنتال ، كـان توجها شيوعيا صريحا ، ومن ثم فـقد استـقلنا من عـضوية الحـزب وتركناه وشأنه ، ونشـرنا بذلك بيانا مـوجزا فى جـريدة الأهرام ذكـرنا فيـه أننا قـد اعتـزلنا العضـوية وتركنا الحـزب لمعارضتنا فى قـيام الدعـوة إلى الشيوعـية التى غلبت عليه فى الفتـرة الأخيرة ، وكان ذلك ختـام هذه الحركة الصغيـرة البريئة التى كنا نؤمل أن تكون مفيدة ومـؤيدة لحركة الاستقلال السيـاسية ، وهى التى بدأت تحتل فى ذلك الوقت مكانها فى عرين الصراع الحزبى المعروف».

(١٢)

ويؤكد الأستاذ محمد عبدالله عنان على أنه منذ ذلك الحين الذى انسحب فيه من الحزب الاشتراكى ظل بعيدا عن الحزبية تماما ، ولم يسمح لنفسه بالانخراط فى أى نشاط سياسى أو حزبى على الرغم من صداقته لكثيرين من ذوى الانتماء الحزبى:

«ولم يخالجنى منذ ذلك الحين أى شعور أو أية رغبة بالانضمام إلى أية هيئة سياسية أو أى حزب سياسى ، أو اعتناق أية آراء حزبية معينة ، ولبثت طوال حياتى بعد ذلك بعيدا كل البعد عن هذا المعترك ، لا يحركنى سوى شعورى المصرى الصميم ، واتجاهاتى المصرية الخالصة».



ونرى الأستاذ محمد عبدالله عنان وهو حريص على أن يؤكد هذا المعنى عند حديثه عن عمله المثمر فى جريدة السياسة التى كانت تصدر عن حزب الأحرار الدستوريين ، وهو فى هذا المجال يشيد باحترام الدكتور هيكل والدكتور حافظ عفيفى وأقطاب آخرين من الأحرار الدستوريين لعزلته وشعوره حيث يقول:

«وهكذا ألفيت الميدان أمامى فسيحا للتحرير والنشر ، فى جريدة محترمة ، وفى وسط رفيع من أكابر كتاب العصر ، وإلى جانب نخبة من رجالات مصر الذين كانت تحفل بهم دار السياسة باستمرار. وأود أن أنوه هنا بحقيقة بارزة ، وهى أننى بالرغم من مساهمتى فى تحرير جريدة السياسة ، لسان حزب الأحرار الدستوريين واتصالى بكثير من أقطاب هذا الحزب ، فإنه لم يخطر ببالى مطلقا أن أتجه إلى هذه الناحية الحزبية ، أو أتسم بها بأية حال. بل ولقد حرصت أشد الحرص على ألا أغمس قلمى فى أية موضوع سياسى محلى أو حزبى ، لأننى كنت ألتزم أشد الالتزام بصفتى المصرية ، ولا أبغى نزوعا عنها لأية ناحية حزبية ، ولقد كان المشرفون على تحرير السياسة ، وفى مقدمتهم الدكتور هيكل ، والدكتور حافظ عفيفى ، يشعرون منى بهذا الالتزام ، وهذا العزوف المطلق عن الاتجاهات الحزبية ، ويحترمون عزلتى وشعورى ، ويوقنون أنى أدين بمبدأ مخلص لا تشوبه أية شائبة».

(١٣)

ونأتى الآن إلى الحديث عما لقيه الأستاذ محمد عبدالله عنان من تقدير مبكر كان بمثابة الدافع الأول له إلى الاستمرار فى طريق العلم والبحث بدأب وهمة لا يفتران ، وهو يتحدث

عن كتاباته الأولى ، التى نشرت فى الصحافة ، فلقيت الاهتمام والتقدير ، وكيف كان هذا بمثابة الدافع القوى له للاستمرار فى هذا المجال.

يقول الأستاذ عنان:

«وهكذا نزلت إلى ميدان الصحافة الصاخب ، ووفقت إلى أن أحتل فيه مكانا ثابتا مرموقا، وانتظم اسمى إلى جانب أعلام الكتاب والباحثين ، وكانت بحوثى التاريخية بالأخص تلفت الأنظار بجدتها ودقتها ، وقد أسبغت علىّ منذ وقت مبكر صفة الباحث «المحقق»».



ويشير الأستاذ عنان إلى أن مؤرخ الأدب العربى العظيم المستشرق بروكلمان قد ترجم له فى تاريخ الأدب العربى (١٩٥٣) وكذلك فعل معهد اللغات الشرقية فى برلين:

«وترامت هذه السمعة إلى دوائر المستشرقين ، فوصفنى العلامة المستشرق الكبير الدكتور كارل بروكلمان فى الطبعة الثانية من كتابه الجامع «تاريخ الأدب العربى» (١٩٥٣) بأننى من صحفيى الطليعة فى هذا العصر. ونشرت ترجمتى ، حسبما تقدم ضمن أعلام الأدب العربى المعاصر ، فى ملحق مجلة «Der Islam» الذى أصدره بالإنجليزية المرحوم الدكتور طاهر الخميرى ، تحت إشراف الدكتور كامبفماير مدير معهد اللغات الشرقية ببرلين ، والذى سبقت الإشارة إليه ، وذلك إلى جانب أسماء طه حسين ، ومنصور فهمى ، ومى زيادة.. وغيرهم».

(١٤)

ويعتز محمد عبد الله عنان فى أكثر من موضع من مذكراته بنظرته المستقلة إلى التاريخ العثمانى ،ويكاد الأستاذ عنان ينفرد بنظرات خاصة جدا إلى هذا التاريخ ، لكنه يجد لها من التاريخ نفسه ما يؤيدها ، وهو لا يقبل التنازل عنها بأى حال من الأحوال حتى فى مقام المجاملات ، بل إنه كان «يشتبك» من أجلها ويدخل فى مشادات عنيفة إزاء إبداء آرائه فى هذا التاريخ ولا تخرج آراؤه عن وصفه للدولة العثمانية بأنها دولة هدامة للحضارة وغير منشئة لها ، وإنما هى تترك وراءها الخراب والانحلال والمذابح ، وهو يتحدث عن هذا المعنى فيقول:

«ونظريتى فى تاريخ الترك العثمانيين ، نظرية ثابتة لا تتغير ، مبنية على دراسات وثيقة ،

وهى أنهم أمة عسكرية غازية ، وليست منشئة لأية حضارة ، بل بالعكس أمة هدامة للحضارة، وأنه من الصعب على أى مؤرخ أن يدافع عن حكمها فى أى البلاد التى فتحتها ، لأنها لم تترك وراءها دائما سوى الانحلال والخراب ، والأمر فى ذلك واضح فى نتائج الفتح العثمانى لمصر ، ويكفى أن نراجع يوميات الفتح حسبما دونها المؤرخ المعاصر ابن اياس ، لنرى ما ارتكبه الفاتحون من المذابح المروعة ، والتخريب الشامل ، حين دخولهم القاهرة».



ويضرب الأستاذ عنان على هذه الحقيقة التى يؤمن بها مثلاً من أقوى ما يمكن حيث يقول:

«ويكفى أن نذكر أن سكان مصر وقد كانوا عند الفتح نحو ثمانية عشر مليونا ، قد انخفضوا فى ظل الحكم العثمانى من أثر الظلم والفقر والجوع والمرض إلى خمسة ملايين ، وأن طلاب الأزهر انخفضوا من اثنى عشر ألفا إلى ألفين.. وهلم جرا».

ويبدو رأى الأستاذ عنان فى سياسة تركيا الحديثة وكأنه امتداد لرأيه فى الدولة العثمانية وهو يتعرض لتاريخ تركيا الحديث بقدر واف من التفصيل فى أكثر من موضع من مذكراته إلى أن يصل إلى تلخيص رأيه فى سياسة تركيا الحديثة بأنها سياسة براجماتية ليست لها أية علاقة بالأخلاق:

«ونحن نعلم من تاريخ تركيا الحديث أنها تسير مع سياسة الأخذ والعطاء من مختلف الدول ، ومبدؤها سياسة الانتفاع والكسب ، بقطع النظر عن أية اعتبارات أدبية أو أخلاقية ، ووفقا لهذا المبدأ فقد كانت منذ البداية من الدول ذات العلائق الودية والتجارية الوثيقة مع إسرائيل».

(١٥)

ومن حق الأستاذ عنان علينا وهو العالم الذى طاف أوروبا ودرسها وعاشها وعايشها أن نتأمل فى خلاصة رأيه فى الحضارات الأوروبية المعاصرة ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الرجل العظيم لم يبخل علينا بخلاصة تجربته فى هذا الصدد ، بل إنه كان حريصا على أن يبلور آراءه هذه عند الحديث عن كل مرحلة من مراحل حياته ودراساته ، وعلى سبيل المثال فإننا نراه يجاهر برأيه فى أن الحضارة الأوروبية الحديثة تكاد تنحصر فى خمسة بلدان هى: فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا والنمسا ، وهو يرى حضارات البلدان الأوروبية الأخرى أقل شأنا من هذه الحضارة ، ويدلل على نظريته هذه بكثير من الأمثلة ويقول:

«وفى رأيى أن الحضارة الأوروبية الصميمة تتأثل فى هذه البلاد الخمسة ، أكثرها من غيرها، وأنها [أى البلاد الخمسة التى يعتقد فى ارتفاع مستوى حضارتها] تبلغ بين بلاد القارة أعلى مستويات الحضارة الأوروبية المنبثقة من الحضارة الرومانية ، ومع أن البلاد الاسكندنافية (الدنمارك والسويد والنرويج) لا تقل فى مستواها الحضارى عن هذه البلاد ، فإنها تبدو للزائر، منذ الدراسة الأولى ، أنها بالرغم من مستواها الحضارى الرفيع ، بلاد باهتة ، ليست لها خواص أصيلة بارزة ، مما يمتاز به البلد المتمدن عن غيره ، وإنما هى بلاد ذات مظاهر حضارية عادية ليس لها لون خاص ، ويمكن أن تلاحظها فى أية بلاد متمدنة أخرى».

هكذا يستبعد الأستاذ عنان البلاد الاسكندنافية بسبب المظهر «الباهت» لحضارتها ، وهى نظرية سليمة إلى حد كبير.



ويعود الأستاذ عنان ليتحدث عن الخصائص المميزة للحضارات الخمس التى اصطفاها من بين الحضارات الأوروبية فيقول:

«ومن ثم فإن البلاد الخمسة التى ذكرناها ، وهى فرنسا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وبريطانيا ، هى حسبما أسلفنا موئل الحضارة الأوروبية الصميمة ، وكل منها تتميز بخواص بارزة مستقلة، من حيث الشخصية والعقلية ، والأخلاق ، وأساليب التفكير ، والحياة. لكنها جميعا تبلغ القمة من المستوى الحضارى ، وكل ما ينضوى تحته من المستويات الأخلاقية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والاقتصادية ، والصناعية ، والزراعية ، والتقنية ، وكل منها ـ فيما عدا ألمانيا ـ ذات تاريخ قديم عريق ، وكلها تتمتع بتراثات علمية ، وأدبية بازغة ، وجامعات ومعاهد علمية وفنية عظيمة ، ذات سمعة عالية ، وحياة اجتماعية زاهرة ، وصحافة عريقة».



ويشير الأستاذ عنان إلى ارتباطه ، هو نفسه ، بهذه الحضارات وآدابها ولغاتها فيقول:

«ولقد أخذت بطرف من سائر هذه المظاهر الحضارية العريقة فى تلك البلاد العظيمة ، وامتزجت دراساتى ومطالعاتى بالآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ،وأخذت من كل منها بقسط ملحوظ من الدراسة والقراءة ، والترجمة أحيانا ، وكان ذلك بنوع خاص فى قصص «السياسة الأسبوعية» فى بداية عهدى بالاشتغال بالصحافة ، وكذلك فى مؤلفات وبحوث تاريخية قمت بترجمتها من الألمانية».

ويكرر الأستاذ عنان الحديث عن فضل دراسة اللغة ومعرفتها فى الاستمتاع بالحضارة وأهلها ومنتدياتها ودراساتها:

«وكانت دراسة هذه اللغات دائما من أمتع ما كنت أشعر به من اليسر ، والراحة النفسية فى رحلاتى العديدة لهذه البلاد ، حيث كانت اللغة دائما فى يدى سلاحا معينا نافذا ، محققا لكل ما رغبت وطمحت إليه من دراسة شئونها ، والحياة فيها ، والامتزاج بأبنائها ، والتمتع بمنتدياتها الاجتماعية والفنية».

(١٦)

ونرى الأستاذ عنان حريصا على الإشارة فى مذكراته إلى حرصه وإصراره على عدم زيارة الاتحاد السوفيتى ، وذلك فى مقابل كل هذا الحديث الملىء بالشغف والحب عن علاقة صاحب هذه المذكرات بالحضارات الأوروبية (الخمس والأسبانية وغيرها) التى قدر له أن يتصل بها:

«لقد زرت خلال رحلاتى الدراسية والسياحية سائر دول أوروبا الغربية ، والمملكة المتحدة (بريطانيا) ، ولم أزر قط روسيا السوفيتية ، وهو امتناع مقصود ، لأنى صممت على ألا أزور البلاد الشيوعية ، ولأننى أمقت المذهب الشيوعى ، وكل من يدين به. ولقد كانت مثل هذه الزيارة ميسورة فى فرص كثيرة انتهزها إخوانى أعضاء مجلس الفنون وغيرهم ، ووصفوا لى الكثير مما شاهدوه فى موسكو من الخطط والمشاهد العظيمة ، والمنتديات الفخمة ، ولكن ذلك لم يستملنى قط إلى الاستجابة للدعوة إلى زيارة روسيا ، وكل ما كنت أود أن أزوره منها هو التركستان المسلمة ، ولكنى لم أطمئن كذلك إلى القيام بمثل هذه الزيارة ، لأنى أعرف أن السلطات الثقافية الروسية فى القاهرة ، تعرف جيدا ما صدر منى من حملات عديدة ضد المذهب الشيوعى ، وضد روسيا السوفيتية».

ويبلور الأستاذ عنان فكرته هذه فى قوله:

«وهكذا تمت لى زيارة سائر بلاد القارة الأوروبية ، ما عدا روسيا السوفيتية ، وهو نقص لم أندم عليه قط».

(١٧)

ونأتى إلى الحديث عن الاضطرابات المهمة فى العلاقات الدولية التى قدر لصاحب هذه المذكرات أن يكون شاهد عيان فيها بحكم ممارساته الصحفية والبحثية المتقدمة.

ومن الجدير بالتأمل أولا أن نشير إلى أن مسيرة الأستاذ عنان العلمية والبحثية لم تخل من المتاعب على الرغم من كل ما أعطاه لها من اهتمام ووقت وتفرغ ، على سبيل المثال فإنه صادف كثيرا من المتاعب السياسية (الاستعمارية) ، وهى متاعب مفهومة ولم يكن بد من أن يصادفها عالم من طراز الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وسنجتزئ من هذه المتاعب ما ترويه المذكرات عما لقيه صاحبها من جانب السلطات الاستعمارية الفرنسية على سبيل المثال ، وهو يحكى كيف حجرت السلطات الفرنسية على حريته فى أثناء زيارته لسوريا سنة ١٩٢٦ ، وهو يروى أنه قابل الأمير (أو رئيس الدولة) ثم عاد إلى غرفته فى الفندق ففوجئ بالشرطة الفرنسية تنهى إليه الأمر بإبعاده خارج سوريا ، وأن هذه الشرطة تولت تنفيذ هذا الأمر بكل صرامة ، ولنقرأ ما يرويه:

«وغادرت دار الإمارة إلى فندقى ، وما كدت أدخل غرفتى حتى طرق الباب ، ففتحت لأرى مَنْ الطارق ، فوجدت اثنين من رجال الشرطة ، وقد أنذرانى بأنه وفقا للأوامر الصادرة يجب ألا أغادر غرفتى ولا أتصل بأحد حتى اليوم التالى ، حيث يجب أن أستقل السيارة إلى بغداد ، وهى سيارة الشركة التى اشتريت منها تذكرة سفرى ، وقد حاولت عبثا أن يسمح لى بأن أتصل بالسفارة المصرية ، سواء زيارة أو تليفونيا ، وهكذا امتنعت من كل اتصال ، ولزم الشرطيان مكانهما أمام غرفتى حتى المساء ، ثم طوال الليل ، حتى صباح اليوم التالى ، ولم أجد مفرا من النزول عند تلك الأوامر ، وحزمت حقائبى ، وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى غادرت الفندق فى حراسة الشرطيين ، وسرت إلى موقف السيارات المسافرة إلى بغداد ، وأخذت مكانى إلى جانب السائق فى السيارة الأولى ، التى تتقدم القافلة ، وكان يومئذ يعتبر أفضل أماكن السفر ، ووضعت بها حقائبى ، وركب الشرطيان معى فى نفس السيارة ، وعند الحدود السورية غادرا السيارة وتركانى وشأنى.. فتنفست الصعداء».



ثم يروى الأستاذ عنان أنه استطاع أن يرسل من العراق بعد وصوله إليها برقية للدكتور حافظ عفيفى فى القاهرة:

«وبعد نحو ثلاث ساعات وصلنا إلى قاعدة الرطبة العسكرية العراقية ، واستراحت القافلة

قليلا ، وانتهزت هذه الفرصة فأرسلت من الرطبة إلى الدكتور حافظ عفيفى بالقاهرة برقية ، ذكرت له فيها ما تم من إبعادى عن سوريا لأسباب أجهلها ، وتوجهى إلى بغداد».



ويروى الأستاذ عنان أنه فى طريق عودته وجد برقيته قد فعلت فعلها ، وجعلت السلطات الفرنسية تتراجع فى الصحافة عن موقفها منه:

«وغادرت بغداد يوم الخميس الثانى من يونيو ، وسافرت بالسيارة عائدا من نفس الطريق الصحراوى إلى بيروت ، وكنت طوال الوقت أخشى أن يقع لى ما يكدر حين المرور بدمشق ، ولكن وقعت المفاجأة حينما وصلت السيارة إلى قلب دمشق ، واشتريت إحدى صحفها ، وإذا بى أقع على بلاغ رسمى خاص بحادث إبعادى ، وفيه تنكر السلطات السورية حادث الإبعاد وتذكر أنى تركت سوريا بمحض إرادتى ، وأنى حر فى العودة إليها ، أو الخروج منها حسبما أشاء! وقد علمت فيما بعد أن برقيتى التى أرسلتها إلى الدكتور حافظ عفيفى من الرطبة ، كان لها وقع عميق ، وأن حادث إبعادى قد أنهى إلى وزارة الخارجية فقامت بالاحتجاج بشدة لدى السفارة الفرنسية بالقاهرة ، ومن ثم فقد عمدت السلطات السورية ، أو بعبارة أخرى السلطات الفرنسية فى سوريا ، إلى إنكار الحادث ، وإصدار بلاغها الذى سبقت الإشارة إليه».

(١٨)

ويشير الأستاذ محمد عبد الله عنان إلى حقيقة موقف السلطات الفرنسية منه ، وأن هذا الموقف يعود فى عقيدته إلى نشره ترجمة لمقال ألمانى مهم يشير فيه إلى أن المسئولية عن الحرب العالمية الأولى تقع على فرنسا وروسيا وليس على الإمبراطورية الألمانية ، وقد استند هذا المقال إلى وثائق كتبها سفير بولونيا فى فرنسا وقد قدم فيها تفصيلات مهمة عن زيارة الرئيس الفرنسى للقيصر الروسى للتوطئة لهذه الحرب:

«وإنى لأنتهز هذه الفرصة لكى أوضح سبب موقف السلطات الفرنسية بالقاهرة منى ، وهى العامل الحقيقى وراء حادث إبعادى عن سوريا ، وقد سجل اسمى لديها من ذلك الوقت فى قائمة الممنوعين من دخول أراضى الانتداب والمستعمرات الفرنسية ، وذلك أننى قمت قبل سفرى بعامين خلال عملى بجريدة السياسة ، بترجمة وتلخيص عدة مقالات ظهرت فى صحيفة «Berliner Tageblatt» الألمانية ، وقد كانت يومئذ كبرى صحف برلين

الديمقراطية، بـقلم الدكتور هانز دلبرك ، وفـيها يتحدث عن مـسئولية الحـرب العالمية الأولى ، وعلى مَنْ تقع هذه المسئوليـة فى الحقيقة ، ويقدم عدة وثائق سيـاسية كتبها قـبل الحرب المسيو أزفولسكى سفير بولونيا فى فرنسا ، وفيهـا ينوه برحلة مسيو بوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا يومئذ إلى بتـروجراد واتفاقه سرا مع القـيصر الروسى على القيام بإعـلان الحرب على ألمانيا ، ويقدم عـديد الأدلة على أن مسئولية هذه الحرب تقـع أولا على فرنسا وروسـيا ، وليس على الإمبراطورية الألمانية».

ويشير الأستـاذ عنان إلى ما كان يعنيه هذا المقال من تدميـر للدعاوى الأوروبية التى كانت تحرص على توريط ألمانيا فى المسئولية عن الحرب حتى بعد انهزامها:

«ونحن نعرف أن مـعاهدة الصلح التى أمليـت فى فرساى على ألمانيـا المهزومـة ، تقرر فى موادها أن مسئولية الحرب تقع على ألمانيا ، وأن ألمـانيا اضطرت قسرا إلى قبول المعاهدة بسائر نصوصها ، ولكن مندوبها دحض فى خطابه فى مؤتمر الصلح هذه المسئولية وقال بالنص: «إن القول بمسئولية ألمانيا يعتبر من فمى كذبا».



ثم يشير الأستاذ عنان إلى الآثار التى ترتبت على نشره لهذا المقال:

«والخلاصة أن ما حـدث من ظهور خلاصة مقالات الصـحيفة الألمانية الكبرى بـتوقيعى ، كان له أسوأ الأثر فى السفارة الفرنسية بالقـاهرة ، وكان أول رد فعل لهذا الحادث الصحفى ما أوعزت به السفارة الفرنسية بالقاهرة إلى سلطات الانتداب الفرنسى فى سوريا ، بإبعادى حين وصلت إليها».



وبعد هذا يشير الأستاذ عنان إلى الآثار التالية لهذا المقال:

«وامتد هذا الأثر فـيما بعد أعواما طويلة ، وعـبثا حاولت غيـر مرة أن أطلـب من القنصلية الفرنسية بالقـاهرة التصريح لى بزيارة المغرب أو تونس للقيام بدراسات علميـة فى مكتباتها ، فكان الرد دائمـا يأتى بالرفض ، وذلك رغـما عـما لجـأت إليه غـير مـرة من توسيط صـديقى المغفور له العلامة الأسـتاذ ليفى بروفنسـال فى ذلك ، وكان يومئذ يشغل مناصب علمـية رفيعة فى المغرب والجزائر».



وعلى الرغم من هذا فإن السلطات الفرنسية لم تمنع الأستاذ عنان من زيارة فرنسا نفسها:

«ولكن شيئا واحدا لم تحاول أن تعمـد إليه السلطات الفرنسية فى القاهرة ، وهو منعى من

دخول فرنسا ذاتها ، فكانت تعطينى دائما تصريح الدخول إليهـا ، وقد سافرت إليها فيما بعد مرارا وتكرارا ، وأكثرت من التجوال فى باريس العظيمة ، وقمت بدراساتى غير مرة فى مكتبة باريس الوطنية ، وكتبت عن رحلاتى عدة فصول نشرت فيما بعد فى مجلة الرسالة».



وبعد هذا كله يتنهد الأستاذ عنان ويقول:

«هذا وقد انقشع ـ بحمد الله ـ كابوس الاستعمار الفرنسى عن تونس والجزائر والمغرب ، وأصبحنا جميعا أحرارا فى دخول هذه البلاد الشقيقة العزيزة المستقلة ، الحرة ، كلما شئنا».

(١٩)

وعلى الرغم من هذا التعاطف الظاهر مع الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، فإن الأستاذ عنان لم يكن متعاطفا مع الألمان ولا مع هتلر فى الحرب العالمية الثانية ، بل إنه يفخر فى هذه المذكرات بنجاحه فى الاعتذار المبكر عن عدم قبول وسام رفيع من الرئيس الألمانى هتلر ، ومن المهم أن نشير إلى أن الأستاذ عنان قدم قصة هذا الاعتذار بالتفصيل ، على حين لا تزال كتاباتنا التاريخية غافلة عن روايته ، وعلى سبيل المثال فإن الوثائق الأمريكية عن الشخصيات المصرية البارزة عند قيام الثورة (والتى نشر الدكتور رءوف عباس بعضها فى كتاب بعنوان «شخصيات مصرية بعيون أمريكية) تشير إلى الغموض فى قصة منح حسن يوسف هذا الوسام (وهو ما يوضحه الأستاذ عنان هنا بالتفصيل).

وتنبئنا القصة التى يرويها الأستاذ عنان عن مدى وعيه السياسى من ناحية ، وعن مدى قدرة الألمان على التصرف السليم حتى فى ذروة سيطرة هتلر على مقاليد الأمور ، وهو ما يدلنا على أن العقل والوعى الألمانيين لم يتعطلا تماما فى فترة هتلر ، على حين تعطل الوعى العربى والعقل العربى فى فترات «الهتالرة» العرب العديدين:

«فى ذات يوم حول منتصف يوليو سنة ١٩٣٩ ، علمت من مصدر لا أذكره اليوم أنه قد ورد لى ولصديقى وزميلى الأستاذ حسن يوسف باشا الذى كان مديرا لقسم الصحافة بوزارة الخارجية ، ثم فيما بعد مديرا للرقابة [ثم فيما بعد رئيسا للديوان الملكى بالنيابة] ، لكل منا وسام تقديرى من حكومة الريخ الثالث (الحكومة الهتلرية) ، فسألت فى الحال صديقى المرحوم الأستاذ إبراهيم الدسوقى الذى كان يومئذ السكرتير الشرقى بالسفارة الألمانية فأكد لى

صحة الخبر ، وذكر لى أن الوسامين قد وردا فعلا ، وأن السفارة على وشك أن تقدم فى شأنهما مذكرة رسمية إلى وزارة الخارجية».



ويستطرد الأستاذ عنان إلى رواية شعوره تجاه هذا الوسام فيقول:

«وقد انزعجت لهذا الخبر أيما إزعاج ، وكأننى تلقيت فى قلبى طعنة أليمة ، وبادرت فى الحال بالاتصال تليفونيا بالسفارة الألمانية ، وطلبت محادثة السفير الألمانى أو مستشار السفارة، فقيل لى إن السفير غير موجود ،و تذكرت عندئذ ما قرأته منذ وقت قريب من أن السفير الألمانى (الهير وخندروف) قد غادر السفارة فارا إلى الشرق الأقصى ، لأنه لم يكن متفقا مع الحكومة الألمانية ، وعندئذ طلبت محادثة المستشار ، ولما اتصلت به رجوت منه أن أقابله فورا لمسألة خطيرة أود محادثته فى شأنها ، وكان ذلك فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، فتفضل بدعوتى إلى رؤيته فى الحال ، فذهبت مسرعا إلى السفارة الألمانية ، واستقبلنى المستشار بمنتهى المودة».



ونأتى إلى الحوار الذى دار بين الأستاذ عنان وبين مستشار السفارة الألمانية ، وهو حوار جدير بالقراءة لما يتضمنه من ذكاء ودبلوماسية وحزم فى الوقت ذاته :

«وفى الحال ذكرت له ما بلغنى من خبر الوسام الممنوح لى من حكومة الريخ الثالث ، وهو خبر أكد لى صحته ، وقلت له بمنتهى الصراحة : إن هذا الأمر يدهشنى أعظم الدهشة ، لأنى من أشد خصوم الحركة النازية والنظام النازى ، وقد كتبت ضده وضد زعيمه الكثير من المقالات العنيفة ، فكيف يمكن أن تقدم حكومة الريخ على أن تمنحنى وساما ينطوى على تقديرها؟ فأجابنى المستشار بأن حكومة الريخ تقدر ما قمتم به من الخدمات والتسهيلات الودية للصحفيين الألمان ، فقلت له إن هذه الخدمات والتسهيلات تمنح لسائر الأجانب ، وأنا لم أقم نحو الصحفيين الألمان إلا بواجبى ، وإنى أزيد على ذلك بأننى رجل ديمقراطى حر ، ولا يمكن أن أقبل أى تقدير مهما كان نوعه من حكومة الريخ الثالث الدكتاتورية ، فأجابنى المستشار: ونحن كذلك فى ظل حكومة الريخ الثالث شعب ديمقراطى حر ، فأجبته بحزم وصراحة : إنى أعتذر أشد الاعتذار عن عدم قبول هذا الوسام بأية صفة ، وقد جئت لأطلعك على رأيى واعتذارى عن هذا الرفض ، وذلك قبل أن تقدم السفارة فى شأنه مذكرتها إلى وزارة الخارجية ، وقد رأيت ذلك من واجبى حتى لا تقع فى ذلك أزمة لا تحمد ، فقال المستشار : إنى أشكرك جزيل الشكر على هذه الصراحة ، وهذا المسعى ، وسوف تحقق رغبتك

فى عدم الكتابة إلى وزارة الخارجية ورد الوسام إلى حكومة الريخ ، مشفوعا باعتذارك عن عدم قبوله ، وشد المستشار على يدى بحرارة ومودة».



وبعد هذا يتنفس الأستاذ عنان الصعداء ويقول:

«وغادرت السفارة وأنا لا أكاد أصدق ما حدث ، ولا أكاد أحتفظ بتوازنى ، وكأننى نجوت من سهم مسموم كان مصوبا إلى صدرى ، وقمت فى الحال بكتابة تقرير مفصل عن هذا الموضوع ، وقدمته لرئيس الوزارة ووزير الداخلية ، وقد كان يومئذ محمد محمود باشا ، ولم أخطر أحدا بهذا الحادث ، ولم أتصل فى شأنه بأية صحيفة ، وآثرت كتمانه واعتباره سرا خاصا».



ثم يشير الأستاذ عنان إلى عقيدته فيما يتعلق بهذا الموقف ، وهو فى واقع الأمر يعبر بما يرويه عن وعى سياسى عال كونته بالطبع رؤيته وثقافته العميقة وإحساسه بالتاريخ الذى لا يرحم المتورطين من أمثال مَنْ نعايشهم اليوم ولا ينفكون يتنقلون بين دعوات وعشاءات وولائم الهتالرة العرب وتكريماتهم:

«إنى لأعتبر هذا الحادث الدبلوماسى من أهم الأحداث التى وقعت فى حياتى ، ويسعدنى أن عشت حتى استطعت أن أودعه هذه المذكرات. وإنى لأعتبره شرفا عظيما لى أن أرفض بهذه الطريقة الجريئة الحاسمة وسام تقدير من حكومة الريخ الثالث أعظم وأقوى وأعنف الحكومات الأوروبية يومئذ ، وأنه لكذلك أسطع شاهد بحرية قلمى ، ورسوخ مبادئ الديمقراطية الحرة ، التى كان هذا الرفض أعظم تقييم لها ، وأعظم دفاع عنها».

أحب هنا أن أستغل هذا الموضع من المذكرات لأشير إلى حقيقة ما يمكن للمذكرات أن تقدمه من إضاءة للتاريخ حين نقرأ الآن النص الذى ورد فى كتاب الدكتور رءوف عباس فنجد أنفسنا قادرين تماما على فهم موقف حسن يوسف الذى لم توضحه الوثائق الأمريكية ولا الدكتور رءوف عباس ولا حسن يوسف نفسه فى مذكراته:

تتحدث الوثيقة الأمريكية المترجمة عن حسن يوسف باشا فتقول ما نصه:

«وقد شغل بعض المناصب بوزارة الداخلية ، فكان مديرا عاما للنشر فى البداية ، ثم أصبح مديرا للوزارة. وفى مطلع الحرب العالمية الثانية ـ عندما تعاون بعض المصريين مع الألمان لإبعاد البريطانيين عن مصر ـ تولى حسن يوسف مسئولية الرقابة على الصحافة والمطبوعات ، فكان

بذلك فى وضع يسمح لـه بمعاقبة مـن ينشرون مقـالات معادية للألمان ، وقـيل إنه كوفئ على ذلك بمنحه وساما ألمانيا».

(٢٠)

ولا ينبغى لنا أن ننتقل إلى حديث آخـر قبل أن نشيـر إلى فهم الأسـتاذ عنان المبكر لأزمة ألمانيا فى القرن العشـرين وحقيقة دور الفكر السياسى فى هذه الأزمة ، ومما يشى بقـيمة عقلية هذا الرجل وقدراته الفكرية أن أول مقال صحفى نشره كـان مترجما عن الألمانية وكان عنوانه «مدرسة عليا للسياسة» وهو يقص قصة هذا المقال القيم فيقول:

«وخلاصتـه أن الألمان يجب أن يتعلموا السيـاسة فى مدرسة عليـا ، لأن النقص الذى كان يعانيه السـاسة الألمان ، خلال الحرب الكبـرى ، كان من أسباب هزيمة ألمانيـا ، ولابد أن يتلقوا دروسا فى السياسة العليا».

«فقمت بترجـمة هذا المقال ، وكان أول ما ترجمت من الفصـول الألمانية الجادة ، وأرسلته إلى المرحوم الأستاذ محمود عزمى ، وكان يشرف يومئذ على تحرير جريدة «مصر» لكى ينشره بها ، فقام بنشـره فى مكان بارز تحت العنوان السابق ، وكان مقالا قـويا ممتعا ، وأذكر أن ذلك كان فى سنة ١٩٢٠ ، وكـانت هذه أول محاولة منى للاتصـال بالصحافة وبداية ظهـور اسمى فى صحف العصر».

(٢١)

ونمضى مع ثالث المحاور المهـمة فى هذه المذكرات الحـافلة ، وهو محور إنجازات الأسـتاذ عنان فى الدراسات الأسبانية والمغربية فنراه يتحدث عن هذه الجهود بتواضع شديد ، وإن كان هذا التواضع لا يمنعه من تقرير حقيقة أن هذه الفترة كانت ألمع ما فى حياته العلمية فيقول:

«إنى أعـتقـد أن هذه الفتـرة الطويلة من دراساتى التـاريخيـة ، أو بعبـارة أخرى دراسـاتى الأندلسية التى كان مسرحها الأخص فى أسبانيا والمغرب ، هي ألمع ما فى حياتى العلمية. وقد بدأت هذه الفـتـرة بصدور الـطبعـة الأولى من كـتـابى «دولة الإسـلام فى الأندلس» فى سنة ١٩٤٣، وقد كانت محـاولة متواضعة ، ولـم أكن حين صدورها قـد وفقت إلى دراسة أى من المصادر الأندلسية المخطوطة التى ظفرت بالكثير منها فيما بعد».

وهو يذكر أنه لم يقم بزيارة أسبانيا إلا ابتداء من ١٩٥٠:

«وقد بدأت زياراتى لشبه الجزيرة الأسبانية فى سنة ١٩٥٠ ، بعد أن استقرت الأحوال عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية فدرست اللغة الأسبانية ، وقد بدأت بتعلمها بالمركز الثقافى الأسبانى بالقاهرة على يد معلمنا السنيور سواريس ، وكنا فصلا صغيرا محدود العدد».

ويشير الأستاذ عنان إلى فضل الأستاذة الأسبانية التى تولت تعليمه هذه اللغة فيقول:

«ولكنى مدين بدراستى الحقيقية وتقدمى فى تعلم الأسبانية إلى أستاذتى السيدة دونيا كارمن دى كامبوس ،حيث درست معها على مدى فترات طويلة خلال إقاماتى بمدريد ، وهى سيدة أندلسية الأصل ذات ثقافة عالية ، وقد درست الأدب الفرنسى فى باريس ، وقد كانت موظفة بمعهدنا المصرى بمدريد ، ثم أقيلت منه لبعض الوشايات ، فإلى هذه السيدة يرجع الفضل فى تقدمى الحقيقى فى اللغة الأسبانية وإجادتها دراسة وحديثا ، دون عيب فى النطق ، حتى انتهيت إلى إلقاء العديد من محاضراتى التاريخية بمعهدنا بمدريد باللغة الأسبانية ، وكان يشجعنى على ذلك ـ صديقى الدكتور حسين مؤنس أيام رئاسته لهذا المعهد الجليل».



ويشير الأستاذ عنان فى مذكراته ، على سبيل الإجمال ، (ثم على سبيل التفصيل) إلى رحلاته الدراسية إلى أسبانيا:

«وقمت من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٧٤ بأربع عشرة رحلة دراسية إلى أسبانيا ، وقمت بعشر رحلات إلى إقليم الأندلس زرت فيها الحواضر الأندلسية الشهيرة».



ويحرص الأستاذ عنان على أن يشير إلى أنه كان عصامى التمويل كما كان عصامى التعليم ، فقد تولى الإنفاق على رحلاته ولم يلتمس لها أى تمويل ، كما أنه كان حريصا على هذه الحرية إلى درجة أنه لم يكن ليقبل أية معونة:

«وأود أن أسجل بادئ ذى بدء ، أنى قمت بهذه الرحلات الدراسية كلها ، وغيرها ، إلى المغرب وإيطاليا وانجلترا ، والتى كلفتنى مبالغ طائلة خلال عشرين عاما ، قمت بها على نفقتى الخاصة ، ولم ألتمس بل ولم أكن لأقبل أية معاونة مادية من أية جهة حكومية أو أية هيئة علمية ، ضنا بحريتى فى البحث والتفكير ، وحرية قلمى ، التى كنت أضعها دائما طوال حياتى موضع التقديس ، واستطعت بحمد الله أن أحتفظ بها دائما ، وفى كل الظروف».

ونرى الأستاذ عنان وهو يلخص الأثر الذى أحدثته كتبه ودراساته فى التاريخ الأندلسى فى عبارة موجزة فى نهاية حديثه عن مجمل هذه الجهود حيث يقول:

«إن المتتبع لمراحل هذه الموسوعة فى التاريخ الأندلسى ، ومختلف وثائقها وإضافاتها المزيدة ، يدرك مدى الجهود المتوالية الشاقة التى بذلت فى تزويدها بهذه الكنوز الجديدة من الحقائق التاريخية ، تؤيدها المراجع والوثائق المخطوطة ، التى لبثت عصورا دفينة فى مراقدها المحفوظة ، وهى اليوم تنشر أضواءها النفيسة على جهود البحث الدائب الصابر الحثيث».

ونحن نلاحظ أن الأستاذ عنان دونا عن غيره من الدارسين والمتخصصين لا يصور الصراع فى الأندلس بين عرب وأسبان ، ولكنه يصوره بين مسلمين ونصارى ، أو بين أندلس مسلمة وأسبانيا نصرانية ، ونرى هذا المفهوم مسيطرا على كتاباته حتى فيما يتعلق بحديثه المجمل عن رحلاته فى هذه البلاد وهو يقول:

«وما قمت به من زيارة سائر قواعد أسبانيا النصرانية التى لها علاقة بتاريخ أسبانيا المسلمة، من حواضر قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة ، وجليقية ، وليون ، وأراجون ، ونبرة ، وقد استغرق هذا الطواف المستمر بأنحاء شبه الجزيرة الأسبانية زهاء أربعة أعوام من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٤ ، وكانت ثمرة هذا المجهود الكشفى الشامل ، إخراج كتابى «الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال».



ويحرص الأستاذ عنان على الحديث بالتفصيل عن دراساته الطبوغرافية والتاريخية لميادين المعارك والوقائع الحربية ، وهو يشير إلى أن هذه الدراسات الطبوغرافية أعطت دراساته التاريخية أبعادا مهمة أضاءت بعض المناطق الغامضة فى هذا التاريخ:

«وإلى جانب ذلك فقد قمت بدراسات طبوغرافية وتاريخية لعدد من ميادين المعارك والوقائع الحربية الأخرى التى اضطرمت بين الأندلس المسلمة وأسبانيا النصرانية ، لاسيما معركة الفتح الأولى بجبهة شريش ، ومعركة الصخرة ، أو كسوفادونجا ، التى صمدت فيها فلول القوط أمام المسلمين ، وكان فيها مولد المملكة الأسبانية النصرانية ، ومعركة الزلاقة بجبهة بطليوس ، ومعركة الأرك بجبهة سانتا ماريا دى الاركوس على مقربة من ثيوداد ريال ، ومعركة العقاب الكبرى فى وديان سبيرا مورينا ، وفى قرية سانتا إيلينا ، على مقربة من أبدة. كما زرت عددا كبيرا من أطلال الحصون الإسلامية القديمة ، وقد كان لهذا التجوال الشامل فى شبه الجزيرة الأسبانية ، ولهذه الدراسات التاريخية والجغرافية العميقة للمواقع والأطلال والآثار ، أكبر الأثر فى تكييف دراساتى التاريخية ، وفى إلقاء الضوء على كثير من نواحيها الغامضة».

(٢٢)

ويقدم الأستاذ محمد عبدالله عنان فى هذه المذكرات معلومات تفصيلية رائعة ودقيقة عن مجالات الدراسات الأسبانية ومكتباتها ومعاهدها ومجموعاتها وتاريخها وفهرستها ،وموقف الأسبان أنفسهم من الدراسات الأندلسية على مدى عشر صفحات ، وبوسع القارئ أن يعود إلى هذه المعلومات القيمة والدليل الحى ، ولكننا نعود مع الأستاذ عنان إلى تلخيص تجربته فى الدراسات الأندلسية فيقول:

«فى هذا الميدان الفياض بتراث المراجع والوثائق الأندلسية ، العربية والقشتالية ، عملت أعواما طويلة بحماسة وهمة ومثابرة ، لم يشبها أى ضعف أو تخاذل ، ولم أترك منها جهة أو مصدرا إلا عكفت على دراسته ، واستخراج نفائسه ، وكنت فضلا عن العمل فى هذه النواحى الرئيسية ، أطرق بعض الجهات الثانوية الأخرى كالأديار والكنائس والبلديات. فقد استطعت أن أحصل على صورة وثيقة مدجنية مهمة من بلدية بنبلونة ، وعلى صور من وثائق مدجنية عديدة من كاتدرائية سرقسطة ، ومن دير سانت كلمنتى بطليطلة ، وغيرها».



ويشير الأستاذ عنان إلى الميزة التى حققها من اتقانه للغة الأسبانية:

«وكان اتقانى يومئذ للغة الأسبانية ، التى بدأت دراستها قبل ذلك بأعوام طويلة ، يمدنى بتسهيلات كثيرة فى أسفارى وتنقلاتى واتصالاتى وبحوثى ، أينما ذهبت ، وأينما تجولت فى أنحاء شبه الجزيرة الأسبانية».



كما يشير إلى فضل معهد الدراسات الإسلامية المصرى وصديقه الدكتور حسين مؤنس:

«ولن أنسى أن أسجل هنا ما لقيته خلال دراساتى الطويلة فى أسبانيا ، من معاونة معهدنا المصرى بمدريد «معهد الدراسات الإسلامية». فقد أسدى إلىّ كثيرا من المعاونات لدى مختلف الهيئات العلمية ، وقد كنت أجد فى مكتبته الغنية عديداً من المصادر النفيسة العربية والأجنبية ، وقد لقيت بالأخص من صديقى وزميلى فى البحوث الأندلسية الدكتور حسين مؤنس ، الذى شغل منصب المدير لهذا المعهد الجليل أعواما طويلة ، والذى عمل بجهوده المتوالية على إغناء مكتبة المعهد وتزويدها بأهم المصادر الأندلسية العربية والأجنبية ، لقيت منه كل مودة وعون ومجاملة ، وقد كان يدعونى بصفة منتظمة لإلقاء محاضراتى بالمعهد ، وهو الذى شجعنى على إلقائها باللغة الأسبانية ، بعد أن كنت ألقيها بالإنجليزية والفرنسية».

(٢٣)

ويلخص الدكتور عنان نتائج بحوثه ودراساته الميدانية التى نشرت بعد هذا فى كتب قيمة يتحدث عنها بإعزاز وتقدير بالغين فيقول:

«وقد بدأت ثمار هذه الدراسات والبحوث تبدو فى كتبى الأندلسية منذ سنة ١٩٥٥ ، حيث ظهرت الطبعة الثانية من «دولة الإسلام فى الأندلس» ، ثم طبعته الثالثة فى سنة ١٩٦٠ ، ثم الرابعة فى سنة ١٩٦٩ ، وكل طبعة منها تضم وثائق وإضافات جديدة ، مستخرجة من مختلف المراجع والوثائق المخطوطة ، الأندلسية أو المغربية ، وقد كان أهم ما تضمنته هذه الطبعة الرابعة طائفة من الوثائق التاريخية المهمة ، استخرجت من قطعة كبيرة من كتاب «المقتبس» لابن حيان عمدة مؤرخى الأندلس».



وعند هذه النقطة يحدثنا الأستاذ عنان حديث العاشق الولهان عن ذلك الكتاب المخطوط الذى ساعده على توثيق معلومات طبعته الرابعة من كتابه الشهير:

«وقد وُجد هذا المخطوط ، وهو الوحيد فى العالم ضمن محتويات الخزانة الملكية ، وكانت لا تزال يومئذ حبيسة فى أماكنها بمدينة فاس ، وقد سعيت إلى الاطلاع على هذا المخطوط فسمحت لى سلطات الديوان الملكى بذلك ، وأحضرت إلىّ المخطوط من فاس لأطلع عليه بأحد مكاتب الديوان ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٥ ، وكنت أول من حظى باستعراض هذه القطعة النفيسة من مؤلف ابن حيان ، وهى قطعة ضخمة تقع فى مائة وثمانين ورقة كبيرة ، وكانت يومئذ قبل ترميمها فى حالة مؤسفة من التمزق والتلف ، وقد وصفت فى نهايتها بأنها السفر الخامس من «المقتبس» ، وتتضمن الحديث عن حوادث الثلاثين سنة الأولى من حكم عبد الرحمن الناصر ، وتورد لنا معلومات شائقة عن أحوال البلاط والوزراء والعمال فى تلك الفترة ، وبها طائفة من الوثائق السياسية والسلطانية المهمة ، مثل كتاب الناصر عن موقعة الخندق ، وصورة الأمان الذى أصدره لمحمد بن هاشم أمير سرقسطة ، والأمان الذى أصدره للثائر عمر بن حفصون عقب الصلح معه ، وصور المرسوم الذى أصدره عن اتخاذ لقب الخلافة ، وغيرها من الوثائق المهمة. وقد نقلتها جميعا مع شذور وحوادث مهمة أخرى ، وكانت القطع الممزقة تتساقط مع المخطوط بين يدى ، وقد لبثت مدى أسبوعين كاملين لنسخ نفائس ما يقع لى ، وأدرجت هذه الوثائق النفيسة كلها فى الطبعة الرابعة من «دولة الإسلام فى الأندلس» الصادرة فى سنة ١٩٦٩ ، وقد نشر هذا الجزء الضخم من تاريخ ابن حيان أخيرا بمعرفة المعهد الأسبانى العربى بمدريد ، وذلك فى سنة ١٩٧٩».

ويشير الأستاذ عنان بالوجد وبالحب ذاته إلى مصادر أخرى وجدها فى خزانة القرويين الكبرى:

«وقد انتفعت قبل ذلك بدراسة بعض قطع مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان وعثرت فى خزانة القرويين الكبرى بمخطوطة تتضمن شذرات مهمة من السفرين الثانى والثالث ، وكانت فى حالة يرثى لها من التلف ، وقد نشرت هذه القطع فيما بعد بمعرفة صديقى الدكتور محمود على مكى».



كذلك يحرص الأستاذ عنان على إثبات أنه التزم بالمنهج ذاته فى الطبعات التالية من كتبه الأخرى ، سواء «دول الطوائف» أو «عصر المرابطين والموحدين»:

«وحدث شىء من ذلك فى كتاب «دول الطوائف» فى طبعته الأولى سنة ١٩٦٠ ، ثم فى طبعته الثانية سنة ١٩٦٩ ، وهو العصر الثانى من «دول الإسلام فى الأندلس»، ثم فى كتابى الكبير «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس» (سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) ، وهو العصر الثالث من دولة الإسلام فى الأندلس».



ويتحدث الأستاذ عنان بفخر عن الأيام الأربعة الكاملة التى قضاها فى دراسة طبوغرافية الأرض التى شهدت موقعة «العقاب» التى شهدت انتصار الأسبان على جيوش الموحدين ، وقد وصل الأمر فى استقصائه لهذا الموقع أن حفر بيديه حتى عثر على أربعة من أسهم الخيل:

«وقد امتاز هذا الكتاب بالأخص بدراسة طبوغرافية عميقة لموقعة من أهم المواقع التى وردت به ، وهى موقعة العقاب الحاسمة التى اضطرمت بين الجيوش الموحدية والجيوش النصرانية فى سنة ٦٠٩هـ ـ ١٢١٢م ، وهزم فيها الموحدون هزيمة ساحقة ، وذلك فى وديان سييرا مورتيا بجوار قرية سانتا إيلينا الواقعة على مقربة من أبرة ، وقد أنفقت فى هذه الدراسة أربعة أيام كاملة فى المواقع التى اضطرمت فيها هذه الموقعة الخطيرة بمعاونة زميلى السنيور سالباتور الدليل العارف بدقائق هذه الناحية ، وصعدت إلى قمة أطقال حصن سلبطرة ، الذى كان فاتحة الموقعة ، وصعدت إلى أعلى جبال سييرا مورتيا حيث كانت تعسكر الجيوش النصرانية ، وتجولت فى الوادى المجاور حيث كانت تعسكر الجيوش الموحدية ، وحفرت بيدى فى هذا المكان بحثا عن أسهم الخيل ، فعثرت بأربعة منها أبرزت صورتها فى كتابى ، وقد لبثت خلال هذه الرحلة الدراسية بضعة أشهر فى مدريد ، كتبت فيها جزءا كبيرا من كتاب «الموحدين» ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٣».

كما يشير الأستاذ عنان إلى نشره وثيقة تسليم غرناطة فى كتاب «نهاية الأندلس»:

«وأخيرا حدث نفس الشىء فى كتاب «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» فى طبعته الثانية (١٩٥٦) ثم الثالثة (١٩٦٦)، وهو العصر الرابع والأخير من «دولة الإسلام فى الأندلس». وقد تضمنت هذه الطبعة صور عدد من الوثائق التاريخية الجديدة، معظمها مستخرج من دار المحفوظات الأسبانية العامة فى «سيمانقاش، ومنها آخر صفحة من معاهدة تسليم غرناطة، وقد ظهرت بها توقيعات الملكين الكاثوليكيين وسكرتيرهما فرناندو دى ثغرا».

وفى خضم كل هذا الحديث عن هذه الملاحم البحثية والدراسات المستفيضة، لا يفوت الأستاذ عنان أن يشير بالاسم إلى فضل كل مستشرق من المستشرقين الذين عمل معهم وما تتميز به مدرسته العلمية، وهو يقدم الشىء ذاته عندما يستعرض خلاصة تجربته فى عدد من المكتبات الأوروبية المهمة بما فيها مكتبة الفاتيكان بروما، ومكتبة المتحف البريطانى، والمكتبة البودلية (اكسفورد) بانجلترا، ومكتبة باريس الوطنية، ومكتبة فيينا الوطنية، ومكتبة ليدن الهولندية، وغيرها.

(٢٤)

ولا يقف الأستاذ عنان فى حديثه عن الأندلس وأسبانيا عند الماضى، ولكنه يمتد إلى الحاضر أيضا. ويحرص الأستاذ محمد عبدالله عنان على تلخيص رأيه فى الشعب الأسبانى والحضارة الأسبانية على مدى صفحات طوال نجتزئ بعض ما فيها من أفكار، وبخاصة تلك التى يتحدث فيها عن بقاء الطابع العربى متغلبا على أسبانيا:

«وبالرغم من كون أسبانيا تعتبر من الناحية الجغرافية دولة أوروبية، فإنها تتميز بسمات حضارية خاصة بها، وترجع إلى جانب الأصول الرومانية والقوطية، إلي أصول عربية. فأنت ترى وتشعر بكثير من الخواص الحضارية العربية والإسلامية، تبدو فى طبائع الأمة الأسبانية، وفى حياتها العامة والخاصة، لاسيما فى قسمها الجنوبى ـ الأندلس ـ الذى طال فيه حكم الإسلام نحو ثمانية قرون، وكذلك تشعر وتجد فى اللغة الأسبانية ذاتها كثيرا من الكلمات التى ترجع إلى أصول عربية».



ويحرص الأستاذ عنان على التزام الحياد ـ ما أمكنه ذلك ـ فى حديثه عن الشعب

الأسبانى، فلا هو ينحاز إليه بحكم حبه لدراساته ، ولا ضده بحكم أسفه على الماضى العربى الإسلامى فيه ، وإنما هو حريص على أن يقدم حكما موضوعيا يعطى للأسبان فيه حقوقهم المادية والمعنوية على حد سواء. فهو يشير إلى أنه شعب متوسط فى التقدم ، لكنه فخور بتراثه، كما أنه فى الأدب والفنون لا يقل عن الدول الأوروبية الأخرى:

«إن الشعب الأسبانى الحالى شعب متوسط الرقى ، متوسط الثقافة ، متوسط المستوى الاجتماعى والاقتصادى. وهو مع ذلك شعب فخور بتراثه وتاريخه ، وما تحويه بلاده من المدن العريقة والصروح والكنائس والقصور والآثار الفخمة. وهو فى الأدب والإنتاج الفكرى يتمشى مع باقى الدول الأوروبية إلى حد كبير».



ويحرص الأستاذ عنان على ألا تفوته الإشارة إلى تميز الفنون الأسبانية:

«هو فى الفنون يحتل مكانة ممتازة ، ولاسيما فى التصوير والموسيقى والرقص والمسرح».

«وللفنون الأسبانية الموسيقية والغنائية الراقصة طابع خاص ، يختلف عن الطابع الأوروبى العام فى هذا الميدان ، حيث تمتزج الموسيقى والأغانى الأسبانية بعناصر ومؤثرات رومانسية ، وأندلسية ، وموريسية ، وغجرية ، يسبغ عليها هذا الطابع الخاص الذى لا يوجد فى التراث الموسيقى والغنائى الأوروبى».



ويتحدث الأستاذ عنان عن الخصائص النفسية والاجتماعية للشعب الأسبانى من واقع معايشته له فيقول:

«والشعب الأسبانى فى مجموعه شعب متواضع ، طيب القلب ، قنوع ، شكور للصنيعة ، وقد بلوت منه هذه الصفات فى كثير من اتصالاتى ومعاملاتى. وهو شعب مرح يحب الحياة ويحاول أن يستمرئها ويستمتع بها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وتغص المدن الأسبانية ، وفى مقدمتها مدريد ، بالمقاهى والبارات ، وتمتاز مدريد بنوع خاص عن أية عاصمة أوروبية أخرى بما يوجد بها من المقاهى الفخمة الجذابة ، الأسبانى يحب حياة المقهى ، وينفق فيه معظم أوقات فراغه».



ولا يفوت الأستاذ عنان أن يشير إلى ما استقر فى يقينه ووجدانه من التعصب الدينى عند الأسبان:

«والشعب الأسبانى شعب متدين ، بل فى الواقع شعب متعصب من الناحية الدينية ،

وتحتوى أسبانيا على أضخم وأكبر عدد من الكنائس تحتويه أية دولة أوروبية ، وقد أنفق الأسبان أيام عصور المجد والنهضة كل ما حصلوا عليه من ذهب العالم الجديد فى إنشاء الكنائس والصروح الفخمة ، وتغص الكنائس أيام الآحاد بزوارها من الرجال والنساء ، وتحتفل أسبانيا بكثير من الأعياد الدينية ، وقد تبلغ هذه الحفلات الدينية العامة أكثر من خمسين عيدا فى السنة».



ويشير الأستاذ عنان ـ فى موقع تال ـ إلى طبيعة الشعب الأسبانى فى ظل الحكم الدكتاتورى

«والشعب الأسبانى يفضل الحياة السلمية الهادئة فى ظل نظام يتضمن العمل ، ولقمة العيش ، وهكذا كانت سمته فى ظل نظام فرانكو الدكتاتورى ، الذى استمر زهاء أربعين عاما».

(٢٥)

ولا يهمل الأستاذ عنان الحديث عن المرأة الأسبانية ، وهو يتحدث بالتفصيل عنها وعن مكانتها فى المجتمع ، وجمالها ، وتكوينها الجسمى ، وعناصر الجمال فى الأسبانيات ، وتعامل هؤلاء الفتيات مع جمالهن:

«ولابد لى أن أعطف هنا على ذكر الفتاة الأسبانية ، فهى تشغل فى المجتمع الأسبانى مكانة مرموقة ، وهى تشتهر بجمالها وسحرها وخفة روحها ، ولهذا الجمال طابع خاص ، فهى ليست كمعظم زميلاتها الأوروبيات باهتة اللون تغلب عليها الشقرة ، بل بالعكس تغلب عليها السمرة والخمرة ، ومن النادر أن ترى فتاة أسبانية شقراء. ثم إن الفتاة الأسبانية متوسطة القد ، يغلب عليها القصر ، ويندر أن تجد فى أسبانيا فتيات يغلب عليهن الطول مثلما تجد مثلا فى انجلترا وألمانيا والسويد. وتمتاز الأسبانية بجمال شعرها الأسود أو القسطلى الداكن. وفى أسبانيا ترى أجمل الشعور وأجمل الأعين السوداء والعسلية ، وأجمل الأهداب ، وتحافظ الأسبانية بمنتهى الحرص على شعرها الطويل الرائع ، ويقص كثير من الفتيات شعورهن من الوراء على مثل ذيل الحصان. وقد كانت الأسبانية حتى عهد قريب شديدة المحافظة على ملابسها».

ويخص الأستاذ عنان المرأة الأندلسية بحديث خاص على نحو ما نتوقع ، وهو يرى أن المرأة الغرناطية هى أجمل نساء الأندلس:

«فالمرأة الأندلسية ، أعنى فى جنوب أسبانيا ، مشهورة بجمالها ، وهى تغلب عليها السمرة، ويبدو هذا الجمال بصفة خاصة فى النساء الغرناطيات ، فهن أجمل نساء الأندلس. وهن يتميزن بسحنة تكاد تكون عربية ، ويشتهرن بالتحفظ والحياء ، ومن الواضح أنهن يحتفظن بكثير من آثار أسلافهن نساء الأندلس المسلمة وشمائلهن».

(٢٦)

ويحرص الأستاذ عنان على ذكر تفاصيل دوره المهم فى فهرسة الخزانة الملكية المغربية ، وهو يشير إلى أنه تلقى الدعوة لهذه المهمة من جلالة الملك الحسن الثانى نفسه ، وأنه هو الذى اختار طبيعة العمل الذى يمكن أن يقوم به ، وقد آثر أن يضع فهرسا علميا مقارنا لقسم المخطوطات التاريخية:

«هذا وكنت قد دعيت فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ من قبل صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى، ملك المغرب ، للعمل بالخزانة الملكية المغربية ، فقبلت الدعوة ، واخترت أن تكون مهمتى بالخزانة الملكية وضع فهرس علمى مقارن لقسم المخطوطات التاريخية ، وهو يحتوى على قرابة ألف مخطوط ورسالة ، وبه عدة من المخطوطات الوحيدة والنادرة».



وعلى النقيض من حديث الأستاذ عنان عن المكتبات الأوروبية الذى يفيض بالإعجاب والتقدير والثناء على التنظيم والعناية ، فإننا نجد حديثه عن الخزانة الملكية المغربية مفعما بخيبة الأمل تجاه الإهمال الذى كانت تلقاه هذه الخزانة ، وهو يشير إلى أكبر مأساة تواجهها مكتباتنا العربية وهى نقص العنصر البشرى ، ومع أنه كان يعرف هذه الخزانة المغربية من قبل إلا أنه فجع لما وجده من انحطاط المستوى المهنى والمعنوى على حد تعبيره:

«وكنت أعرف الخزانة الملكية من قبل ، إذ كنت أقوم فيها من آن لآخر بدراسة المخطوطات التى تتعلق ببحوثى ، ولم تكن لى بالقائمين بالعمل فيها أية صلات خاصة ، فلما مثلت بها للقيام بمهمتى الجديدة ، واتصلت بطاقمها الملحق بها ، هالنى ما وجدت عليه أولئك العاملين من انحطاط المستوى المهنى والمعنوى ، فهم جميعا ، ما عدا اثنين أو ثلاثة ، لا يعرفون شيئا فى أعمال المكتبات المنظمة ، ولا يعرف أحدهم أية لغة أجنبية معرفة مجدية».

ويشير الأستاذ عنان إلى أن تحية الملك الحسن له كانت بمثابة الدافع الدائم له للاستمرار فى هذا العمل:

«ولم يكن بالخزانة أى فهرس علمى أو دولى ، وكان أشد ما يؤلم نفسى أن أشتغل فى هذا الوسط الذى لا يليق وجود مثله بالخزانة الملكية ، بيد أنه لم يكن ثمة مجال للتراجع ، وقد لبيت دعوة صاحب الجلالة ، وقد حيانى جلالته حينما تشرفت بمقابلته فى فاس فى بداية مقدمى إلى المغرب ، بقوله موجها كلامه إلىّ بين وزرائه ورجالات بلاطه: «لقد بحثنا عمن يقوم بهذا العمل ، فلم نجد إلا عبدالله عنان» ، وكانت هذه التحية الملكية الرقيقة شعارى طوال الوقت».



وعلى نحو ما هو معتاد فى بلادنا العربية فقد أنجز الأستاذ عنان مهمته دون أن يتلقى المكافأة المالية المجزية ، أو غير المجزية ، وإن كان قد حصل على وسام الكفاية الفكرية الذى قلده له الملك بنفسه.. ولا يجد الأستاذ عنان حرجا من أن يروى شكواه من هذا الموقف:

«وقد أتممت مهمتى بالخزانة الملكية فى أوائل سنة ١٩٨١ ، وكان السيد مدير الخزانة قد اقترح بهذه المناسبة على مدير الديوان الملكى ومستشار صاحب الجلالة الأستاذ أحمد بن سودة ، أن يتفضل صاحب الجلالة بالإنعام علىّ بوسام علمى ، وكذلك بمكافأة مالية تقديرا لجهودى فى خدمة الخزانة الملكية ، ووافق صاحب الجلالة على هذين الالتماسين ، ودعيت إلى مراكش حيث كان يقيم جلالة الملك ، وحضرت مع باقى المدعوين من رجال الدولة ليلة المدائح النبوية فى يوم ١٨ يناير سنة ١٩٨١ ، وفى اليوم التالى ، وهو يوم الاحتفال بذكرى المولد النبوى المعظم ، تشرفت بمقابلة صاحب الجلالة ضمن رجال الدولة ، وتفضل جلالته بمنحى وسام العلم «الكفاية الفكرية» ، وقلدنى إياه بيده الكريمة ، ولكن تعذر حصولى على المكافأة المالية التى كان قد وافق جلالته على منحها بالرغم من انتظارى بالمغرب وقتا كافيا.. وقيل لى أخيرا فى الديوان إن هذه المكافأة سوف ترسل إلىّ بعنوانى بالقاهرة ، ولكن لم يرسل إلىّ بشىء من ذلك رغم مرور وقت كاف على هذا الوعد».

(٢٧)

وعلى الرغم من حرص الأستاذ عنان على الابتعاد عن الحزبية والتحزب إلا أن الشأن الوطنى كان حاضرا فى مخيلته ووعيه وكتاباته طيلة الفترة التى عمل فيها بالصحافة ، وهو يشير إلى نجاحه فى بعض الحملات الصحفية التى قادها بقلمه من خلال جريدة السياسة:

«وكان لى بالأخص فى شئون الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط حملات شدائد ، كان لها تأثيرها العملى ، وأذكر من ذلك أننى عقب وفاة المسيو ستولوف القاضى الروسى بالمحكمة المختلطة (سنة ١٩٣٧) ،ومحاولة اختيار قاض أجنبى مكانه ، أننى نشرت فى السياسة مقالا شديد اللهجة بينت فيه أن روسيا السوفيتية لم تعد لها أية امتيازات أجنبية ، وأن مصر لم تعترف بها ، وأن مكان القاضى المتوفى يجب أن يخرج عن سلطان القضاء المختلط ، إلى نطاق السيادة المصرية ، وأنه من حق مصر أن تعين قاضيا مصريا فى هذا المنصب القضائى الذى آل إليها بفقدان روسيا البلشفية لامتيازاتها القديمة ، وقد كان لهذا المقال أثر عميق فى الأوساط القضائية ،وكان من أثره أن تراجعت محكمة الاستئناف المختلطة عن محاولتها ، وعينت الحكومة المصرية قاضيا مصريا مكان القاضى المتوفى هو المرحوم عبد السلام ذهنى».

(٢٨)

كذلك نرى روعة ودقة حكم الأستاذ محمد عبد الله عنان على ثورة ١٩١٩ على الرغم من أنه لم يكن وفديا:

«كانت أعظم ثورة قامت بها مصر الحديثة ، وأنها لم تكن ثورة طبقية ، أو مقتصرة على طوائف معينة من الأمة ، بل كانت ثورة وطنية عامة شملت طبقات الشعب المصرى بأسرها من الفلاح ورجل الشارع إلى أعلى الطبقات الراقية والميسورة ، والطبقات المثقفة والمفكرة على اختلاف أصنافها ، وجمعت هذه الطبقات كلها فى صعيد واحد حول المطالب الوطنية ، وكانت غايتها الأساسية والكبرى تحرير البلاد من ربقة الحكم الأجنبى ، وتحقيق استقلالها ، وسيادتها القومية ، وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها».



بل إن الأستاذ عنان ينسب إلى هذه الثورة كل النجاحات التى تحققت بعد هذا فى مراحل الاستقلال:

«وما من شك فى أن ثورة سنة ١٩١٩ كانت هى أول خطوة حقيقية وعملية فى تحقيق هذا الهدف ، وكل ما وقع بعد ذلك من مراحل الاستقلال ، كان من نتائجها الإيجابية».



ويفرق الأستاذ عنان بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢ مؤكدا على أن ما حدث فى ١٩٥٢ لم يكن إلا انقلابا عسكريا فحسب:

«وما يجب التنويه به فى صدد المقارنة بين هذه الثورة الوطنية الكبرى ، وبين ما وقع فى سنة ١٩٥٢ ، هو أن الانقلاب الذى وقع سنة ١٩٥٢ كان انقلابا عسكريا فقط ، ولم يكن ثورة شعبية ، ترتب عليه قيام الدكتاتورية العسكرية بمصر ، وإبعاد العناصر المدنية التى تتولى حكم الشعوب عادة عن الحكم ، وإفنائها بالتدريج حتى يبقى للعسكرية سلطانها المستمر الذى لا ينازع فيه. فى ظل هذه الدكتاتورية العسكرية ، وقع ما يسمى بالثورة الاشتراكية التى تقوم على نهب أموال طبقات وإعطائها لطبقات أخرى ، وتقرير سيادة الكتلة العاملة بطريقة دستورية ، وإثارة بغض الطوائف بذلك بعضها لبعض بصورة حادة ، لم تعرفها مصر من قبل قط ، حيث كانت سائر طبقات الأمة وطوائفها تعيش فى مودة وتحاب ، وتحفظ كل منها للآخرى مكانتها وحقوقها وامتيازاتها».

(٢٩)

وعلى صعيد الاسهامات الثقافية يعتز محمد عبد الله عنان بانضمامه إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر وإسهاماته فيها ، وهو يتحدث فى فقرات مطولة عن تكوين هذه اللجنة ونشاطها المثمر البناء إلى أن يقول:

«وقد تولت اللجنة نشر بعض كتبى: «مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام» ، «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى» ، «تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين» ، المترجم عن الألمانية ، ولكنى لم أتابع نشر كتبى بها ، لما آنسته من ضعف جهودها فى الطبع والتوزيع».



ويؤكد الأستاذ عنان على الدور الذى لعبته اللجنة بمنشوراتها وندواتها على حد سواء:

«وكان للجنة أثرها البارز فى سير الحركة العلمية والأدبية فى نصف القرن الماضى ، بما كانت تنشره من الكتب والمجموعات الأدبية والفنية ، وبما كانت تعقده من ندواتها الأدبية ، وكانت هذه الندوات تعقد بانتظام فى مساء كل خميس ، ويجتمع فيها رهط من العلماء والأدباء من أعضاء اللجنة وغيرهم من الزملاء والأصدقاء ، وضيوف مصر من أدباء البلاد العربية ، ويجرى تبادل الأفكار والأحاديث الأدبية من كل لون».



ويشير الأستاذ عنان إلى ما عانته هذه اللجنة فى عهد الثورة على الرغم من استبشار مجموع أعضائها بهذا النظام العسكرى الجديد (فيما عداه هو بالطبع):

«وقام النظام العسكرى الجديد ، كانت الأوضاع والأحوال الجديدة تشغل حيزا كبيرا من مناقشات الندوة ، وكان التفاؤل بالعهد الجديد وأحواله يغلب على معظم الإخوان من أعضاء اللجنة ، ولاسيما فى الأعوام الأولى ، وكنت وحدى أخالف هذه النزعة ، وأبدى تشاؤمى وتخوفى من تطور الأحوال الجديدة ، والإخوان جميعا يقابلون تشاؤمى بالاعتراض واللوم ، فلما مضت الأيام أخذ معظم الإخوان يغير رأيه ، ويبدون موافقتهم لموقفى وآرائى ويقولون: «عنان كان عنده حق فى تشاؤمه».. «عنان كان أبعد منا نظرا.. إلخ» ، ثم أخذت هذه المناقشات السياسية بطبيعتها تتضاءل ، ويعدل عنها لما كانت تثيره عندئذ من حدة المناقشات وعنفها ، وأخذت مناقشات الندوة طابعها الأدبى المعتاد».



ويشخص الأستاذ عنان السبب فى تصفية أعمال اللجنة رادا هذا السبب إلى القوانين العمالية التى لم تكن تسمح بالجدية فى العمل:

«وكان للجنة دار خاصة وبها مطبعة كبيرة تقوم على طبع كتبها وغيرها من الكتب العلمية، وكانت تسير بخطوات ناجحة لولا ما توالى فى أواخر عهدها من مشاكل العمال التى أثارتها التشريعات العمالية المغرضة ، والتى ذهبت فى التحيز للعمال والإغداق عليهم إلى حدود غير معقولة ، والتى كادت أخيرا تشل كل شىء فى نشاط اللجنة ، وتستنزف كل مواردها ، ومن ثم فقد اضطرت اللجنة إلى أن تتصرف فى دارها وفى مطبعتها بالبيع البخس ، تخلصا من هذه المشاكل ، وهى مازالت تعمل حتى اليوم بالرغم من ضعف مواردها على نشر كتبها القديمة ونشر القليل من الكتب الجديدة ، ويجرى اتجاه البقية الباقية من أعضائها إلى تصفيتها تصفية نهائية ، والله يعمل ما فيه الخير».

(٣٠)

وفى مقابل هذا الاعتزاز الشديد بمشاركته فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ومستواها وأدائها ، نرى تحفظا شديدا من الأستاذ عنان على مستوى الجامعة حين قدر له أن يعمل بالتدريس فى معهد الصحافة منذ ١٩٤٠ وحتى ١٩٤٨ ، وهو يتحدث عن سعادته الشخصية بالعمل فى هذه المهمة لكنه يقرن هذا بأسفه الشديد على مستوى الأساتذة الجامعيين:

«ولقد كنت على الرغم من المتاعب التى ألقاها فى التدريس بالمعهد ، وضآلة المكافآت التى أحصل عليها ، كنت سعيدا بهذه المهمة ، التى اتصلت خلالها بأفواج لامعة من الشباب

الجامعى ، ووقفت خلالها على الكثير من أحوال كلية الآداب وشئونها ، وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأذكر أنه كان يقوم بالتدريس بكلية الآداب أساتذة ليست لهم مؤهلاتى الدراسية والعملية ، ولم يكن بعضهم يتجاوز فى تعليمه المرحلة الابتدائية ، ومع ذلك فقد تولوا التدريس ، ورقوا إلى عمادة الكلية ، بحكم توليهم بعض الوظائف الكبيرة من قبل ، وبحكم الروتين والمحسوبية ، على أنى لم أكن آسفا على مثل تلك الحالة ، ولا غيرها من الأحوال الوظيفية ، لأنى أدركت، خلال عملى فى الوظيفة الحكومية مبلغ ما ينطوى عليه الوسط الوظيفى من الوضاعة والانحلال الأخلاقى والأدبى ، والركود الفكرى وانعدام الضمير والشعور بالمسئولية ، وهو ما يبدو اليوم ، و أنا أكتب هذه السطور بعد ثلاثين عاما من ترك الوظيفة الحكومية ، فى أشد صوره بالإدارات الحكومية».

(٣١)

ونأتى إلى ما يرويه صاحب المذكرات عن فترات تكوينه ونحن نلمح المؤرخ المحقق وأسلوبه وهما يكادان يتقمصان شخصية محمد عبد الله عنان فى كل ما يكتب عن تاريخ حياته ونشأته وتعليمه ، ولنقرأ على سبيل المثال ما يرويه فى بداية مذكراته عن تاريخ مولده:

«كان مولدى ببلدة بشلا مركز ميت غمر دقهلية ، فى السابع من يوليو سنة ١٨٩٦ (١٣١٤هـ) ، وفقا لما هو مقيد بالدفاتر ، التى كان يحررها يومئذ عامل التليفون ، وفى سنة ١٨٩٨ ، وفقا لشرح المرحومة والدتى ، وذلك أن مولدى كان موافقا لحادث مرور أول قطار بقريتنا من قطارات شركة الدلتا ، وقد كان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٨ ، هذا ربما كان رقم القيد بدفتر الميلاد ، وهو رقم ٨ ، قد كتب بصورة محرفة ، فقرئت ٦ ».

ونطالع الأسلوب نفسه أيضا حين يتحدث الأستاذ محمد عبدالله عنان فى مذكراته عن تاريخ مولد والديه:

«وكانت أمى هى ابنة عمة أبى ، وقد ولدا ، حسبما علمت من مؤرخ الأسرة عمى المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب العنانى ، معا فى سنة ١٨٧٤ ، وفقا لتعريفه [أى تعريف عمه مؤرخ العائلة] «السنة التى ولد فيها الخديو عباس الثانى» (أقول [الضمير للأستاذ عنان]: وكذلك مصطفى كامل)».

(٣٢)

ومما تتميز به هذه المذكرات حرص صاحبها الأستاذ عنان على تسجيل المساكن التى سكنها، سواء مع أسرته فى نشأته ، ومع أسرته الصغيرة بعد زواجه وهو يفعل هذا بدقة شديدة ووصف جغرافى محقق لمواقعها وطبائعها ، والمذكرات حافلة بمثل هذا الوعى الدقيق بالجغرافيا والتاريخ.

بل إن محمد عبد الله عنان يصل فى إدراك تميزه بهذا الوعى بهذين العلمين [الجغرافيا والتاريخ] إلى تلمس الأصول الأولى لتفوقه فيهما وفى الدرجات المرتفعة التى أحرزها فيهما:

«حصلت على شهادة البكالوريا فى سنة ١٩١٤ ، وكان ترتيبى فيها الرابع عشر ، وحصلت فى الجغرافيا على النمرة الكاملة ، وهى ١٥ ، وفى التاريخ على ٢٤,٥ من ٢٥ ، وكان هذا مؤذنا بما حدث فيما بعد من تطور اتجاهاتى الدراسية العملية».



وعلى النحو نفسه نرى الأستاذ عنان حين يستعيد ذكرياته عن «طبائعه» فى فترات التكوين وعلاقة هذه الطبائع بما نما فى عقليته بعد هذا من قدرات علمية راقية فى التاريخ والتأريخ ، ولنقرأ على سبيل المثال قوله:

«وكنت خلال دراستى فى مدرسة العقادين ، وخلال مرورى المستمر فى الطريق الرئيسى لمدينة القاهرة المعزية ، أتأمل الآثار الفاطمية والسلطانية بإعجاب ، وأتردد على الجامع الأزهر، حيث كان أصغر أعمامى المرحوم الشيخ على العنانى لا يزال مجاورا به».



ويصل الأستاذ عنان فى وصف هذه الرحلات القصيرة إلى أن يقول:

«وكانت هذه الزيارات تزيدنى حبا فى الجامع الشهير وإعجابا به وبمناظره التقليدية ، ولاسيما حلقاته العلمية المختلفة التى كانت تعقد بين أعمدته ، وقد أصبحت اليوم أثرا من آثاره».

(٣٣)

ونرى صاحب هذه المذكرات وهو يتلمس مصادر القوة فى عقليته وتفكيره فى كثير من مواضع مذكراته ، وهو يتحدث عن طفولته على سبيل المثال فيقول:

«وأود أن أقول هنا إنى أشعر شعورا قويا بأنى اكتسبت بالتعليم فى الكتّاب وفى المدرسة الأولية ، حصيلة طيبة من الخط واللغة ، وإنى اكتسبت من حفظ بعض سور القرآن حصيلة طيبة من النطق العربى السليم ، والتمكن من القراءة الجيدة ، والإملاء الصحيح ، وذلك على مستوى يندر أن يصل إليه تلاميذ المدارس الابتدائية فى سنى دراستهم الأولى ، وكان ذلك من عوامل تفوقى فى دراستى الابتدائية فى اللغة العربية باستمرار».



كذلك نرى صاحب المذكرات يشير إلى المزية الهائلة التى تحققت له عند دراسته العلوم المختلفة فى المرحلة الثانوية باللغة الإنجليزية ، وهو يعبر عن عدم ارتياحه للانتقادات التى توجه إلى مثل هذا الأسلوب فى التعليم باللغات الأجنبية:

«وكان التعليم الثانوى فى مصر يومئذ تتولاه إلى جانب النظار الإنجليز ، طائفة من المعلمين الإنجليز ، يتولون تدريس اللغة الإنجليزية ، والتاريخ والجغرافيا ، والكيمياء ، والطبيعة، والرياضة أحيانا باللغة الإنجليزية ، وكان لذلك الوضع الذى كان ينتقده البعض يومئذ ، ويراه عدوانا على اللغة العربية ، ونوعا من الاحتكار الإنجليزى للتراث الثقافى المصرى ، أكبر أثر فى تمكين الطلاب من دراسة اللغة الإنجليزية وإتقانها ، بما لم يتمتع به بعد ذلك أى جيل من الطلاب المصريين».

ويردف الأستاذ عنان رأيه هذا بقوله:

«وأنا أشهد أننا حققنا من الدراسة باللغة الإنجليزية ثروة لغوية عظيمة ، ولم نشعر مطلقا أن تعليم العربية قد أوذى بأى نوع من أنواع الإيذاء ، أو ناله ضعف أو تقصير ، بل كنا بالعكس أقوياء فى اللغة العربية ، كما كنا أقوياء فى اللغة الإنجليزية».

(٣٤)

ونرى الأستاذ محمد عبدالله عنان حريصا على الإشارة إلى أنه تكلف فى دراسته من النفقات ما يوازى كل ثروة والدته ، وهو يجاهر برأيه فى أن يكون الإنفاق على التعليم بمثابة أمر طبيعى حتى لا يكون العلم والتعليم رخيصا ، هكذا يصرح الأستاذ بما قد لا نوافقه عليه ، ونعجب من أن يظل على عقيدته هذه بعدما رأى ما تتيحه الأمم الأوروبية من تيسير فى سبل التعليم وتمويل دراسة أبنائها له ، ولنقرأ ما يرويه عن تدبيره لتمويل نفقات تعليمه فى المرحلة

العليا حين آثر الالتحاق بمدرسة الحقوق رغم تكلفة التعليم بها على الرغم من الفرصة التى كانت متاحة أمامه فى مدارس عليا أخرى بالمجان:

«وكانت دراسة الحقوق فى هذا الوقت تكاد بنفقاتها الكثيرة ، تكون وقفا على الأغنياء وأولاد الذوات ، وقد كان الأمر كذلك فى الواقع ، وكانت مدرسة الحقوق هى المعهد الذى يخرج فيه الوزراء ، وأكابر الموظفين ، وكنت لذلك أتوجس من عجز والدى عن إمدادى بهذه النفقات ، وكان المرحوم والدى فى الواقع غير ملتصق بعمل منظم ، وكان قد اشتغل حسبما تقدم مدة بتجارة الأراضى فى الضواحى ، وكان ذلك يدر عليه مكاسب مجزية ، واستمر على ذلك حتى جاءت الأزمة المالية المرهقة فى سنى ١٩٠٦ و١٩٠٧ و١٩٠٨».



وبعد أن يصف الأستاذ عنان حالة والده المادية بالتفصيل يستأنف الحديث عن خطته التى انتواها من أجل تدبير نفقات تعليمه:

«والخلاصة أننى صممت على دراسة الحقوق أو الالتحاق بمدرسة الحقوق السلطانية ، كما كانت تسمى يومئذ ، ووضعت عينى على هذين الفدانين المتبقيين من ملك والدتى ، وأضمرت أن أقنع والدتى ببيعهما تباعا على أجزاء صغيرة تفى بمصاريف المدرسة ونفقاتى الخاصة ، وكانت مصاريف الدراسة يومئذ نحو خمسين جنيها فى السنة ، منها ثلاثون لمصاريف الدراسة ، والباقى رسوم المكتبة ، وأثمان الكتب ، ومقابل الغذاء أحيانا ، وهذا غير أجرة السكن والنفقات الشخصية ، ونفقات الانتقال إلى الجيزة ، حيث نقلت المدرسة بعد السنة الأولى من التحاقى بها».

«وقد نجحت فيما نويت ، وكانت بداية بيع الأطيان منذ السنة الثانية ، وقد حزنت والدتى أشد الحزن وبكت بكاء شديدا حينما أرغمها المرحوم والدى على بيع الفدان الأول ، ولكنها أدركت فيما بعد أنه لا مفر من الاستمرار فى إمدادى بنفقات الدراسة ، واقتنعت بأن تسلمنى ختمها لأوقع به على عقود البيع كلما لزم ، وكان المتسلط علينا فى الشراء جارنا الشيخ (فلان) تاجر الأقمشة بالبلدة ، وهو رجل فى منتهى الجشع والاستغلال ، وكنت مضطرا إلى معاملته لأنه هو الجار الملاصق ، وهو الوحيد الذى يقبل الشراء بهذه الصورة. وسارت الخطة فى طريقها ، ومضيت فى بيع الأرض تباعا قطعة فأخرى ، وكانت آخر قطعة قدمت للبيع بعد أن انتقلت إلى السنة الرابعة ، ولم يكن بينى وبين نوال الليسانس سوى بضعة أشهر».

(٣٥)

ونأتى بعد هذا إلى الشخصيات التى تحظى بثناء الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ومن أبرز هذه الشخصيات صديقه الدكتور حافظ عفيفى ، الذى تولى الوزارة عدة مرات والذى كان قبل ذلك رئيسا لمجلس إدارة جريدة السياسة ، والذى وصل إلى رئاسة الديوان الملكى فى نهاية عهد الملك فاروق ، وهو يتحدث عنه بتقدير شديد فى أكثر من موضع ، تبدأ بإشارته إلى بداية علاقته بالسياسة عن طريق تعريف صديقه الدكتور سيد شكرى له بالدكتور حافظ عفيفى [ومن الجدير بالذكر أن سيد شكرى كان طبيبا فى منطقة ميت غمر وزفتى ، ثم أصبح وزيرا للصحة فى اليوم الأخير قبل الثورة] إلى أن يقول:

«وكان ذلك فى أواسط سنة ١٩٢٤ ، وكانت هذه الصلة الأولى بينى وبين الدكتور حافظ عفيفى ، بداية لما أصبح فيما بعد صداقة العمر بينى وبينه ، وسرعان ما شعرت بما تنطوى عليه هذه الشخصية المصرية الفذة ، شخصية حافظ عفيفى ، من صفات ممتازة ، وأخلاق رفيعة ، ومواهب أدبية وفنية لامعة».

(٣٦)

كذلك يحظى الدكتور محمد حسين هيكل بمحبة الأستاذ محمد عبدالله عنان وتقديره وهو يتحدث عنه بصيغة أنه أستاذه على الرغم من أن فارق السن بينهما لم يكن إلى هذا الحد:

«وكنت أشعر أن هذه الرابطة الأدبية مما يقوى صلاتنا الصحفية ، هذا إلى ما كان يمتاز به الدكتور هيكل من رقة وأدب جم ، وحديث ممتع ومعارف واسعة».

وبعد ست عشرة صفحة من هذا الموضع يكرر الأستاذ عنان الحديث بالحياد والتقدير للدكتور هيكل ويشير إلى التقائهما معا بأمير الشعراء أحمد شوقى بك:

«أود أن أنوه بهذه المناسبة بما توثق بينى وبين أستاذى المرحوم الدكتور هيكل من صلات الود والمحبة خلال هذا العمل الصحفى المشترك فى السياستين اليومية والأسبوعية ، وقد كنا فى أحيان كثيرة ، ننصرف معا من دار السياسة فى وقت متأخر من المساء ، ثم نقصد إلى مقهى صولت بشارع فؤاد ، وكان منتدى الصفوة المختارة يومئذ ، حيث نلتقى هنالك بالمرحوم أمير الشعراء أحمد شوقى بك . وكان فى معظم الليالى ينتظر الدكتور هيكل ، بعد أن يكون

قد قضى سهرته فى إحدى دور السينما ، ليصحبه معه فى سيارته ، وقد كانا يسكنان يومئذ فى منزلين متجاورين بالعباسية ، وقد كانت عندئذ من الأحياء الأرستقراطية».



[وتحظى أسرة عبد الرازق (الأشقاء الثلاثة حسن ومصطفى وعلى) بثناء متصل من محمد عبدالله عنان على مدى صفحات كتابه ، ومن هذه المواضع ننقل للقارئ هذه الفقرة:

«وكان من آثار وجودى فى تحرير السياسة ، أن اتصلت فيمن اتصلت بهم ، بآل عبدالرازق: مصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عبد الرازق ، وكان مصطفى وعلى يكتبان فى السياسة من آن لآخر ، وكان أخوهما محمود باشا من قادة حزب الأحرار الدستوريين ، بل قائده الأول ، وكنت أتردد من آن لآخر مع الدكتور هيكل على منزل آل عبدالرازق الواقع خلف سراى عابدين ، وسرعان ما أدركت ما كانت عليه هذه الأسرة من العراقة والنبل ، وما كان عليه أولئك الأخوة الثلاثة من رفيع الخلال ، بل أستطيع أن أقول إنى لم أشهد بين الأسر المصرية العريقة أسرة تضارع آل عبد الرازق فى رقة الخلال ، وفى الكرم ، والأدب ، والتواضع ، ورحابة الصدر.

أذكر أنى كنت مع الدكتور هيكل ذات يوم فى حديقة منزل آل عبد الرازق ، وجاء السفرجى يقول: «تفضلوا الأكل جاهز» ، فقمت أستأذن الدكتور هيكل فى الانصراف ، فقال لى: «إلى أين؟» ، فقلت: «إنى لم أدع إلى الغداء» ، فقال: «وأنا كذلك لم أدع ، ولكن تقليد آل عبد الرازق أن يشترك دائما فى السفرة مَنْ وجد من الأصدقاء والزوار ، سواء كانوا من المدعوين أم لا».

ولقد توثقت علاقتى على مر الأيام بالأستاذين الكبيرين مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ، وكان الأستاذ على فى أواسط العشرينيات يشرف على إصدار مجلة شهرية ، تسمى مجلة «الرابطة الشرقية» تعنى بشئون الأمم الإسلامية الشرقية ، فدعانى إلى المساهمة فى تحريرها ، فاستجبت مغتبطا».]



كذلك يتحدث الأستاذ عنان باعتزاز عن صلته المبكرة بالمؤرخ عبد الرحمن الرافعى ويعده أستاذا له فى المحاماة فى شبابه وأستاذا له فى التاريخ:

«كانت المنصورة مركز نشاطه المهنى مدى أعوام ، وقد توثقت علائقى معه تباعا ، حتى غدا بمثابة أستاذى فى المحاماة ، كما غدا فيما بعد ، وهو أبرع مؤرخى العصر ، أستاذى فى التاريخ».

وتتضمن هذه المذكرات ثناء الأستاذ عنان على رئيس مجلس الشيوخ الشهير محمد محمود خليل بك ، وهو الرجل الذى لا يحظى بكثير من الثناء اللائق به ، ونحن نرى الأستاذ عنان يصفه بأنه كان «مستشارا بارعا ، جم الذكاء والأدب ، وكنت سعيدا بالعمل معه».

(٣٧)

ونرى الأستاذ محمد عبد الله عنان حريصا على أن يظهر اعتزازه بالمستر فرنس ناظر مدرسته الثانوية الخديوية (وهو نفسه الرجل الذى كان الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى يعتز بتقليده فى أدائه التربوى ، وقد درس الكردانى فى الخديوية حين كان ناظرها مستر فرنس، وكذلك كان الأستاذ محمد عبد الله عنان من قبله):

«وكان ناظرنا الإنجليزى المستر فرنس ، من خيرة رجال التعليم والتربية ، والأخلاق الرضية العذبة ، والحلم الوافر فى معاملة الطلبة. ومازلت أذكر شكله الوسيم ، بقوامه المعتدل الممشوق ، وشاربه الطويل الأحمر ، وكان يسكن بأسرته فى المنزل الصغير الواقع فى شرق ملعب الكرة المجاور للمدرسة ، وقد توفى وهو يقضى بقية حياته بعد إحالته إلى المعاش فى بلدة بانجلترا فى سنة ١٩٤٢ ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وقدمت تعزيتى يومئذ فى وفاته إلى أخيه الذى كان يومئذ مديرا للرقابة العسكرية بوزارة الداخلية».

كذلك يشير الأستاذ محمد عبد الله عنان ـ كما قرأنا من قبل ـ إلى ظروف معرفته بأحمد شفيق باشا ومساعدته له فى تنظيم مذكراته

(٣٨)

ويتحدث الأستاذ محمد عبدالله عنان باعتزاز وتقدير عن لقائه الأول بالأديبة مى زيادة ويقول:

«وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت لدى شفيق باشا لأول مرة بالآنسة مى زيادة ، ابنة الصحفى المعروف الأستاذ إلياس زيادة ، صاحب جريدة «المحروسة» ، وكانت يومئذ قد ذاعت شهرتها الأدبية ، وكانت فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، فتاة متوسطة الجمال ، تميل إلى السمرة ، ولكن السحر كان ينفث من عينيها ومن حركاتها وألفاظها ، وقد التقيت بها فيما بعد فى إحدى حفلات نادى القلم ، ثم توطدت بيننا أواصر مودة».

ويروى الأستاذ عنان فى موضع تال من مذكراته كيف توثقت علاقته بمى زيادة وكيف امتدت هذه العلاقة إلى لقاءات فى شقتها واتصالات تليفونية:

«التقيت بالآنسة مى زيادة لأول مرة لقاء عابرا فى حفل شاى لدى أحمد شفيق باشا ، ثم لقيتها بعد ذلك ببضعة أعوام فى إحدى حفلات عشاء نادى القلم ، وكان لهذا اللقاء أثر كبير فى تقديرى لهذه الآنسة الكاتبة الأدبية ، النابغة ، ورفيع خلالها ، وكنت أقرأ مقالاتها فى الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات باهتمام ومتعة ، ومضت على ذلك أعوام قبل أن تسمح لى الظروف برؤيتها والاتصال بها ، ثم كان هذا الاتصال لمناسبة أدبية لا أتذكرها ، وتوثقت بيننا الصلات الأدبية والفكرية تباعا ، وشعرت منها أنها تأنس باجتماعنا وأحاديثنا ، وكنا نجتمع دائما بشقتها الجميلة الملاصقة لجريدة الأهرام ، وكان ثمة بيننا كثير من النواحى والمعارف المشتركة وإجادة اللغات الأجنبية ، وكنا حين تعوق المشاغل اجتماعاتنا ، نتصل تليفونيا ونتبادل بعض الأحاديث ، واستمرت صلاتنا على أتم مودة وصفاء ، وتقدير متبادل».



ويشير الأستاذ عنان إلى بداية إحساسه باضطراب أحوال مى زيادة ، ويقدم تشخيصا لحالة مى على لسان الدكتور عانوس إخصائى الأمراض النسائية على أنه اضطراب عصبى مصاحب لبلوغ سن اليأس:

«ثم كان ذات يوم شعرت فيه بتغير أحوالها ، وتصرفاتها ، وكانت تمتنع عن الطعام ، فكنت أتضرع إليها أن تأكل ، وآكل معها أحيانا لأشجعها على تناول الطعام ، وعندئذ عرضت عليها أن أدعو لها طبيبا لفحصها ، وتقدير أسباب متاعبها فوافقت ، واستدعيت لهذه المهمة المرحوم الدكتور عانوس الاخصائى فى الأمراض النسائية ، فلبى مرحبا ، وقام بفحصها فحصا دقيقا ، ثم كتب لها بعض الأدوية وطمأنها ببعض العبارات ، ثم صحبته حين غادر شقتها وسألته على حدة عما انتهى إليه الفحص ، فقال: إن حالتها تنحصر فى أنها بلغت السن التى تختفى فيها بعض الأجهزة عند المرأة ، وتقع لها من جراء ذلك اضطرابات عصبية ، ويحسن بها أن تنتقل إلى مصحة خاصة يعتنى فيها بأمرها».



ويعترف الأستاذ عنان بعد هذا بأنه أخفى عن مى طبيعة مرضها ، مع أنه كان يرى حالتها تسوء يوما بعد يوم:

«ولم أقل لـ«مى» شيئا من ذلك ، ولبثت أتردد عليها للاطمئنان على صحتها ، ولكن

حالتها كانت تسوء يوما بعد يوم ، وأخيرا علمت أنها غادرت القاهرة وسافرت إلى موطنها الأصلى فى لبنان ، ولم أعرف ظروف هذا السفر ، ولا مَنْ تولى أمر اصطحابها».



ثم يروى الأستاذ عنان ما انتهى إليه علمه من مرضها وموتها فى بلادها:

«ثم سمعت فيما بعد أنها قد أصيب بعارض عقلى وأودعت مصحة للعلاج ، وقد رآها فيما بعد بعض الأصدقاء القدماء ، الذين زاروا بيروت على تلك الحالة ، وكان منهم صديقى المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكتب عن زيارته لها مقالا مؤثرا ، ذكر فيه أنه رآها وقد أبيض شعرها حتى صار لون الثلج ، وكان لذلك كله فى نفسى ألم ، وقد علمت فيما بعد أنها توفيت فى أكتوبر سنة ١٩٤١ ، عفا الله عنها ، وطيب ثراها ، وإنه ليسعدنى أن قد احتفظت ببعض رسائلها».

«هذا وقد تركت مى عددا من الكتب والرسائل الأدبية الممتعة ، منها: الجزر والمد ، وابتسامة ودموع (مترجم عن الألمانية) ، ظلمات وأشعة ، كلمات وإشارات ، وعائشة تيمور ، وهو من أمتع بحوثها».

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مذكرات الأستاذ عنان لا تتضمن صورة خطية لأى وثيقة إلا لرسالة من هذه الأديبة.

(٣٩)

ويصف الأستاذ محمد عبد الله عنان لقائه بالملك محمد الخامس عند زيارته للمغرب مثنيا على الملك وعلى نشاطه الوطنى وعلى زعامته الحقيقية حتى نال وطنه الاستقلال على يديه:

«... ولقد حظيت بهذه المناسبة برؤية صاحب الجلالة المرحوم المبرور الملك محمد الخامس، وسعدت بالاستماع إلى عبارات العطف والتقدير الكريمة ، وشعرت أننى أقف أمام ملك عظيم نبيل يؤمن بحقوق بلاده ، وقد شاء القدر أن يكون هو بطل استقلالها ، وأن يحقق بزعامته وفى عهده حريتها واستقلالها ، وقد أصدر لى جلالته فوق ذلك عن طريق مدير ديوانه خطابا يضفى فيه علىَّ شرف التكريم والتقدير للمحاضرات التاريخية».



كذلك يثنى الأستاذ محمد عبدالله عنان على ملك العراق الملك فيصل ورئيس وزرائه

نورى السعيد ، ومن النادر أن تجد فى الأدبيات المصرية مثل هذا الثناء على نورى السعيد الذى صور شيطانا لا لشىء إلا لأنه لم يرق لرجال الثورة وصحفييها:

«وكان أول من سعيت إلى لقائهم الملك فيصل بن الحسين ملك العراق يومئذ ، وكانت العراق مثل فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وتمت مقابلتى لجلالته فى الساعة الخامسة من مساء يوم الأربعاء أول يونيو ، ودامت المقابلة ساعة ونصف ساعة ، تحدثنا فيها عن الكثير من الشئون العراقية والعربية ، وكان الملك فيصل رجلا ممشوق القامة ، هادئ الطبع ، جم الأدب والتواضع ، جذاب الشخصية ، فآنست بلقائه وجميل ترحيبه. وكان ممن قابلتهم وتحادثت معهم من رجالات العراق يومئذ ، نورى السعيد باشا رئيس الوزارة ، وكان شخصية جذابة ، ومتحدثا بارعا ، وقد أقام لى مأدبة عشاء بالمدرسة الحربية على ضفة نهر دجلة ، وعقدت بينى وبينه مودة استمرت أعواما ، وقد قابلته بعد ذلك غير مرة بالقاهرة».

(٤٠)

ويمتد الأستاذ عنان بثنائه إلى عدد من زعماء العالم الغربى قدر له أن يلقاهم ، منهم البابا بيوس الثانى عشر ، ورئيس ألمانيا:

«كانت سنة ١٩٥٠ سنة حافلة فيما يتعلق برحلاتى ومهامى الصحفية ، وقد حظيت فيها أولا بمقابلة قداسة البابا بيوس الثانى عشر ، بمناسبة حلول السنة المقدسة ، وشهود مظاهر وحفلات هذا الموسم الدينى العظيم. وقمت فيها بإجراء الأحاديث الصحفية مع الدكتور هويس أول رئيس لألمانيا الاتحادية ، والهير هوفمان المندوب السامى لمنطقة السار ، والدكتور ليوبولد فجل مستشار النمسا».

ويذكر الأستاذ عنان أنه كان يعرف البابا قبل عشرين عاما:

«وفى خلال ذلك كله كانت تساورنى أمنية ملحة ، هى أن أحظى بمقابلة البابا ، وكان يومئذ هو الحبر العلامة بيوس الثانى عشر ، واسمه القديم أوجنيو باتشيللى ، ولم يكن هذا الحبر الجليل غريبا عنى ، فقد سبق أن قابلته وحادثته قبل ذلك بعشرين عاما (فى سنة ١٩٣٠) بصفتى صحفيا مصريا ، بمكتبه بقصر الفاتيكان ، وكان يومئذ يشغل منصب معاون البابا بيوس الحادى عشر ، ومستشاره السياسى ، وكان قد نال رتبة الكردينالة فى سنة ١٩٢٩ ، وشغل قبل ذلك منصب أستاذ الدبلوماسية الدينية بجامعة روما».

ونقتطف للقارئ من حديثه عن لقائه بالبابا قوله:

«ففى هـذا البحر الخـضم من الحفـلات والرسوم البـابوية ، أتيح لى أن أحظى بلقاء البابا بيوس الثانى عشر ، وكان سفيرنا يومئـذ فى روما الأستاذ العمرى بك قد نصحنى بألا أقبل يد البابا أسـوة بزواره من المسيـحيين ، وبأن أكـتفى بالمصـافحـة والانحناءة التامـة ، وكان ديوان قداسته قد تفضل بواسطة السفارة المصرية ، أن يدعونى إلى مقابلة خاصة لقداسته ، فى صباح يوم الخميس ٢٩ يونيو سنة ١٩٥٠».

ويشير الأسـتاذ عنان بعد ذلك إلى أنه نشر مقالا بـقلمه عن حياة البابا بيوس الثـانى عشر فى مجلة «الهلال» فى عددها الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٥٨.

(٤١)

ننتـقل بعـد هذه الشـخـصـيات التى حـظيت بثناء مـحـمد عـبـد الله عنان وحـبـه ، إلى الشخصـيات الأخرى التى صب عليهـا جام غضبـه ، ويبدو أن رئيس الوزراء محمـود فهمى النقراشى باشا هو أبرز الشـخصيات التى يقسو مـحمد عبدالله عنان عليهـا بدون مبرر ضخم يستوجب هذه القسوة ، وهو يعتقد أن النقراشى باشا كان السبب فى تركه خدمة الحكومة ولو بعد حين ، وذلك أن النقـراشى طلب منه اتخاذ الإجراءات الـكفيلة بإبلاغ النيابة عن صـحفى وصحيفة مـغمورة بسبب تطاولهما على الأستاذ العـقاد ، لكنه لم ير أن إتمام مثل هذا التأديب يدخل ضمن واجبه الوظيفى فى إدارة المطبوعـات ، وهذه هى القصة على نحو ما يرويها عنان بأسلوبه وألفاظه وأوصافه:

«وفى سنة ١٩٤٨ ، حدث ما لم أكن أتوقعه من إقـالتى من عملى بإدارة المطبوعات لنزعة طارئة لوزير حقود جهـول ، وذلك أنه حدث أن نشرت إحدى الصحف الأسبوعـية المغمورة مقـالا ضد الأستاذ العـقاد ينطوى على سب شديد مـقذع ، فاستـدعانى رئيس الوزارة ووزير الداخلية يومئذ النقراشى ، وطلب منى أن أبعث من إدارة المطبوعات ببلاغ إلى النيابة العمومية للتـحـقيق فى هذا القـذف مع كـاتب المقـال ، ولما كان مـثل هذا العـمل ليس من شـأن إدارة المطبوعـات ، وليس من اختـصاصهـا أن تتولى وكالة الـتبليغ الجنائى فى المسـائل الشخصـية البحتة، فقد اتصلت فى ذلك بوكيل الداخليـة المرحوم حسن رفعت باشا وأبلغته ما طلب إلىّ الوزير [كـان النقراشى باشـا يشـغل منصب وزير الداخليـة بالإضافـة إلى رئاستـه للوزارة] ، وشرحت له وجهة نظـرى فأقرها ، وطلب منى أن أقدم له مذكرة بذلك ، فـقدمت إليه المذكرة المرغوبة ، ووافق عليها».

ويشير الأستاذ عنان إلى أنه كان يتوقع أن يقتنع النقراشى بوجهة نظره وسلامة نيته ، بحكم ما كان بينهما من صداقة ومعرفة ، ولكن هذا لم يحدث للأسف:

«ويجب أن أذكر أنه كانت تربطنى بالنقراشى صداقة قديمة من وقت أن كان معلما بأسيوط ، وعرفنى به تلميذه المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، وكنا طوال الوقت على مودة منتظمة ، ومن ثم فقد كنت أعتقد أنه سوف يقتنع بوجهة نظرى ، وسلامة نيتى».

«استدعانى النقراشى بعد يومين إلى مكتبه ، وسألنى عما فعلت فى مسألة تبليغ النيابة ، فشرحت له وجهة نظرى باختصار ، وأفهمته أن هذا ما وافق عليه وكيل الداخلية ، فتجهم وجهه ، ولمعت نظرته ، وصاح بى: «هو دا يافندى مبلغ طاعتك لأوامرى» ، اذهب إلى مدير الأمن العام لكى تتلقى أوامره».

«وعلمت بعد قليل من مدير الأمن العام ، وقد كان يومئذ المرحوم عبد الرحمن عمار ، أن الوزير أمر بنقلى من إدارة المطبوعات إلى مكتب وكيل الوزارة ، وقال لى: إن الوزير صديق للأستاذ العقاد.. وهذا سر غضبه».

....

«ولكن النقراشى كان يرى أن رأيه هو القانون ، وأن رغبته يجب أن تنفذ مهما كانت مخالفته للنظام لتحقيق أهوائه ، ومن ثم فقد عز عليه أن يقوم موظف مثلى من التابعين لرئاسته وسلطاته بالوقوف ضد رغبة من رغباته».



ثم يروى الأستاذ عنان أن صديقه الدكتور حافظ عفيفى زاد الغضب الذى فى نفسه اشتعالا:

«وأذكر بهذه المناسبة أننى ذهبت لمقابلة صديقى المرحوم الدكتور حافظ عفيفى باشا مدير بنك مصر ، ورئيس مجلس إدارته ، وقصصت عليه ما فعله النقراشى معى ، فقال لى: إن النقراشى رجل حقود (وقالها بالفرنسية Rancunier) طول حياته».

(٤٢)

وبالإضافة إلى النقراشى باشا يبدو عنان حريصا على إبداء رأيه غير الودود فى الأستاذ

العقـاد نفسه ، وهو الـذى كان سبب الخـلاف الذى وقع بينه وبين النقراشى ، وهو يراه كـاتبا كبيرا ومؤلفا خصبا ولكنه لا يراه أكثر من هذا:

«ويجب أن أذكـر بهذه المناسـبـة ، أننى لم أكن أتعاطـف مع العقـاد ، ولـم أكن أذهب فى تقديـر أدبه إلى المدى الذى يذهب إليه كـثيـر من الشبـاب الذين يلتفـون حوله ، ويحـضـرون ندواته. والعقـاد كاتب كبيـر بلاشك ، ومؤلف خصب وافـر الإنتاج ، ولكن معظم كتـبه التى بدأها بالفصـول النقدية والعبقـريات الخالية من كل مادة علمـية حقيقـية ، ثم أعقبـها بسلسلة طويلة من الكتب المخـتلفة ، التى لـم تكـن على الأغلب سوى خـلاصة لما يهـضمـه من قراءة بعض المؤلفـات الأجنبيـة الحديثـة ، ولم تكن تجذب اهتـمامى ، وأسلوبه بالـرغم من سلامـته العـربيـة أسلوب جاف ، بعـيـد عن الجـزالة التى يمتـاز بها أسلـوب زميله وصـديقـه المازنى وإشراقه. أضف إلى ذلك ما كان يتسم به العقـاد من التعالى والغطرسة والغرور الذى لا نهاية له ، وهذا كله مما كان يبعدنى عن التعاطف معه».

(٤٣)

وتحفل هذه المذكرات بالحديث عن ذكريات صاحـبها فى الأحداث الوطنية التى قدر له أن يعـايشهـا ، ونحن نستـمتع بـ وصف عـنان لهذه الأحـداث الذى يجمع بين الوجـدان الذكى المنفعل وبين روح المؤرخ المدقق ، وعلى سـبيل المثال يصف مـحمد عبـد الله عنان أول حادث وطنى شهده فى شبابه وهو جنازة مصطفى كامل فيقول:

«فى ذلك اليوم ـ يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٠٨ ـ كنت عائدا كالعادة عصرا من مدرستى ـ مدرسة العقادين الأميرية ـ وكنت سائرا إلى منزلى الكائن بآخـر شارع السيوفية ، مخترقا باب زويلة (بوابة المتولى) فـشارع الخيمـية ، فشارع المـغربلين ، وعند آخر المغربلين وجـدت شارع محـمد على مسدودا بجـموع بشرية هائلة ، ولا سـبيل إلى اختـراقه من أية جهة من جـهاته ، والصمت العميق مخيم على الجموع الكثيفـة المتراصة على جانبيه ، وفى الشارع يسير موكب طويل لا نهـاية له ، فـى صـمت مطبق ، ولاحظت أن الدمـوع تنهـمـر مـن أعين الكثـيـر من الوقوف، ومن كـثير ممن يسيـرون فى الموكب ، وعندئذ سألت الناس من حولى فـأجابونى أن هذه جنازة مصطفى كامل باشا ، أجل كانت هذه جنازة الزعيم الوطنى الشاب ، جنازة جليلة رهيبـة ، وقد احتشـد فى مقدمتـها طلبة المدارس الأميـرية ، الابتدائية والثـانوية والعليا ، ومن ورائهم عساكـر البوليس ، وباقى المشيعين ، وكـانت كل مدرسة تحمل علمـا مجللا بالسواد ،

وكانت عربات الحنطور التى تسير خلف الجموع السائرة ، تسير فى تكدس وبطء ، وقد وضع السائقون عصابات سوداء حول رءوس الخيل ، ووضعوا الخرق السوداء على طرابيشهم ، ومنهم مَنْ كان يبكى وترتفع زفراته ، وهو يسوق الخيل هونا ، وكان الموكب من خلف النعش، ثم العربات من ورائه ، يمتد حسبما يقول الجمهور حتى العتبة الخضراء. واستمر سير الموكب بطيئا قرابة ساعتين ، وأنا واقف فى مكانى ، مشدوه ، حزين مطرق كباقى الناس ، حتى انتهى نحو الغروب ، وعندئذ عبرت شارع محمد على إلى منزلنا وأنا مطرق مفكر ، حتى وصلت إلى الدار ، وكانت فى عطفة صغيرة قبل سبيل أم عباس ، وعندئذ سألتنى أمى عن سبب تأخرى ، فرويت لها ما رأيت وأنا حزين مدهوش. وكان ذلك أول حادث وطنى عظيم شهدته فى صباى ، ومازلت إلى اليوم أذكر منظر الموكب الهائل الحزين».

(٤٤)

ونأتى إلى حديث الأستاذ عنان عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وانتقاداته لها ، وأبدأ بأن أشير إلى حقيقة مهمة وهى أننا نستطيع أن ندرك بكل وضوح أن انتقادات محمد عبد الله عنان للثورة ولسلوكها لا تنبع من تفسير تاريخى يدمغ به نيات رجالها أو يدين تصرفاتهم ، فلا هو يتهمهم باتجاهات فكرية أو سياسية معينة ، ولا بعمالة لدولة أو اتجاه ، وإنما هو شأن المنصفين يظن دون أن يصرح ودون أن يبنى على هذا نظرية أن السبب فى هذا كله لم يكن إلا الجهل أو انعدام الوعى ، ونحن نراه يأسف على ما وصل إليه الحال ، ويصف أسفه كما يصف الحال ، لكنه لا يعزو هذا إلى سبب معين يلقى عليه بتبعة ما حدث ، لكنه معنى أكثر بأن يشخص الداء وبأن يشخص ما هو موجود بأنه داء ، وبأن يقارن بين أحوال أخرى للصحة والسلامة والبرء من الداء على نحو ما رأى وأدرك فى بلاد أخرى ، وحضارات أخرى ، وأزمنة أخرى.

ونستطيع أن ندرك مدى الإنصاف والشجاعة اللتين تحلى بهما الأستاذ محمد عبد الله عنان فى نقد الواقع نقدا متكاملا يرى فيه ومن خلاله الأسباب المتعددة وقد قادت إلى النتائج المتعددة دون أن يربط كل سبب بنتيجة معينة ، وهو لا يتوانى عن إظهار رأيه ومعتقداته فيما يعتقده خطأ واضحا على الرغم من أن الرأى العام لم يكن ليستوعب كل عناصر نقده على نحو ما قدمه ، ونراه ـ على سبيل المثال ـ وهو يجاهر بانتقاد الإفراط فى منح حقوق العمال ، حتى إنه يتنبأ مبكرا بما آل إليه الوضع بالفعل فى مؤسسات القطاع العام ، وهو يرى هذا الذى حدث والذى لا يزال يحدث بمثابة نتيجة طبيعية أو حتمية للأخذ بالسياسات التى تم الأخذ بها.

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن الآراء العديدة التى أبداها الأستاذ عنان فى تاريخ الثورة وتصرفاتها وسياساتها وحروبها ، ولكننا مع هذا لا نستطيع إلا أن نقدم ملخصا لآرائه فى عهد الثورة.

(٤٥)

يشير الأستاذ عنان إلى روح المغامرة التى كانت مسيطرة على ضباط الثورة ، وهى الروح التى دفعتهم ـ من قبل الثورة ـ إلى محاولات الاتصال بالألمان:

«ونود أن نشير هنا إلى بعض المقدمات الصغيرة التى تشير إلى بعض ما كان يجول بخواطر أولئك الضباط ، الذين قدر لهم أن يبسطوا حكمهم على مصر. ففى خلال الحرب العالمية الثانية ، حينما استطاع الألمان بقيادة روميل أن يصلوا فى زحفهم إلى مقربة من العلمين ، كان ثمة بعض أولئك الضباط (ومنهم الملازم أنور السادات حسبما يقص علينا فى كتابه) يحاولون الاتصال بالألمان وبروميل لكى ينظموا التعاون معهم لتسهيل مهمتهم ، وقد اختاروا لذلك مجاهدا قديما هو المرحوم عزيز باشا المصرى ، وقد حصلوا على طيارة زودوه بها ، لكنها سقطت به كما هو معروف ، وتعذر وصوله إلى الألمان. وعزيز باشا المصرى كما هو معروف مجاهد ومغامر قديم ، وقد تلقى دراسته العسكرية بألمانيا وتركيا».



ويشير الأستاذ عنان إلى واقعة غير مشهورة تتمثل فى دعوة الثورة لأرملة القائد الألمانى روميل ، ويتناول تفصيلات هذه الزيارة نقلا عن الأهرام والمصور ، ويركز على التصريحات التى أدلت بها هذه السيدة ومنها انتقادها للنازية:

«وثمة واقعة أخرى تتصل بهذا الموضوع ، هى زيارة السيدة لوسى ماريا روميل ، أرملة الفيلد مارشال ايروين روميل لمصر فى شهر مايو سنة ١٩٥٤ ، وما لقيت خلال زيارتها من حفاوة بالغة ، وقد وصلت إلى القاهرة فى يوم ١٧ مايو ، وقد سبقها عرض الفيلم الألمانى «روميل ثعلب الصحراء» ، وكان قدومها بدعوة من الشركة التى قامت بتوزيع هذا الفيلم ، وكذلك بدعوة أخرى من رئيس الدولة يومئذ اللواء محمد نجيب ، حيث أرسل إليها صورته ومعها دعوة لزيارة مصر ، وقامت فراو روميل بزيارة رئيس الدولة ، ووزير الإرشاد السيد صلاح سالم ، وزيارة سائر أعضاء مجلس الثورة ، كما زارت محكمة الثورة ، وأبدت إعجابها ، فى تصريحات مختلفة نشرت بجريدة الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات ، بما

شهدته فى مصر من النظم والمظاهر. وقام اللواء محمد نجيب وكثير من ضباط القوات المسلحة بمشاهدة فيلم روميل ، الذى وصف بأنه شريط حقيقى لمعارك الحرب الأفريقية و«الفيلق الأفريقى» ، وزارت فراو روميل بعد ذلك منطقة العلمين برفقة مندوب الرحلة المعين لمصاحبتها القائمقام محمد عارف قائد المنطقة الشمالية ، ووضعت أكاليل الزهور على النصب التذكارى الذى يتوسط قبور ضحايا الحرب من الألمان والإيطاليين ، كما وضعت إكليلا آخر على قبر زوجها الرمزى ، وزارت متحف روميل وبه صورة خطة رسمها روميل للموقعة المرتقبة. وصرحت أرملته بأنه كان موقنا بالنصر إذا نفذت هذه الخطة ، لكنه استبقى فى برلين ، وكان مما جاء فى تصريحاتها قولها عن النظام النازى: «لقد جعل النظام النازى من الصعب على الإنسان أن يؤمن إيمانا صادقا بشىء ، لكنى أثق بمستقبل الإنسانية والديمقراطية والحرية» (جريدة الأهرام عدد ١٧ و١٨ مايو سنة ١٩٥٤ ، ومجلة المصور عدد ٢٨ مايو و٤ يونية سنة ١٩٥٤ ، ويمكننا أن نرجع هذا التصريح إلى ما لقيه الفيلد مارشال روميل من قسوة الزعيم هتلر حينما اتهم بالاشتراك فى المؤامرة التى نظمت ضده فى أواخر الحرب ، وأرغم روميل على الانتحار تفاديا لفضيحة المحاكمة والإعدام)».

ويبدو للأستاذ عنان أنه لابد أن يعقب على مضمون هذه الزيارة بطريقة مباشرة فيقول:

«وتلقى هذه التفاصيل المتعلقة بزيارة أرملة روميل لمصر ، وما لقيته خلالها من الحفاوة البالغة ، بعض الأضواء على هذا العطف الذى كان يبدو من أولئك الضباط ، الذين غدوا يومئذ أعضاء مجلس الثورة ، نحو النازية ومُثُلها ووسائلها ، ونحن نستطيع أن نقول إن نظم الحكم التى سار عليها عبد الناصر منذ سنة ١٩٥٤ كانت فى جوهرها نظما نازية».

(٤٦)

ويرى الأستاذ عنان أن توجه الرئيس عبد الناصر المبكر إلى التحالف مع الاتحاد السوفيتى ويوجوسلافيا لم يكن إلا «من نكد القدر».. هكذا وبهذا اللفظ:

«هذا وقد كان من نكد القدر أن يتجه عبد الناصر منذ عصر مبكر إلى محالفة روسيا السوفيتية والارتماء فى أحضانها ، كرد فعل لخصومته لأمريكا ، لرفضها معاونة مصر فى إنشاء السد العالى ، وتقدم روسيا إلى القيام بتلك المعاونة وإمدادها لمصر ببيع السلاح إليها ، وما ترتب على ذلك من بث روسيا لمثلها الشيوعية ، فى نفس عبد الناصر ، وما وقع فى

الوقت نفسه من التقارب بين مصر ويوجوسلافيا الشيوعية ، وتأثير زعيمها الرئيس تيتو فى دفع عبدالناصر إلى نفس الاتجاه.

ويستأنف الأستاذ عنان حديثه فى هذه النقطة فيقول:

«ومن الواضح أنه لم يكن فى برنامج الثورة منذ البداية ما يحمل على هذا الاتجاه أو التفكير فيه ،وإنما بدا هذا الاتجاه بادئ ذى بدء على أثر تحالف مصر مع روسيا الشيوعية ، ودفعت الصحافة والإذاعة إلى تأييده بطريقة منظمة ، متواصلة ، وأنشئ بمصر ما يسمى «بالاتحاد الاشتراكى» كصورة مصغرة للحزب الشيوعى الروسى ، ثم صدرت فى يوليو سنة ١٩٦٠ «القوانين الاشتراكية» وشمل التأميم سائر المنشآت والمشاريع التجارية والصناعية والثقافية (الصحافة ودور النشر)».

(٤٧)

ينتقد الأستاذ عنان سياسة التأميم على نحو ما أخذت بها الثورة فى الستينيات ، ويستند فى انتقاداته إلى نصوص النظرية الاشتراكية نفسها:

«ثم إن هذه الاشتراكية ذهبت فى التأميم إلى حدود بعيدة ، وطبقته على أصغر الوحدات الإنتاجية الخاصة ، وهذا ما يخالف النظرية الاشتراكية السائدة ، فى أن هذا التوحيد أو التأميم ينصب على وسائل ملكية الإنتاج والمرافق العامة كرءوس الأموال والمنشآت الإنتاجية الضخمة والمناجم ، والقوى المحركة والغابات ، ووسائل المواصلات والنقل ، ويعبر الاشتراكيون عن ذلك بقولهم: «ماهو ضرورى من الوجهة الاجتماعية ، يجب أن يقع فى الملكية الاجتماعية الاشتراكية» ، أما ما وقع فى مصر تطبيقا للاشتراكية ، فهو أقرب منه إلى الماركسية والنظام الشيوعى».



وعند هذه النقطة يحرص «كتاب الهلال» على التعقيب بقوله:

«ليس فى دساتير الدول الاشتراكية نص على أن يكون للعمال والفلاحين نصف المقاعد فى المجلس النيابى ، وهذا يدل على أن ما حدث فى مصر لم يكن تقليدا لما حدث فى أى بلد آخر».

ويستأنف الأستاذ عنان الحديث عن ملاحظته فيقول:

«ومما يدعم هذا الرأى ما نص عليه فى الدستور على قيام نوع من الأغلبية المقررة للعمال والفلاحين فى البرلمان وسائر الهيئات النيابية ، وهى الماركسية بذاتها التى تنادى بسيادة الكتلة العاملة».



ثم يتساءل الأستاذ عنان:

«وبعد فماذا كانت آثار هذا النظام الاشتراكى ، بعد أن مر على تطبيقه أكثر من خمسة عشر عاما؟».

ويجيب الأستاذ عنان بما يعتقد أنه الأثر المباشر لهذه السياسات من تثبيط همم العمال ، وما ترتب على ذلك من أن مؤسسات القطاع العام أصبحت لا تفى بإنتاج نفقاتها ولا أجور عمالها المتكدسين ، وأصبحت عالة على الدولة:

«... تثبيط همم العمال ، والإغداق عليهم دون استحقاق ، وحمايتهم من كل جزاء أو تعرضهم للفصل الإدارى ، حتى مع الإهمال وارتكاب الخطأ الجسيم ، ومعظم منشآت القطاع العام لا تفى اليوم بإنتاج نفقاتها ، ولا أجور عمالها المتكدسين بها دون عمل ، وقد فقدت العمالة فى معظمها كل ضمير ، وكل شعور بالواجب والمسئولية ، وأصبحت كلا على الدولة وعلى البلاد ، ولا يبدو اليوم أى أمل فى إصلاح هذه الحالة أو تغييرها إلى حالة أفضل لتمسك العمال بها والدفاع عنها ، لأنها تهيئ لهم الحياة الرغدة فوق الكفاية ، دون بذل أية جهود صادقة منتجة».



وينتبه الأستاذ عنان إلى أثر القوانين العمالية فى رفع معدلات الزيادة السكانية بمعدلات غير طبيعية نتيجة لما يسميه الأستاذ عنان الرخاء العمالى!!

ونحن نتحفظ بالطبع على الوصف بالرخاء وإن كنا لا ننكر الربط الذكى الذى انتبه إليه الأستاذ عنان:

«وفوق ذلك فقد كان لهذا الرخاء العمالى أثره الواضح فى الانفجار السكانى ، فقد عمد كثير من العمال الجهلاء الذين أثروا فجأة نتيجة للقوانين العمالية المتحيزة ، والأجور العالية ، إلى اتخاذ الزوجات الثوانى والثوالث ، تدفعهم المتعة البهيمية قبل كل شىء ، وأكثروا من الإنجاب ، حتى إنك لتجد منهم الكثير ممن أنجب عشرة أو أكثر من البنين والبنات من زوجين

أو أكثر دون شعور بالمسئولية ، أو الاهتمام بمستقبل هذا العدد العديدى من الأولاد ، فكان هذا عاملا جديدا فى ازدياد السكان زيادة غير طبيعية ، وعاملا فى الانفجار السكانى الذى يكاد يخنق البلاد».



ويرى الأستاذ عنان أن المزايا العمالية الحالية ليست من العدالة الاجتماعية فى شىء ، ويبدو إحساسه بالطبقية وجدواها وضرورتها مسيطرا عليه وعلى فكره:

«وليس من العدالة الاجتماعية فى شىء أن يحصل كثير من العمال فى ظل النظام الحالى [فى مختلف منشآت القطاع العام المؤممة باسم وظائف المديرين لكذا وكذا] على مرتبات تفوق مرتبات رؤساء محاكم الاستئناف العليا ، ورؤساء سائر المحاكم الابتدائية وأساتذة الجامعات ذوى الكراسى ، وأن يحصل صغار العمال الذين يقومون بأعمال تافهة مثل النظافة وغيرها على أجور تفوق مرتبات خريجى الجامعات فى الدرجات الخامسة والرابعة. ليس هذا من العدالة الاجتماعية أو تكافؤ الفرص فى شىء ، وإنما هو تجاوز مقصود ، وإخلال بنظام المجتمع الأمثل ، وقتل للكفايات المحترمة ، والقوى المعنوية ، وهدم لمجتمع الأخلاق والفضائل».



ويتحدث الأستاذ عنان بنفس الأسلوب عن مستأجرى الأراضى الزراعية ، وما كانوا يتمتعون به فى ظل القوانين الاستثنائية التى فرضتها الثورة ، وهو يشير إلى أن المستأجر كان قد أصبح قادرا على أن يشترى أطيانا جديدة ، بل أكثر من ذلك:

«أصبح يساوم المالك الذى يرغب فى استرداد أرضه أو جزء منها ، مساومة الشريك المالك، ويطالب بخلو يبلغ نحو نصف ثمن الأرض المرغوب فى استردادها ، وأصبح اليوم هذا السعر حقيقة قائمة راسخة ، يؤديه كل مالك يريد لضرورة ما أن يسترد أرضه أو جزءا منها ، وقد اضطر كاتب هذه السطور نفسه [أى الأستاذ عنان] إلى أن يخضع لهذا الوضع المجحف ، وأن يدفع هذا الخلو الباهظ حينما باع ضيعته الصغيرة ، وأصر المشترى على تسلم الأطيان خالية من المستأجرين ليزرعها بنفسه.



كذلك يورد محمد عبد الله عنان انتقادات متتالية لما آل إليه الوضع فى الأراضى الزراعية نتيجة للتأكيد على منح كثير من الحقوق للمستأجرين والإفراط فى الانحياز إلى طبقة على حساب طبقة أخرى.

(٤٨)

أما موقف الأستاذ عنان من الوحدة العربية فموقف غريب ، ونراه ينظر إلى سوريا كما لو كانت كائناً غريباً استنزف موارد مصر ، وتبدو المعلومات المتاحة عنده عن الوحدة والانفصال أميل إلى ما كانت تمليه السلطة المصرية من دعمها للانفاق السورى من الموازنة المصرية ، على حين أن السوريين لا يسلمون بهذا الذى كانت تجاهر به هذه السلطة المصرية أو تشيعه وبخاصة بعد الانفصال ، وربما كان الأستاذ عنان معذوراً فى أنه توفى قبل أن تصدر وتنشر الكتب التى تروى حقيقة المواقف من وجهة نظر السوريين ، وعلى سبيل المثال فإن مذكرات أكرم الحورانى تشير بكل وضوح إلى مدى التجنى بالزعم بإنفاق مصر على سوريا.

على أن العجب من أفكار نصوص الأستاذ عنان فى هذا الشأن لا يقف عند هذا الحد ، وإنما نرى أنفسنا نعجب عجبا شديدا من موقفه الانفعالى تجاه سوريا والسوريين فى أثناء الوحدة حتى إنه كان يؤثر عدم دخول السفارات المصرية!! إذا كان يتولاها سفير سورى!! ومن سوء حظه أن سفير دولة الوحدة فى أسبانيا كان سوريا ، ولنقرأ هذا النص العجيب:

«وقد كانت هذه الأعوام الأربعة ، التى استمرت فيها هذه الوحدة الاندماجية ، والتى اشترك فيها السوريون والمصريون فى تبادل الوظائف الكبرى والسفارات وغيرها ، بين الدولتين ، من أشد ما آلم نفوس كثير من المصريين ذوى الكرامة والإباء ، وأقسم أننى خلال رحلاتى المتعددة إلى أوروبا خلال هذه الفترة ، لم أدخل قط سفارة مصرية كان يتولاها سورى مهما كان الداعى إلى ذلك ،وقد كان هذا بالأخص موقفى من سفارة مدريد ، التى كانت تربطنى بها مصالح واتصالات كثيرة ، تتعلق بدراساتى فى أسبانيا».

ولقد بذلت مصر خلال هذه الفترة جهودا وأموالا طائلة لمعاونة سوريا وإنعاشها ، وبعثت أسطولها إلى المياه السورية ردا على تحرك القوات التركية».



ثم يشير الأستاذ عنان إلى الانفصال وكأنه نعمة من الله تستوجب الحمد والسعادة:

«ثم انتهت هذه المغامرة بكارثة ، وتم الانفصال والحمد لله فى سبتمبر سنة ١٩٦١ ، بطرق مهينة لمصر وأبنائها ، وأدرك عبد الناصر مبلغ تصرفه فى عقد مثل هذه الوحدة مع أمة لم تتعود على الشعور بالولاء وشكران الصنيعة».

(٤٩)

ويأتى حديث الأستاذ عنان عن هزيمة يونيـو ١٩٦٧ فى صورة ملتاعة ، وهو يذكر أنه بادر بالعودة إلى القـاهرة من فيينا حـين سمع بأخبـار الحشود ، وهو يسـجل أن المواطنين المصريين كانوا فى حيرة ، ولكنهم كانوا ينتظرون وقوع الصدام:

«وفى ظهـر يوم ١٧ مـايو سنة ١٩٦٧ كنت جـالسـا بمقـهى الميـوزيوم بمدينة فـيـينا أطالع الصحف النمساوية ، وإذا بى أقـرأ من أخبار مصر أن القوات المسلحـة المصرية تتقدم فى قلب سيناء ، فـانزعجت لهذا الخـبر ، ولم أفهم سـر هذا التحرك العـسكرى ، وبادرت بالعودة إلى القاهرة فوصلت إليها فى العشرين من مـايو. وألفيت الرأى العام بمصر متوترا ، والمواطنين فى حـيرة ، لا يدركـون من الأمـر شيـئا واضـحـا ، وينتظرون وقوع الصـدام العـاجل بين مصـر وإسرائيل ، وكان الشائع يومئذ أن تحرك مصر كان لإنجاد سوريا ، التى حشدت إسرائيل قوات ضخمة على حدودها ، وهددت باحتلال دمشق».



ويلخص المؤرخ الكبير ما حدث فى ١٩٦٧ بعبـارات دقيقة فى وصف المأساة ، وهو يقرن هذا بتسجيل انطباعات المواطنين عن تلك الفترة:

«وكانت نكبة حقـيقية مروعة ، نزلت بجـيشنا الضخم الباسل ، دون قتال ولا اسـتحقاق ، وكان ضحـية مؤلمة لقيـادة عاجزة ، وارتدت فلوله فى مناظر مثـيرة مبكية ، تاركـا للعدو سائر عتـاده ومعـداته ، التى تقدر بمئـات الملايين ، ولم تمض أيام حـتى احتل اليـهود سائر سـيناء ، ووصلوا إلى ضفـة القنال الشرقية ، ولم يـكن أمامهم للمقـاومة جندى مصرى واحـد. كانت جمـاهير المواطنين فـى أثناء ذلك كله فى منتهى الحـيرة واليـأس ، وكان بعـضهم يتـساءل فى سذاجة: لماذا لم نتقدم لاحتلال تل أبيب؟!».



وفى مقـابل هذا يفخر الأستـاذ محمد عـبد الله عنان بما تحقق فى حرب أكـتوبر ١٩٧٣ ، ويرى أنه محا آثار «الجريمة العظيمة» التى ارتكبت فى ١٩٦٧ وهو يقول:

«وقـد محت حـرب أكـتوبر بالأخص آثـار الجريمة العظيـمـة التى ارتكبت فى يونيـة سنة ١٩٦٧، دون ترو ولا درس ولا تمحيص ، وأسدلت مدى أعوام ستارا مؤلما على كرامة الأمة ، وسمعتها ، واعتزازها بجيشها».

(٥٠)

ويصور الأستاذ محمد عبد الله عنان جماهير الشعب المصرى فى ظل حكم الثورة فى صورة بائسة يائسة بعيدة عن مجرد التفكير فى الرفاهية والمثل المعنوية:

«... وقد أصبح شعبا لا هم له إلا تحصيل لقمة العيش بشق الأنفس، ينفق فى سبيلها كل وقته، ويمضى ساعات وساعات فى طوابير الجمعيات التعاونية، والمخابز، لكى يحصل على أتفه مطالب العيش ووسائل الحياة الأليمة الذى لا يستطيع تغييرها، أو يحاول الوصول إلى عمله ثم إلى بيته بوسائل المواصلات التعسة التى لا معدى له عن ركوبها، وقد نسى خلال هذا الشقاء الذى طال به العهد، أن يفكر فى شىء آخر من مناخ الرفاهية والمثل المعنوية أو العقلية، إذ كيف ومتى يستطيع أن يقوم بمثل هذا التفكير، وهو يشغل بهموم العيش النكد الذى يلازم حياته ليل نهار».

(٥١)

ويدافع الأستاذ عنان عن حقبة الليبرالية المصرية دفاعا مجيدا، وهو يشير إلى ما يعتقده من صحة الديمقراطية فيها وإلى ارتفاع مستوى الكفاية فى الحياة، فقد كان هناك نواب وشيوخ من طراز متميز، كما أن الحريات الدستورية والديمقراطية كانت مكفولة ولم يحدث هذا الذى يسميه الأستاذ عنان «الاستعباد المطلق»:

«وإن الحياة البرلمانية فى هذا العهد، بالرغم مما كان يشوبها من الصراع الحزبى، كانت حياة ديمقراطية صحيحة، وإنها كانت من حيث مستوى التكوين والكفاية أرقى بكثير مما نشهده اليوم فى الحياة البرلمانية. كان ثمة نواب وشيوخ من طراز ممتاز، لا نرى لهم اليوم أحدا من النظائر، وأن الحريات الدستورية والديمقراطية كانت أمرا قائما بالفعل، وكانت مكفولة بالقوانين وأحكام القضاء، وأنه لم يقع فى هذا العهد شىء من ضروب الاستعباد المطلق للشعب المصرى».



ويرحب الأستاذ عنان بالجدال حول حكم الأحزاب قبل الثورة، مشيرا إلى حقيقة أن الفساد بعد الثورة قد زاد أضعافا مضاعفة عن الفساد فيما قبلها:

«ثم يقولون: إن حكم الأحزاب فيما قبل الثورة كان مشوبا بالفساد والفوضى ، ونحن نقول أجل كان ثمة فساد يشوب حكم الأحزاب ، ولكن ما يشوب الحكم فى عهد الثورة من الفساد والفوضى يزيد أضعافا مضاعفة عما وقع من قبل ، ويكفى أن الرشوة أصبحت فى عهد الحكم الحالى تقليدا ثابتا ، لا يمكن أن تقضى بدونها فى الإدارات الحكومية المختلفة أى حق أو مصلحة لأى مواطن. هذا إلى جانب ما يقع بين يوم وآخر من الاختلاسات الهائلة لأموال الدولة ، والحرائق المستمرة المتعمدة لإخفاء السرقات والاختلاسات».



وينبه الأستاذ عنان إلى الحقيقة القائلة بوقوف حكومات الثورة عاجزة عن حل المشكلات القومية:

«ثم يكفى إلى جانب ذلك ما ظهر من العجز عن معالجة أية مشكلة من المشاكل القومية ، أمثال مشاكل الإسكان والمواصلات والتموين والهجرة الريفية وغيرها ، وهى مشاكل تتفاقم كل يوم مع مرور الزمن ، ولا تحاول الحكومة أن تبذل أية محاولة ناجعة لمعالجتها».

(٥٢)

وينتبه الأستاذ عنان إلى ما كان سائدا وقت كتابة مذكراته من وصول الذوق إلى أدنى درجات الانحطاط ، حتى فيما يتعلق بالاستهلاك:

«ولا يوجد بالقاهرة اليوم سوى المقاهى والمطاعم الشعبية ، والمتاجر السوقية الرديئة الفئة ، ومما يدعو إلى السخرية والرثاء أن سائر الملابس القطنية المصرية الفاخرة تحجب عن البيع للمصريين ، وتصدر كلها إلى الخارج استجلابا للعملة الصعبة ، ويضن بها على المصريين مثل كثير من الفواكه والأصناف الفاخرة ، التى أصبحت اليوم عزيزة على المصريين».

(٥٣)

وللأستاذ عنان رأى منصف للثورة فى مطاردتها للأجانب ، فهو فى الحقيقة يفتقد وجودهم ومستوى أدائهم فى بعض الخدمات التى كانوا يؤدونها ، لكنه يرى أنهم كانوا مستغلين كما كانوا يستعمرون مرافق البلاد:

«بيد أنه يجب إحقاقا للحق أن نقول إن مطاردة عهد الثورة لأوضاع الأجانب لم يكن كله شرا».

....

«كانت حركة مطاردة الأجانب ، والقضاء على مختلف أنشطتهم ومشاريعهم الاستغلالية ، وأنه لمن الحق أن نقول إن هذه الحركة كانت ضرورية للقضاء على كثير من أبواب هذا الاستعمار الأجنبى لمرافق البلاد».



ويشير الأستاذ عنان إلى الآثار السلبية (وبخاصة فى القطاع السياحى) التى نجمت عن مطاردة الأجانب ، وهكذا يصل الأستاذ عنان إلى تشخيص رأيه فى موقف الثورة من الأجانب على النحو التالى:

«ولكن من الحق أيضا أن نقول إنها قضت كذلك على أبواب من هذا النشاط وجهوده الاجتماعية الطيبة ، التى كانت تزدان بها العاصمة ، وتساعد فى تنظيم حياتها الاجتماعية ، وفى ترويج الحركة السياحية بإقامة المنشآت والمنتديات الجذابة ، ومن ثم فقد قضت مطاردة الأجانب على كثير من الخير والشر معا ، ولم تقع فى ذلك دراسة ولا تمييز بين ما يجب أن يكون وما لا يجب أن يكون»:

(٥٤)

ويصل الأستاذ محمد عبد الله عنان إلى وصف جيل الثورة بأفظع الصفات تصورا ، فهو يراه جيلا متدهورا حائرا فاقدا للفضائل:

«لا يمكن لمتحدث عن عهد الثورة أن يغفل الكلام عن ذلك الجيل الذى نشأ فى أحضان هذا العهد ، وعن ظروفه وأحواله ، فهو ذلك الجيل المتدهور الحائر ، الذى فقد الكثير من فضائل الأجيال السابقة ، ومن فضائل بلاده المأثورة ، ونشأ فى ظلال دعوات وتعاليم ومبادئ وشعارات وعوائد لم تألفها الأجيال السابقة ، وكانت تعتبر الكثير منها خارجة عن نطاق المبادئ والخلال القومية السليمة».



وينظر الأستاذ عنان إلى جيل الثورة نظرة طبقية متعالية لا ندرى كيف بقيت مع هذا المفكر الرائد ، ومن المزعج أن نقرأ مثل هذا الكلام مهما كان نصيبه من الصحة:

«إنه ذلك الجيل الذى فتحت له أبواب التعليم حرة دون قيود ولا تكاليف عملا بمبدأ تكافؤ الفرص والمساواة المطلقة ، ذلك الجيل الخليط من مختلف البيئات والطوائف ، ومنهم أبناء وبنات الكناس والخفير والغسالة إلى جانب أبناء وبنات البيوتات العريقة والطبقات الوسطى ذات الأصول العائلية والتقاليد والأخلاق المحترمة».



ويواصل الأستاذ عنان تقديم أفكاره فى هذا المجال مقدما نظرية غريبة يقول فيها إن التعليم قد أصبح سلعة رخيصة!! ومع سلامة وصف الأستاذ عنان لحال موظفى الدولة إلا أن هذا لا يجعلنا نوافقه على نظرته الطبقية للتعليم ، ولا إلى نظرته إلى ضرورة أن يكون مكلفا ، بل إنى مناقض كل المناقضة ومخالف تمام المخالفة لهذه الفكرة:

«... هؤلاء جميعا يهرعون إلى الجامعات والمعاهد المفتحة الأبواب على مصاريعها ، وترتب على ذلك أن أصبح التعليم سلعة رخيصة ، يحوزها الشباب فى كل ضرب وفن دون أية كفايات محترمة أو صفات محمودة أو جهود جادة. وشجعت الدولة هذا الغزو بما جرت عليه من تعيين خريجى الجامعات والمعاهد ومختلف دور التعليم فى وظائف الحكومة ، وبعثتهم أكداسا مكدسة إلى مختلف المصالح الحكومية دون مراعاة لمطالب العمل ولا مصلحته ، حتى إن المئات والآلاف منهم لا يؤدون أى عمل فى المصالح التى بعثوا إليها ، بل لا يجدون بها مقعدا يجلسون عليه ، وتنحصر علاقة هذا الموظف الملقى به إلقاء فى قبض المرتب الحكومى دون أداء أية خدمات جادة ، حتى أصبحت دواوين الحكومة تعج بهذا الغزو الوظيفى ، وتزيد أعباء الدولة باستمرار دون الحصول على أية نتائج عملية من الجانب الآخر».



ويواصل الأستاذ عنان اتهامه للجيل الجديد فينفى عنه الصفات المطمئنة والمزايا الأخلاقية وفهم الأهداف القومية ، كما أنه يرى ذلك الجيل قليل الكفاية عديم النبوغ ، سطحيا ، ويشير الأستاذ عنان إلى أنه عاشر ثلاثة أجيال وأن رأيه هو أن الجيل الحاضر هو أضعفها وأقلها:

«وهو جيل لا يتصف مع شديد الأسف بالصفات المطمئنة التى يحتاجها للحفاظ على مصائر البلاد ، وتغلب عليه السطحية فى معظم صفاته ، وتنقصه أولا المزايا الأخلاقية التى يجب أن تتصف بها الأجيال المنتجة العاملة ، وينقصه تحرى الأهداف القومية الجادة ، وهو جيل حائر لا يتعرف طرقه ، قليل الكفايات ، معدوم النبوغ ، كل همه فى الحياة أن يعيش بأفضل ما يمكنه ، دون الالتفاف إلى أية أهداف عامة أو غايات قومية تقتضى التضحية ، أو

التعاون القـومى ، ويمكن أن أقول ، وقد شاركت الحـياة إلى اليوم مع أجيـال ثلاث ، إن جيلنا الحاضر هو أضعف هذه الأجيال التى شهدتها ، وأقلها فى المزايا والفضائل».

(٥٥)

ومع كل هذا فإن الأستاذ عنان متفائل تجاه مستقبل بلاده ، باستناده إلى مجريات التاريخ ، وهو يرى الأمل فى المستقبل قائما:

«إن مصر الخالدة لابد أن تنهض بإذن الله وعونه من عـثرتها ، ولابد أن تجد فى آخر الأمر من بين أبنائها مَنْ يقودها ويرشدها إلى مـصايرها العظمى ، ويكشف عنها آثار كل المحن التى توالت عليـهـا ، وردتهـا إلى الوراء ، وجعلـتهـا تقـاسى الحـياة الكدرة فى سـائر المجـالات ، وحرمت أبناءها الذين شـغلهم تحصـيل لقمة العـيش عن التفكير فى مـصاير بلادهم ، وفيـما تصبو إليه من المثل العليا».



ويشير صاحب المذكرات على المصريين بالثقة فى المستقبل لأن بلادهم كانت على الدوام تفيق من كبوتها:

«إن أبناء مصر مـهما كان الانهـيار المادى والمعنوى الذى شمل كثرتهـم الغالبة ، يجب أن يثقوا فى مصاير بلادهم الخالدة ، التى اسـتطاعت خلال تاريخها الطويل أن تغالـب كل محنة ، وأن تخرج من كل سقطة ، وأن تسـترد دائما ثباتها ومنعـتها ، وأن تفيق من كبوتهـا. إن مصر تجوز اليـوم عصـر محنة وانحطاط ، مـادى ومعنوى ، ولكـنها لن تلبث أن تجـوز هذه الحقـبة المظلمة من تاريخها ، إلى حقبة منيرة مزدهرة ، هذا ما يعلمنا إياه تاريخ بلادنا ، التى لم تسحق المحن ، مهما عظمت حيـويتها الأصلية ، وعزائمها الراسخة ، بل كـانت دائما تصابر الغمار ، ولن تلبث حتى تخرج منها وتبـدأ حياة جديدة ، ومصر الآن فى عهد تصـابر فيه الغمار ، ولن تلبث أن تتغلب عليها ، وأن تخرج منها رافعة الرأس».

وبالإضافة إلى هذا كله يعول الأستاذ عنان تعويلا كبيرا على العناية الإلهية:

«إن العناية الإلهـية التى حمت مـصر ورعتـها طوال هذه القرون العـديدة ، وانتشلتـها من كبواتها مرة بعـد أخرى ، لخليقة بأن ترعاها فى محنها الحاضرة ، وأن تمد إليـها يد الإنقاذ كما فعلت دائما ، على أن ذلك كله يتوقف عـلى قدر كبير مما تقوم به مصر نفـسها ، ولابد للجيل

الحاضر مهما كانت بوادر عجزه وتخلفه أن يبتز فى النهاية لعملية الإنقاذ التى تتطلبها بلاده ، وأن يفعل المستحيل حتى يتاح له الفوز فى أدائها».

(٥٦)

ولا تخلو آراء محمد عبد الله عنان من بعض القسوة ، أو من كثير من القسوة على بعض فئات مواطنيه ، والحق أنه يصدر فى هذه القسوة عن شعور صادق وحقيقى بالألم نتيجة معاملات مباشرة له مع هؤلاء ،ومعاناة صعبة نشأت عن هذه المعاملات ، وقد لا يكون له أى قدر من الحق فى أن يتحدث عن بعض مواطنيه بهذه اللهجة القاسية ، وقد لا يكون له الحق فى أن يعمم أحكامه على هذا النحو ، ولكن الذى لاشك فيه أن تعبيره عن معاناته كان صادقا، وأنه بصرف النظر عما نحبه له أو نكرهه منه كان صادقا فى تعبيره عن معتقداته فى هذا الشأن ، ولا نستطيع أن ننكر عليه ولا على غيره أن ينحو مثل هذا المنحى ، وبخاصة إذا ما كنا نطلب من أصحاب التجارب الذاتية أن يعبروا عنها بدون زيف أو تجميل أو خوف من أن تتعارض معتقداتهم واستنتاجاتهم مع الشعور العام ، ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أكتم تحفظى على ورود مثل هذه الانتقادات القاسية فى حديث رجل ذى نزعة إنسانية متحضرة:

«... ولم يك ثمة حد لخيانات الخفير وسرقاته للأشجار وفروعها الكبيرة ، وقد كانت كثيرة داخل الحديقة ، وعلى طول الأطيان ، ثم امتدت سرقاته إلى عروش المبانى ، وعروق الأسقف التى تضاعفت أثمانها ، وسرقاته المنظمة لأعواد البامبو الجميلة كل أسبوع ، وعندئذ اضطررت بعد ما قاسيته من ضغط قانون النهب الزراعى وأحكامه الغاشمة ، أن أفكر فى بيع العزبة ، آسفا أشد الأسف على ما أضعته فى شئونها من نفيس الوقت ، وما قاسيته من المتاعب والخسائر ، ولم يكن بيعها يومئذ سهلا ، لأن الأرض كانت تحت يد المستأجرين ، ولما جاء المشترى وأبدى رغبته فى الشراء ، واشترط أن يتسلم الأرض خالية حرة دون المستأجرين ، فاضطررت أن أدفع لهم مقابل الخلو نحو نصف الثمن عن كل فدان ، وتكبدت فى ذلك عدة آلاف من الجنيهات خسارة من أصل الثمن ، وتقاضيت الثمن البخيس ، وقاسيت ما أقاسيه فى إخراج الخفيراللص نزولا على شرط المشترى ، ولم يكن أسفى على خسارة المال ، بقدر ما كان على الوقت الضائع ، والظلم الفادح ، الذى أوقعه التشريع على صغار الملاك من طبقتى ، واعتبارهم من الإقطاعيين ،. وقد خرجت من هذه المحنة وفى قلبى من البغض للأرض وملكيتها أضعاف ما كان يحبونى نحوها من المحبة والسحر.. والحمد لله على كل حال».

(٥٧)

ومع كل هذا الألم تجاه الأحوال العامة فإن الأستاذ عنان يشكو أيضا من صعوبة قيامه بالدراسات العلمية فى ظل عهد الثورة فيشير إلى الصعوبات التى كانت تواجهه من أجل الحصول على الإذن بالسفر على سبيل المثال:

«كانت دراساتى وبحوثى الأندلسية حتى سنة ١٩٧٠ ، وخلال عشرين عاما ، هى مهمتى العلمية الرئيسية ، وكنت أحرص أشد الحرص على متابعتها ، وكنت أقوم برحلاتى إلى أسبانيا والمغرب بانتظام ، لا تثنينى عن ذلك أية عقبة ،وحتى فى الأيام العصيبة التى أصبحت مصر فيها سجنا لأبنائها ، ولم يكن يسمح فيها بالسفر إلى الخارج إلا للمبعوثين ورجال الدولة ، وأصبحت تأشيرة الخروج عزيزة المنال ، كنت أتوصل إلى الحصول عليها بكل وسيلة ممكنة ، وذلك بمعاونة بعض أصدقائى القدامى من ذوى النفوذ من الوزراء السابقين أو الحاليين».

ويشير الأستاذ عنان إلى فضل وزير التربية والتعليم الأستاذ أحمد نجيب هاشم فى تيسير سفره:

«وأذكر من هؤلاء بجزيل الشكر والعرفان صديقى العلامة الوفى الأستاذ أحمد نجيب هاشم ، فقد ساعدنى خلال توليه وزارة التربية غير مرة على الخروج إلى السفر بطرق رسمية جميلة ، وكان لى خلال هذه الرحلات الدراسية نشاط علمى فى أبواب ومجالات أخرى ، تتصل بمهمتى الدراسية الأصلية من إلقاء المحاضرات التاريخية ، وشهود بعض المؤتمرات والندوات العلمية».

(٥٨)

كذلك يحرص الأستاذ عنان على أن يؤكد على انصرافه عن الاشتغال بالصحافة فى عهد الثورة مقدما ما يرى أنه أسباب منطقية لهذا الانصراف ، وهو يرفع عقيرته بالقول إن كرامته لم تكن تسمح له أن يضعها موضع المزايدة:

«ولم أفكر على الإطلاق أن أشتغل بصحافة العهد الجديد ، مهما كانت طوالعها المغرية ، وإن كنت من ألمع الصحفيين القدامى ، إذ كنت أربأ بكرامتى وحرية قلمى أن توضع موضع

المزايدة والتغرير ، والدعـايات الكاذبة ، وتأييد نظام ، بدت طوالعه مصطبغة بالألوان النازية ، ومن ثم ابتعدت عن كل نشاط صحفى فيمـا خلا بعض المهام الخارجية التى كنت أضطلع بها وفقـا لذوقى واختـيارى ، ولحساب نشـاطى الخاص ، والتى أوردت منها فيما تقـدم نماذج كثيرة».

«وكذلك فـقد أضـربت عن المساهمـة فى الكتابة فـى المجلات الأدبية ، لأنهـا على قلتـها وضآلة مسـتواها فى العهد الجـديد ، لم تكن خليقة بالبـحوث أو الكتابة الأدبية العـالية ، وقد غلبت عليها ما يسـمى بالنعرة الاشتراكية. وغيرها من دعـايات هذا العهد ، مما يأنف مثلى من المساهمة فى تحريرها».



ولا يقف الأستاذ عنان فى انتـقاداته عند الصحافة ، لكنه حريص أيضـا على أن ينتقد دور النشر الحكومية المصرية عرضا:

«ثم نشر لـى كتاب «الإحـاطة فى أخبـار غرناطة» للوزير ابن الخطيب ، وهـو الذى قمت بتحقيقه ، وعكفت أعواما طويلة على تصـحيح نصه ووضع حواشيه ، والذى قدم إلى المطبعة منذ سنة ١٩٧٢ ، واستـمر بمجلداته الأربعـة تحت الطبع حتى خـريف سنة ١٩٧٨ ، حيث تم بحمد الله إكمال طبـعه بعد مجهود طويل شاق ، كان يزيد من متاعـبه وآلامه إهمال «الشركة المصرية للطباعة والنشر» القائمة بطبعه وتسويفها المـستمر ، وتقصير عمالة لا ضمير لها ، ولا شعور بالواجب أو المسئولية ، أسوة بمعظم منشآت القطاع العام».

(٥٩)

ومع هذا الهجوم على عهد الثورة فإن الأستاذ عنان لا ينكر أن المجاملات الكريمة تترك أثرا طيبا فى نفوس أمـثاله ، من ذلك حديثه عن مشاركة الرئيس عبـد الناصر وبعض رجال الثورة فى مجاملته عند وفاة والدته على الرغم من خطته التى كانت تقضى بتجنبه إقامة السرادق:

«وحملت فى ظهـر اليوم التالى ، بعد الصـلاة عليها فى الجـامع المواجه لمنزلنا ، لكى تدفن مـباشرة فى الإمـام الشـافـعى ، وذلك دون إقـامـة سرادق أو تشـيـيع جنازة ، تجنبـا لبـعض الإجراءات التى كانت تعمل بالنسبة لوفيات الأشخاص ذوى المكانة الخاصة ، ونشر النعى فى اليوم التـالى بجريدة «الأهرام» وأحـييت ليلة المأتم بمنزلنا بالمعـادى ، بيد أنه وقعت المفاجأة ، وكانت الدهشة حينما وردت فى اليوم التالى برقية تعزية من السـيد الرئيس جمال عبد الناصر،

وبرقيات أخرى من بعض رجال الدولة مثل السيدكمال الدين حسين وغيره ، وبالرغم من أننى قمت بما ظننت أنه يسدل ستارا على الحادث من الإجراءات ، ويجنبنى هذه المجاملات وأمثالها ، إلا أن هذه المجاملات الكريمة ذاتها كان لها فى نفسى أطيب وقع ، واقتضى أن ذهبت إلى رئاسة الجمهورية وقيدت اسمى للشكر بدفتر التشريفات».

(٦٠)

ويتحدث الأستاذ عنان فى مذكراته باعتزاز وتواضع عن مشاركته فى كثير من الأنشطة العلمية خارج حدود وطنه ، ومنها على سبيل المثال مشاركته فى مهرجان الاحتفال بالذكرى التسعمائة لوفاة الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبى ، وقد نظم بمدينة قرطبة مسقط رأس هذا الفيلسوف سنة ١٩٦٣.

كما يشير إلى أنه شهد فى ديسمبر سنة ١٩٦٧ جلسات الدورة الثقافية العربية الأسبانية التى عقدت فى ثغر مالقة ، واشترك فى أعمالها حشد من العرب والأسبان والإنجليز والفرنسيين ، وإلى أنه شهد «مؤتمر التاريخ الآسيوى» بمدينة نيودلهى عاصمة الهند ممثلا للحكومة المصرية مع صديقه المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، وذلك منذ الثامن من ديسمبر إلى الثالث عشر منه سنة ١٩٦١ ، وإلى أنه حضر بالجزائر عدة مؤتمرات لملتقى الفكر الإسلامى ، الذى يعقد بها كل عام ، والتى يشرف على تنظيمها منذ البداية صديقه الأستاذ مولود قاسم وزير الشئون الدينية فى الجزائر ، وكان أول مؤتمر حضره سنة ١٩٧٢ ، وقد عقد بمدينة الجزائر بقصر الصنوبر. كما يشير إلى مشاركته فى ندوة تاريخ شبه الجزيرة العربية ، التى عقدت بمدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية ، تحت رعاية جامعة الرياض ، وذلك فى شهر أبريل سنة ١٩٧٧.

(٦١)

ونأتى إلى النزعة الإنسانية فى حديث الأستاذ محمد عبد الله عنان فى هذه المذكرات ، ومن الحق أن الأستاذ عنان على الرغم من اعتزازه الشديد بانتماءاته وآرائه يحرص الحرص كله على الانتصار للنزعة الإنسانية فى الفكر والعلم وهو كما رأينا فى تقييمه لموقف الثورة

من الأجانب يجيد الفصل بين ما ينبغى أن يكون من تعاون مثمر وإفادة ذكية وما لا ينبغى أن يحدث من استغلال بسبب التفوق الحضارى.

ومن المهم فى هذه المذكرات أننا نرى الأستاذ عنان على سبيل المثال يجاهر بانتقاد قرار إلغاء مدرسة المعلمين العليا لا لشىء إلا لكونها من آثار الإنجليز فحسب:

«مدرسة المعلمين العليا التى أنشأها الإنجليز ، وتولوا التدريس فيها ، على يد نخبة مختارة من الأساتذة والمربين البارعين الإنجليز ، وقد تخرج فى هذا المعهد التربوى الزاهر جيل من أعظم ما شهدت مصر من أقطاب الأساتذة والمربين ، الذين نهضوا بأعباء التعليم فى مصر طوال النصف الأول من القرن العشرين. ونستطيع أن نذكر عشرات ، بل ومئات من خريجى هذا المعهد الجليل الذين شرفوا بنبوغهم وجهودهم التربوية جيلهم ،وحملوا على أكتافهم أعباء التعليم الأصيل عصرا ، وتخرجت على أيديهم أجيال ذات مستوى عال من الثقافة والأخلاق ، وهما عنصران يكاد يخلو منهما جيلنا الحالى».



وبعد هذا الثناء الجميل على مدرسة المعلمين وخريجيها نرى الأستاذ عنان يستنكر إلغاء هذه المدرسة ويقول:

«وقد كان من نكد الدنيا أن يلغى هذا المعهد الجليل ، لبواعث تتصل بالميول والاتجاهات السياسية ، ولكونه من آثار الإنجليز ، وازدهر فى عهد الأساتذة الإنجليز ، ثم تعجز الحكومة أن تقيم له مثيلا يضارعه أو يقاربه أصالة وكفاية ، ومن ثم فإننا لا نجد أمامنا فى العصر الأخير سوى أجيال ضعيفة من المعلمين ، لا تمتاز بأى نبوغ أو لمعان ، بل ولا أخلاق متينة ، وأنه من الأسف أن تتغلب الأهواء السياسية فى مجالات يجب أن تكون بعيدة عنها».

(٦٢)

ويعتز محمد عبد الله عنان فى كثير من فقرات كتابه بالجو الذى كانت عليه مدينة ميت غمر التى عمل فيها محاميا فى مطلع حياته ، وهو يكرر هذا الحديث ويرجع الفضل فى تمدن هذه المدينة إلى نشاط الجالية اليونانية التى عاشت فيها وطورتها ، ونجد هذا الحديث فى أكثر من موضع منها قوله:

«وأحب بهذه المناسبة أن أنوه بما كانت عليه مدينة ميت غمر من الجمال ، وروعة موقعها وكورنيشها على النيل ، مقابل قرينتها مدينة زفتى ، وبفخامة صروحها ومبانيها ومنتدياتها ،

وجمال تخطيطهـا ونظافتها ، وقد كـان ذلك يرجع أولا إلى غنى ميت غمر ورخائهـا ، وكثرة رجال المال والأعمال من أعيانها ، وثانيا إلى أنه كانت بهـا جالية يونانية كبيرة نشيطة ، أنشأت بها كثيرا من المحال والمنتديات الجميلة من مقاه ، ومطاعم ، وفنادق ،ومنها مقهى بابا الفخم الكبير ، وكنت أقول دائما إن بلدتى ميت غمر هى أجمل مراكز القطر المصرى ، وأن مدينة المنصورة بندر مديريتى الدقهلية ، هى أجمل بنادر القطر المصرى ، وقد كـان جمال المنصورة فى ذلك العهد يرجع إلى وجود المحاكم المختلطة بها ، وهى تضم جالية أجنبية مختارة من القضاة والمحامين والموظفين القضائيين ، هذا إلى جانب جـالية أخرى يونانية كبيرة نشطة على منوال جالية ميت غمر ، ثم إلى وجود عدد كبير من البيوتات العريقة الأرستقراطية ، ولكن من شديد الأسف أن تغيرت الظروف ،وتطورت الأحوال فـى معظم المدن المصرية فى العهد الأخير ، وفقدت كثيرا من جمالها السابق وفخامتها القديمة ، وذلك لاختلاف موازينها الاجتماعية ، نتيجة ما وقع من تغييرات طبقية مفتعلة بقوة التشريع ، وكانت خسارة المنصورة وميت غمر فى ذلك كبيرة ، أولا لانتهاء حكم عهد المحاكم المختلطة ، [يقصد الأستاذ عنان الانجاز الوطنى الذى تحقق بانهاء الامتيازات الأجنبية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦] ونزوح الجاليات الأجنبية عنها نظرا لما وقع من مطاردتها دون تفريق بين العناصر النشطة الشريفة ، والعناصر السيئة ، وثالثا لسوء الأحوال الاقتصادية ،وزحف الفقر إلى معظم الطبقات ، وانخفاض المعايير ، والتدهور الأدبى والمعنوى الذى أصاب المجتمع المصرى فى العهد الأخير».

(٦٣)

ويعترف محمد عبد الله عنان فى مذكراته ، بل يفخر ، بتعلمه الرقص وممارسته له:

«وهنا أستميح القارئ أن أذكر له أنى كنت من عشاق الرقص وموسيقاه ، وكنت قد تعلمت هذه الرياضة فى القاهرة ، وكنت أجيد رقصة الشارلستون وغيرها من رقصات العصر، ولاسيما «التانجو» ، وأود أن أقول إنه كان لتعلمى هذه الرياضة ، وممارستها فى كثير من الأحيان أثر كبير فى تحسن صحتى ، واحتفاظى برشاقة قوامى ، التى مازلت أحتفظ بها حتى اليوم فى عمرى المتقدم ، وأنا أكتب هذه السطور ، وكنت خلال رحلاتى الأوروبية العديدة لا أترك فرصة متاحة لمزاولة هذه الرياضة ، فكنت أمارسها كثيرا فى فيينا ، فى الكورصالون ، والباكوس ، وفى باريس فى الكولوزيوم وغيرها من الأبهاء الأوروبية. وكان اختيارى لمصاحباتى من الفتيات ينصب دائما لا على الفتاة الجميلة ولكن على الفتاة الرشيقة

التى تجيد الرقص ،وكانت هذه الرياضة تكلفنى غاليا ، ولاسيما خلال رحلاتى الأوروبية ، ولكن كنت أجود دائما بنفقاتها مرتاحا ، كما كنت أجود مرتاحا بنفقات حفلات الأوبرا والموسيقى النمساوية ، وكنت من عشاقها ، أشهدها بانتظام ، طوال إقاماتى العديدة فى فيينا».

وهو يعترف بانصرافه عن المسرح المصرى والسينما المصرية ، ويفصل القول فى ثقافته الفنية الأوروبية حتى يصل إلى قوله:

«وكان مسرح الكورسال هذا وما يظهر عليه من الفرق الأوروبية الموسيقية ، أو التمثيلية الشهيرة من محاسن القاهرة العديدة ، التى قضى عليها النظام الناصرى ، وكان يبز مسرح الأوبرا بما يفد عليه من الفرق التمثيلية اللامعة».

«وقد صقلت هذه الموسيقى ، وهذه المناظر الفنية الرائعة التى واظبت على مشاهدتها فى فيينا وغيرها من العواصم الأوروبية ، ذوقى الفنى ، فأضحى بميوله واتجاهاته يقف عند هذه النواحى ، وانصرفت بذلك انصرافا نهائيا عن الاهتمام بالمسرح المصرى حتى يومنا».

«أما الأفلام المصرية فلم أكن فى البداية متحمسا لها أو مقبلا عليها ، ولم أبادر إلى مشاهدتها إلا فيما بعد حينما ارتقت الشاشة المصرية ، وظهرت فيها أفلام متقنة جادة ، وكنت أواظب بصفة خاصة على رؤية الأفلام التى تضطلع ببطولتها فاتن حمامة ، أو عماد حمدى ، أو حسين رياض ،أو المليجى ، أما الأفلام الغنائية فلم تكن تجذبنى ،وقد أخذ هذا الميل إلى زيارة السينما فى دور القاهرة يغيض لدىّ شيئا فشيئا ، ولاسيما حينما انحطت مستويات الجماهير المصرية فى العهد الأخير ، ثم غاضت هذه الرغبة بعد ذلك بتاتا ، فلم أدخل دارا للسينما فى القاهرة منذ أعوام طويلة ، وكنت أستعيض عن ذلك بزيارة دور السينما الأوروبية خلال وجودى بالخارج ، ولاسيما فى فيينا ومدريد ، وكنت أفضل رؤية الأفلام المصرية الممتازة أو الأجنبية بمنزلى على شاشة التليفزيون مع أفراد عائلتى ، ومازال هذا رأيى حتى كتابة هذه السطور. كما أنى هجرت زيارة مقاهى القاهرة ومنتدياتها فى العهد الأخير بتاتا ، بعد أن انحطت مستويات هذه المقاهى ، وانحطت مستويات زوارها إلى حدود تنفر منها النفوس الكريمة ، مكتفيا فى ذلك بالاجتماعات الجماعية المحترمة خلال المناسبات الرسمية ، أو المؤتمرات العلمية وأمثالها ، وفى نظرى أن مدينة القاهرة العظيمة غدت ، مع شديد الأسف فى عهدنا الحاضر ، مدينة موحشة مبتذلة من النواحى العمرانية والاجتماعية والجمالية ، ولم تبق لها معاهد أو منتديات تصلح للطبقات المحترمة ، التى كانت تعمر القاهرة القديمة والمنتديات القديمة».

مذكرات المفكرين والتربويين
تكوين العقل العربي

4

العريان والزمان

مذكرات:

د. محمد على العريان

دار الخيّال

(١)

للدكتور محمد على العريان اسم ومكانة بين علماء التربية المصريين المعاصرين ،وهو من أبرز رجال طائفة العلماء الذين لم يقدر لمصر أن تنتفع بهم لأنهم وصلوا إلى مرحلة النضج الأكاديمى فى حقبة لم تكن بلادهم ـ أو بالأحرى النظام السياسى فيها ـ يرحب بالعلم ولا بالعلماء إلا فى حدود وأطر معينة اسمها النظام ، وقد حصل على درجة ليسانس الآداب الممتازة عام ١٩٣٩ من كلية آداب القاهرة (أما الدكتور عبدالرحمن بدوى فقد حصل على هذه الدرجة فى العام السابق مباشرة عام ١٩٣٨ ، وأما الدكتور شوقى ضيف فقد تخرج قبل هذين فى عام ١٩٣٥) ، ومن هذا الجيل عدد كبير من العلماء الذين آثروا العمل خارج الوطن حين ضاقت بهم السبل النفسية فى الوطن الحبيب على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون يحظون بكراسى الأساتذة فى الجامعات المصرية ، لكنهم فى واقع الأمر كانوا يعانون الضيق النفسى والعقلى من تردى الأوضاع الأكاديمية والسياسية ، ولم يكن أمامهم إلا الخروج.

تخرج الدكتور العريان فى قسم اللغة الإنجليزية ، وبسبب تفوقه نال بعثة إلى بريطانيا ، لكنه مرض فى أول بعثته وعاد إلى وطنه ثم طلب تغيير البعثة لدراسة التربية وعلم النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية فأجابه السنهورى باشا وزير المعارف إلى طلبه ، وكان الدكتور العريان قد تأهل عام ١٩٤٠ بدبلوم فى التربية من معهد التربية العالى للمعلمين (١٩٤٠) ، وعمل مدرسا للغة الإنجليزية فى مدرسة دمنهور الثانوية ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية

حصل على درجة ماجستير فى علم نفس الناشئة من جامعة كولومبيا فى نيويورك (١٩٤٩) ، كما حصل على الدكتوراه من نفس الجامعة بعد ثلاث سنوات (١٩٥٢) فى فلسفة التربية.

عقب عودته عمل الدكتور العريان أستاذا للتربية وعلم النفس فى المعهد العالى للمعلمين فى الإسكندرية ، ثم انتقل عند إلغاء المعهد إلى كلية التربية بالقاهرة ، وفى أثناء ذلك تولى الدكتور العريان عدة مناصب فى الحياة العامة والثقافية خارج الجامعة فانتدبته اليونسكو خبيرا لتدريب المعلمين فى الخرطوم ، كما اختارته مصر مديرا لمكتب الاستعلامات السياحية فى نيويورك حيث درس من قبل ، وعمل أيضا فى دار التحرير للطباعة والنشر ، كما عمل فى قسم الإذاعة والترجمة فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك.

وفى فترة ازدهار نشاط مؤسسة فرانكلين للطبع والنشر فى القاهرة ، اختير الدكتور العريان مستشارا للمؤسسة ، ثم مديرا فنيا ، وفى هذه الفترة ترجم وراجع مجموعة من الكتب الأمريكية فى تخصصه.



على الصعيد الأكاديمى اختير الدكتور العريان أستاذا زائرا فى أمريكا لمدة عامين ، ثم انتقل بعد هذا إلى استراليا مهاجرا حيث أصبح أستاذا للدراسات الإسلامية والعربية فى جامعة كنبرا.

للدكتور العريان مذكرات مبكرة عن فترة شبابه لم أعثر عليها وهى بعنوان «يوميات معلم الصبيان» نشرها فى دمنهور سنة ١٩٤٧ ، كما نشر قبل هذا كتاب «فوق الأنقاض» فى دمنهور سنة ١٩٤٦ ، وبعد عودته من البعثة نشر مجموعة من الكتب التربوية المهمة: «مفاهيم جديدة للتربية» (١٩٥٥) ، و«ركيزة التربية» (١٩٥٩).

كما ترجم «النفس المنبثقة» (١٩٦٠) ، و«نافذة على الميدان» (١٩٦٥) ، و«لماذا نعلم؟» (١٩٦٤) ، و«أنا والمدرس» (١٩٦٤) ، و«أحاديث للمعلمين والمتعلمين» (١٩٦١) ، و«قاموس جون ديوى للتربية» (١٩٦٤)» ، و«البراجماتية» (١٩٦٥) ، و«مناشط الطلاب فى المدارس الثانوية» (١٩٦٤).

وفى أثناء هجرته نشر بالاشتراك مع سماء العريان «قبس من القصص الاسترالى» ، كما كان واحدا من الذين ترجموا كتاب «حصاد الفكر» وذلك بالاشتراك مع الدكاترة زكى نجيب محمود ومنيرة حلمى ومحمد جمال الفندى ورجائى مقار.

(٢)

صيغت مذكرات الدكتور العريان بطريقة اللقطات المتتابعة التى تصور مراحل متعددة من حياة صاحبها التربوى الكبير [دمنهور ـ أكسفورد ـ الإسكندرية ـ نيويورك ـ القاهرة ـ لندن ـ بون ـ باريس ـ لوس أنجليس ـ سان فرانسيسكو ـ واشنطن ـ أستراليا].

وأحب أن أعترف فى بداية عرضى لهذه المذكرات بالمعاناة التى بذلتها من أجل تتبع الفكرة الواحدة على مدى صفحات المذكرات المتباعدة ، ولست أبالغ إذا قلت إن بعض الأفكار الكثيرة التى قدمتها من خلال عرض هذه المذكرات تجمعت لدى من أكثر من عشرة مواضع من حديث صاحب المذكرات المسترسل ، وبوسع القارئ أن يتصور مدى عنائى فى جمع أكثر من خمسمائة اقتباس وإعادة ترتيب هذه الاقتباسات مرة أخرى ، بل إنى حفى بأن أذكر أننى كنت أجد الجملة الأولى فى فقرة من فقرات الدكتور العريان صالحة للاستشهاد بها فى موضع من المواضع ، ثم أجد الجملة الثانية التالية لها فى نفس الفقرة صالحة للاستشهاد بها فى موضع آخر بعيد تماما عن الموضع الأول ، وليس هذا فحسب ذلك أن الدكتور العريان كان يكتب كثيرا من الفقرات بأسلوب القفز العقلى المترابط فى جوهره ، وإن لم يكن بالطبع مترابطا فى المعانى التى يتناولها ، ومع هذا كله فمن الحق أن أشير إلي أن هذا الرجل العظيم لم يناقض نفسه ، ولم ينكث عن رأى أبداه ، ولا عن عقيدة اعتنقها ، ولا عن موقف اتخذه.

(٣)

تبدو هذه المذكرات حافلة بما قد يصنف على أنه «مرارة» المؤلف تجاه مجتمعه وظروف وطنه ، وهذا حق ظاهر فى المذكرات ، بيد أننا لابد أن نستوعب أسبابه ودوافعه وهل كانت حقا بمثابة دافع كاف إلى كل هذه المرارة ، وهى الظاهرة البارزة فيما صادف هذا الرجل فى حياته العملية على أرض وطنه مصر.

يبدو لى ـ والله أعلم ـ أنه كان من الطبيعى أن يكون الدكتور العريان برما بالحياة والمجتمع على نحو ما عبر فى هذه المذكرات ، ولكن الذى لابد لنا من الإشارة إليه أنه لم ينطو على نفسه ولم ينعزل ،وإنما كان إيجابيا على الدوام ، فهو قد هاجر إلى بلاد الله الواسعة مرة بعد أخرى ، كما أنه ظل يتحرك بعلمه وعمله من تخصص إلى تخصص ، ومن مجال إلى مجال ، وهو لا يبكى حظه بقدر ما يبكى حظ وطنه ومجتمعه ، وهو فى قرارة نفسه وعقله

أقرب إلى الرضا منه إلى السخط ، لكنه يخشى أن يتحول رضاه أو تعبيره عن رضاه إلى نوع من المسكنات لمن يبغى لهم الطموح ونشدان الأفضل ، لهذا فإنه يروض نفسه على الرضا ويروض الآخرين على النقد الفعال الإيجابى.

نستطيع إذن أن نقول إننا نرى فى هذه المذكرات روح المواطن المنتمى الذى يهمه وطنه قبل نفسه ، ويهمه شعبه قبل أسرته ، وهو حفى بالنماذج المضيئة ، يلقى عليها كثيرا من التعريف والتقريظ ،كما هو حفى أيضا بنقد النماذج السيئة وهو يلقى عليها أضواءه الكاشفة الكفيلة ببيان وجه الحقيقة.

وهو طوال هذا الكتاب لاذع فى نقده ، جاد فى أحكامه ، لا يهمه إن رضى الناس أو سخطوا ، فهو يبغى وجه الحقيقة وينشد مستقبلا أفضل لوطنه وشعبه ، وهو يحدثنا كثيرا عن توءم روحه شقيقه الأصغر السفير العظيم فقيه القانون الدولى الدكتور عبدالله العريان ، كما يحدثنا عن والده ووالدته وجده ، لكنه فى المقابل لا يحدثنا عن أبنائه ولا عن أحفاده ولا عن بقية اخوته ومنهم بعض أعلام هذا الوطن.

(٤)

يقدم الدكتور محمد على العريان لكتابه بمقدمة طويلة تتعدى فى حجمها ربع الكتاب ، لكنه يلخص فيها حياته وطباعه وتاريخه على طريقة المتحدث عن الصفات والسجايا بديلا عن الأحداث والسنوات ، وهو يجيد هذا الحديث ويجيدالاستشهاد بالشعر وبالمأثور من القول ، كما يجيد صياغة التناقض على نحو لم يسبقه إليه أحد ممن كتبوا سيرتهم الذاتية.

وهو يتحدث عن مذكراته فى وسط الكتاب مشيرا إلى أنه بدأ يكتبها فى سنوات مبكرة:

«وعلى مدى نصف قرن من الزمان وقلمى يسيل بأنهار من الحبر على الورق ، فأنا أكتب يومياتى وأنا بعد طالب بالجامعة بكلية الآداب منذ سنة ١٩٣٥ . ومع اعترافى بأن محاذير التكرار واردة فى سياق هذا الكتاب فإننى حاولت تلافيها بقدر ما استطعت. ولست أحاول فى هذا الكتاب أن أوقظ أشباح الماضى النائمة لمجرد الفرجة عليها. إننى أستدعيها لكى أتفاعل معها أمام القارئ ، وفى محضره ، بالإدراك الإرادى بذاكرة واعية. ومن الواضح أننى أتفاعل معها وأعرضها وأقلب فيها وأجردها من الأقنعة والباروكات والزيوف ، لكى تبدو على حقيقتها من منظور رؤاى وقيمى ونزعاتى وأشواقى».

ويتحـدث الدكتـور محـمد على العـريان عن السبب الذى دعـاه إلى تطويل المقدمـة التى استغرقت ١١٦ صفحة:

«ولعلى أطلت فى هذه المقدمة ، وكانت نيـتى ألا أطيل ، ولكنى وجدت حقا علىّ أن أقدم وأوضح. لقـد طوفت فى الدنيـا وعشت فى أمـريكا وأوروبا وزرت اليـابان والصين وجنوب شرق آسيا ، هاجرت إلى أستراليا ، ولكن مصر عندى هى أم الدنيا كما قال شوقى:

وطنى لو شُغِ لـتُ بالخلد عنه　　　نازعـتنى إليـه فـى الخلد نفـسى

«وشاهدت تطور الأمم المتـحدة من ساحة للمواجـهة بين أمريكا وروسيـا وأطوار ما بعد مؤتمر باندونج ، حـيث دخلت مجموعـة من دول إفريقيا وآسـيا لتكون كتلة لها وزنهـا عندما أصبح عددها مـائة وخمسين دولة ، وكما تطورت الأمم المـتحدة من سابقتـها فلسوف تتطور الأمم المتحدة إلى حكومـة عالمية فهذه سنة التطور ، ولن تجد لـسنة الله تبديلا. وآمنت بالسلام العـالمى ، وبدور الأمم المتحـدة فى إقـراره. وعملت خـبـيرا باليـونسكو ، وأسـهمت ببـعض المقالات فى مجلتها مبشرا بالحكومة العـالمية وبإرساء قواعد السلام عن طريق التربية من أجل عالم أفضل».

(٥)

هل لنا أن نتناول الآن دوافع الدكـتور العريان إلـى كتابة مـذكراته ، وتفضـيله للأسلوب الذى كتبها به ، وتفسيره للتوقيت المتأخر الذى كتبها فيه.

يحرص الدكتـور العريان منذ مقدمة مـذكراته على الإشارة إلى الصعاب التى واجـهته فى حياته ، وأنه لولا سفره إلى أستراليا لفقد عقله. كما يعترف فى المقدمة بأنه وجد المذكرات بعد أن كتـبها تتناول من الشـخصيات مَنْ كـان يفضل ألا يتناولهم ، ومع هذا فـإنه آثر أن ينشرها على هذا النحو ، كما يعبر عن أمنيته فى أن يرى كتاب مذكراته فى أيدى القراء ، وهو يقول:

«فى طفولتى عشت فى عالم بشـوش الرحاب ، كانت أمى لأبى سكنا ووزيرا ، وكان أبى لأمى مودة ورحمة. بعـد موت الوالدين خضت العباب وعبرت الجسـور! وخضت فى الحياة خوض الجسـور لا الحذور ، ولم أحفل أبدا بالعـواقب ، وما قضيت من الدنيـا أربا إلا رغبت فى آراب ، وكم ضجت لواعجى بغير صواب. ولولا هجرتى إلى أستراليا لضاع صوابى! كم من لحظات وأحـداث لا تغـيب عن ذاكـرتى! الألم فيـهـا كـان كالسكـاكين يمزق اللحم من اللحم».

ويشير الدكتور العريان إلى إحساسه بدنو الأجل وإلى أن إحساسه هذا يضاعف مسئوليته تجاه كتابة ونشر تجربة حياته:

«ومع أن الختام أصبح مرهقا ، والموت حتم ، والعمر ينصرم ، فإننى أتمنى أن أرى هذا الكتاب فى أيدى القراء. إنها مدخرات دهر ، وجهد عمر ، وحصاد عصر اختزنتها الذاكرة. أو اقتنصها القلم لتأخذ طريقها مسجلة فى كتاب منشور. ولما صح لدى العزم على نشرها وجدتها لا تخلو من نقد شديد لأشخاص كنت أوثر أن أغض عنهم الطرف ، خصوصا أن منهم مَنْ قضى نحبه ، ومع ذلك فإن الذى سجلته نزر من بحر ، ومجة من لجة».

(٦)

بعد ثلاثين صفحة من الحديث المستطرد عن شخصيته وسماتها يشير الدكتور محمد على العريان إلى غايته من نشر أو كتابة هذا الكتاب وإلى حرصه على الصدق المطلق فيما يرويه وفيما يبديه:

«وهذا كتابى الحميم الذى أريد أن أقول فيه كلمتى قبل الرحيل ، وهو فلذة من فؤادى سلكتها فى اليراع ، ثم نثرتها على الصفحات. والوقائع التى أسردها هى من قبيل العِبَر وصدق الخبر ، فيما بحق التاريخ ، لا من جهة المباهاة ، وبم ترانى أباهى؟ وأنا الآن مُعَلَّق بخيط فوق هاوية الأبدية ، وإنى أسترحم الله يوم يأذن بانقطاعه أن يهزنى هزا رفيقا ، لأرفع بصرى إلى فوق ثم أطبق أجفانى على آخر قبس من النور».



ونرى الدكتور العريان يلجأ إلى كثير من التعبيرات والتشبيهات التى توحى بمدى ما يحسه من مسئولية خلقية ووطنية عن نشر مذكراته وروايتها:

«وقبل أن ينزل صمت الأبدية ، وكل مَنْ عليها فان ، والموت حتم ، أريد أن أنفض ما فى جعبتى كتابا منشورا عسى أن ينفع الناس ، فيفيد القارئ من أخطائى وعثراتى».

«وأعلم أننى فى سباق مع الزمان ، وقلبى قد يتوقف نبضه فى أى لحظة.. وأجلى ليس عليه سلطان».



ويشير الدكتور العريان (ولا نقول يعترف) إلى أنه سجل هذه الشهادة حين بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، وأنه لم يجد صعوبة فى تذكر ماحدث طوال هذه الفترة:

«مع دنو الرحيل ـ وقد بلغت الخامسة والسبعين ـ أسجل شهادتى وذكرياتى وانطباعاتى وآرائى ووجهة نظرى ، وما حويت من الحياة ، وما حوت الحياة منى بعد طول الرحلة وعثرات الطريق».



وفى موضع آخر يتأمل الدكتور العريان فى علاقته بالزمن والتاريخ فيما مضى من حياته . مؤكدا الفكرة ذاتها:

«على مدى نصف قرن من الزمان ـ شغل معظم القرن العشرين ـ أرانى اليوم موصول الجذور بما قد مضى ولَمّا يمض بأجمعه ، إنه حاضر كله فى ذاتى وفى مكنون اللاوعى ، ولكنه ـ من حيث الزمان ـ قد مضى ، وتجارب السنين وحصاد السنين مزيج من الحلو والمر ، والنجاح والفشل ، والرضا والسخط ، والنشوة والحسرة. واليوم مع دنو الرحيل أقول كلمتى ، وكلما تأخرت مدتنا فى هذه الحياة ـ هذه الرحلة من الميلاد إلى الموت ـ رأينا من الزمان عجائب ، وما من كاتب إلا وستبقى كتابته ، وإن فنيت يداه».



ومع هذا فإنه بعد أكثر من عشر صفحات يتحدث بنوع من القلق عن ملامح شخصيته فى هذه السن وهو يضيف إلى هذا القلق الظاهر قدرا من التأمل فيقول:

«بمجىء الخامسة والسبعين يجىء نضوب الأعصاب ، وبرودة الاضمحلال ، وتنكر معالم الدنيا ، وتتألب العلل وأهوال العجز. إن الإنسان فى هذه السن يصبح نفسين تمضيان فى بحر الحياة فى قارب واحد: إنسان الماضى ، وإنسان اللحظة الراهنة.

«أو ربما ثلاثة أنفس: الماضى ، واللحظة الراهنة ، والمستعد للآخرة مع دنو الرحيل فى هذا الهزيع الأخير من العمر.

(٧)

ومع ما يبدو لنا من ثقة متناهية يبديها الدكتور العريان فى أحكامه التى يصدرها ، وبخاصة تلك التى يصف بها نفسه وسلوكه ومواقفه فى الحياة ، فإننا نراه ـ شأن كل الأسوياء ـ يعاود التفكير فى أمر نفسه ، كما يحاول الوصول إلى نقاط التوازن فى تكوين الصورة التى لابد له من أن يكونها ، وهو لا ينكر أنه كان يعانى فى بعض الأحيان من أجل البحث عن ذاته ، ويقول:

«أحيانا تتضح لى نفسى بقوة وجلاء ، كما تتضح الأسماك تحت ماء شفاف ، وأحيانا أضطر إلى الغوص لأستخرج ما أبحث عنه ، وأحيانا أصيب الحقيقة بمحض المصادفة ، كما أن وثوب الماضى على الحاضر لا يمر دون قلقلة».

«وعندما تجتاحنى دفعة حيوية شديدة الانطلاق من أعماق الماضى ، فإن ذلك يضاعف من قوة احتمالى للحاضر».



وبعد صفحات أخرى يتساءل الدكتور العريان فى وسط حديثه عن مدى قدرته بعد هذه السن على الاستزادة من فهم الحياة:

«وإنى لأتساءل الآن بعد أن بلغت الخامسة والسبعين: هل فى وسعى الآن أن أستزيد من الحياة بتعميقها أو بتفسيرها وفك طلاسمها أو التحديق فى لغزها السرمدى؟».



ويبدو بوضوح أن العريان يحس أنه لم يزدد وعيا عما بلغه فى الأربعين ، وبدلا من أن يلجأ إلى التوصيف القرآنى القائل بأن الإنسان يبلغ أشده عند الأربعين ، فإنه يأخذ الأمور فى اتجاه آخر فيظن نفسه بلغ الشيخوخة قبل الأربعين ، لأنه منذ ذلك الحين فقد ما يظن أنه الشباب ، ومن ثم فإنه لهذا التفسير يحاول أن يعترف بما يسميه شيخوخته المبكرة:

«ولعلنى أقترب من الإنصاف لنفسى وأدنو من التحقيق حين أقول: إننى عرفت الشيخوخة قبل الأربعين ، وأسرع الذبول إلى شبابى ركضا ، ولكننى لم أفقد أبدا شغفى بالحياة».

(٨)

هكذا نرى الدكتور العريان وهو يكشف عن أن طباعه كانت من أسباب معاناته فى هذه الحياة الطويلة التى عاشها ، وهو فى هذا الصدد يتحدث فى وسط مذكراته عن الفرق بينه وبين صديقه المتفائل عمر بلبع ، ومن الجدير بالذكر أن صديقه هذا ولد فى نفس يوم مولده وأنهما حافظا على صداقتهما طيلة حياتهما:

«وكنت ـ ولا أزال ـ أرى الفرق بينى وبين عمر بلبع كالفرق بين ليبينيتز الفيلسوف الألمانى الذى هو فى ذروة التفاؤل ، وبين شوبنهاور الفيلسوف الألمانى أيضا الذى هو فى قمة

التشاؤم. فعمر بلبع إنسان يرى الخير فى باطن كل شر ، ويجد مع كل عسر يسرا. وهو مؤمن تماما بأن الحياة الدنيا ـ لكونها مجرد مرحلة من الميلاد إلى الموت ـ مجرد معبر يجب أن يتقبلها الإنسان على اعتبار أنها امتحان يتطلب العمل والصبر والكفاح».

«وثمة فرق آخر بينى وبين عمر بلبع فى طول الموجة الانفعالية ، وفى فلسفة الحياة ، فهو قادر على أن يتعامل مع الناس على اختلاف أهوائهم ومنازعهم ومناشطهم ، ولا يحاول تصحيح معايير الناس وموازينهم وفق ما يريد ، ويكتفى بأن يكون صادقا مع مسئولياته تجاه نفسه وتجاه زمانه ومكانه ، ولقد حمل نفسه أعباء مائة حياة فرضتها عليه الظروف ، مما شحذ اقتداره ، ولعله يشعر اليوم بأن السير أجهده ويريد التفرغ للتنسك ، ولكن هيهات! ».



ولهذا كله نرى الدكتور العريان حريصا على الثناء المستمر على صديقه عمر بلبع:

«عمر بلبع صوفى النزعة ، عملى السلوك.. والتصوف فى مسلكه ليس دروشة ، وليس تلاوة مأثورات ، وإنما موقف إيجابى من الحياة. موقف يرفع خسيسة الإنسان وأنانيته ـ سعيا ووعيا ـ على معراج موصول من الإمساك بزمام الدنيا من أجل الفلاح ونفع الناس. التصوف عنده هو القدرة على استخراج أصدق النتائج الدنيوية من أصح المقدمات الروحية ، وأن يكون عمل المتصوف صورة لقوله متفقا مع مخبره».

....

«وأشهد أن أوقاتى ـ فى مصر ـ قد حسنت بالسجايا التى تزكى عمر بلبع وأمثاله وتنقصنى! ».

(٩)

يحرص الدكتور العريان فى وسط مقدمته لمذكراته على شرح ما يبتغيه من العنوان الذى اختاره لهذا الكتاب فنراه يمتد بمصطلح الزمان ليشمل به «الإنسان» فى كل مكان ، وفى كل تفاعل:

«وعندما أقول «العريان والزمان» فإننى أفهم الزمان على أنه طاقة متحركة ، هو الإنسان أيا كان ، وأنى كان فى تفاعله مع الأحداث فاعلا ومنفعلا ومفعولا به ومفعولا فيه ، والذين يقولون: الزمان به فساد يعنون أنهم فسدوا وما فسد الزمان».

ويستطرد الدكتور العريان إلى الإشارة إلى ما تعانيه هذه المذكرات مما نسميه فى الطب بأعراض وأمراض الشيخوخة التى تنشأ نتيجة للسن وللسن وحدها ، ويشير إلى هذا المعنى من وجهة نظر فلسفية ينفى بها فى الوقت نفسه أن تكون كتابته نوعا من الشكوى ، مع أننا نفهم بالطبع أن الكتابة ليست الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الشكوى:

«ولا أذكر أين قرأت: إنه مكتوب فى الزبور: من بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، وأبادر القول بأننى لا أكتب لأشتكى ، وإنما أكتب ابتغاء تسجيل شهادتى على هذا العصر الذى قدر لى أن أولد فيه وأخوض حياتى فيه وأعمل وأنجب وأكابد وأكافح وأهاجر».

«واليوم أفارق مَنْ أفارقه ، وأحسب أن فراقى آخر العهد».



وفى وسط كتابه يعبر الدكتور العريان عن هذا المعنى بطريقة أخرى فيقول:

«... ولسوف يلاحظ القارئ أن علاقتى ببعض الأحياء علاقة جنين برحم ، وببعضها الآخر علاقة فروع وأوراق الشجر بالجذر المدفون فى باطن الأرض ، وببعضها الآخر علاقة العرفان بالجميل التى أرى قلمى عاجزا عن إيفائها ، ولسانى منعقدا عن التعبير عن عميق ولائى وإعزازى».



ويعود الدكتور العريان إلى الحديث عن اختيار العنوان على هذا النحو ذاكرا أنه فاضل بين عنوانين حتى اختار العنوان الأول:

«لقد تنازع عنوان هذا الكتاب اسمان هما: «العريان والزمان» و«الزمان والعريان».

«ورأيت أن يظل الاسم العريان والزمان باعتبار الإنسان فى تفاعله مع الزمان والمكان والأحداث هو الذى يقوم بأداء الأمانة ، ولقد نسيت اسم الشاعر الذى قال:

غير أن الزمان قد يعتريه — غلط فى مسيرة الركبان

فترى فى الوجود آيات فضل — تبهر العقل رغم أنف الزمان

(١٠)

ولعلنا نبدأ الآن عرضنا لما تضمنته هذه المذكرات من وجهات نظر وخبرات خاصة بالإشارة إلى بعض أفكار الدكتور العريان التربوية ، وفى هذا الإطار نعرض أيضا بعض انتقاداته للسياسات التربوية السائدة فى وطنه ، وهو يلخص معاناته مع المسئولين عن التربية

والتعليم فى وطنه فى كثير من المواضع ، وتبدو كلماته قاسية عنيفة لكنها تحمل فى الوقت نفسه أسباب كل هذه المرارة تجاه هذا الواقع الصعب الذى عايشه ، وهو على سبيل المثال يقول:

«ولسوف يرى القارئ فى سياق هذا السفر كم كابدت بسبب المراء والتشنج والافتراء من الذين فرضوا أنفسهم أوصياء على التاريخ وعلى كل فكر ، ووصموا مَنْ يقوم التراث والماضى ويحلله بشتى الصفات المرذولة. وقلنا لهم: فى حياة كل قوم قشور ولباب.. وفى تاريخ كل أمة طغاة وبغاة.. وفى مؤلفات كثير من المؤرخين أخاديع وتزاوير ، وهذه لا يمكن أن تحول القشور إلى حبوب».

ويكرر الدكتور العريان التعبير عن هذا المعنى واصما مخالفيه فى الرأى بسمات يأنف منها كل ذى كرامة ، لكنه يرى أن هذه هى الحقيقة ، لأن هؤلاء يتصدون للأمناء ويرجمونهم بالزندقة والكفر:

«وما من مرة تناولت فيها بالتمحيص أية ناحية من التراث إلا وتصدى لى محتال أو مشعوذ أو بائس أو فاجر حامل شهادة ،متعدد الأمية يتصدى للمفكر الأمين ويرجمه بتهمة الزندقة والكفر ، ويتسبب فى إجهاض كل محاولة لتقويم التراث».



بل إن الدكتور العريان يشير إلى أنه تناول هذه الظاهرة قبل كتابة مذكراته بربع قرن (١٩٦٣) ، وهو يلخص وصفه لظاهرة سيطرة المسئولين بالباطل وسدهم طرق الإصلاح أمام المفكرين:

«وفى كتابى «التسول الأخلاقى» عالجت هذه الظاهرة العدوانية ووصفتها بالسادية ـ المازوكية التى أوعرت السبل وأوعثتها ، وسدت الطريق أمام المفكرين والمربين ، وأقامت فيها القحم والعقبات والموارط والمهلكات ، وشدت من أزر الجهال وأشباه الجهال من وزراء التربية والتعليم الذين أصبحوا وزراء إبان العهد الفاشستى فى التربية ، وكان فيهم غفلة وغرور وهراء وزور ، وبلاء وشرور لا تزال تعانى منه مصر إلى اليوم».

(١١)

وفى جسارة بالغة يهاجم صاحب هذه المذكرات وزراء التربية والتعليم المصريين فى عهد الثورة ، وهو يتهمهم فى نفوسهم وفيمن أحاطوهم بهم عن قصد:

«ولسوف يجد القارئ تجربتى مع هذه النفوس المنفوسة التى خرجت منها البلايا تحمل المنايا للتربية والتعليم مع اعتقاد حاقد مركوز بالرهبوت [هكذا بالأصل] بأنهم خير وزراء أنجبتهم مصر. ولقد أحاطوا أنفسهم بالخفافيش والخناس، وهوام السفه والضلالة، وترزية المناهج والكتب الدراسية، والراقصين على كل حبل!».

ويشير الدكتور العريان إلى أن الأسلوب الذى اتبع فى التربية والتعليم لم يكن يصلح إلا للثكنات العسكرية:

«وخيمت على التربية والتعليم على مدى ربع قرن من الزمان مفاهيم إن صلحت للثكنات العسكرية فإنها لا تصلح للمدارس والجامعات!».

وينتهى الدكتور العريان إلى تقرير:

«إننا اليوم نحس بالفجيعة فيما أصاب التعليم من عطب ومن تخلف!».



وفى أثناء حديثه عن نفسه وحماسه نجده يقفز إلى الحديث عن هذه الفكرة ويقول:

«واحسرتاه على نظم تعليمية باهظة التكاليف تنتج مصائب بدلا من أن تنمى مواهب! والمجتمع بأسره يصاب بداء تعليم لا ينضج، وبلعنة شهاداته المزركشة. إن واقع التعليم الراهن قرحة دامية!».



ويقارن الدكتور محمد على العريان بين طائفتين من أبناء مصر الذين تولوا المسئولية عن التربية والتعليم، فيما قبل الثورة وبعدها، ونجده حريصا على أن يجعل المقارنة حادة إلى أبعد الحدود، فالأولون حملوا الأمانة باقتدار بفضل الجلاء البصرى الذى تمتعوا به، أما الآخرون فقد أضاعوا من عمر التعليم المصرى عشرات السنين:

«لقد أنجبت مصر ثلة من الرواد فى التعليم والتربية والقضاء والاقتصاد والدبلوماسية والقانون والفقه، الذين يجمعون إلى حسن الدراية والتجربة والعلم خصيصة الجلاء البصرى الذى يمكن صاحبه من الاستشفاف ورؤية الحوادث غير المنظورة. وهذه القدرة على الإحساس بنبض المستقبل هى ينبوع كل فكر راكض يكشف الطريق وينير السبيل. وهم يعملون عمل المراصد التى ترصد الأزمات المعاصرة، ويعملون أيضا عمل المرقاب الذى يتنبه لأى عطب أو جرح غائر أو نزيف باطنى. ولقد حملوا أمانة التعليم منذ مطلع هذ القرن حتى منتصفه، فلما جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ انتهى بها الأمر إلى توزير طراز تغلب عليه الأميات

المتعددة أو الثقافة الضحلة ، وأضاعوا من عمر التعليم وتطوره وإنضاجه وإصلاحه عشرات السنين ، ومكنوا فئة المغموصين من تسيير دفة التعليم بلا بوصلة ، واجترحوا السيئات وجعلوا من المعلمين نخالة مرتعشة فى ألوف من المناخل ، ولوثوا كل شىء بجراثيم الفاشستية الخاسئة التى خربت ألوف النفوس ، وامتدت عدواها من فوق لتحت».

«ولا يمكن أن تتيسر العافية لنظام تعليمى بدواء مرتجل أو مرهم أو لصوق على جروح وقروح رمت على فساد. وأبعدوا الكفايات ، وقربوا النفايات «كدابين الزفة» وأجدبوا الخصيب».

(١٢)

ولا يكف الدكتور العريان عن تشخيص ووصف ونقد الصفات التى كانت تتمتع بها الشخصيات «التربوية» التى وكلت إليها الثورة أمر التربية والتعليم فى بلادنا:

«ولسوف يجد القارئ فى فصول هذا الكتاب نماذج الشخصيات التى كانت تنجذب إليها السلطة انجذاب برادة الحديد للمغناطيس. وبدلا من أن يشغلوا أنفسهم بأمر التربية والتعليم والتخطيط ، شغلوا أنفسهم بسفاسفها! وكم رأينا موظفين بلا وظائف ، ووظائف بلا موظفين! وعاهات نفسية شاملة تحتل مراكز السلطة وتمسك بيدها مقاليد الأمور ، فتقطع ما تقضى الأمانة والمصلحة العامة أن يوصل ، وتغلق منارة تربوية مثل معهد التربية العالى بالإسكندرية ، كيدا وجهلا وغفلة وسوء قصد! وكم رأينا ندوات وبرامج ضاجة بالعجز والسخف والفضح ، مع الجرأة على كل شىء والادعاء لكل شىء ، وكنا نسميها أجهزة خصاء التربية».



ثم يردف الدكتور العريان هذا الحديث الأسيف على حال التعليم المصرى وقياداته بقوله:

«إن الذى يؤرخ لما أصاب التعليم منذ سنة ١٩٥٢ إلى اليوم وما أصابه من تشوه وتبديد للطاقة والجهد وتحويله إلى ورطة وأزمة وعاهة مستديمة ، يصاب برجفة من الغثيان من هذه المأساة الفادحة ، ويعتبرها ظاهرة يستحيل أن تتكرر. «إننى الآن أعتذر كل الاعتذار إلى الورق الذى سوف أسجل عليه كل أوحال هذه الفترة وعفونتها ، لقد كانت غثيانا تاريخيا بأسلحة مشحوذة مسددة على عقل الطفل المصرى. وبأبواق تمدح حشرات الوزير ونائب الوزير ومدير مكتب الوزير والنائب الوكيل والحاجب وحاجب الحاجب ، حتى لتتوارى حشرات الأرض

استحياء! «لقد كان عدوانا على جميع القيم الإنسانية والحضارية والفنية ، ولقد «تخلقت» كما يتخلق التشوه والدمامة والصديد».



وفى موضع آخر يتناول صاحب المذكرات الفروق بين أداء هذين الجيلين المختلفين من المسئولين عن التربية والتعليم فى مصر فيقول:

«فى سنة ١٩٥٢ وهو العام الذى عدت فيه من البعثة الدراسية بأمريكا بعد الحصول على الدكتوراه ، كان تصورى وآمالى أنها ثورة على كل نظام أو أنظمة فقدت ضرورتها وجدواها وفاعليتها ولزومها ، وبالتالى فقدت حقها فى الوجود. ولكن الطغاة [هكذا كان يتحدث الدكتور العريان عن رجال الثورة] سرعان ما تخلصوا من القبانى ، وعباس عمار ، ومحمد عوض محمد ، وأسلموا زمام التربية لحلاقين وجلادين وأقزام بسلطات فاحشة باهظة التكاليف ، وعندما أبت بعض الرءوس أن ترضخ لهذا الغزو الصبيانى كان مصيرها الأذى والقذى على يد كل جبار عنيد مناع للخير معتد أثيم».

ومن الطريف الذى ربما لا يتصوره الدكتور العريان نفسه أن واحدا من وزراء التربية والتعليم فى عهد الثورة الذين أفرط فى انتقادهم كان من نفس الدفعة التى تخرج فيها الأستاذ إسماعيل القبانى فى مدرسة المعلمين العليا ، لكنه ظل فى وظائف الوزارة الإدارية حتى أصبح وزيرا لها فى الستينيات بحكم المصاهرة مع الرئيس عبد الناصر ، على حين كان الأستاذ إسماعيل القبانى قد استطاع أن يحفر اسمه فى عالم التربية والتعليم منذ الثلاثينيات.



وفى موضع آخر ينبهنا الدكتور العريان إلى حقيقة بعض الإيجابيات الماضية التى تمثلت فى إسهام الشعب المصرى فى الإنفاق على مؤسسات التربية والتعليم وتمويل العملية التعليمية، وهو يضرب مثلا على هذا بالدور الأهلى فى بناء المدارس :

«والمؤرخ لتاريخ التعليم فى هذا القرن يسجل بكل فخار الدور الذى لعبته الجمعيات الخيرية فى نشر التعليم ، وكانت هذه التجربة الرائدة على يد طائفة تجمع بين العلم والإيثار وبذل الجهد.. ومَنْ ذا الذى ينسى الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجمعية العروة الوثقى ، وجمعية المساعى المشكورة ، وكذلك الجمعيات الخيرية المسيحية التى أنشأت المدارس وفتحت أبوابها لأبناء المسلمين. لم تكن هذه المدارس تدار للكسب مثل المدارس الخاصة الآن ، وإنما كانت تقدم التعليم ، وتكافح الأمية ، وتتفوق على المدارس الأميرية».

(١٣)

ولأن فى حياة كل مهنى بارز واقعة محورية تكشف له ضرورة التحول عن الطريق الذى يمضى فيه إلى طريق آخر ، أو تدفعه إلى هذا التحول ، فإننا نبحث فى حياة الدكتور العريان عن هذه الواقعة ونجدها بسهولة ، وهى واقعة زيارة وزير التربية والتعليم لمعهد التربية العالى بالإسكندرية ، وهى الزيارة التى أتاحت الفرصة للوزير ولأساتذة التربية أن يتناقشوا ، فكانت نتيجة الزيارة قرار إغلاق المعهد ، ويبدو أن الأمر فى هذا شبيه بما يرويه الدكتور عبد الرحمن بدوى عن لقاء هذا الوزير نفسه بمجموعة المستشارين الثقافيين فى الخارج حيث تحدث بعضهم بصراحة فكانت النتيجة استبعاد هؤلاء الذين صدقوا الوزير القول والنصيحة.

نقرأ ما يرويه الدكتور العريان فى أحد المواضع من مذكراته عن هذه الزيارة حيث يقول:

«وأذكر ـ والأسى يحز فى نفسى ـ أن وزيرا كان وزرا زار معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية ، وكان محاطا بطاقم من كبار رجال الوزارة ـ أصنام تهيم فى صنم ـ ودارت مناقشة أيقنت معها أن هذا الوزير مراهق مزمن فى الرؤية والتفكير ، جاهلى النماذج أجوف ، وكان من العسير جدا أن أخفى تقززى ولوعتى».

«وترتب على هذه الزيارة إغلاق معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية».



وبعد صفحات يشير الدكتور العريان إلى هذه الواقعة بطريقة أكثر تفصيلا وألما فيقول:

«وأذكر ـ والأسى يحزّ فى نفسى ـ أن وزيرا للتربية والتعليم زار معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية ، واجتمع بالأساتذة ، وظهرت لهم صورة ومنهم مَنْ يضع ساقا على ساق ، ثم ظهرت لهم صورة فى إحدى الصحف وقيل لهم: إن هذا الفعل الشائن الدال على عدم توقير سيادة الوزير كان القشة التى قصمت ظهر البعير والتى تقرر بعدها إغلاق معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية ، الذى كان منارة لتخريج معلم حى حر نام مفكر له كرامة. وموضع العجب أن ذلك يحدث بعد ثورة ألغت الطربوش والألقاب ورفعت شعار «ارفع رأسك يا أخى».

ومن الجدير بالذكر مرة أخرى أن الدكتور العريان ظل يكرر الحديث عن هذه الزيارة المشئومة فى مواضع كثيرة من كتابه.

ولا يكف الدكتور العريان عن إبداء سخريته ولا مرارته من كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم ، الذى كان وراء إغلاق معهد التربية العالى فى الإسكندرية ، وهو المعهد الذى كان الدكتور العريان يظن أن بإمكانه أن يبدع من خلاله فى خدمة وطنه ، وهو يعرض بهذا الوزير الثائر كثيرا جدا فى مذكراته ، ومن هذه المواضع قوله :

«والآن أحدق فيما جاء بصفحة ٢٢ «فى صالون العقاد» لأنيس منصور: عندما قرأ العقاد أن كمال الدين حسين أصبح رئيسا للجنة الطاقة الذرية ضمن وظائف أخرى كثيرة يقوم بها.

«قال: يا مولانا إن الله لن يحاسبنى على ما أفعل ، وكيف يحاسبنى وقد خلقنى فى عصر كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر؟!».

(١٤)

ويتحدث الدكتور العريان بأسى نفسى عميق عن طبيعة الأساليب التى كانت الثورة تلجأ إليها فى اختيار المسئولين التربويين ، ونراه يشتق فعلا من القمامة ليعبر عن مدى ضيقه وضجره من هذه السياسات ومن هذه الشخصيات:

«وكان صاحب السلطة يتقمم أقزاما جعل منها نائب الوزير الذى كان مصابا بتخلف عقلى واضح ومكر سوقى أوضح يفسد فى وزارة التربية والتعليم. ومن بعده خلف (أقزم) قد يصلح مديرا للمستخدمين ، ولكنه كان قريبا لرئيس الدولة الذى يخر له الجميع ضارعين هاتفين. وكنت أقرأ قراراته وتعليماته صديدا ولجاجة مضنية ، كانت فى الأصل سموما امتصها مديرا للمستخدمين ، ثم أفرزها على التربية والتعليم!».

وهو يعبر عن شعوره تجاه هؤلاء المسئولين حين يتذكرهم فى أثناء إقامته مهاجرا بعيدا عن وطنه:

«فلا تزال بنفسى قروح دامية تنكأ جراحى فتغشانى الكآبة ، برغم بعد الزمان والمكان ، ولا أزال يتضاعف ألمى بقدر ما أتذكر الذين خربوا التعليم فى مصر ، والذين جيفوا الدين [هكذا بالأصل] ، والذين أصابوا كل شىء بالبوار ، فكانوا كمن يمارس علم الكيمياء القديم بالعكس إذا لمسوا معدنا نفيسا حولوه خسيسا».

يشير الدكتور العريان إلى التعريف القديم لعلم الكيمياء على أنه العلم الذى يتوصل به إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة.. وقد كانت هذه العقيدة مسيطرة حتى ثبت خطؤها ، وهو هنا يبتدع وصفا لعلم «خيالى» جديد يحيل النفيس إلى خسيس ، ويسميه علم

الكيمياء القديم بالعكس!! وظنى أن هذا العلم الذى اخترعه الدكتور العريان كفيل بأن يفشل هو الآخر، فليس من الممكن أن يتحول النفيس إلى خسيس مهما كانت الظروف!!



ويعبر الدكتور محمد على العريان عن هذا المعنى الذى يسيطرعليه سيطرة الوسواس القهرى فى فقرة أخرى بعبارات أخرى ليست أقل حدة فى هجومها وانتقادها فيقول:

«لقد أتى على وزارة التربية والتعليم حين من الدهر احتلت فيه وظائفها الكبرى طائفة من البلطجية، ومهمة البلطجى معروفة، لهم عقول مثل كلب بوليسى يقومون بدور الكلب يتشممون ولا يشبعون من شىء».



وهو يشير إلى طبيعة الأمور التى انشغل بها هؤلاء عن أن يؤدوا الوظائف التربوية ملمحا إلى اشتغالهم بكل ما كان كفيلا بالكسب المادى فحسب:

«وانفتحت شهيتهم على المكاتب الثقافية فى الخارج فوزعوها فيما بينهم فى عواصم الدول، وكانوا عورات مدعومة، واشتغلوا بالتجارة، وكونوا ثروات باهظة».

(١٥)

ويضرب الدكتور العريان أحد الأمثلة البارزة على سلوك الشخصيات التربوية المريضة التى لم تكن تعنى بالوظيفة التربوية فى المقام الأول، وإنما كانت تعنى فى نفاق ظاهر ومكشوف بإرضاء السلطة فحسب:

«وبهذه المناسبة فقد كنت ذات عام عضوا فى إحدى لجان اختيار المرشحين للعمل بالدول العربية، كانت كل لجنة تتألف من ثلاثة، كل منا يسأل المرشح سؤالا أو اثنين ثم نوافق على ترشيحه أو لا نوافق، وكان العضو الثالث سيدة قيل عنها آنئذ إنها مسنودة ومهمة إلى آخره.. وكان السؤال الذى تسأله للمرشح (وكانت تنطق الراء غينا): ما هو الموضوع الرئيسى فى الباب الرابع من الميثاق؟ وكان المرشح قد طلب منه الاستعداد للاختبار الشخصى بمذاكرة عدة كتب منها الميثاق، والقومية العربية، وكتاب ثالث عن منجزات الثورة. وكان المرشح يفرح بالسؤال، ويكرر ما جاء بهذا الفصل الرابع. وكنت أوجه أسئلة أراها فى منتهى الأهمية بالنسبة للمسلك الاجتماعى للمرشح، فأعرض مواقف وأسأله كيف يتصرف فيها، وطبعا

قد لا تدل الإجابة المعطاة على صدق المجيب ، لكنها على كل حال تلفت نظره إلى المسلك الاجتماعي والكرامة الشخصية».

ونصل إلى تعبير المذكرات عن رد فعله وهو يشير إلى أنه لم يستطع أن يستمر فى هذه اللجنة التى ضمت هذه الشخصية فترك اللجنة فى الاستراحة:

«وفى أثناء فترة الاستراحة قالت لى هذه السيدة: (ركز على الجانب القومى) ولم أدخل اللجنة بعد ذلك ، واعتبرت مثل هذا الكلام إهانة ، وذهبت إلى المسئول وقلت له: إننى أشعر بمغص وكنت صادقا ، واعتذرت عن بقية أيام الاشتراك فى هذه المهزلة».



ويتحدث الدكتور العريان عن وصوله إلى حافة اليأس من مستقبل التربية والتعليم فى مصر بينما هو كرجل من رجال التربية لا يملك من الأمر شيئا ، وهو يعبر عن هذا المعنى بتساؤلات مريرة يطرحها على نفسه:

«وما مستقبلنا؟ وما مصير التعليم وقد وضعت مقاليده فى أيدٍ تشبه أيدى حلاق يجرى عملية فى المخ».

«كانت الأسئلة تتزاحم فى رأسى تدفع بعضها بعضا.. ما هى مسئولية رجل التربية وهو يرى كل هذا التشويه والتبوير والتبديد للمال والطاقة وكرامة المعلم والمتعلم؟».

(١٦)

وهو بعد كل هذا يتحدث عن موقفه كأستاذ للتربية أو حيرته فى مواجهة كل هذا العبث فيقول:

«وكنت أحمل فى نفسى مرارة وحسرة وبلوى ما أصاب التعليم بالذات فى مصر على يد مَنْ أصابوه بالزمن والوبن والزفن».

هكذا تساعد الدكتور العريان ثروته اللغوية من الألفاظ ذات الجذور القريبة من بعضها مبنى ومعنى وكأنه لا يدرى أن القراء من أمثالنا لا يحيطون علما بما أحاط به علمه.



وفى موضع آخر من مذكراته يتحدث الدكتور محمد على العريان عن هذا المعنى بقدر أكبر من التفصيل فيقول:

«وإلى هذه اللحظة فإنى أشعر بحسرة كاوية عندما أستعرض تاريخ التعليم فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الآن ، وانتهى إلى نتيجة واضحة وضوح الصبح لذى عينين ، أن عملية الإجهاض تمت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ التى أسلمت زمام التعليم ووضعت مقاليده فى يد مَنْ لا يصلح أساسا لتحمل هذه المسئولية ، ومَنْ يفتقرإلى المعرفة والدراية والفلسفة الناضجة لفقه قضايا التربية والتعليم فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وكانت النتيجة حصاد الهشيم ، وقبض الريح ، وتكاثرا سرطانيا بخلايا خبيثة جعلت التعليم اليوم مثل مرقعة الدراويش بعد أن اتسع الخرق على الراقع».

ويبدو الدكتور العريان غير قادر على الخلاص من هذه الذكرى المؤلمة:

«أنا لا أنسى الأيام المظلمة التى عشتها كأستاذ للتربية ، عشناها بعيون مفتوحة ، وقلوب راجفة ، ورأينا كثيرا من النفايات تطفو ويقال عنها كفايات ، وفى خضم رجاف يموج بأحداث متلاطمة ، وسمعنا من وزير كلاما عاميا ـ فى صميم الشئون العلمية ـ ورأينا غوغائيين فرضوا الوصاية على عقول الخبراء والمثقفين وذوى الاختصاص الذين هم أصحاب الحق فى قيادة التربية».

ويصور الدكتور العريان المناخ التربوى الذى قدّر له أن يتعامل معه:

«وشهدنا الغشاوات على الأعين ، والقلوب التى أسدلت على بصيرتها سدا صفيقا من الجهل والغطرسة ، وقمامات من مخلفات الدواوين المعتقة فى دنان الجهل والغرور والبيروقراطية ترسل على الجامعات ومعاهد التعليم من أبراجها السوداء أسرابا من الخفافيش ومن طاقاتها المنفوسة جيوشا من خسيس الحشرات المدخولة بالتنفخ والتعالى الأجوف. هذا نائب وزير ! وهذا وكيل وزارة! وهذا مدير منطقة بدرجة وكيل وزارة! لا يملك سوى الصفاقة والجهل المعتق ، والزعارة التى تنضج ضغينة مترسبة ضد العلماء وذوى الكفاية والدراية.. وكلهم يطيفون إطافة الوثنى بالصنم المدعو سيادة الوزير: قال سيادة الوزير.. رأيت سيادة الوزير.. صرح سيادة الوزير.. هذه تعليمات سيادة الوزير. وكنت أراه مجرد حلاق يعبث فى غرفة عمليات جراحية ، ويبقر بطن المريض ثم يخرج من غرفة العمليات ويدلى بتصريح للصحف: نجحت العملية على الرغم من وفاة المريض!».

هكذا يصل الدكتور العريان إلى تصوير الأمور على نحو مريع وقاتل:

«لقد جاوزت سفاهة هذا العبث كل حد ، وأشهد أن بعضها كان سفاهة مرتجلة ، وبعضها كان سفاهة مدبرة! ولكنها فى الحالتين تركت فى التعليم وفى نفوسنا حزازة من الحسرة ، وتساقطت أوراق شجرة التربية الوارفة الظلال ورقة بعد ورقة!».

(١٧)

ويحرص الدكتور محمد على العريان على أن يضمن كثيرا من الفقرات فى مذكراته مطالبته بإعادة فحص الأمراض التى أصابت التعليم المصرى فى عصور الغوغائية والعشوائية والنكسة:

«إن عملية الإجهاض التى حدثت للتعليم فى عصر الغوغائية والعشوائية وبغتة المفاجآت والتى سببت للتعليم نكسة لا تقل فى شرها عن نكسة ١٩٦٧ ، تحتاج - كما قلت - إلى إعادة فحص وتقويم الأسباب التى أدت إلى هذه النتائج. فما من عاقبة إلا وهى نتيجة لسبب ، وهى بمقتضى السنن الثابتة فى الحياة».



ويبدى الدكتور محمد على العريان حسرته على سيادة نمط «القوالب الجاهزة» الذى فرض على التعليم فى مصر ، وهو يرى هذا الأسلوب بمثابة قمة السخف والخراب:

«أليس من السخف صب الناشئة فى قوالب تقبض على نموهم وتحولهم إلى سبيكة من أردأ الأصناف ، نسبة النفيس فيها واحد بالمائة إلى الخسيس؟ بضاعة كاسدة تخرج من أوكار الصديد الأزلى (المدارس) فى جرعات ثقيلة مدمرة عاجزة معطلة لجهاز التفكير والتدبر ، تعيش عالة على ما خلفه أسلافهم بلا فحص ولا تقويم ولا تعديل ، وتعيش فى حالة استجداء وتسول فكرى مع اقتناع حاقد مركوز بأن (الماضى) هو الحاضر والمستقبل. أليس هذا هو صميم السخف والخراب الذى صاغه الشاعر إليوت فى قصيدته الشهيرة (أرض الخراب)؟».

ثم يدلف بنا الدكتور العريان إلى عالم الأدب الذى يصور من خلاله إحساسه بالمأساة:

«ولقد سبق لى أن ترجمت كتابا لوليام جيمس (أحاديث للمعلمين) وفيه فصل بعنوان: ما الذى يجعل لحياة ما معنى؟ وجاء فى هذا الفصل: إننا بلا جدال نرزح تحت أعباء غشاوة من العمى السلفى ، ترفع عن أعيننا هنا أو هناك فى نوبات متقطعة تنكشف لنا فيها الحقيقة ، ولا جدوى من أن تأمل فى أن تتغير هذه الحالة تغيرا كبيرا ، فأسرارنا الباطنية ستظل فى معظم أجزائها مغلقة دون الآخرين. ويضرب وليام جيمس لنا مثلا بأسبوع قضاه فى أراضى المجمع الشهيرة على شواطئ بحيرة شوتاكوا. مجتمع فيه التعفف والرزانة والمثالية والازدهار والمرح. والموسيقى والرياضة والسباحة وجميع الألعاب الرياضية. نافورات المياه الغازية والآيس كريم تتدفق. ولا توجد أوبئة ، ولا فقر ، ولا مدمنو خمر ، ولا جريمة ، ولا شرطة. المساواة التامة».

ثم يشير فى ارتياح إلى إدراكه قيمة الكفاح:

«ولكن العجب الذى يستنفد كل عجب أننى بمجرد أن خرجت من هذه الجنة الوارفة الظلال إلى عالم الظلمة والشرود والحياة العادية ثانية ، ألفيت نفسى أقول على غير توقع وعلى الرغم منى: أف.. لقد تنفست الصعداء. إننى أشعر بارتياح أن أغادر تلك الجنة.. تلك اليوتوبيا.. ما أشد لهفى على الخروج إلى عالم طبيعى أصيل. دعونى أغامر وأكافح وأنافح وأسعى. وأنطلق فى أرجاء العالم الفسيحة بكل ما فيه من آثام وآلام وتحديات. إن ما تحتاج إليه انفعالاتنا الإنسانية هو الكفاح مستمرا موصولا. لقد أدركت بوميض من البصيرة أننى كنت مغرقا فى عمى سلفى وما ردنى إلى عالم الواقع وأعاد إلىَّ حواسى هو الكفاح. أرانى متفقا مع وليام جيمس فى أن الذى يجعل لأى حياة معنى وقيمة ونفعا هو الكفاح ، هو أن نحاول فى حياتنا القصيرة ، أن نجعل الردىء حسنا ، والحسن أحسن ، ونظل فى هذا الدأب على معراج موصول من الارتقائية والانتهاضية».



ونرى الدكتور العريان فى كثير من المواقف التى يرويها عن البشر والزملاء والأساتذة حريصا على أن يتحدث بعين تربوية ناقدة تنتبه وتنبه فى الوقت نفسه إلى الدور المفتقد للتربية فى صقل سلوك الشخصيات. ويروى الدكتور العريان فى أحد فصول كتابه قصة مطولة كثيرة التفصيلات عن أحد الدارسين المبعوثين إلي أمريكا ، وينتهى منها إلى تشخيصه وتكبيره لظاهرة فقدان الذوق عند هذا المبعوث ، ثم يصل إلى النتيجة التى يبلورها فى قوله:

«إن مجرد التفوق الدراسى وحده لا يعطى أى متفوق حقا لازما للدراسة ، إذ يجب أن يقترن ذلك بشخصية واعية يتوافر فيها الاستعداد للتطور والانتهاض ـ ثم الذوق! ».

(١٨)

ويبدى الدكتور العريان عجبه من المفارقة العجيبة التى يكشف عنها أسلوبنا فى تقويم تجربة الكتاتيب وآثارها الإيجابية والسلبية فى التعليم المصرى ، وهو حفى بأن يتحدث عن التجربة من وجهة نظر علمية غير متأثرة بالرومانسية التى تجعل بعض مفكرينا يطالب بعودتها، وهو يثبت للكتاتيب نجاحها فى تعليم العلوم ، كما يثبت للكتاتيب أيضا جرمها فى بث الجبن والذعر فى نفوس وشخصيات الأطفال:

«إن الذى يكتب تاريخ التعليم فى مصر ، ويتناول الكتاتيب ، يجد نفسه أمام ظاهرة

عجيبة! فالكتاب كان يعلم القرآن والقراءة والكتابة والحساب والإملاء والخط ، ولكنه إلى جانب هذه المعرفة كان يعلم الأطفال الجبن والذعر واقتران التعليم بالقسوة والعقاب».

«وكم تسبب الكتاب لأطفال فى عاهات فى أبصارهم! وكان معظم الذين يقومون بالتعليم فى هذه الكتاتيب من العوام وأشباه العوام الذين حفظوا القرآن واحترفوا التعليم ، وكانوا فى غاية التخلف.. صحيح أن بعضا من الفلتات التى تلقت تعليمها الأولى فى الكتاب أفلتت من هذه الآفات ، ولكنها فلتات لا يقاس عليها!».

«إن الذين يذكرون الكتاب بالخير ـ كماض مضى ـ إنما يذكرونه برومانتيكية وحنين إلى الماضى ، كما يذكرون النورج والساقية والشادوف. صحيح أن بعض الكتاتيب فى بعض البلاد أو القرى كان يقوم عليها بعض المعلمين الأفاضل خلقا (وعلما) فى حدود علم ذلك الزمان ، وصحيح أن آلافا من المدارس اليوم لا تزيد على كتاتيب حديثة زاخرة بالمعيوهين [أى ذوى العاهات] والمنفوسين والمعقدين وصانعى العاهات ، لدرجة أنه ينطبق عليها تسمية (زيطة) صانع العاهات للمتسولين فى رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ».



ويحرص الدكتور العريان على التنبيه إلى خطورة الخطأ الذى درجنا عليه فى وزارة التربية والتعليم باعتبار مدرسى التعليم الثانوى أرقى من مدرسى التعليم الابتدائى ، وهو ينبه إلى خطورة هذا الخطأ وانعكاسه على إهمال التعليم الابتدائى:

«ولقد كان من رأيى دائما أن يكون أكثر الناس مؤهلات تربوية هم مدرسو المرحلة الأولى بالذات. ولكن معلم المرحلة الابتدائية فى بلادنا ناقص المؤهلات اللازمة ، كانوا فى الماضى يقولون: فلان نال الترقية من مدرس ابتدائى إلى ثانوى. ويسمون ذلك ترقية.. ترقية من ماذا؟ إلى ماذا؟».



ويعود الدكتور العريان إلى التنبيه على حقيقة أن مراحل التعليم ليست سلما ، وأن إعداد المعلم القادر على تربية الأطفال فى بداية حياتهم هو وحده الكفيل بخلق الشخصيات المتزنة السوية:

«مراحل التعليم والنمو ليست مثل السلم ، فلكل مرحلة من مراحل التعليم خصائصها وخبراؤها وأصلح المعلمين لها. وإذا استطعنا إعداد معلمين ومعلمات من طراز عالم مثقف قادر فاقه لهذه المرحلة ، فإننا نسهم فى إعداد أطفال أسوياء ، ابحث عن الدكتاتور والطاغية والإرهابى والنصاب والمجرم والدجال ، وارجع إلى طفولته وصباه ، وستعرف لماذا هو أو هى

عاهة نفسية مستديمة ، ولماذا هو أو هى خميرة عكننة ، ولماذا هو أو هى سادى/ مازوكى ، ولماذا هو أو هى لديه قابلية للصب فى قالب ، ولماذا يهيج للشىء التافه ، ولا يوقفه رادع أو وازع! ولماذا يتعسر استخلاصهم من الوحل الذى يغوصون فيه!».

(١٩)

ونأتى إلى حديث الدكتور العريان عن علاقته بمهنة التعليم ، وهو حريص على تقديم الاعتراف بعشقه لهذه المهنة ولكنه يقرن هذا الاعتراف بالإشارة إلى نجاته فى الوقت نفسه من خلق آخر يبدو مصاحبا لها وهو أن يكون المرء «سوسة كتب»:

«وكثير من زملائى يعتبرون مهنة التعليم سجنا ، وكنت أعشق هذه المهنة ، لأنها كل المهن فى واحدة.. والنهم إلى المعرفة يلازمنى فى شيخوختى ، ولكننى لست مصابا بداء «سوسة الكتب».



وهو يتحدث عن بداية اختياره للدراسة فى كلية الآداب ثم لالتحاقه بوظيفة التعليم فنراه حريصا على الإشارة إلى أنه آثر هذه الكلية من قبيل مخالفة الشائع فى مثل حالته ، وكان الشائع لمن هم فى تفوقه وطبيعته هو الالتحاق بكلية الحقوق ، كما أنه يشير إلى تمسكه بهذه الرغبة على الرغم من محاولات أهله إثناءه عنها ، وبعد هذا يشير إلى أنه كان مفتونا بالعقاد وطه حسين وأحمد أمين بفضل ما قرأ فيقول:

«وأحسبنى حتى هذه الساعة لم أبلغ معرفة الباعث فى نفسى على اختيار مهنة التعليم مبلغ اليقين الجازم ، ولكننى على يقين جازم من أننى رغبت عن الحقوق رغم الحالة الاجتماعية الحافة بخريجيها من قضاة ووكلاء نيابة ومحامين ووزراء ، وكان معظم رؤساء الأحزاب السياسية من خريجى الحقوق ، ولقد حاول أقاربى لى ذراعى للالتحاق بالحقوق ، لكننى صممت على الآداب ، وأنا حر ، ثم إننى كنت مفتونا بمقالات طه حسين وأحمد أمين والعقاد ، وهؤلاء جميعا ليسوا خريجى حقوق ، وكان لمكتبة الوالد الزاخرة بكتب الأدب والفقه والتاريخ تأثير كبير على اتجاهى ، ما فى ذلك أدنى ريب».



ويعود الدكتور محمد على العريان إلى الحديث عن العوامل التى نفرته من دراسة الحقوق

فيشير إلى قلة احترامه للمحامين فى مدينته ، وإلى عقيدته [التى تبين له خطؤها] فى أن بالإمكان الإلمام بالقانون من دون دراسة:

«... وكنت وأنا طالب بالمدرسة الثانوية الخطيب المختار فى كل مناسبة ، وقد استقر فى أعماقى أن بين الأدب والتعليم عروة وثقى لا انفصام لها ، وأن الإلمام بالقانون يمكن أن يتحقق بدون الالتحاق بكلية الحقوق (ثم تبين لى فيما بعد أن ذلك مستحيل). ولم أكن أشعر باحترام كبير للمحامين فى مدينة دمنهور باستثناء الأستاذ عبد المجيد الحمامى ، وتكونت لدى صورة عن المحامى أنه إنسان قد يدافع عن الباطل وعن المجرم لقاء المال.وفى أثناء دراستى بكلية الآداب كان من هجيراى أن أتسلل من غمار رفاقى بالكلية وأيمم شطر كلية الحقوق لأحضر محاضرات السنهورى ، وعلى بدوى ، وأحمد إبراهيم ، والشيخ خلاف ،وعبد المعطى خيال. ولكن مقدرتى على حفظ المحاضرة الملقاة فى كلية الحقوق كانت مقدرة محدودة».



وهو يشير باقتضاب إلى علاقته بالوظائف التعليمية فى شبابه الباكر حيث كانت البعثات متوقفة طيلة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فيقول:

«وعملت بمهنة التعليم منذ تخرجى فى انتظار انتهاء الحرب ، لأننى مرشح لبعثة لدراسة الأدب الإنجليزى فى انجلترا. فلما سافرت إلى انجلترا فى أكتوبر أو نوفمبر عام ١٩٤٥.. وبدأت فى الدراسة ، أصابنى مرض الرومانيزم ، فلم أكمل دراستى ، وعدت إلى مصر واستأنفت العمل بالتدريس فى مدرسة دمنهور الثانوية حتى تيسر لى ـ بقرار من السنهورى باشا وزير المعارف عام ١٩٤٨ ـ استئناف البعثة ، ولكن إلى أمريكا للتخصص فى علوم النفس والتربية»



ولا يبدأ الدكتور العريان فى ذكر تفاصيل تغيير بعثته إلى التربية إلا عند حديثه عن صديقه عمر بلبع وثنائه عليه ، وهو يشير ضمن هذا الثناء إلى أن صديقه هذا هو الذى أملى عليه الرسالة التى هيأت له تغيير البعثة إلى التربية وعلم النفس فى أمريكا فيقول:

«وأذكر ـ وكأنه حدث بالأمس ـ أننى بعد أن عدت من بعثتى إلى انجلترا التى قطعت بسبب مرضى ، سئمت مواصلة الدراسة للحصول على الدكتوراه ، وبررت ذلك بأننى أستطيع أن أحصل وأتعلم دون لزوم للحصول على الدكتوراه ، وأن أتفرغ للكتابة والتأليف. وأن عمر بلبع هو الذى حثنى على مواصلة الدراسة للحصول على الماجستير والدكتوراه. وكان السنهورى باشا آنئذ هو وزير المعارف. وأملى علىَّ عمر بلبع رسالة موجزة للسنهورى

باشا ، فحواها أننى أبغى تغيير بعثتى من الأدب الإنجليزى إلى دراسة التربية وعلم النفس فى أمريكا ، وبعد أسبوعين تماما ولدهشتى صدر القرار ، وسافرت إلى أمريكا ، والتحقت بجامعة كولومبيا بنيويورك ، حيث كان أخى عبد الله قد سبقنى لدراسة القانون الدولى بنفس الجامعة ، وكانت من أخصب وأمتع أوقات حياتنا».



ويشير الدكتور العريان إلى أنه كان كثيرا ما يعبر لهذا الصديق عن ضجره بحكم مسئوليته عن مستقبله الذى مضى على هذا النحو وجعله فى النهاية يعمل فى وزارة على رأسها مَنْ يعادى تخصصه:

«وفيما بعد ـ بعد عودتى ـ كنت كلما صادفتنى مشكلة أداعب عمر بلبع وأقول: أنت السبب ، لولا جوابك الذى أمليته علىَّ فى مكتبك بأبى الريش ولم يكلفنى غير طابع بريد بقرش ، لكنت الآن حرا فى موقع لا أتعرض فيه لوزير ناصب خبراء التربية وعلم النفس العداء ، لأنهم أبو الأنصباب فى قالب الرهبوت والجبروت والطاغوت والبقروت!».

(٢٠)

ويلخص الدكتور العريان آماله العريضة التى كان يرجو تحقيقها من خلال عمله فى المجال التربوى فيشير إلى أنه كان يترسم خطى التربوى الأمريكى الكبير جون ديوى:

«كان أملى أن أكون فى مصر ما كان جون ديوى فى أمريكا ، وأن نجعل من التعليم فى مصر قيادة وقدوة للدول النامية ، خصوصا ونحن أمة لها سبعة آلاف سنة من التراث الحضارى».



ومع أن الدكتور العريان فى مذكراته لا يفيض فى الحديث عن تاريخ علوم التربية ونظرياتها ، إلا أنه يكرر الحديث عن أهمية الفن والأدب فى تكوين وجدان الطلاب ، وهو يشير إلى هذا المعنى فى مواضع عديدة من حديثه عن تكوينه ، وفى مواضع أخرى من حديثه عن تجاربه التربوية كذلك.

بل إن الدكتور العريان يجاهر بما انتبه إليه من أهمية صوغ شخصية قادة الفكر والرأى والمهن المختلفة فى المجتمع ، وهو يعبر عن هذا المعنى فى كثير من المواضع فى كتابه ، ويضرب أمثلة بالاسم ممن يعرفهم فيقول:

«إن الطبيب الفنان مثل إبراهيم ناجى ، والقاضى الفنان مثل عبد العزيز البشرى ، والمحامى الفنان مثل مختار قطب ، والدبلوماسى الفنان مثل عبد الله العريان وغيرهم ، هم روح مصر.. عبير مصر.. تغمدهم الله جميعا برحمته».



كذلك فإن الدكتور العريان يحرص على أن يتعمق تجربة عميد قراء القرآن الكريم الشيخ محمد رفعت مركزا على دور الفن والفكر فى صياغة موهبة ذلك الرجل العظيم:

«الشيخ محمد رفعت جمع بين دراسة فنون البسطاء من الأسواق والأفراح والأحزان والتراث الشعبى ، وبين الفكر الكلاسيكى الرفيع ، وعرفنا فيما بعد أنه كان يقضى ساعات طويلة يستمع إلى الأنغام الرائعة التى أبدعها بيتهوفن ولست وموزارت وباخ.. ومن ملاحظاته أنه لم يحدث أبدا قبل الشيخ محمد رفعت أن استمع أقباط مصر إلى قارئ مثلما استمعوا إلى رفعت».

«وكان والدى يدعو أصدقاءه من الأقباط لسماع الشيخ محمد رفعت كلما دعاه إلى دمنهور».



ويرى الدكتور محمد على العريان أن علماء العرب المسلمين قد سبقوا فى مجال التربية بالفن إلى ما لحقهم به العالم الحديث:

«ومن ذا الذى يدرس فلسفة التربية دون أن يدرس الفارابى الفيلسوف والعالم والموسيقى، وابن سينا ، والرازى ، والكندى الذى كتب رسالته الكبرى فى ترتيب النغم ، ورسالة فى الإيقاع ، ورسالة فى المدخل إلى صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى ، وفى تأليف النغم وصنعة العود. إن الفارابى هو صاحب الأثر الهائل فى ثقافة أوروبا فى العصور الوسطى ، والمعلم الثانى بعد أرسطو».



ويبدو أن الدكتور العريان كان متشبعا إلى ما فيه الكفاية بدور الفن فى التربية والتعليم ، لكنه لا يفرد ضمن مذكراته مساحة كافية لهذا الحديث ، هو يتحدث عرضا عن بعض أفكاره التربوية التى تهتم بالفن والتربية الفنية فيقول:

«وأذكر أننى كنت ألقى محاضرة عامة فى الجامعة الشعبية بالإسكندرية سنة ١٩٥٧ وقلت: إن الحسن البصرى المتوفى سنة ٧٢٨ ، وهو من أعظم فقهاء الإسلام ، قال: «نعم العون الغناء على طاعة الله ، يصل الرجل به رحمه ، ويأسى به صديقه».

وفى هذا الإطار يمكن لنا أن نفهم ثناء الدكتور محمد على العريان وتعبيره عن إعجابه اللامتناهى (فى أحد فصول كتابه) بنموذج فنى متميز هو فرقة رضا:

«الإكسير فى الاصطلاح الكيميائى القديم هو المادة الفعالة فى الصناعة ، أى فى تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والفضة. وفرقة رضا هى إكسير الفن وكل الفنون فى مائدة رضا ضيوف ، لقد رفعت فرقة رضا الفن من التراب إلى السحاب! أداء رائق ، وخيال ورع متخشع ، وإشراقات فنية زاهية ومعرفة ملهمة بتصوير المواقف والأحداث فى تناسق حى! ما من مرة شاهدت فرقة رضا إلا وشعرت «بالإكسير» فى صميمى يسجع فى باطنى أعذب الألحان. هذا النظم الساحر الذى يبدع إبداعه فى الصوت والحركة فى تكامل ، وتناغم ترقص له أجنحة السماوات السبع!».

«كل هذا حصيلة علم ودراسة وفطنة ومران وتدريب! ولقد أصبح لاسم فرقة رضا فى فؤاد مصر صدى مختلج ، والاسم يسطع فى نفوسنا كأنه شقة حلوة من بطيخة مثلجة! هذا الاقتدار النادر المرسل إرسالا كما يفيض الماء من الينبوع الجياش.. ويرضى حاسة التوقع المقبل على الحياة ، فيه من سلسلة الإيقاع والنغم من الجنات ألوان!».

يتحدث الدكتور العريان أيضا عن بطلة الفرقة بإعجاب واعتزاز وتبجيل فيقول:

«فريدة فهمى فوارة حية كأنها طيف من نسيج السحاب الطاهر! كأنها البرق المعبأ فى أداء حى! كل حركة.. كل إشارة.. كل إيماءة.. كل رقصة.. كل نبضة هى موضوع كبير عالجه فكر كبير.. يهز أوتار الحياة ويفتح للذهن أبواب التأمل والأمل! هذا تراثنا يرقص ويغنى ويسدد فى رياضة متزنة وتراتيل راقصة!».

«شخوص موسومة بالملاحة والإتقان! أقرأ فى هذه الأيام أن هناك من ابتلوا بشهوة التقذير [يشتق الدكتور العريان هذا الفعل من القذارة] والتكدير يريدون أن ينالوا من هذا الصرح الشامخ. لقد قامت فرقة رضا بدعاية لمصر تفوق كل ما تقوم به مكاتب الإعلام مجتمعة! فرقة رضا ومصر العزيزة عروة لا انفصام لها ، ومن أرادها بسوء أعتبره من المفسدين فى مصر!».

(٢١)

ويلخص الدكتور العريان منهجه فى التربية والتعليم فى أثناء حديثه عن تقويمه لشخصيته فيشير إلى عنايته الفائقة بمحاولة تكوين ذاتية فكرية مستقلة للطالب:

«وكانت محاضراتى بالجامعة خميرا أكثر منها فطيرا ، كانت خميرا الهدف منه أن تفعل فعلها فى عقل الطالب فعل العجين وتطيب بعد الاختمار الذى يعتلج فى اللاشعور».

«كنت أحاضر فى أصول التربية وفلسفة التربية ابتغاء أن يكون للدارس ذاتية فكرية وفلسفة تربوية قوامها التفكير والتدبر والشمول والإحاطة والبحث والتمحيص».



وفى موضع آخر يشير الدكتور العريان إلى هذا المعنى بعبارات أخرى أكثر تصريحا ويقول:

«وكنت فى عملى كأستاذ للتربية أبذل جهدى لكى أدرب طلابى على التفكير والاختيار والتجريب والاختبار ، وكنت دائما أقول لطلابى: من يعيشون (نسخا) يعيشون مسخا. والمعلمون بالذات يحملون أمانة الفكر ، وأمانة التجديد والابتكار ، وترسيخ مفاهيم الحرية والكرامة فى الناشئة. إن المدرسة قد تصوغ عبيدا ، وقد تصوغ أحرارا».

(٢٢)

ويبدو لى أن الدكتور العريان كان يحس أن انشغاله بالتأليف قد عوضه عن إحساسه بالذنب تجاه الدور التربوى الذى لم يقدر له القيام به فى خدمة وطنه على الرغم من تأهله له ، ونحن نراه يتحدث عن جهوده فى مجال التأليف ولكنه يظن أن تأليفه كان لنفسه ، وهو يحرص على الإشارة إلى أهمية تسجيل الآراء ، سواء كانت خطأ أو صوابا ، وهو يقتبس من «ميل» عباراته فى هذا المعنى فيقول:

«وفى تقديرى أننى طوال حياتى وأنا أؤلف لنفسى».

«وأقر وأنا مرتاح الضمير أننى فى كل ما صدر عنى قولا أو فعلا أو كتابة كنت ملتزما بعبارة جون ستوارت ميل فى كتابه (فى الحرية). «إن أسوأ ما فى كبت الرأى أنه يعد سرقة للجنس البشرى برمته ، فمازال الخير الناتج عن الفكر أكثر بكثير من الشر. والرأى الممنوع إذا كان صوابا فقد أضعنا فرصة استبداله بالخطأ القائم ، وإذا كان خطأ فقدنا ما هو أهم ألا وهو الاقتناع بصواب ما نحن فيه بانتهاج التجريب. ولقد كتب هذه العبارة أحد تلاميذى المرحوم محمد سمك ووضعها فى إطار وقدمها لى هدية لا تزال قائمة فوق مكتبى أعتز بها».

وتبلغ هذه الفكرة قدرا آخر من الوضوح فى فقرة مهمة يؤكد فيها الدكتور العريان أهمية التفكير ، ويثني على الأستاذ العقاد حين انتبه إلى هذا المعنى وألف كتابه «التفكير فريضة إسلامية»:

«ولقد آليت على نفسى ـ حتى فى رسائلى الخاصة جدا ـ أن يكون قلمى فى يدى للتعبير عما يعتمل فى نفسى حقا وصدقا ، وأن يعبر عن عقلى وتفكيرى وأنا عالم بأن ذلك قد يجلب السخط لا الرضا. ومنزلة العقل منزلة رفيعة ، والإنسان الذى لا يفكر ويتفكر لا قيمة له ولا وزن.. ولقد سعدنا جدا بنشر كتاب عباس العقاد (التفكير فريضة إسلامية) واستعمال كلمة فريضة له دلالة بعيدة المدى ، فالإنسان مطالب بأن يفكر».



ويؤكد الدكتور العريان هذه الفكرة بالأسطورة التى ترويها كتب التراث عن اختيار آدم أبو الأنبياء للعقل:

«ومما قرأت فى كتب التراث أن جبريل جاء إلى آدم فقال له : إنى أتيتك بثلاث فاختر واحدة منها. فقال آدم: وما هى؟ فقال جبريل: الدين ، والحياء ، والعقل. فقال آدم : قد اخترت العقل. فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال : ارجعا فقد اختار العقل عليكما ، فقالا : إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان».



وهو يشير فى موضع آخر من مذكراته إلى ارتباط دراسته فى كلية الآداب بالتأليف ويقول:

«وعندما التحقت بكلية الآداب لم تكن فى ذهنى فكرة واضحة عن المهنة التى سأعمل بها بعد تخرجى ، كان كل هدفى أن أدرس الأدب ، وعلى المقادير بقية التدبير. ولذلك لعب القلم فى حياتى دورا جوهريا. «واعتبرته ـ على حد تعبير العقاد ـ أشرف أمانة استودعها الله حملة القلم من عباده. ولا أزال أحسب أن النكوص عن أدائها خيانة».



ويبدو أن الدكتور العريان كان يعتقد فى أنه ألف وكتب بما فيه الكفاية فيما يتعلق بالموضوعات التى كان لابد له أن يكتب فيها ، ولهذا نراه يشير إشارات سريعة إلى كتاباته السابقة دون أن يعرف بها على نحو تفصيلى ، ومن أمثلة هذا ما نراه من إشارته إلى أمله المبكر فى أن تتحول «القصة» إلى دراسة مآسى العمال ، وذلك دون أن يسجل لنا بعض أسماء هذه القصص التى ألفها فى هذا الاتجاه :

«وكنت أحاول تحويل مؤشر القصة الاجتماعية إلى مأساة عمال محالج القطن فى دمنهور، حيث يتفشى الجهل والفقر والمرض والخرافة والاستغلال الفاحش من أصحاب المحالج ، وأذكر أننا اقترحنا فتح فصول لمحو الأمية ، ولا أنسى قول أحد أقاربى: لو تعلم هؤلاء لثاروا علينا ، مالك ومالنا يا ابن أختى ، دع الملك للمالك.. أقام العباد فيما أراد ، إن الله لا يبرأ نسمة إلا كفل لها رزقها ، وكان تعليقى: هؤلاء أحياء يرزقون».



ويتحدث الدكتور العريان فى مواضع كثيرة من مذكراته بإفاضة عن استمراره فى محاولته التعبير بالكتابة عما كان يجب عليه التعبير عنه حتى فى فترة الطغيان التى كان من الصعب عليه فيها أن يتناول التعبير الحر فإذا هو يضطر إلى التعبير غير المباشر ، وهو يشير إلى محاولته بث آرائه حتى فى مقدمات الكتب التى ترجمها:

«وأشهد أننا فى فترة الطغيان وغاشية المخابرات والرعب أحجمنا عن الكتابة المباشرة ، ولجأنا إلى الرمز ، ولست نادما على ذلك الآن ، فلولا ذلك لما كان فى وسعى أن أحمل القلم الآن وأسجل هذه السطور».

«أذكر أننى ألفت كتاب «ركيزة التربية» وكتبت فى مقدمته مقارنة بين المدرسة الفرنسية على عهد نابليون التى كانت تفتح يومها على قرع الطبول تمجيدا للإمبراطور ، وبين المدرسة الديمقراطية التى تدرب الناشئة على الحكم الذاتى وتحمل المسئولية ، وعلى اتخاذ القرار كجزء متكامل من التربية ، وخضت فى هذه المقارنة صفحات وصفحات ، ومرت بسلام».



ويضرب الدكتور العريان مثلا آخر:

«وكذلك فى كتاب «التسول الأخلاقى» لجأت إلى الرمز ، وإن كان (الحدق يفهم) وأقول الآن: إننى لست نادما على ذلك ، بل إننى حمدت الله أننى لجأت لهذا الأسلوب الذى يلجأ إليه الأدباء والفنانون فى مراحل الطغاة والبغاة ، ولكنهم على الرغم من ذلك يبلغون الرسالة ويؤدون الأمانة».



ويختتم الدكتور العريان أحد أحاديثه عن هذه الجزئية بقوله:

«وفى الأساطير اليونانية أن الحقيقة جاءت للناس عارية ، فنفروا منها ، فذهبت وتغطت فأقبل الناس عليها».

(٢٣)

ونحن نرى الدكتور العريان مع كل مهاجمته للمسئولين عن التربية والتعليم فى عصر الثورة ، حريصا على أن يشيد بالأستاذ إسماعيل القبانى وجهده التربوى على الرغم من اختلاف مذهبيهما التربويين ، وهو يبدأ حديثه عن هذا العالم الجليل بالإشارة إلى موقفه الخالد فى بداية عهد الثورة ، وما جره عليه هذا الموقف من فقدان كرسى الوزارة:

«فى بداية ثورة سنة ١٩٥٢ فرض مجلس قيادة الثورة «وصاية» كانت سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من عمل بها. فقد وضعت مندوبا للقيادة فى كل وزارة. ونشأت عن ذلك ازدواجية بغيضة لا يرضى عنها مسئول ، ولا يصلح عليها عمل. ووجود مندوب للقيادة فى وزارة المعارف كان أكبر مصيبة أصابت هذه الوزارة منذ كان لها وجود فى تاريخ مصر. وكان إسماعيل القبانى وزيرا للمعارف الذى وقع عليه اختيار الثورة فى أول أيامها. وانعقد مجلس الوزراء ، وشكا القبانى شكوى مرة إلى المجلس تصرف السيد مندوب القيادة. ثم أتبع شكواه قائلا:

«غير معقول أن «حتة ضابط» يتحكم فىَّ وأنا وزير ، ولى تجربة طويلة فى وزارة المعارف إلى أن صرت وزيرا لها!».



«وما إن فرغ القبانى من كلمته الغاضبة حتى قال جمال سالم: حتة الضابط ده هو اللى خلاك وزير. فلم يجد القبانى مندوحة عن أن يستقيل تاركا منصبه!»

وعند هذا الحد يشير الدكتور العريان إلى تغير موقفه من الأستاذ إسماعيل القبانى منذ ذلك اليوم ، وكأنما كان الدكتور العريان ينتظر دائما من الأساتذة الكبار مثل هذه المواقف ولا يكفيه ما يبذلون من جهد دائب وإخلاص صادق فى وظائفهم ومهامهم:

«ومنذ ذلك اليوم تغيرت نظرتى للقبانى ، فقد كنت من أكثر معارضيه فى فلسفته التربوية (ولم تكن له فلسفة تربوية واضحة المعالم) أقصد لم يكن من طراز جون ديوى أو هوبكنز أو طه حسين ، وإنما كان رجلا مهنيا.. معلما.. يريد تجويد أساليب التربية دون تغيير لوظيفة المدرسة فى المجتمع ، بمعنى أنه كان ذا أفق ينحصر فى إعداد معلم يدرس المواد مع العناية بالنشاط المدرسى والهوايات. لذلك أنا لا أعتبر نفسى تلميذا للقبانى بالمعنى الفلسفى للتلمذة، أقول أنا تلميذ طه حسين أو تلميذ هوبكنز أو تلميذ العقاد».

ثم يستطرد الدكتور العريان إلى ماضى علاقته بالأستاذ إسماعيل القبانى فيشير إلى أنه كان وهو طالب فى معهد التربية العالى يكره المادة التى يدرسها القبانى:

«لقد درست عليه عاما دراسيا مادة التربية التجريبية ، وكنت أكره هذه المادة وأجدها ضياع وقت ، فقد كان القبانى مفتونا بمسألة اختبارات الذكاء ، وكانت موضة ذلك العصر فى أمريكا ، وكان هدفها فى أمريكا يغاير تماما ما كان يتصوره إسماعيل القبانى فى البيئة المصرية، فقد مصّر هذه الاختبارات بشكل يدعو للسخرية ، وكنت شخصيا أراها خرافة ولا جدوى فيها! كنت أجاهر بهذا الرأى ، ولم يكن القبانى يطيق المعارضة من أى إنسان ، فضلا عن طالب متخرج فى كلية الآداب. وكان للقبانى حواريون يزينون له جدوى اختبارات الذكاء ، ويطبقونها فى المدارس ، ويجمعون إحصاءات لا قيمة لها ، وأذكر منهم أستاذا ظل طوال حياته المهنية يدرس هذه الإحصاءات حتى فى الكويت!».

❑

ويشير الدكتور العريان ببعض الإنصاف إلى سمات مذهب الأستاذ إسماعيل القبانى:

«وكان القبانى ينصب اهتمامه على أساليب التعليم وطرق التدريس ، ولكن قضايا تعديل وظيفة المدرسة فى المجتمع وحقوق المتعلم وولاء المعلم لم تكن تحتل مساحة من تفكيره. وكان القبانى ـ طبعا ـ ضد طه حسين ، ومفاهيمه الأدبية والفنية محدودة ، فلم يكن موسوعى الأفق . وكرهت القبانى ومدرسته وحوارييه ، وكنت أراهم صنايعية تربية ، سمكرية تربية ، وليسوا مهندسى تربية. حتى شاءت الظروف أن أزوره فى بيته بعد أن اعتزل وتخلى عنه أقرب الناس إليه ، وقضيت معه ساعتين ، وقلت له ما فى نفسى ، كان يبتسم وقلت له:

رُبَّ يوم بكيتُ فيه فلما … صرتُ فى غيره بكيت عليه

«وضحك ضحكة صافية».



وبعد هذا كله يلخص الدكتور العريان رأيه فى الأستاذ إسماعيل القبانى فيشير إلى أنه خدم التربية بأحسن النيات فى حدود آفاقه:

«ولكننا إذا كتبنا تاريخ التعليم فلا يمكننا أن نتجاهل إسماعيل القبانى ، الذى خدم التربية بأحسن النيات فى حدود آفاقه. لو كان غيره فى مطلع الثورة لرضخ لمندوب القيادة الذى كان أحد رجلين: جاهل لا يعلم ، أو جاحد لا ينزل على حكم من يعلم».

(٢٤)

ونأتى فى المقابل إلى انتقاده للأستاذ السيد يوسف وزير التربية والتعليم (١٩٦١ - ١٩٦٧)، وهو يلمح إليه كثيرا فى مذكراته ولكنه يتناوله بقدر كبير من الصراحة فى فقرات مطولة نقتبس منها قوله:

«هل عملت فى حياتك مع إنسان مغرور.. يمكن اختصاره فى كلمة (لا)؟ فهى جوابه الحاضر عن كل مسألة ، وحتى عندما يوافق يكتب (لا مانع)».

«فيه فظاظة وغلظة حيث لا موضع للفظاظة والغلظة! وفيه جنوح للتدليس والبهتان على مَنْ يخالفه فى أى أمر ، وهو حقود يتناول ما فوقه من تحته ، ذليل يستعين بأذل منه ، له عينان كأنهما من زجاج ، لا أثر فيهما لوميض الروح! يداريه الناس لشره ، ويقولون له: إن الشمس والقمر يتبركان بلمس قدميه!».

«هذا الرجل التنئ السريع الشر الذى يحمل مغارة الجهل فوق رأسه ، الذى لو خلا بالكعبة لسرقها ، كان يمثل دور الحقانى الذى يزن بميزان الذهب ، ودور الرزين وكانت رزانته معتمة!».

«تصور هذا المسخ المشوه يجثم ثمانى سنوات عجاف فى منصب وزير .كان قرحة حطت على بدن عليل فزادته تقرحا.. كان لطشة ميكروب من الإعصار السياسى الغبى الذى انهمر على هذه الوزارة المنكوبة الحظ بغرائب الرغاوى».

«يروى عنه أنه كان يفرق عمدا بين الزوج وزوجته إذا كانا يعملان فى مدينة واحدة ، وكان يرسل منشورات إلى المدارس والمعاهد التابعة للوزارة يقول فيها: على المعلمين والأساتذة أن يسيروا فى الفناء بخطوات عسكرية ، ليكونوا قدوة للطلاب».



هكذا يصل الدكتور العريان إلى حدود غير معقولة من السخرية من هذا الوزير الذى لم يزعم لنفسه مكانة علمية ولا تربوية ، والذى كان فى الواقع يعرف حدود قدراته المتواضعة فى العلم والتربية ، ولكن الدكتور العريان لا يرحم هذا الرجل حتى بعد وفاته أو عند وفاته ، وهو يعلق على وفاته بتعليق ساخر يقول فيه:

«عندما قرأت خبر نعيه فى الأهرام قلت: لماذا لا يحنطون جثته ويضعونها فى تابوت فى مدخل الوزارة ، كما يحنطون التماسيح على مدخل بعض البيوت؟».

ويرى الدكتور العريان واجبا عليه أن ينتقد مدير جامعة الإسكندرية الذى صار وزيرا بأن يشير إلى أنه نفسه (أى ذلك المدير الوزير) كان يعترف للدكتور العريان بأنه لابد من مجاراة التيار ، وهو يصف فكرة هذا الأستاذ فيقول:

«أذكر ـ والأسى يحز فى نفسى ـ أن مديرا لجامعة الإسكندرية تتوافر فيه شروط (تماما يا افندم) ، وكانت بينى وبينه معرفة قال لى: إنه مضطر لمجاراة التيار ، وقلت له: وهل ذلك ضربة لازب؟».

«قال: هذا هو الطريق المفضى إلى الوزارة ، وقد كان».

«وأصبح وزيرا ، وكنت أعافه كما أعاف فاسد الطعام أو القمامة ، وأمثاله مئات من الذين نجحوا حيث يعيب لأستاذ الجامعة أن ينجح».



وفى موضع آخر من مذكراته ينتقد الدكتور العريان أحد مديرى الجامعة بعبارات قاسية واصفا له بأكثر الصور كراهية ، ويقول:

«ولقد قدر لى أن أكون شاهدا على مدير جامعة من الطراز الأصغر ، ومن طراز الأسافل ـ أخزاه الله ـ فقد كان لا يطاق ، كان كالمخاط لا تدرى ماذا تصنع به تمسحه فتشمئز ، وتتركه فتشمئز ، فهو مقزز على الحالين ، وكان المسح بمعنى أن تمسحه من مجال رؤيتك ،والترك أن تتركه فى مجال وعيك».

«كان نذلا لا يعز وجوده فى كل زمان ومكان ، لكنه كان نذلا يدبر الأحابيل وينصب الشباك.. مجرد هواية».

«وكان قزما جسما وعقلا وكرامة ، يأكل الحقد قلبه ، وكان مغشوشا من أوله إلى آخره ، وكان نرجسيا يطارد روحه ويميته الصدق والنور.. ويحجبه (ويكشفه أيضا) الكذب والظلام واللؤم الذى يخزيه فيسليه بلذة سادية أن يؤلم أصحاب الكرامة والعزة والأمانة».

على هذا النحو يجاهر الدكتور العريان بهده الانتقادات المقزعة ولكن الصورة التى يرسمها لا تستقيم لو تغاضينا عن نقل ملامح هذه الانتقادات.

«وكان طبيعيا جدا أن يكون هذا الطراز من السلعة المطلوبة على عهد سوق العبيد والخصيان وأنذال الرجال وسماسرة المخابرات ، ولقد استطال هذا الرجل بأكاذيبه ونفاقه وفجوره واستجدائه واستكلابه لذوى السلطان حتى وصل إلى مدير جامعة فاستذأب وهبط بهذا المنصب إلى أسفل سافلين».

«كان رجلا مكشوف العورة للناس جميعا إلا لنفسه ، وكان قريب الحسد مجازيا بالسيئة على الحسنة ، وكان متوسعا فيما ليس له ، ومضيقا جدا فيما له ، عند ذكر اسمه بالتداعى تتجسد أمامك صورة ثعبان أقرع.. ولما سقط وألقى به فى قمامة التاريخ ظل يبصبص حول السلطة بذنبه كما تبصبص الكلاب بأذنابها. كان منتهى طموحه أن يكون وزيرا ، عندما راح حكم وجاء حكم ، وتشاء الأقدار أن يصبح وزيرا مَنْ كان له عدوا مبينا ، فينكل به كما نكل بغيره ، ويذيقه مرارة الكأس التى سقاها غيره».

....

«وفى إحدى زياراتى لمصر من مهجرى رأيت هذا المسخ وقد شاخ وباخ يتثعلب فى مكتب مسئول ، وطفقت ـ على عادتى ـ ألقمه نكتة وراء الأخرى تصيبه فى صميم مسخه ، لكنه ضحك ضحكة صفراء».

«هذا القريد (مصغر قرد) تروج شخصيته ومَنْ لف لفه فى عهود الطغيان ، كان كلبا عقورا مسعورا، فى يده أعنة السلطة وهو لا يزيد عن بردعة، ومن العدل أن يمشى على أربع».

«وإنه لأمر يدعو للحسرة أن هذه المناصب التى تولاها أمثال لطفى السيد وطه حسين والسنهورى ، تصبح فى يد السوقة من أصحاب الذكاء الرخيص بالوشاية والمكر السيئ والتسلق ، ويكسبون الثقة عند الأغرار والوصوليين ، وقالوا: إنه كفاية من الكفايات الكبيرة ، وقلت: إنه فى نظرى نفاية ، فالعالم الذى يبيع نفسه فى سوق العبيد لا يزيد عن نفاية وقمامة».

«رأيت هذا الرجل يهرول وراء جرو من أجرية السلطة بالملق والدهان ، ويمشى وراءه مما أثار تقززى الذى لم أستطع مداراته».

«فترة طويلة طفا فيها على مسرح التعليم صغار صغار يحيطون أنفسهم بصغار بصغار ، ويبعدون عنهم كل صاحب كرامة أو نزاهة أو علم أمين أو موهبة ، إلا إذا وضع ذلك كله فى خدمة التسخير والإذلال والإيذاء. وفى بعض هذا ما يسئم ويسقم».

(٢٥)

ويقدم الدكتور العريان تصويراً بديعاً ومروعا لبعض نماذج التربويين الذين لم يكونوا يحظون إلا باحتقاره ، وهو يتحدث عن أحد هذه النماذج فيقول ضمن حديث طويل:

«لمام سبارس.. جامع أعقاب علم.. كل أبحاثه لا تزيد على جمع لما قال غيره».

هكذا يعبر الدكتور العريان بكل القسوة عن رأيه فى زميله الذى هو نموذج لكثيرين من التربويين ، وهكذا يصل إلى هذه الحدود من السب والتحقير وهو يقدم مبرراته لهذا السلوك فيما يستأنف من حديث ويقول:

«وليس له رأى مطلقا أو موقف من أى قضية ، وخلع على نفسه لفظ SCHOLAR بموجب هذه الأبحاث التى لا تزيد على نقل من الكتب لأشتات وضعها فى كتاب واحد.. وقد سألته مرة: أليس لك رأى فى أى مسألة؟ فأجاب: أنا من أنصار الزمخشرى.. فقلت: وكيف كان ذلك؟. قال: الزمخشرى لما سألوه عن مذهبه لم يبح به ، وقال: كتمانه لى أسلم : أنا رجل آكل العيش بالجبن! وفعلا استطاع أن يقبع كالسلحفاة فى إحدى الدول العربية جاليا رضاء مَنْ يجددون العقود ، ووجدوا فيه المقياس المطلوب ، وفقا لمواصفات المشترى ، وهو ممتثل.. سمعته مع الأصوليين أصوليا من غلاة الأصوليين.. وسمعته مع العلمانيين يوافقهم على فصل الدين عن السياسة ، وفى كل مجال له لون! والعجيب أن الكل يعرف أنه منافق طويل التيلة ، ولكنه مريح!».



ويواصل الدكتور العريان حديثه عما يمثله هذا النموذج مقدما أوصافا قاسية من قبيل قوله «حيوان أكاديمى فى مراعى حشرجات» فيقول:

«فى تقديرى أن هذه العينة التى نجحت ماديا حيث يعيب لها أن تنجح أصبحت السلعة الرائجة بصفة عامة إلا فى حالة فلتات لا تقاس عليها فى معظم جامعات الدول العربية التى (ترتاح) لهذا النوع الممتثل. وإنه لما يدعو للأسف أن مواهب بعض الناس تتبدد فى مجال الفهلوة ، وتدفن فى غيبوبة مفتوحة العينين تهدد الآدمية والكرامة بغباء صريح وذكاء رخيص! الدكتور عبد الراضى ـ ومثله مئات ـ أصبح نعشا ليس وراءه مشيعون! إنه حيوان أكاديمى فى مراعى حشرجات يسميها بحوثا ، وهى لا تزيد على جمع قمامة.. أو أعقاب علم! كل ما فى هذه الطائفة عتيق.. ركيك.. رخيص ، ومقياس نجاحهم عمارة فى المعادى ، أو عدد من الشقق المفروشة للإيجار! مسكينة مصر.. تنفق الملايين على البعثات الدراسية ، ثم يبيع الدكتور نفسه وعلمه ، ويقبع مثل ذكر السلحفاة فى إحدى دول النفط ليجمع المال ، وتلقاه فى مؤتمر دولى تابعا وراء (سيده) ثم يقول لك على انفراد : إنا لنهش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم! وجوابى دائما : نظرة ازدراء وتقزز».

(٢٦)

ويقدم الدكتور محمد على العريان صورة ثانية بشعة ومروعة لمجموعة أخرى من أساتذة التربية فى إطار ناقد وكاريكاتيرى مطلقا على الواحد من هؤلاء «البرغوث البشرى».

وهو يصف مثال هذه الشخصيات فيقول:

«البرغوث البشرى يريد أجسادا لا عقولا.. إنه يريد من المدرسة أن تكون معملا لتفريخ العبيد الذين يضعون أنفسهم راضين فى خدمة مَنْ يسلبهم إرادة التفكير وإرادة التغيير لكى يتخلصوا من البراغيث البشرية! إنه يريد أن يسحب من المعلم كل الاقتحامات والكينونات والأشواق الإنسانية المصاحبة للتفكير والذكاء المفضى إلى خلو البيئة من البراغيث البشرية!».

«البراغيث البشرية تفضل المغارات وتكره الأضواء.. البراغيث البشرية كائنات مأساوية سوداوية!».



وفى هذا الإطار أيضا يقدم الدكتور العريان نقده القاسى لما يسميه ظاهرة «الجاسوس الدينى» حين يتعرض لتجربته فى الهجرة حين قدر له أن يتعامل مع بعض السفارات الإسلامية التى كانت توظف «دعاة» للعمل ضمن أجهزة المخابرات من خلال السفارات وتحت لافتة «الدعوة» ، وهو يجاهر بهذا التوصيف القاسى والصعب على النفس ولكنه يراه بمثابة أدق التوصيفات لهؤلاء الذين يمارسون مثل هذا العمل ويقول:

«لقد طفت فى أوروبا وأمريكا وأستراليا ونيوزيلاندا وجنوب شرقى آسيا والهند واليابان ، ووجدت ظاهرة أثارت دهشتى حقا: فبعض السفارات تدفع مرتبات لأشخاص تطلق عليهم لقب دعاة ، يقومون بوظيفة التجسس وكتابة التقارير ، وهم عادة ينتمون بالاسم فقط إلى مؤسسات دينية ، والواقع أنهم يعملون ضمن أجهزة مخابرات تستخدمهم كعملاء فى وظائف دينية ، وسأعرض على القارئ عينة على سبيل المثال من الجاسوس الدينى».

«فى كل أقلية مسلمة تجد (جاسوسا) دينيا يحمل لقبا مثل داعية ، وربما إمام ، وربما مدرس لغة عربية ودين ، يقوم بهذا الدور ، ويتحول إلى حشرة رخوة تخادع بملاسة العرسة وفحيح الأفاعى ، الذين من المفروض أن يكون منهم نور يسعى إلى الخير والحق والجمال وإعلاء كلمة الله».

«الثالوث الرهيب: دبلوماسية فجة + جاسوسية دينية + أصولية مغلوطة».

ويلخص الدكتور العريان بعد هذا كله رأيه فى علاقة الدول الإسلامية بالأقليات المسلمة فى الخارج فى قوله:

«والواقع أن رواج الأصولية المغلوطة بين الأقليات المسلمة سببه تصدير دعم من الخارج (أى من خارج البلاد التى تعيش فيها هذه الأقليات) ، وهذا الدعم الذى يقدم للأقليات ظاهره العون الدينى وباطنه السياسة والتبعية».



ويقدم الدكتور العريان وصفه للنتيجة المؤسفة التى وصل إليها تعامل الدول الإسلامية بهذه الروح فى الخارج:

«وهم ينشئون مدارس تنفق عليها الجهات المصدرة ابتغاء إفراز ناشئة تسير على نفس درب الذين يصبونهم فى هذا القالب.. وفى إحدى هذه المدارس فى أوروبا كانت هناك نسبة مقلقة من جنح الأحداث ، ومعظم الآباء والأمهات لهؤلاء الأطفال إما فى حكم الأمية أو السذاجة الدينية والغباء الاجتماعى والسيكولوجى بحيث يقسون على أطفالهم قسوة فظيعة باسم الدين ، وطالما أن سفراء الدول المصدرة للإرهاب الدينى يستغلون هذه الطوائف ويعطونهم الأموال ابتغاء التبعية والولاء. فعلاج هذه الظاهرة عسير جد عسير ، وإنا لا ندرى مصير هؤلاء الأطفال بالقياس إلى تحمل مسئوليات العيش والعمل فى مجتمعات تختلف تماما عن المجتمعات المصدرة لهذا النوع من العدوانية».

ويخلص الدكتور العريان بعد هذا كله إلى رأيه فى مستقبل هذه الظاهرة فيقول:

«ربما يمضى جيلان أو ثلاثة قبل البرء من إرهاق هذا الفهم العاجز المتزمت للإسلام الذى أرسته للبشرية مشيئة الله هدى ونورا وتحريرا وكرامة وسلاما ».

(٢٧)

وعلى الرغم من أن الدكتور العريان يتمتع بوضوح رؤية شديد فيما يتعلق بآرائه فى فترة الشمولية من عهد الوطن ، وعلى الرغم من أنه يجاهر بانتقاداته القاسية لأسلوب هذه الفترة ، إلا أنه فى الوقت نفسه يبدو حريصا على أن يذكر السبب فى تجاهله للحديث بالتفصيل عن فترة دولة المخابرات ومثالبها ، وهو يقول:

«ولعلى الآن أوثر الصمت عن هذه الفترة ، شأن المعافى لا يريد أن يذكر من سقمه ،

فالعين إذا رمدت ، والمعدة إذا أصابتها قرحة ، والمثانة إذا أعسرت ، والأعصاب إذا توترت بمجرد أن تسترد عافيتها لا تريد أن تذكر الرمد ، أو القرحة ، أو إعسار التبول».

ومع هذا الحرص على الابتعاد عن الحديث عن هذه الفترة بطريقة مباشرة ، إلا أنه يعود إلى هذا الحديث فى أكثر من موضع بإشارات ملتاعة منها قوله:

«وبعد عودتى من البعثة فى أمريكا عشت أوائل الخمسينيات إلى أواخر الستينيات بأمجادها وكوارثها ، وبالأوجاع الفكرية والنفسية التى أصابت المثقفين وأساتذة الجامعات فى فترة الدكتاتورية ورعب المخابرات ، وعشنا سنوات ما يطلع فجر جديد إلا منذرا بويل جديد، ولا يتكشف أفق أدكن إلا عن أغبر منه».



وبعد عشر صفحات يجد الدكتور العريان نفسه مطالبا بأن يصف هذه الفترة على نحو مباشر فيقول:

«لقد عشنا فترة كانت كل كلم محسوب..».

«أيام الأشباح والأنات الحائرة المكتومة..».

«أيام التعاسة والطرق المسدودة..».

«أيام فرض على أساتذة الجامعات والمفكرين أن يرضوا عما هم ساخطون عليها..».

«وأن يفرحوا رغم أنهم محزونون..».

«وأن يسبحوا بحمد الطغيان والسلطان..».

«أيام الشحوب والشرود».

«أيام كان الزمن عدوا وطويلا وثقيلا حتى انطرح خارج الوعى التربوى مع شعور فادح بطول الزمن المطروح إلى الوراء».

«أيام أن كانت «السلطة» كل سلطة لعنة مجسدة تستقطب الزلفى والضراعة.. أيام الشامتين والصامتين واللاعنين والمنتفعين الطافين على السطح كالجيف».

«أيام أن تجنب الناس أهل الفكر والكرامة كأنهم وباء ، إيثارا للسلامة».

«يوم قام على التربية رجال (ونساء أيضا) فى قوة البغال وجرأة الفتوات».

وعلى هذا النحو من الإفراط فى النقد والهجاء اللاذعين يمضى الدكتور العريان فى كل صفحات مذكراته من دون أن يراجع نفسه ، أو أن يسألها اللطف أو التخفيف أو شيئاً من اللين فى توجيه الآخرين ونقدهم.

(٢٨)

و تحفل مذكرات الدكتور العريان بعد هذا بكثير من الفقرات التى يستطرد إليها فى أثناء الموضوعات المتعددة التى يتناولها فاذا بها هى محملة بكثير من آرائه السياسية فى عصر الدكتاتورية:

«لقد تراكمت على المنظومة الدينية خرافات وإضافات وأباطيل وأضاليل وأحاديث وتفاسير تحتاج إلى كاسحات ألغام ونفاثات مطهرة!».

«وتراكمت على أجهزة الحكم أيضا أباطيل وأضاليل لا علاج لها إلا بالحرية والديمقراطية.. لقد حاول الأفغانى ومحمد عبده وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق وسعد زغلول وقاسم أمين وأحمد أمين وأمين الخولى وطه حسين والعقاد والسنهورى ولطفى السيد وغيرهم عشرات ومئات من طراز محمد فتحى عثمان ومحمد الغزالى وخالد محمد خالد ، وكادوا يفلحون فلاحا مبينا لولا أن أصيبت المنطقة كلها بلوثة وزغطة ، حازوقة [هكذا فى الأصل ، وهى حالة مرضية تصيب الجزء العلوى من الجهاز الهضمى فتجعل الإنسان دائم التزغط] من الدكتاتوريات من جهة ، ومن مفاهيم دينية تحتاج إلى دراسات جادة عوقت مسار التنوير والتحرير الذى أثمر كثيرا من التغيرات الاجتماعية المعقولة والمقبولة رغم العقابيل والأباطيل والأضاليل».



ومع هذا فإن الدكتور العريان فى موضع آخر من مذكراته يتعرض لأثر الحديث عن دولة المخابرات على نفسيته ووجدانه:

«وكنت أحمل فى نفسى قصصا رهيبة سمعتها عن زوار الفجروزوار العصر والحراسات والاعتقالات والتعذيب والزنزانات ونهش الكلاب ، وكل هذه البشاعات المرتبطة بأسماء حمزة البسيونى وصلاح نصر وغيرهما ، ولقد رانت على فؤادى كل هذه الصور الأليمة التى انتهت بنكسة عام ١٩٦٧ وما تلاها».

(٢٩)

ويحرص الدكتور العريان على أن يعبر عن أنه كان يدرك بحكم فهمه لفلسفة الحياة والتاريخ أن فترة الانكسار لن تكون باقية فى تاريخ مصر وحياتها:

«وكنت على يقين فى قرارة نفسى أن فترة هذا الانحسار التاريخى وهذا الانكسار ، فترة سوف تصبح تاريخا للعبرة والاعتبار ، ثم ينجلى بعدها وجه الحقيقة والحق والحقائق ، وتستوضح مصر مسارها ووجهتها ، وتعالج ما أصابها من كسور وقروح وأسقام».

«ولا شىء يبعث فى النفس الأمل مثل معرفة الحقيقة».



ولا ينجو الدكتور العريان من تصوير خيبة أمله فى بلاده حين عاد إليها متشوقا لخدمتها بعدما حصل من علم فى أثناء بعثته فإذا به يفاجأ بأن صورة كل شىء قد تغيرت ، وهو يقول فى هذا المعنى:

«وطوال سنوات البعثة فى أمريكا كنا معشر المبعوثين نتعجل العودة إلى مصر ، فقد كانت مصر بحاجة إلى العلماء والمتخصصين ، وإلى القادة والمفكرين».

«ولقد عدت إلى مصر فى أواخر عام ١٩٥٢ من بعثتى للدكتوراه فى جامعة كولومبيا فى نيويورك ، وتغيرت صورة كل شىء فى مصر بعدها ، ولكن إلى ماذا؟ فترة عصيبة من الحماسة والشك ، والتفاؤل والتشاؤم ، وحسن الظن وسوء الظن! ».

(٣٠)

ومع هذا كله فإن الدكتور العريان ظل يعيش سنوات طوالا فى ظل الثورة متجاوزا ـ كما أشرنا من قبل ـ عن الحديث عن فترة دولة المخابرات ، ولكنه مع هذا يكشف الحقيقة قبيل حرب ١٩٦٧ ، وهو يعبر عن هذا المعنى بالإشارة إلى شعوره العقلى الذى كان يهيئ له أن الناس قد تحولوا إلى دمى من البلاستيك بسبب ما أصاب الشخصية المصرية من فصام الشخصية ، وهو فى هذا المعنى يصل إلى أن يقول إنه كان يرى العمارات والبيوت مصنوعة من الكرتون أو الصفيح:

«وكم عانينا قبيل نكسة عام ١٩٦٧ وعقيبها من أيام حالكة السواد ، بدا لى كل شىء منخوبا من الداخل ، ومنهوبا ومسطحا فارغا من الخارج. وخيل لى أحيانا أن البيوت والعمارات مصنوعة من الكرتون أو الصفيح ، وأن الناس على مسرح الأحداث بلاستيك. وكنا نتبادل تحية (حلت الباروكة) بدلا من (حلت البركة) ، فقد حدث فصام فى الشخصية المصرية ـ لا مناص ـ الناس أصبحوا مثل الشعر المستعار.. الباروكة».

وهو يقدم فى هذه المذكرات وصفا بديعا يلجأ إلى الرمز وإلى اسم غير شائع ، مستخدما اسم صحفى قديم يراه بمثابة «المعادل الموضوعى» لأكبر صحفيى السلطة فى عهد الثورة:

«وكان الشيخ الشربتلى قطب المعركة فى الطعن فى الإمام ، وكان صحفيا مأجورا يجلس على القهوة ، ويكتب ما شاء لمن يعطيه الأجر.وكان من أسرع الكتاب وأقدرهم على الكتابة فى الشىء وضده ، واختلاق الحوادث وتلفيق الأخبار ، واشتهر بالمذهب الاختلاقى على حد تعبير أديب مشهور. وهذا المذهب الاختلاقى لم يمت بموت الشيخ الشربتلى (الذى مات فى نفس يوم وفاة مصطفى كامل)».

ثم يصل الدكتور العريان إلى التعبيرعما يريد من انتقاد أسلوب صحفيى السلطة فى قهر مواطنيهم بما يصورنه من حقائق الموقف التى تستدعى أبدية الحاجة إلى زعيم مخلص ليواجه المصاعب التى يبالغون فى تصويرها ، ويبدو الدكتور العريان وقد وصل إلى وصف دقيق وغير مسبوق لسلوك هذه الطائفة فيقول:

«فلا نزال نجد لكل عصر شربتلى يسقينا المر كاسات فى كاسات ، ويسمون الأشياء بأضدادها ، ويلبسون لكل حل لبوسها ، ويدنسون أعراضهم فى كل ما يقولون ويفعلون ، ويخلقون مشكلات وهمية فى الدين والحكم ، ليلوذوا بها من مشكلات حقيقية. يحتاجون إلى حالة من التوتر والتوجس والتربص بل والتلبس ، لكى يعذبوا الناس».

(٣١)

ويتحدث الدكتور العريان عن قرار هجرته إلى استراليا فيشير إلى أنه كان قراراً ضرورياً على الرغم من أنه اتخذه بإختياره هو وبكامل إرادته وبرغم معرفته بقيمة الوطن والأهل:

«وقرار هجرتى ـ كما ذكرت من قبل ـ كان ضرورة واختيارا ، ولقد شعرت دائما ـ ولا أزال ـ أن كل إنسان لا يجد الانتماء الحقيقى الكامل إلا فى وطنه وبين قومه».



ويشير الدكتور العريان إلى أنه حاول قدر ما استطاع أن ينقل جو وطنه معه إلى استراليا ، ولهذا فإنه نقل الكتب القديمة والحديثة على حد سواء:

«ونقلت إلى أستراليا جزءا كبيرا من مكتبتى العربية ، مما أتاح لى فرصة مراجعة الكثير من المراجع القيمة التى قرأتها متفرقة من قبل. المقريزى ، وابن إياس ، والسخاوى ، والجبرتى ،

وابن بطوطة ، والجاحظ ، وخصوصا البخلاء والحيوان. أما الكتب التى صدرت حديثا فى مصر على مدى الثلاثين عاما الأخيرة فإن ابنى واثق جمعها وبوبها ورتبها على الأرفف بحيث اضطررنا إلى إحضار مهندس ، خشية أن يسقط السقف تحت ثقلها ، لأنه يعيش فى الدور العلوى.. ولكن الله سلم!».

(٣٢)

ونأتى إلى حديث الدكتور محمد على العريان عن ذاته هو ، وهو يتناول شخصيته بالنقد والتحليل فى مواضع كثيرة من مقدمة الكتاب ومن فصول الكتاب ، وهو فى هذا التناول يحلل ما فعل بقدر ما يحلل ما جبل عليه ، كما أنه يعبر عن الخبرة التى اكتسبها والتى هى كفيلة بأن تمكنه من الصواب لو أن الزمن عاد به وكرر تجربة حياته ، وحديثه فى هذه الشئون والشجون ممتع ومعلم إلى أبعد الحدود وهو يقول:

«وأصارح القارئ بأننى نادم على بعض ما فعلت ، وكثير مما لم أفعل. وعلى مر التجارب والسنين ، أشعر بأننى استطعت أن أبث فى كثير من تلاميذى خصالا أنارت سبلهم. «وأعترف بأنه تعوزنى سجايا كانت خليقة بأن تعيننى على الصبر والأناة ، ولقد بلوت بل كابدت من زملاء فى المهنة مَنْ لا يكرهون من صفاتى إلا الصفات التى أعتز بها ، وأراهم يفتقرون إليها ، ولا يحبون من صفاتى إلا تلك الصفات التى لا أحبها فى نفسى».



ويحاول الدكتور العريان أن يلخص فلسفته فى الحياة على نحو أو آخر فيشير إلى تطرفه فى الحب والبغض والازدراء ، وتحفظه فى الاحترام واندفاعه الجسور فى إبداء الرأى وإقامة العلاقات والأنشطة:

«أما فلسفتى فى الحياة فليس فى وسعى اختزالها فى صيغة أو كلمة ، ولكننى لم أشعر أبدا فى أى لحظة من حياتى أنى لست ندا لأى إنسان مهما كان - إلا أخى عبدالله - على الرغم من أننى ولدت قبله بثلاث سنوات. وأقرر أننى إذا أحببت أحببت جدا ، وإذا أبغضت فإننى شديد النفور! . وإذا احترمت احترمت بتحفظ ، وإذا ازدريت فبغير حدود! وإذا اكترثت انغمست غير مقدر للعواقب ، وإذا جفوت وتجافيت أعرضت ونأيت بجانبى! وإذا خضت خضت خوض الجسور. إقبالا أو إدبارا! ولم أعرف التوسط ، سواء فى إبداء الرأى أو فى

علاقاتى بالناس. وأحتقر الذين يمسكون العصا من وسطها ، ولا لون لهم ولا طعم ولا صبغة».

(٣٣)

ويتضح لنا مما يرويه الدكتور العريان فى مواضع كثيرة أنه لم يكن يؤمن أبدا بما تعرفه البشرية من حكمة البطء والتريث ، ولا على ما يترتب على هذا من سلوك ، وهو يجاهر بهذا المعنى فى تحليله لإحدى الشخصيات فى نهاية كتابه حيث يقول:

«وكان البعض يصفونه بالحكمة ، وكنت أقول هذه حكمة سلبية إن كانت حكمة ، إنها مجرد (تسولية أخلاقية) تشبه تسولية وسلبية وشطارة الجالسين على المكاتب وطبقة الواقفين فى انتظار الأوامر».

ثم يلخص رأيه بطريقة موجزة ومناقضة للشائع فيقول:

«إن الحكيم حقا هو الذى يغامر ويصنع الأحداث ، ويكون فاعلا لا مجرد مفعول فيه يمشى فى ركاب كل عهد.. شتان بين الحكمة وعدم الاكتراث».



ويعود صاحب المذكرات إلى تحليل شخصيته من منظار جديد يؤكد به ما وجد عليه نفسه من حب المجهول والجرأة والترفع عن الانشغال بما يشغل الناس من علاقاتهم ببعض فيقول:

«ولقد فطرت من صغرى على الجرأة.. وأنا دائما ظامئ إلى مجهول.. ولم أحفل أبدا بآراء الناس فىَّ. وكانت تبلغنى الأكاذيب والافتراءات ، فإذا وجدت فيها جانبا فنيا مضحكا تركت الكذبة أو الشائعة تفشو».



ونراه يتحدث فى موضع آخر عن شخصيته الصريحة المعتدة بما تراه فيقول:

«وأنا امرؤ لا أطيق الهمس ، ولا أحب التناجى الخفى تحت أى ستار ، تعودت الجهر والمجاهرة ، وأمقت المداورة ، بل ويطيب لى أن أهتك الأستار البغيضة إلى النفوس الصحيحة ولا أبالى أن أبالى».

على هذا النحو الجميل من التعبير القاسى يعبر الدكتور العريان وقد وصل إلى مرحلة متقدمة من الاعتقاد فى جسارته فى إبداء الآراء.

ويعود الدكتور العريان ليستأنف الحديث عن ذاته فيؤكد كراهيته للمديح من باب إيمانه بنفسه، وهو يفعل هذا مقتديا ومستظلا بقول لأمير المؤمنين على بن أبى طالب:

«وأنا لا أطيق الزيف والمظاهر ، وأؤكد للطارئ أن كلمات المدح والإطراء ـ وهى دائما تشوبها المبالغة ـ كانت دائما تذكرنى بقول على بن أبى طالب لمداح: «أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك».



ويتصل بهذا المعنى ما يرويه الدكتور العريان بعبارات أخرى فى موضع آخر من كتابه حيث يقول:

«وأنا أمقت الرياء والمرائين ، وما أحسب أن يمدحنى أحد بما لا أستحق ، بل كنت أصغر فى سنى ، ويثور علىّ ضميرى إذا تركت الناس ينسبون إلىّ فضلا أخلو منه».

(٣٤)

ويحرص الدكتور العريان فى حديثه عن نفسه على تصوير مدى الشجاعة التى ظل يتمتع بها فى إبداء آرائه وفى صياغة سلوكه الوظيفى والمهنى ، وهو يتحدث عن هذا المعنى بصيغ مختلفة ، فيشير مثلا إلى أنه لم يعن برأى الناس فى سلوكه ، كما أنه لم يكن ليسامح من أساءوا إليه ، وفى المقابل فإنه لم يبدأ أى إنسان بعدوان:

«وكنت فى مسلكى ـ فعلا ـ لا أعبأ إذا اعتبر مسلكى من الفضائل المحمودة أم من الرذائل المذمومة. وليس ذلك عن عدم اكتراث ، ولكنه بسبب اكتراثى الدائم بحرمة الإنسان وكرامته».

«ولا أذكر فى حياتى أننى بدأت أى إنسان بعدوان ، ولكن إذا داس على طرفى أحد أو نالنى بمساءة فإننى أكيل الصاع صاعين ، وفى رأيى أن:

«كل حلم أتى بغير اقتدار   حجة لاجئ إليها اللئام».



وبعد صفحات أخرى يؤكد الدكتور العريان ما استقر فى عقيدته من ألا يهاب أحدا من الناس ، ولكنه يستثنى من هؤلاء الناس صفوة العلماء:

«وأنا لا أهاب إنسانا إلا إذا كان عالما من صفوة العلماء ، وأنا أقصد بالعالم المفكر الذى لا يقتصر علمه على ما حفظ من كتب ، وإنما المبدع المجدد الباحث الفاحص المحدق المقوم المضيف».



ويواصل الدكتور العريان الحديث عن شخصيته فيتناول ما يؤكد به ما سبق من شجاعته وجسارته ، مضيفا إلى هذا أنه لم يجرب الطاعة ولا التبعية لغيره من البشر ، ومع هذا فإنه منتبه إلى الحدود المترتبة عن رضاه أو سخطه عن غيره من البشر:

«ولا أعرف الطاعة كل الطاعة لأى إنسان مهما كان ، ولا أتبع إماما أو بطلا أو زعيما.. وليس الرضا عن إنسان يعنى الرضا عن كل شىء فيه ، كما أن السخط على إنسان لا يعنى السخط على كل شىء فيه».



وفى أثناء الحديث عن شخصيته فى أحد المواضع من الكتاب يقدم الدكتور العريان تفسيرا لهذا التوجه الذى اتخذه فيقول:

«لقد علمتنى التجارب أن الذين أسخطهم لا يرضيهم عنى شىء!والذين أرضيهم لا يسخطهم علىّ شىء!».

(٣٥)

ومع هذا الطبع الحاد المستقيم ، ومع هذه النفسية المعتزة الشامخة فإن الدكتور العريان حريص على أن يشير إلى تلذذه بالمفارقات ، وهو حريص أيضاعلى أن يتلذذ بها فيما بينه وبين نفسه ، وهو يقول فى هذا المعنى:

«وتلذ لى المفارقات فى الحياة ، لأنها تثير شهيتى للتحليل والتعليل والتأويل والمقارنة والدهشة. ومما يطيب لى فعله أننى عندما كنت أدعى لحفل رسمى يقتضى ارتداء السموكنج كنت أتعمد فى ذلك اليوم أن أرتدى قفطانا بلديا وطاقية وأذهب مصطحبا صديقا فنانا ونركب عربة كارو من السيدة إلى الحسين ، ثم أعود إلى بيتى فى المعادى ، وأغير الطاقم إلى سموكنج ، وأذهب إلى الحفل الرسمى شاعرا بالفرق على نحو ربما لا يشاركنى فيه غيرى!».



ثم يضرب الدكتور العريان أمثلة أخرى على هذا السلوك بعد صفحات أخرى فيقول:

«وعندما كنت معلما فى دمنهور ـ لأن الحرب العالمية الثانية تسببت فى تأجيل بعثتى إلي أن وضعت الحرب أوزارها ـ كنت أحترم الفراشين وأحتقر بعض النظار ، وكنت أقف للسلام على الطلاب ، ولا أقف للمفتش الذى كان يستمد أهميته من أنه مفتش له سلطة».



ومن هذه المفارقات التى كان الدكتور العريان يستلذ بها علاقته بمدرسى الرياضيات الذين درسوا له ثم أصبح هو نفسه بمثابة أستاذهم ورئيسهم بعد عودته من أمريكا:

«ولم يقدر لى فى مرحلة الابتدائى أو الثانوى أن أحظى بمعلم حساب أو جبر (رياضيات) أعتبره معلما ناجحا ، ولولا أننى اعتمدت فى هذه المواد على مدرس خصوصى من أقاربى لما تسنى لى النجاح فى هذه المواد.. كان مدرس الرياضة هو أغلس معلم ، ولا يراعى الفروق الفردية ، كان يدخل الفصل مثل البيانو الميكانيكى الذى يدار باليد. وكان يعتبر أن القدرة على الحساب أو حل تمارين الهندسة دليل على الذكاء ، وكان هو نفسه تجسيدا لكل أنواع الغباء. والعجيب أن كل معلمى الرياضة ـ بلا استثناء ـ كانوا يمتازون بالغباء الاجتماعى الواضح ، ومنهم مَنْ كان يدخن السيجارة على مرتين».



على هذا النحو يندفع الدكتور العريان إلى التعميم ، وليس لنا أن نعقب على اندفاعه إلا بالإشارة إلى أنه هو نفسه قد أطلعنا على هذا الخلق البارز فى شخصيته. نأتى إلى المفارقة التى هو حريص على ذكرها:

«وتشاء الأقدار بعد عودتى من أمريكا سنة ١٩٥٢ ، أن أجلس من بعضهم جلسة الأستاذ من الطالب فى برامج التدريب ، وكنت آخذهم بالأحضان وأقول لهم يا أصحاب الفضل ، ومنهم مَنْ زكيته فى الاختبار الشخصى ليرقى إلى ناظر مدرسة».

(٣٦)

وعلى حين أن كثيرين من النقاد ودارسى الأدب يعولون كثيرا على احتفاظ القراء والمتلقين بالقدرة على الدهشة والاندهاش ، فإننا نرى صاحب هذه المذكرات حريصا فى المقابل على أن يشير إلى أنه مع مرور الزمن عليه قد فقد القدرة على الدهشة وذلك بفضل كثرة ما شاهد من أمور غريبة فى هذه الحياة:

« ومع مر التجارب وما حويت من الدنيا وعاصرت من أحداث ، لم يحدث شىء يثير دهشتى ، لن أدهش إذا تحول السقف إلى سحاب.. لن أدهش إذا رأيت سمكة بيدها سنارة تصطاد رجلا.. لن أدهش إذا قال الناس: رأينا دائرة مربعة ، أو مثلثا مستطيلا.. أو «خيبة الأمل راكبة جمل!! وعرفت من الناس مَنْ يخاصم الهواء ويطحن الهواء ، ومَنْ يبحث عن المتاعب ويتحدى راحة البال. وعرفت مَنْ يتوارى فكره وراء مسكنة ماكرة ، وعرفت مَنْ يتألق بالذكاء والاقتحام ولا يجد شيئا يقدر عليه. ورأيت العمل فى حياة بعض الناجحين يمثل: مهربا من شىء ، أو طمعا ظالما فى شىء ، أو انتقاما رخيصا من شىء.. وعرفت مَنْ لزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الكهف والرقيم. وعرفت مَنْ أنفق ما فوق الطاقة وراء الفاقة ، وعرفت الساعد للقاعد.. وعرفت الباب الذى إذا حرك أنَّ ، وإذا نُقر طنَّ. ونعمت بصداقة الصديق الصدوق ، الصديق بلا مطمع ، وذقت حلاوة المودة الصافية بلا كدر، وشقيت بالانتهازى والمخاتل والمختال الذى يتخون. وبلوت الاختيار والاضطرار».

(٣٧)

ويلخص الدكتور العريان شخصيته بعد هذا كله فى أن يوافق على مضض على الوصف الذى أطلق عليه بأنه «غريب الأطوار» ، وهو يبرر بهذا بجنوحه إلى التميز وكراهيته للنمطية والحدود الدنيا ، وهو يصل فى الخوف من هذه النمطية إلى أن يصور أمثلتها من البشر كما لو كانوا سلعا تباع فى الأسواق:

«ولم أكن أحفل أبدا بأن أوصف بأننى «غريب الأطوار» ، فأنا لا أطيق أن أكون مجرد «متوسط» عادى من سواد الخلق أدور فى حيز معروف مطروق ، أعبر بالرواشم والمصكوكات، ولا أجهر إلا بالجاهز من الكلم ، ولا أعمل إلا بالمتعارف من العادات.. أفكر بفكر «المطلوب» ، وكنت فى قرارة نفسى أزدرى هذا النوع من الناس».

«ولقد وجدت دائما أن الرجل العادى الطبيعى «المفصل» على المقاس المطلوب ، المرضى عنه لا همة له فى جديد ، ولا وثبة إلى مبتكر أو شأن جلل ، فهو عبد للعادات والتقاليد ، يؤثر الجهد الأقل ، ويلوذ بالعافية ، ويعيش ما عاش كالسلعة المطلوبة طبقا لمواصفات السوق ، وبذلك يعيش فاقد الذاتية. إنه مثل قطار يجرى بين خطين من حديد».



وبعد أكثر من عشر صفحات من الفقرة السابقة يؤكد الدكتور العريان هذا المعنى فيما

يتعلق بأدائه العقلى والعاطفى ، مؤكدا على نشدانه الحرية والانطلاق والتفوق والشمول والإحاطة فيقول:

«أفكارى تنشد مدى أى مجال واسع لحركتها وتجوالها وركضها. وعواطفى تطمح إلى الشمول والإحاطة. الكون كله بأجناسه وأديانه وألوانه وأشكاله وثقافاته هو مسرح عواطفى ، خصوصا بعد أن طفت فى بلاد الغرب والشرق ، لذلك راقت لى أستراليا متعددة الثقافات والأديان.. وتدينى تدين اكتراث.. اكتراث بمعنى الحياة وبحرمة الحياة ، واكتراث الإنسان أيا كان وأنى كان».



ويبدو الدكتور العريان حريصا على تأكيد حريته وشخصيته حتى فيما يتعلق بالمذاهب الفلسفية والفكرية ، وهو يرى نفسه أكبر من أن تخضع لمذهب واحد من هذه المذاهب ، ولكنها قادرة على أن تأخذ من كل المذاهب ما تشاء وتترك ما تشاء:

«ولم أتقيد فى حياتى أبدا بنظام فلسفى واحد يحيط بجميع العلل والأسباب. «ولا أدين بكل مَنْ أعجب بهم من الفلاسفة الذين قرأت فلسفاتهم أو عن فلسفاتهم. ولم أتمذهب بمذهب من مذاهب التطور أو الشكوكية أو حتى المعرفة التجريبية. وإنما ديدنى أن آخذ من كل فلسفة أو مذهب ما أختار».



على أن أهم ما كان يعتز به الدكتور محمد على العريان هو ما رزق به من استبقاء قدرته على الحفاظ على الحماس المتأجج:

«ولم أفقد حتى فى خريف عمرى إيقاع حماسى الذى كان يتفجر فى بحر الشباب ولا شطحاتى الصوفية. «ولا أزال حتى الآن أحاول ألا أفقد أصالتى وابتكارى! وكم ذا أكلف نفسى فوق طاقتها! رثائى الصادق لمن يمضغون أعمارهم كمضغة تافهة!».

(٣٨)

ويحرص الدكتور العريان على أن يشير إلى بعض ما امتازت به شخصيته من خصال نادرة تكونت نتيجة للثقافة والفكر والتربية إضافة للعوامل الشخصية ، ومن هذه الخصال قدرته على التنبؤ بمسار التاريخ ضاربا على هذا المثل بتنبئه المبكر بانهيار الإمبراطورية البريطانية:

«وسافرت للدراسة فى انجلترا عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة ، ونشرت كتابى «فوق الأنقاض» عام ١٩٤٦ ، فقد بدا لى أن بريطانيا رغم خروجها من الحرب منتصرة فإن الإمبراطورية ستنتهى. وصودر الكتاب على يد حكومة إسماعيل صدقى ، فقد كان يجرى مفاوضات مع الإنجليز ، ولولا أن العشماوى باشا كان وزيرا للمعارف ، وكانت لى به معرفة وثيقة لما اكتفوا بمصادرة الكتاب!».

«ولكننى أقول مقسطا إنه حتى فى ذلك الزمان ـ على عهد صدقى الذى كنا نعتبره عدوا للشعب والدستور والحرية ـ فقد كانت هناك حرية رأى بجوار الظلم والعسف والمصادرة للكتب والمجلات».

ويردف الدكتور العريان حديثه ببيت الشعر الذى يكثر الاستشهاد به لأنه أبلغ ما يكون فى التعبير عما يريد من معنى:

«رُبَّ يوم بكيتُ فيه فلما صرتُ فى غيره بكيتُ عليه»



ويردف الدكتور العريان أحد تحليلاته لتاريخ حياته بالإشارة إلى نزعته الشديدة إلى الحرية بما فى ذلك حرية التصرف العفوى حتى إنه كان يخشى من أن يفسد جو الاحتفال بملكة بريطانيا لو أنه حضره ، وقد تكرر هذا الاعتذار منه مرتين: فى الخرطوم ، وفى استراليا:

«وما من مرحلة فى حياتى إلا واكتشفت فيها بعض نفسى ، وفى هذا الهزيع الأخير من عمرى وأنا على وشك الرحيل فإن الذى عرفته عن نفسى حتى هذه اللحظة هو أننى لا أطيق القوالب والقيود والطقوس وما يسمونه الأصول المرعية فى الحفلات والاستقبالات ، وأذكر أننى كنت فى الخرطوم خبيرا لليونسكو ، وحضرت ملكة بريطانيا وصافحناها ، ولم أحن رأسى ، بل وددت لو أضع يدى على كتفها وأقول لها: كيف حالك يا أم شارل؟ ولكن الله سلم! ولما زارت أستراليا فى أواخر سنة ١٩٩١ وتسلمت بطاقة دعوة إلى حفل استقبال رسمى للملكة اعتذرت ، خشية أن أحقق بعد ثلاثين عاما ما لم أحققه فى استقبال الخرطوم».

(٣٩)

ونأتى إلى حديث هذه المذكرات عن فترة التكوين المبكرة فى حياة هذا العالم الجليل ، ونحن نراه يتحدث عن الدور الذى لعبته القراءة فى تكوينه فنراه ينظر إليها من علٍ وكأنما

كان فى وسعه أن يختار ما يقرأ حين كان يقرأ ، كما نراه حريصا على أن يتجاهل دور القراءة الحرة فى «التمثيل الغذائى الفكرى» الذى لا يظهر أثره على نحو مباشر:

«وهوايتى للقراءة منذ صغرى أنها تعطينى الخيال والفكر والمعرفة ، كما أنها نفعتنى جدا فى دراستى الجامعية للأدب.. وحقيقة لقد قرأت مئات من الكتب لم أخرج منها بطائل ، وكم من كتب شعرت معها بالنفور والاستثقال. ومقياس الكتاب الجيد عندى هو الذى أتلذذ بقراءته أيا كان موضوعه أو كاتبه».



ويتصل بهذا المعنى ما يرد فى حديثه عن زملائه فى مرحلة الصبا فى دمنهور من عشق للتميز وبحث عن المتفوقين والمتميزين وضجر من العاديين والمملين مهما كانوا أقرباء:

«وأذكر أننى عندما كنت فى دمنهور ، وكنا جماعة من الأدباء وعشاق الفنون ، لا نطيق أن يلم مجلسنا إنسان «عادى» ، وكنا نعتبره مملا ، وكنا نشترك فى خصيصة واحدة ، وهى الاستخفاف بأصحاب المكانة وعلية القوم وذوى الألقاب ، ولو كانوا من ذوى القربى».



وفى مواضع كثيرة يتحدث صاحب المذكرات عن الندوات واللقاءات التى كان يحضرها بانتظام شديد فى مدينة دمنهور فى مرحلة تكوينه الباكر ، وفى أحد هذه المواضع يندم على أن أحاديث ووقائع هذه اللقاءات لم تسجل:

«وعندما أتذكر هذا الرهط وما أنجب من أدباء ، أندم أننا لم نسجل هذه الأحاديث ، كان الرهط يضم: الأستاذ عبد المنعم الخضرى ، والأستاذ أمين غراب ، والأستاذ عبد المعطى المسيرى ، والفنان المصور أفرام ، والأستاذ محمد محمود زيتون ، والرسام السيد بدوى فى الفترة التى سبقت انتقالهم جميعا إلى القاهرة. ولقد انفرط عقد هذه الجماعة بعد سفرى إلى أمريكا.. ذكريات هذه الأعوام لا تنسى».

(٤٠)

وبالإضافة إلى ما ألم به العريان من صور الثقافة والمعرفة من خلال هذا الاحتكاك الذى تشير إليه عباراته فقد كان التعليم الأساسى الذى تمتع به الدكتور العريان على درجة عالية من الجودة والتميز ، وهو حريص على أن يقدم لنا معلومات وافية عن المدارس وبنائها ومدرسيها وناظرها ودوره فى التفتيش والرقابة:

«كانت بعض مدارس المرحلة الابتدائية الأهلية فى مطلع هذ القرن وإلى قبيل ثورة سنة ١٩٥٢ ممتازة تشبه المدارس الخاصة فى كثير من الوجوه ، وكانت نتائجها فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية أحسن بكثير من نتائج المدارس الأميرية ، وكانت مدرسة التعاون الإنسانى بدمنهور من هذا الطراز ، ولها مجلس يتألف من عدد من أهل الخير والإحسان والمروءة ، وممن لهم دور بارز فى نهضة البلد والارتقاء بمستواها».

«وكانت هذه المدرسة فى الواقع نموذجية من حيث المواصفات اللازم توافرها فى البناء والمرافق ومساحة حوش المدرسة وموقعها. وكان فيها نخبة طيبة من المدرسين ، ولها ناظر مؤهل يأتى إلى المدرسة فى عربة فخمة يجرها جوادان ، وكانت له هيبة ، بل كان له مؤلف باسمه فى تدريس اللغة الإنجليزية وقواعدها.وكان هو الذى يقوم بالتفتيش على كل المواد ، ولديه صلاحية من مجلس الأوصياء».



ويشير الدكتور العريان (ولا نقول يعترف) بأنه أفاد من وجود معلم خصوصى فى منزلهم تولى تعليمهم النحو والقراءة:

«وطوال مرحلة الدراسة الثانوية كان لنا معلم خصوصى بالمنزل يكاد يكون معلما من معالم بيتنا ، يدرس لجميع أولاد الأسرة ذكورا وإناثا ، وكان أعمى ، وإليه يرجع الفضل فى تعليمنا النحو الواضح ، وفى أننا نقرأ بدون تشكيل فلا نخطئ ، وكان شاعرا وبليغا وصبورا. حتى فى الإجازة الصيفية كان الشيخ «الحنطور» يطلب منا أن نقرأ كتبا معينة ، وكانت والدتى بعد موت والدى تحضر دروسه».

(٤١)

يتحدث الدكتور العريان بامتنان عن فضل والده على تكوين شخصيته وازدهار حياته الفكرية والثقافية:

«ومنذ أواخر القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٣٠ على مدى نصف قرن يمكن تسميته بعصر العريان فى دمنهور ، فقد كان الوالد من تلاميذ الإمام محمد عبده ، وكان جدى لأبى زميلا له ، وكان الوالد ومعه نفر من أفاضل العلماء والمثقفين والمستنيرين يحاولون شق جدار الحجر الفكرى المتحرك تحت أقمطة غليظة من الطغيان السياسى والتزمت الدينى ، وكلاهما للآخر ظهير ، وكانوا يحاولون تحرير الناس من الأباطيل والأضاليل والخرافات الدينية ، وأن

يحدوا من جشع التجار وأصحاب محالج القطن الذين كان منهم مَنْ يمتص دماء العامل ، وإذا مرض العامل افترسه المرض دون علاج ، وكان عقل الوالد ولسانه ينزل كالمطرقة على سندان الظلم والجهل والخرافة ، وكان لأسرة العريان أوقاف ، ونشأنا أطفالا على وعى بما فى البيئة من متناقضات واختلافات وصراع ثقافى وصراع دينى حتى فى داخل الأسرة الواحدة».



ويلخص الدكتور العريان بعض ملامح شخصية والده ومكانته فى موضع آخر من مذكراته فيقول:

«كان الوالد هو المستشار المؤتمن فى الجليل والدقيق من شئون ذوى القربى وذوى الأرحام والأصدقاء ، وكان صائب الرأى ، ثاقب الفكر ، حلالا للعقد ، كما يقال».



ويتحدث صاحب المذكرات أيضا عن والدته بقدر من الاعتزاز فيقول:

«كانت والدتى من أسرة الوكيل.. مصدر ثروتها التجارة ، وخصوصا تجارة القطن ، وكان جدى لوالدتى يملك محلجا للأقطان وأثرى ثراء كبيرا من تجارة القطن ، فاشترى الأراضى والعقارات ، وحصل على الباشوية سنة ١٩٢٤ ، وأصبح عضوا بارزا فى الهيئة الوفدية».



كذلك يتحدث الدكتور محمد على العريان بحب وتقدير عن جده لوالده وعن أثره فى والده وفى أحفاده من بعد:

«وكان جدى لوالدى من أدباء الفقهاء والقضاة الذين زاملوا الشيخ محمد عبده ، وأخذوا عنه دروس الحكمة والغيرة القومية. وكان قوى الذاكرة ، واسع المحفوظ من المنظوم والمنثور ، وله دور بارز فى الحركة العرابية. ولقد ورثنا عن جدى لأبى وعن أبى مكتبة حوت من الكنوز ما أفدنا منه طوال عمرنا ، وما هيأ لنا سعة الاطلاع فى عقر دارنا ، وتشاء الأقدار أن تهاجر معى بعض هذه المكتبة إلى أستراليا وأعيد تجليدها. وكانت هذه المكتبة هى مكان اجتماع الأصدقاء والعلماء وأهل الحل والعقد ، حيث كانوا يسمرون فى رحاب الوالد ، ويقضون ما شاءوا من الوقت فى أحاديث عن الدين والسياسة والأدب والزراعة. ولهذه القاعة الكبيرة غرفة داخلية هى غرفة الأمانات التى أطلق عليها أخى عبدالله فيما بعد «قدس الأقداس». فلم يكن مسموحا لنا بولوجها».

(٤٢)

ويقدم الدكتور العريان تفصيلات مهمة عن الأثر الذى أحدثه الشيخ محمد عبده فى نفسية وعقلية والده ، وكيف أصبح تلاميذ الأستاذ الإمام دعاة إصلاح فى الأقاليم والمدن المصرية ، وكيف امتد أثرهم إلى فترات لاحقة ، ومما يجدر بى الإشارة إليه قبل أن ننقل نصوص الدكتور العريان ، أن أشير إلى أن والد مشرفة ووالد أحمد زكى كانا من تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده ، بل إنى أذكر أن الصورة الشخصية الوحيدة التى كانت معلقة فى بيت جدى كانت هى صورة الشيخ محمد عبده ، ولعل هذا يدلنا على مدى الأثر المباشر لهذا الرجل فى جيل كامل من ذوى العقليات المتفتحة:

«... رأى فى الأزهر الخمود والجمود ، وصدف عن حياة الأزهريين ، وظل طوال حياته وفيا لأستاذه محمد عبده ولتعاليمه ومنهاجه ، واحتفظ فى مكتبته بأعداد المؤيد التى صدرت من أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ والتى أسهم فى مقالاتها سعد زغلول وإبراهيم اللقانى والشيخ محمد عبده ، وكان الوالد مثل شيخه وأستاذه محمد عبده صحيح الحكم ، ساحر القول ، ثاقب البصيرة ، وثيق الحجة».



ويشير الدكتور العريان إلى النجاح الذى حققه الوالد ، وأن هذا النجاح امتد من تلمذته لأفكار الشيخ محمد عبده:

«ولقد أفاد من صفاء عقل الإمام محمد عبده وبُعد نظره أن أصبح شديد العارضة مع قوة الحافظة عندما أدلى دلوه فى السياسة ، ونظرا لمكانة الأسرة فقد أمن سخط الخاصة وغضب العامة ، وعلى الرغم من أنه كان يجاهر فى تعاليمه بآراء الإمام التى كانت فى مطلع القرن آراء لو قدر لها أن تجد طريقها فى مناهج الأزهر لنقلت الأزهر نقلة بعيدة المدى».

....

«وكان والدى يعتقد أن الشيخ محمد عبده أعظم رجل ظهر فى مصر وما جاورها من خمسة قرون ، وكان له فى نفسه أثر من أقوى الآثار ، وكان يقول: من حسن حظى أننى تتلمذت عليه وتعلمت منه ، ولو لم يعجل به الموت سنة ١٩٠٥ وأتيحت له الفرصة لإصلاح الأزهر وتغيير مناهجه العتيقة ، لكان الأزهر اليوم غير ما هو عليه الآن».

«وعندما كان والدى سنة ١٩١٩ يكتب المنشورات الثورية كان يضمنها قبسات من أقوال محمد عبده».

(٤٣)

وتحفل صفحات هذه المذكرات بحديث الدكتور محمد على العريان عن فضل البيئة التى نشأ فيها فى تكوين شخصيته ، وكيف كانت هذه البيئة الإنسانية قادرة على اكتشاف الموهوبين وتشجيعهم دون أدنى حساسية للفروق الطبقية ، ونحن نرى عباراته فى هذا الصدد وهى تؤكد المعنى نفسه الذى يقدمه الدكتور شوقى ضيف فى مذكراته وكأنما يحرص هذان العالمان الجليلان على أن يتصديا بهذه الفكرة لما حاول البعض أن يبرروا به التوجه إلى بعض القرارات الاشتراكية:

«وكما يجتمع الرجال فى المسجد للصلاة لا فرق بين غنى وفقير ، فكذلك كان الكتّاب والمدرسة الأولية يجمع أبناءهم للتعليم الأولى دون أى فارق سوى أن أبناء الموسرين يلتحقون بالمدارس الابتدائية ، وأبناء الفقراء لا يتجاوزون هذه المرحلة. فإذا أظهر أحد أبناء الفقراء استعدادا واضحا للنبوغ والتفوق فى إكمال التعليم لم تسد أمامه الأبواب ، بل وجد من الوقف الخيرى ما يعينه على المواصلة بشرط استمرار التفوق.. وكان ثمة رجال من ذوى اليسار أنشأوا مدرسة ابتدائية أهلية ينفق عليها من أموال الوقف ، وأذكر ـ والأسى يحز فى نفسى ـ ألوان القسوة التى كان يعانيها الأطفال فى الكتاتيب بصفة خاصة ، وكم من أطفال فقدوا الإبصار فى عين بسبب ضرب الفقيه أو العريف! على أن التعليم فى الكتاتيب كانت له بعض المميزات بجانب ما فيه من قسوة وفقر وإهمال وانعدام الشروط الصحية ، ومنها المرافق العامة».



ونرى الدكتور العريان واعيا للدور الذى قدر للإسهامات الأهلية أن تلعبه فى خدمة التنمية:

«وما من جمعية خيرية أنشئت فى دمنهور إلا وكان علماء البلد أصحاب اليد الطولى فى إنشائها قبل التجار».



ومع هذا كله يدرك الدكتور العريان ويعترف أنه كان هناك بين أثرياء ما قبل الثورة مَنْ يعتقدون اعتقادات غير إنسانية:

«وكان لنا خال (باشا) كان لا يذكر الفلاح إلا مقرونا بكلمة حيوان ، وكان يرى أن

المفسدين فى الأرض هم الذين يريدون نشر التعليم ، ويقول: إذا تعلم الفلاح فمن الذى يزرع الأرض ، وإذا تعلم الصعيدى فمن الذى يحلج القطن؟ ومن حسن حظ هذا الخال أنه مات قبل ثورة ١٩٥٢».



كما نرى صاحب هذه المذكرات واعيا للتكوين الإنسانى الذى لابد منه للمثقف ، وهو يخرج من كل هذه الأحاديث التى يتناول بها العوامل التى ساعدت فى تكوينه المبكر الناضج إلى التعريف الذى يفضله للأديب وللفنان وكيف دفعه هذا الفهم إلى تفضيل الالتحاق بكلية الآداب عن الالتحاق بكلية الحقوق فيقول:

«ومن هذه الثوابت التى غرسها فى صميمى والدى والمعلمون الذين لهم فضل فى تثقيفى، أن الأديب هو الإنسان المثقف المصقول ، وأن الفنان هو الإنسان فى أعلى مراتب الإنسانية ، وكان من الطبيعى جدا أن أرفض دخول كلية الحقوق وأدخل كلية الآداب».

(٤٤)

وفى إطار حديث صاحب هذه المذكرات عن العناصر المؤثرة فى تكوينه الثقافى والفكرى يتحدث الدكتور محمد على العريان كثيرا عن صديقه الصيدلى الدكتور فاضل وهو فى رأيه نموذج نادر وحى للرجل المثقف المهتم بالفن ، وهو يكرر الحديث عن أثر هذا الرجل على مجموعة كبيرة من قادة الفكر والرأى فيما بعد هذا:

«كنت عضوا فى جمعية الفنون بدمنهور ، التى كانت رئاستها بالتناوب ومقررها الدائم الدكتور محمد فاضل عبد الله ، ومقرها الدائم صيدلية الأمة».

«وكان الدكتور فاضل يحفظ المسرحيات الغنائية التى كان يشدو بها سلامة حجازى ، فقد كان ـ على حد تعبيره ـ من مريديه ومحاسيبه».

....

«وكان الدكتور فاضل عليما بتفاصيل [فن وتاريخ] سلامة حجازى وسيد درويش وزكريا أحمد ، وأسمعنا الكثير عن تاريخ المسرح الغنائى ، وقال لنا: إن زكريا أحمد هو أول من

اكتشف سيد درويش ، وهو الذى سحبه من يده ، كما فعل مع أم كلثوم ذلك ،وحضر به إلى القاهرة».

«وكنا أحيانا ننتقل إلى صيدلية الأمة حيث الدكتور محمد فاضل عبد الله ، وكانت أعجب صيدلية «تبيع الدواء وتبيع الفاكهة» ، وتحلل البول والدم ، وتركب أدوية بصرف النظر عن المكتوب فى الروشتة ، فقد كان الدكتور فاضل لا يعترف بالأطباء!».

«واقترحنا عليه فتح قسم لضرب الرمل والودع ، فقال: إن الصيدلة نفسها لا تخلو من الرجم بالغيب».

(٤٥)

ويبدو الدكتور العريان حفيا بالحديث عن نشاط عبد المعطى المسيرى صاحب مقهى المسيرى المشهور فى دمنهور ، وهو الذى كان معروفا على مستوى الوطن كله برعايته للموهوبين وتقديره للفن ومشاركاته الثقافية ، ويكفى أن نشير هنا إلى ما يرويه الدكتور عبد الوهاب المسيرى بأن اشتراكه فى اللقب مع عبد المعطى المسيرى قد هيأ له تسهيلات مهولة فى بداية مشاركته فى الحياة الثقافية العامة:

«وكان عبد المعطى المسيرى يجوس خلال القرية ويسأل الأطفال ويدون أجوبتهم وكأنه باحث اجتماعى ، وكان يضمن هذه الأجوبة فى بعض قصصه».



ويلخص الدكتور العريان الدور الكبير الذى لعبته قهوة عبدالمعطى المسيرى فى تكوينه ، ومن هذه المواضع قوله:

«فعلى أيامنا كانت المقاهى مجمعا لأهل الفكر والأدب ، وخصوصا قهوة عبد المعطى المسيرى.. هذا المقهى كان بالنسبة لنا مكانا للأدب ، ومجمعا لأهل الفكر وحماة الفنون».

(٤٦)

ولا ينكر الدكتور العريان أن تكوينه السياسى الأول قد جعله ليبراليا وعاشقا لليبرالية ، وهو لا يتحدث عن هذا المعنى بهذه الألفاظ الاصطلاحية ، ولكنه يكتب هذا المعنى بنبضات قلبه فى كل سطر من سطور حياته ، فهو عاشق للحرية والتعددية ، كما أنه ضجر إلى أبعد حدود الضجر وكاره إلى أبعد حدود الكراهية لكل نظام غير ليبرالى مهما تخفى وراء شعارات أخرى.

ويتصل بهذا المعنى تقدير وتقييم الدكتور العريان لزعماء الوطنية المصرية.

ومن العجيب ـ وكم تحفل مقارنة السير الذاتية ودراستها بالعجائب ـ أننا نرى الدكتور العريان معجبا أشد الإعجاب بقصيدة أمير الشعراء شوقى فى تحية الزعيم الوطنى سعد زغلول ، وأنه كان يحفظ نفس الأبيات التى كان الدكتور شوقى ضيف معجبا بها كما أشار فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الأول من هذا الكتاب:

لنقرأ ما يرويه الدكتور العريان:

«وكنا نحفظ قصيدة شوقى فى سعد زغلول:

ويا سعد أنت أمين البلاد ... قد امتلأت منك أيمانها
ولن نرتضى أن تقد القناة ... ويبتر من مصر سودانها
فمصر الرياض وسودانها ... عيون الرياض وخلجانها
تتمم مصر ينابيعه ... كما تمم العين إنسانها»



بل إن الدكتور العريان يجاهر مباشرة ـ على غير عادته ـ بأن كتاب الأستاذ العقاد «سيرة سعد زغلول» هو من أحب الكتب إليه.



وهو يلخص فى أحد المواضع من مذكراته رأيه فى سعد زغلول فى قوله:

«سعد زغلول كان فكرة عظيمة قوامها الحرية ، وليدة إحساس عظيم يسبقه إرهاص عظيم المجلى كما تنجلى الطبيعة لمقدم الربيع ! ».

«كم من آلاف السنين ستمضى لتجود الإنسانية بمثل سعد زغلول ، ولكن لن يتعذر على رافع السماء أن يقدم هذا الوعد».

(٤٧)

ويتحدث الدكتور العريان عن أساتذته فى الجامعة وفى كلية الآداب بالذات باعتزاز كبير.. وهو يخص طه حسين ومصطفى عبد الرازق بكثير من الثناء وهو يجمل حديثه فى أحد المواضع بقوله:

«كانت كلية الآداب عظيمة بأساتذتها الذين نهضوا بالأدب والفلسفة».

وفى موضع آخر يقول:

«وفى كلية الآداب تلألأ فؤادى بكثير من الدرر التى خرجت من بين شفتى طه حسين ومصطفى عبد الرازق الذى كان اسمه كالزهرة يجذب إليه كل راغب فى الرحيق. أما طه حسين فكان اسمه كهتاف النجدة. أريد أن أعيد قراءة كثير مما درسنا على يد هؤلاء الأساتذة الذين علمونا استقلال الفكر والتفكير والتمحيص».

وفى عبارة أخرى يقول الدكتور العريان:

«وفى نظرى أنه من فاته سماع طه حسين وهو يحاضر عن المعرى ، فقد فاته نصف عمره!».

وفى موضع رابع يقول:

«وطه حسين قال: كانت تجيش فى نفس أبى العلاء الآراء والخواطر فلا يستطيع لها كتمانا ولا كظما ، وكان ذلك فى القرن العاشر ، ونحن بعد عشرة قرون فإن حرية الفكر والبحث والرأى تتعرض لكثير من المعوقات والمحاذير ، بل وللأذى!».



وهو فى مواضع كثيرة يذكر بعض أقوال هذين الرجلين بالذات:

«وطه حسين هو الذى قال لنا: اقرأوا القرآن عبادة وتدبرا وتفكرا».

«ومصطفى عبد الرازق الأنيق الرشيق هو الذى قال لنا: ما لم تفكروا وما لم تكونوا

لأنفسكم فلسفة فى الحياة نتيجة للتفكير ، فلسوف تظلون فى ضحالة وهزال ، وأتعس الناس من تزيد معرفته ويقل تفكره».



وهو يشير عرضا إلى أن الدكتور طه حسين كان قد تمنى عليه أن يلحقه بقسم اللغة العربية:

«وطه حسين اختبرنى فى الشفوى بالسنة الأولى ، ولما سألنى عن القسم الذى سألتحق به فى السنة الثانية قلت قسم اللغة الإنجليزية ، قال: حسبتك ستلتحق بقسم اللغة العربية ، ولكن امض فى طريق اختيارك .. وفقك الله».



ويشير الدكتور محمد على العريان إلى فضل أستاذ الجيل ومدير الجامعة أحمد لطفى السيد على الحياة الفكرية والثقافية باعتزاز بالغ وهو يعدد الأفضال الفكرية لهذا الرجل ويقول:

«وكان مدير الجامعة هو أحمد لطفى السيد الذى تتلمذ على يد جمال الدين الأفغانى والذى قام فى حياة الجامعة كالمنار ، والذى أسهم فى الدفاع عن الديمقراطية والحكم الدستورى ، والذى ترجم أرسطو ، والذى وضع مع حفنى ناصف وعاطف بركات قانونا للمجمع اللغوى سنة ١٩١٦ ، والذى كان يرى أن رسالة الجامعة أن تقدم البحوث العلمية فى العلوم والآداب التى تنتج عندنا كما أنتجت عند غيرنا الزيادة فى النظرية العلمية التى هى فى تطور مستمر ، والتى تنتج عن اكتشافات جديدة تضاف إلى ما اكتشفته الجامعات الأخرى ، مما له صبغة علمية بحتة ، ومما له تطبيقات عملية تنفع الناس فى أن تسخر لهم قوى الطبيعة وموارد الطبيعة. ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغة ، والتجديد فى النثر والشعر ، والتجديد فى نظرة الناس إلى الفنون الجميلة والبحث فى وجوه ترقيتها وشيوعها ، خصوصا الموسيقى والغناء.. إلخ».

(٤٨)

كذلك يعتز الدكتور العريان بالتلمذة على أستاذ الفلسفة الكبير عميد الأدب الدكتور منصور فهمى ، على الرغم من أنه ينتقد ما يسميه «ضعف دسامة محاضراته» ، وهو يروى قصة حوار شائق بينه وبين هذا الأستاذ الجليل متحدثا عن نفسه فيقول:

«كانت لى ذاكرة فوتوغرافية ومقدرة على تقليد الأساتذة ، وكنت فيما بين المحاضرات يتحلق حولى الطلبة وبعض الطالبات الذين فاتتهم المحاضرة فألقيها عليهم نصا وتقليدا وحركات وإشارات مما أضفى علىّ أهمية. وشاعت هذه المسألة وذاعت ، وبلغت مسامع الدكتور منصور فهمى الذى كانت محاضراته ليست كاملة الدسم ، وكنت لا أكتبها وإنما أحفظها ، وفى نهاية إحدى محاضراته نادى بصوته الجهورى: أين العريان؟ فوقفت وقلت: أنا ، فقال: أقبل.. وشد على يدى ، وقال: بلغنى أنك لا تفوتك شاردة ولا واردة ،وأنك تعيد المحاضرة بحذافيرها ، وقد كنت مثلك فى عمرك ، ولعل حظك يكون خيرا من حظى».

ويردف الدكتور العريان هذه القصة بقوله:

«والواقع أننى كنت أعتقد أن أستاذ الجامعة هو أوفر الناس حظا ، وأن هذه المهنة مقدسة».

(٤٩)

وبنفس القدر من الاعتزاز والحب الذى يتحدث به العريان عن أساتذته فى الجامعة يتحدث فى أكثر من موضع عن الأستاذ عباس العقاد فيقول على سبيل المثال:

«كان العقاد نموذجا إنسانيا رفيعا للكرامة الإنسانية فى أعلى مراتبها ، وكان شامخا راسخا، رفض أن يحنى رأسه لأى دكتاتور ، بل رفض أن يزوره أى وزير فى مرضه الأخير. ولقد وقف ضد طغيان الإخوان المسلمين لما أفلت زمامهم ، واغتالوا الذين يخالفونهم فى الرأى. وضد طغيان ثورة سنة ١٩٥٢.

وكان يقول: «إن الجيل الذى شهد إسناد ٢٨ مسئولية علمية لطوبجى ، [يشير الدكتور بهذا إلى أن الوزير «كمال الدين حسين »كان فى الأصل ضابطا فى سلاح المدفعية وهو ما يعرف فى السياق العام بوسف الطوبجى] خليق بألا يحاسبه الله».

ويبدى الدكتور العريان إعجابه بكثير من أقوال الأستاذ العقاد وأحكامه النقدية:

«وصف العقاد شاعرا ـ شويعرا متشاعرا ـ بأنه شيال كلام موزون».

وفى موضع آخر يقول:

«أنا شخصيا أهش وأبش لعدم الامتثال لهذا السخف ، ولعل من أسباب إعجابى وإكبارى للعظيم عباس العقاد أنه لم يحن رأسه لمخلوق فى حياته أبدا!!».

وقبل هذا يشير الدكتور العريان إلى معلومة شبه معروفة:

«واقرأ فى كتاب الدكتور حسين مؤنس (باشوات وسوبر باشوات) المدعم بالوثائق. عندما مات العقاد أكبر مثقف وعالم ومفكر فى القرن العشرين ، لم يكن يملك فى بيته إلا ١٢٠ جنيها و٩٣ كتابا من تأليفه ، ولقد وقف وحده يصارع العصر كله ، وعاش عظيما ومات عظيما. وكان موته إحياء للحزن على فقد كل عظيم ، وعلى كل المثل العليا ، وكان ـ رحمه الله ـ له وصف لبلطجية السياسة والتعليم والصحافة (إنهم كالمخاط.. إن أزحته تقززت منه.. وإن تركته تقززت.. فهو مقزز على الحالين)».



ويحرص الدكتور العريان على الإشادة بكثير من الشخصيات التى قدر له أن يعرفها على مدى تاريخ حياته ، وهو يثنى على هذه الشخصيات بما تستحق ، ويشير باقتدار إلى مواطن الإضاءة فيها.

ومن أبرز الأمثلة على هذا المعنى ثناؤه على الدكتور عبد الرزاق السنهورى:

«وعرفت عبد الرزاق السنهورى.. الفقيه القانونى.. أستاذ الجامعة.. رئيس مجلس الدولة العملاق الذى لقن الطغاة درسا فى الشموخ والرسوخ. لقد أجرى الله على يديه الخير أينما حل فى القضاء والتعليم والجامعة ، واستنقذ بمروءته كل موشك على الغرق ، وألقى لهم بأطواق النجاة ، ومصر العزيزة لا تملك له جزاء إلا الإقرار بفضله وعلمه وخلقه نبراسا يقتدى به؛ كان صديقا لأصدقائه ، لا تنام صداقته عن أصحابه ، ورجلا لا تغفل مروءته عن غير أصحابه ، وكان غنيا عن لقب باشا بمكارم أخلاقه وعلمه ، وفوق كل لقب لسماحة شيمه».



ومن هؤلاء أيضا الشاعر الكبير عزيز أباظة باشا الذى كان مديرا لمديرية البحيرة فى فترة من الفترات:

«عرفت عزيز أباظة عن كثب عندما كان مديرا لدمنهور.. شاعرا فنانا أديبا.. كبيرا بخلقه وعلمه وفضله.. مشجعا للأدب والفن.. مقربا إليه الأدباء والفنانين.. وكان عهده هو عصر النهضة فى مدينة دمنهور».

وهذا نموذج ثالث يتمثل فى ثنائه على الشاعر كامل الشناوى:

«كان من أعلم الناس بالأدب الباهر ، والشعر النادر ، والمثل السائر.. وكان ذكاؤه قادرا على سبر أغوار النفوس ومغامزها.. وعاش بالطول والعرض والارتفاع والعمق: ينفق بلا حساب ، ويعطى بلا حساب ، وكان بحرا لا تكدره الدلاء».



وهو فى موضع رابع يثنى على محمود شكرى باشا ناظر الخاصة الملكية وجد زوج أخيه دون أن يشير إلى أنه والد إبراهيم شكرى:

«أما محمود باشا شكرى الذى كان ناظرا للخاصة الملكية ، فقد عاش عفيفا ، وكان محسنا كبيرا ، تبرع بماله لبناء مستشفى كلفه مائة ألف جنيه من الجنيهات وقت أن كان الجنيه قيمته اليوم مائة! وكان من عظماء الرجال علما وخلقا ، وهو والد مصطفى شكرى بك والد نادية زوجة أخى عبدالله».



كما يثنى أيضا على الدكتورة نوال السعداوى بحرارة شديدة مع اختلافه معها فى الرأى:

«أنا أعتبرها مثل محرر العبيد إبراهام لنكولن ، وتقوم بنفس الدور ، ومن العجيب أن أكثر الناس حربا عليها هن النساء اللاتى تريد رد حقوقهن التى أرستها لهن مشيئة الله! وأنا للآن لم أتشرف بلقاء هذه المجاهدة فى سبيل حقوق الإنسان. ولقد قدر لى أن أراجع لها ترجمة كتاب «شجرة تنمو فى بروكلين» وتمتعت حقا بترجمة رائعة تمتاز بذوق فنى رائع ، وحاسة أدبية أيقنت معها أن المترجمة فنانة كاتبة ، مصلحة اجتماعية ، وطبيبة ، ثم قرأت لها كتبها وقرأت ما ترجم منها. ووجدت أننى أمام عبقرية من طراز من خلقن لأداء رسالة تتطلب إرادات فولاذية ، ومثابرة ومقدرة فذة على تلقى الصدمات وامتصاص متناقضات مجتمع تحاول الأخذ بنسائه إلى منابت العاقبة والكرامة ، فتجد المعارضة من مريض يأبى شفاء سقامه. وكونى اختلفت معها فى الرأى أو أتفق معها جزئيا أو كليا ، فهذا أمر ـ عندى ـ خارج الموضوع. نوال السعداوى لها رأى ولون وصيغة وموقف ، وأنا أعتبر رسالتها امتدادا وإنضاجا لرسالة قاسم أمين ، وهدى شعراوى ، ومن قبلهما محمد عبده».

(٥٠)

وتحفل مذكرات الدكتور العريان بكثير من الحديث عن أصدقائه المقربين ، ومن هؤلاء عبدالعزيز المسيرى صديقه وخطيب أخته الذى قضى نحبه فجأة فى سبتمبر ١٩٤٠فى ربيع حياته:

«لو عاش عبد العزيز المسيرى وامتد به العمر لكان مصطفى مرعى الثانى.. طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة فى الخلق ، ونخوة لا تبالى ما يفوتها من النفع ، وجراءة فى الحق وفى الدفاع عن الحق ، وكان الصديق والخل الوفى».

«لو أمهلته المنية لما عرفت مصر اسما أشهر من اسمه فى عالم المحاماة والإصلاح الاجتماعى فى الريف!».

«بموت عبد العزيز المسيرى انسدت نافذة كبيرة على حياتى ، وبموته سكبت أنقى ما عرفته حياتى من دموع ، ويخيل إلىَّ أنه شرب عبير الحياة فى جرعة واحدة ثم مات».



ويخصص الدكتور العريان صفحات من كتابه للحديث عن زوجين صديقين هما «عصمت» ، و«منزه» دون أن يذكر اسميهما الكاملين وهو يمضى فى وصف خصالهما الحميدة حتى يصل إلى قوله:

«وكان من حسن حظى بعد ربع قرن فى مهجرى أن أصادف هذين القلبين المتآلفين ، والنفسين المتناغمتين ، والعقلين المتكاملين المكملين. وهما يحققان ـ معا ـ بالأريحية ، وبالفلاح برا وإحسانا ـ ما لم يحققه أصحاب النفعية ، وهما يقومان فى حياتهما وعملهما كالمنار فعلا ، وأعتبرهما خير سفيرين لمصر بأستراليا ، مصر الحضارة ومصر الثقافة».

«هذان اللذان يسعى إليهما المال والجاه فلا يزيدهما إلا برا وإحسانا وعطاء وبذلا وسعيا ووعيا ورغبة فى العلم والثقافة والمعرفة! ولقد تنزه فيهما الإنسان.. مودة ورحمة وحملا

لأمانة الزواج والأبوة والأمومة.. والصداقة والزمالة.. وأداء الواجب وأخذ الحقوق! وتنزه فيهما رجل وسيدة الأعمال ، لقد واجها عقبات تغلبا عليها - معا وعلى الطريق - بالكفاح الراشد الأمين بلا عوج ولا أمت! واحتشدت فيهما كل قوى الأمانة والعفة والفلاح ، وكانا - ولا يزالان - فى كل علاقاتهما وصلاتهما يوقظان العقول الحية بما يزيدها إحياء ، ويبهران القلوب الذكية بما يجلو ذكاءها. كل منهما يشد أزر الآخر وينصحه ويساعفه - مودة ورحمة وحبا ووفاء - على نحو لم أجد له نظيرا فى هذا المهجر من بلاد القنغر!»

(٥١)

فى نهاية عرضنا لهذه المذكرات لابد أن نشير إلى أن الدكتور العريان لم يكلف نفسه - ولست أدرى السبب - الإشارة إلى الظروف التى دفعته إلى العمل فى بعض المجالات بعيدا عن المجال التربوى ، وفى بعض آخر من هذه الوظائف لا يشير إلى الظروف التى هيأت له العمل ، ولست أدرى لماذا تجاهل هذه الظروف فيما سجله من تجربته وهو يشير إلى انتداب صلاح سالم له للعمل مديرا لمكتب الاستعلامات السياسية فى نيويورك دون أن يذكر كيف عرفه صلاح سالم ، أو كيف عرف صلاح سالم ، أو لماذا قبل مثل هذه المهمة ، أو ما أضاف فيها:

«وكنت أول مدير لأول مكتب للاستعلامات السياحية فى نيويورك على عهد صلاح سالم عندما كان وزيرا للإرشاد القومى ، الذى انتدبنى من معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية للاضطلاع بهذه المسئولية».



وهو يلقى إلينا ببعض التفصيلات العابرة عن هذه الجزئية فى موضع آخر فيقول:

«ثم انتدبت للعمل بمصلحة السياحة كأول مدير لمكتب الاستعلامات السياحية بنيويورك ، ولم أمكث به غير عام واحد ، أيقنت فيه أننى مثل السمك وأن مكانى الطبيعى أو الماء بالنسبة لى هو الجامعة وحياة العلم والتعليم والبحث ، كانت تجربة مصلحة السياحة بالنسبة لى تجربة فى غاية المرارة ، وكان فيها بعض الموظفين فى غاية التفاهة والجهل يتكسبون من فشلهم

الدراسى أو العقلى ، ويحفظون كلمات واصطلاحات وطقوس كـالماسونية ، وبعضهم كانت لهم علاقـات مشبـوهة بهيئـات أجنبية ، وقـرفت بالمعنى الحرفى للقـرف ، وقدمت استـقالتى مسببة ، ورجعت إلى قواعدى سالما غير غانم.



وفى مقـابل هذا يكتفى الدكتـور العريان فى حديـثه عن تجربة العـمل فى مجلس الوزراء بالثناء على أحد رؤسائه فى هذا العمل دون أن يذكر طبيعته أو خلاصة تجربته فيه:

«عملت برئاسة مجلس الوزراء مع الأستاذ على زين العابدين حسنى ، العالم ، الفاضل ، الشاعر ، الأديب ، الدبلوماسى».

كما يتـحدث حديثا مبـتورا عن عمله فى إحدى المؤسـسات الصحفيـة ، وهو لا يذكر لنا طبيعة هذا العمل ولا السبب الذى جعله يستغنى عنه ولا يستمر فيه!!:

«وبعد إغـلاق معـهد التـربية العالـى للمعلمين بالإسكندرية عـملت بدار التحـرير للطبع والنشر لفترة لم تطل ، وعدت بعدها إلى جامعة عين شمس كلية التربية».

مذكرات المفكرين والتربويين
تكوين العقل العربي

5

حقبة من الزمان

مذكرات:
د. أحمد عبدالسلام الكردانى

دار الخيّال

(١)

هذه مذكرات تقليدية كتبها عالم تقليدى بطريقته التقليدية ، وهى مع كل هذه التقليدية تنطق بكثير من الأفكار والأحداث والتوجهات ، وتدلنا على كثير من الحقائق التى لا نتوقع أن نجدها فى مثل هذه المذكرات ، بل إنى قد أتجاوز إلى القول بأن صاحب هذه المذكرات بما جبل عليه من تقليدية قد تجاهل ـ عن قصد وعن غير قصد ـ دواعى التميز والتفرد فى حياته ، ومع هذا فإن أمانته ودقته قد ساعدتاه على أن يثبت حقائق هذا التغير والتفرد من حيث لم يقصد.

ونحن نرى فى هذه المذكرات عالما كان من المفترض أن يكون رائد هندسة الطيران فى وطنه ، وأن ينشىء قسما لهذا العلم وهذه الهندسة على نحو يليق بمصر ، ويساعده الحظ على أن يبدأ خطوات جادة فى هذا السبيل على مستوى الحكومة ووزارة الدفاع ووزارة المعارف ، ولكن حادثاً جللاً يرتكبه وطنيون آخرون (بدافع وطنى) يذهب بكل جهده وكل آماله وطموحاته أدراج الرياح على نحو ما سنقرأ.

ونرى هذا الرجل وهو يغير مسار حياته الوظيفية أربع مرات دون أن يتغير هو نفسه ، لكننا نأسف لما كان هذا العالم حريا أن ينجزه لو وجد البيئة المناسبة لعلمه ، ذلك أن إنجازاته فى كل ما تولى من وظائف كانت تنبئ عن قدرة فائقة على الإنجاز والعمل ، بل على العلم أيضا ، فضلا عن التزام واضح ، ودأب مستمر ، واستقامة فى الخلق ، وصدق فى الأداء.

ونحن نرى هذه المذكرات وهى تدلنا على المناخ الاجتماعى الذى شب فيه الرعيل الأول

من علمائنا المصريين الذين قادوا نهضة مصر فى عصر النهضة الجديدة ، ونعجب لتوفيق الله لهذا الجيل فى الوصول إلى ما وصل إليه.

ونرى رجلا يحظى بالمركز الأول فى البكالوريا فيؤثر الالتحاق بمدرسة المعلمين وفاء للمجانية التى منحتها له الدولة من قبل ، ثم هو يتخرج فى مدرسة المعلمين ويعمل بالتدريس فى وظائف مؤقتة حتى تأتيه البعثة (مرة بعد أخرى) ، ويغريه العلم نفسه وأستاذه القدير بأن يركز تخصصه فى ديناميكا الطيران ، ويستلزم هذا منه أن يدرس بعض مقررات الهندسة فيدرسها ويتفوق ويصبح عضوا فى كلية الهندسة فى بريطانيا العظمى ، ويعود إلى بلاده ليؤسس قسم هندسة الطيران فى كلية الهندسة ويعمل به حتى إذا ما وجد الطريق مسدودا انتقل إلى كلية العلوم ، فإذا ما وجد طريقه فيها غير مثمر ، آثر أن ينتقل إلى العمل التربوى فى الوزارة ، ويشغل منصب ناظر المدرسة الثانوية فى ثلاث مدارس متميزة منها المدرسة التى درس هو نفسه فيها ، ويجد فى هذا العمل ذاته وسعادته ، ثم يترقى فى الوظائف الإدارية فى وزارة المعارف ويتولى عمادة معهد التربية ليكون أول عمدائه ، وإذا بالاختيار يقع عليه ليكون سكرتيرا عاما للجامعة ، وترفع من أجله الدرجة المخصصة لهذا المنصب مرة بعد أخرى ، ثم يواصل تدرجه الوظيفى فى وزارة المعارف فيصبح الرجل الأول بين موظفيها ، ولكنه سرعان ما يعانى من عنت وزيرين متعاقبين شاء قدره أن يختلف معهما فى أثناء مساره الوظيفى وتكون النتيجة أن يخرج إلى المعاش المبكر بتراض مع الحكومة يتولى إتمامه صديقه وزير الخارجية الشهير محمد صلاح الدين.

وهو بعد ذلك كله يبقى خبيرا تربويا تسعى إليه الدولة والجامعة والمجتمع ولا يبخل أيضا على وطنه بخبرته فى هذا المجال.

وقد أوتى مع كل هذا طول العمر بالإضافة إلى حسن العمل ، ويكفى أن نشير إلى أنه كان قد بلغ السابعة والثمانين حين نشر هذه المذكرات عام ثمانين (١٩٨٠).

(٢)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن نورد قصة الأمل الذى كان على وشك التحقق بأن تدخل مصر عصر الطيران منذ عهد وزارة سعد زغلول فى ١٩٢٤ ، لولا أن وقع حادث مقتل السير لى ستاك وما استتبعه من تعسف بريطانى مع مصر وحكومتها الوطنية ، وها هو الكردانى يحكى عن تسلمه العمل مدرسا فى كلية الهندسة فى نهاية ١٩٢٣ ثم يقول:

«... وظهـرت لنا بارقة أمل فى أن مـصر سـتخطو عـلى يدينا خطوة نحو الاسـتفـادة من الطيران ، إذ كـانت الوزارة برئاسة سعـد باشا زغلول قد عينت ضـابطا اسمه «الميـجور لنج» كمسـتشار لشئـون الطيران وألحقـته بوزارة المواصلات ، وكان وزيرها هو مـصطفى النحاس باشا ، وكلفـته بإعداد مشروع سـلاح طيران مكون من سربين بكل منهـما أربع طائرات تكون مهمتها حراسة الحدود ، للشرقية منهما سرب ، وللغربية السرب الآخر ، على أن يبين تكاليف الإنشاء والصيانة للطائرات والمحركات ونفقات تعليم الطيارين اللازمين لقيادة هذا السلاح.. إلخ».



ثم يروى الكردانى دور وزارة الحربيـة فى تبنى مشروعه وسفـره من أجل هذا المشروع إلى انجلترا وهولندا:

«عهـد لوزارة الحربيـة وعلى رأسها حـسن حسيب باشا ، بتبنى المشـروع ، وبعد دراسـته كلفنى معاليه بوضع الميزانية اللازمة لتنفيذه ، وطلب منى انتهاز فرصة وجودى بأوروبا لقضاء إجازتى الـصيفـية لأتفـاوض مع رجال الطيـران فى انجلترا وهولندا بشـأن الطائرات المناسـبة للسلاح المقترح ، واللازمة للتعليم بالمدرسة ، وأثمانها ، والأجور اللازمة لمن سيقومون بتعليم الطيـارين فيهـا ، وبصفـة عامـة تفاصـيل تكاليف إنشاء السـلاح. وفعـلا سافرت إلى انجـلترا وهولندا لهذا الغـرض وقدرت التكاليف وأودعتهـا كتيبا قـدمته لوزارة الحربيـة عن مشروعى المعدل وفيه تفاصيل هذه التكاليف ، وتكاليف الصيانة ، والمدرسة.. إلخ».

«شرعت بعـد عودتى بقليل فى الاتفـاق مع الوزارة على كيـفية تنفيـذ مـشروعى ، ولكن حـدث ما لم يـكن فى الحسـبـان ، وهو عـاصفـة أفـسدت كـل شىء ، وهى مقـتل السـردار الإنجليزى للسـودان (السير لى سـتاك) فى ١٩ نوفمـبر ١٩٢٤ خلال زيارته لمصـر ، واتخذته الحكومة البـريطانية ذريعة لإجـبار الوزارة على دفع تعويض مـالى كبيـر ، وبعد أن وقع وزير الماليـة الشيك بمبلغ التـعويض اضطروا سـعد زغلول باشـا لتقـديم استـقالتـه فى ٢٣ نوفمـبر ١٩٢٤، وصدرت لى أوامر مشددة بأن أمتنع عن دخول وزارتى المواصلات والحربية ، وحُوِّل المبلغ المرصود فى الميزانية لإنشاء سلاح الطيران إلى بند آخر فى ميزانية وزارة الحربية التى كان الإنجليز يسيطرون عليها. وأذكر أننى لما قابلت سعد باشا بعدها فى بيت الأمة بادرنى بابتسامة وهو يقول: «أسقطونا وأسقطوك معنا».

ومن الجدير بالذكـر أن الدكتور الكردانى يـشير فى هذه المذكـرات إلى أن المناخ العام فى

ذلك الوقت كان قد مكنه من الخروج بأفكاره فى هذا الصدد إلى الرأى العام فى المجتمع المصرى وذلك من خلال إلقائه المحاضرات العامة وحديثه فى الصحافة:

«كنت فى ذلك الوقت قد اتفقت مع المستر كليلاند رئيس هيئة الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية ، على إلقاء أول سلسلة محاضرات تلقى بقاعة ايورت عن الطيران ، فى موعد ثابت من كل أسبوع ، وكان الإقبال عليها عظيما جدا ، ومن الذين واظبوا على حضورها عميد كلية الحقوق فى ذلك الحين (الدكتور أبو هيف) وكان يحضر مبكرا ليجلس فى المكان نفسه فى كل مرة ، وكانت هذه المحاضرات نواة لأول كتاب صدر باللغة العربية عن الطيران سميته «بسائط الطيران» ونشرته لجنة التأليف سنة ١٩٢٥ ، ولقى رواجا كثيرا ، نوهت به الصحف ، وقد أثبت فيه صورا عديدة لما عرضته فى أثناء المحاضرات».



«وبمناسبة المحاضرات وظهور الكتاب أجرى معى مندوب مجلة الهلال حديثا نشرته مصدرا بصورتى فى عدد فبراير سنة ١٩٢٥ بعنوان «كيف يتعلمون الطيران وهندسته» ، كما لفتت السلسلة والكتاب أنظار الحكومة ، فاستدعتنى (الحكومة) وكلفتنى إبداء رأيى فى المشروع الذى أعده الميجر لينج فقمت بفحصه ، ودونت ملاحظاتى عنه وما رأيته من تعديلات فيه ، وقدمته للوزارة ، وكانت التعديلات التى أدخلتها على المشروع تجعله سلاحا وطنيا قابلا للنمو مع الزمن ، ومنها اقتراح إنشاء مدرسة لتعليم الطيارين بدلا من الاعتماد على إرسال المزمع تعليمهم إلى السلاح البريطانى الموجود بمصر كما اقترح لينج ، لاسيما أن الأجور العالية التى رأى دفعها للجيش البريطانى تزيد كثيرا على تكاليف إنشاء المدرسة التى اقترحتها ، والتى تضمن للحكومة وجود هيئة دائمة تحت تصرفها تمدها فى كل وقت بالطيارين اللازمين لها».



ويبدو أن نفس الدكتور الكردانى المشرئبة إلى تحقيق مثل هذا الهدف جعلته على الدوام يحلم به ، حتى إنه شعر بالنشوة عند قدوم الطيار صدقى من ألمانيا فأقام له حفلا بمنزله:

«وبهذه المناسبة أذكر أنه لما حضر إلى مصر فى ٢٥ يناير ١٩٣٠ أول طيار مصرى (محمد صدقى) قادما من ألمانيا ، أقمت له بمنزلى حفل تكريم حضره النقراشى باشا ، وكان إذ ذاك وزيرا للمواصلات ، كما دعوت إليه صديقى محمد كامل سليم سكرتير سعد باشا زغلول وغيرهما من أعضاء نادى الطيران».

(٣)

ونحن نرى اهتمامات الدكتور أحمد عبدالسلام الكردانى التربوية مسيطرة عليه ، وهو يروى لنا أنه عقب انقطاع الأمل فى تحقيق مشروع طيران قومى طموح عاد إلى نشاطه الأصلى وهو العمل بالتدريس ، ولهذا فإنه بدأ مع زملائه دراسة السبل الكفيلة بإصلاح التعليم المصرى:

«... كنت بحكم نشأتى واستعدادى ميالا لعمل المعلم ، الذى أهلت له بدخولى المعلمين العليا ، والذى أوصلنى للتدريس فى كلية الهندسة ، وهو الآن يجذبنى إلى ولوج مجال أفسح، وطريق أرحب لخدمة وطنى ، لذا فكرت فى التدارس مع فريق من إخوانى المتحمسين لمهنة التعليم والحريصين على النهوض به ، واتفقنا على أن نعمل فى نقابة المعلمين على تحقيق آمالنا فى إصلاح التعليم مبتدئين بالتعليم الأولى ، ودعونا مجلس إدارة نقابة المعلمين ، الذى كنا أعضاء به ، إلى عقد مؤتمر قومى كبير لدراسة هذا التعليم من جميع نواحيه ، ولقى اقتراحنا قبولا».

يحدثنا الدكتور الكردانى عن انعقاد المؤتمروقراراته:

«وانتخب الأستاذ لبيب الكردانى بك رئيسا وانتخبت سكرتيرا عاما ، فاتصلت بالجامعة الأمريكية التى كانت صلتى بها قد توطدت فى أثناء إلقائى سلسلة محاضرات الطيران بها ، وطلبت منها عقد المؤتمر بقاعة ايورت فرحبت بطلبى ، وأعلن عن موعد انعقاد المؤتمر (١١ يوليو ١٩٢٥) على أن يستمر أسبوعا كاملا ، وحددت اللجنة النقاط التى ستعرض للبحث ونشرت على الملأ. ورحبت الصحف بالمؤتمر ، وساهمت فى إنجاحه بنشر نصوص أبحاثه أو ملخصاتها ، وأرسل وزير المعارف (على ماهر باشا) رسالة تتلى فى افتتاحه ، وسار برنامجه كما أعلن عنه ، وتحدث فيه نخبة من أعلام المفكرين ، وكان موضوع حديثى «عناية الدولة بالمعلمين» ، وهو حجر الزاوية فى العملية التعليمية ، وبصلاحهم يصلح التعليم كله».

«وكان أهم قرارات المؤتمر أنه لا يصح أن يكون القصد من التعليم الأولى مجرد محو الأمية ، بل يجب أن يستهدف تثقيف عقل أفراد الشعب وتقويم أجسامهم وأخلاقهم ، وإعدادهم للحياة اليومية العملية ، وأن يتحقق للبلاد بأسرع ما يمكن توحيد المدرستين الأولية والابتدائية لجميع أبناء الشعب وبناته بلا أى تفريق».

وبعد صفحات يحدثنا الكردانى عن نهاية عهده بالتدريس فى سبتمبر ١٩٢٦ وينتهز الفرصة ليتحدث أيضا عن أسلوبه فى العمل كمدرس فيقول:

«وكان التدريس دائما أحب إلىّ من أى نشاط آخر ، لذا لم أتخل عنه فى الوظائف العلمية التى تقلدتها فيما بعد ، كالتفتيش (إذ كنت معلما للمدرسين) ونظارة المدارس ، وعمادة معهد التربية».

«كان أسلوبى فى العمل كمدرس يقوم على توخى العناية والدقة فى تحضير دروسى ، والتمكن من كل ما يتصل بمادة أى درس أحضره ، والحرص على تصحيح كراسات تلاميذى بدقة وعناية تمكننى من معرفة الأخطاء التى يقع فيها كل منهم وأدونها ، ومن ثم أركز على أخطاء بعضهم عند التحضير لدروسى فى الأسبوع التالى ، وعلى أخطاء آخرين فى الأسبوع الذى يليه. وهكذا لا يمضى الشهر حتى أكون قد صححت جميع الأخطاء ، كذلك حرصت على إلقاء الدروس بهدوء وتؤدة وعينى على طلبتى لأستشف استيعابهم لما أقول ، وإلا أعدته حتى أتحقق من فهمهم للدرس كله والتأكد من ذلك بالاستماع إلى إجابتهم على بعض الأسئلة ، وكنت أنادى بألا يلجأ أحد منهم إلى زميل له يستفسر منه أو ينقل من كراسته ، بل يرجع إلىّ فيسألنى أنا عنه لأنى حريص على أن يكون كل منهم واثقا وثوق المتمكن من دروسه تماما. كما كنت أرحب بكل سائل عما يشق عليه فهمه ،وأعمل لاكتساب صداقتهم ، وحبهم للمادة التى أدرسها ، وأحرص على جعلهم يفكرون فى حل مشاكلهم بأنفسهم ، ولا أساعدهم إلا بالقليل الضرورى».



ونحن نرى الدكتور الكردانى فى موضع آخر من مذكراته يتحدث عن حنينه الدائم والمتجدد إلى التدريس حتى بعدما أصبح ناظرا مرموقا:

«ومن الوسائل التى كنت أكسب بها احترامهم وتقديرهم أن أدرس لفصل من الفرقة النهائية مقررا لإحدى المواد الرياضية ، ولكى أضمن عدم ضياع أى درس على الطلبة إذا اضطررت للتغيب اخترت أحد مدرسى هذه المادة لفصل مواز للذى أدرس له ولنفس المقرر ، ثم جعلته فى حصتى احتياطيا بحيث إذا تغيبت استدعى ليحل محلى ، ويدرس درسى».

(٤)

ويدلنا الكردانى على أن الحكومة المصرية قد آنست فيه منذ مرحلة مبكرة القدرة على

تنظيم جهودها فى الإصلاح التربوى ، وهو يشير إلى أن وزارة المعارف فى عهد على الشمسى باشا قد عهدت إليه بسكرتارية لجنة عليا لفحص حالة التعليم من جميع نواحيه:

«.... عهدت الوزارة إلىّ بالتفتيش على جميع فروع الرياضة والعلوم بمدارسها على اختلاف أنواعها ، ابتدائى ثانوى وفنى ، كما أن على الشمسى باشا عهد إلىّ بسكرتارية لجنة عليا كونها برئاسته لفحص حالة التعليم من جميع نواحيه ، وعين فيها أعضاء من خارج الوزارة ليسترشد بآرائهم وذلك تمهيدا لإجراءإصلاحات كبيرة فى التعليم».

كذلك فإنه تولى مصاحبة خبير سويسرى انتدبته الوزارة فى أثناء جولاته فى المدارس ، ولاشك أنه أفاد من آرائه وأدائه:

«فى أثناء عملى بالتفتيش أتيحت لى فرصة لمتابعة ميولى فى إصلاح التعليم ، وبصفة خاصة التعليم الأولى ، وهى أن وزارة المعارف كانت قد استقدمت فى سنة ١٩٢٨ خبيرين فى التعليم ، إنجليزى اسمه مان ، وسويسرى اسمه كلايارد انتدبت لمرافقته فى أثناء زيارته للمدارس وعمل اختبارات الذكاء ، ومعاونته فى كل أمر يحتاجه ، وكان كثير العناية بالتعليم الأولى وبخاصة فى مدارس الريف».

(٥)

ويفيض الكردانى فى الحديث عن نجاحات محددة تمكن من تحقيقها خلال الفترات المتوالية التى تقلد فيها عددا من الوظائف التربوية القيادية ، وهو يشير على سبيل المثال إلى اهتماماته فى أثناء عمادته لمعهد التربية بما نطلق عليه الآن مسمى «الطرق الخاصة» و«التقويم التربوى»:

«... وقد حرصت وأنا بالمعهد على ما اعتدته من تولى التدريس ، فكانت فى خطة الدراسة حصتان متتاليتان لما يسمى دروس النقد ، فقررت الإشراف عليها بنفسى ، فكان أحد الطلبة يلقى درسا فى موضوع أتفق معه عليه ، وبعد أن يفرغ من إلقائه أفتتح المناقشة لنقد موضوعه وطريقة إلقائه ، ووسائل الإيضاح التى استخدمها المدرس. وكنت أنا وبعض الأساتذة نلقى أحيانا دروسا يشترك الطلبة فى نقدها ، كما كنت أدعو بعض رجال التعليم القدامى لحضور هذه الحصة وإلقاء محاضرات تربوية أو علمية والمساهمة فى المناقشة ، وبالجملة كان المعهد فى تلك الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤١ خلية نشاط عظيم».

كذلك يعتز الكردانى بنجاحه ـ وهو مراقب عام لتعليم البنات ـ فى إنشاء مدرسة المنايل الريفية ، ونحن نرى فيما يرويه من تفصيلات مهمة عن هذه التجربة نموذجا للتطوير الوئيد ، قليل التكلفة ، قليل الضجة ، الذى تتعاون عليه جهات عديدة بإخلاص ويقين:

«حدث أن الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية برئاسة الدكتور أحمد حسين وكيل وزارة الشئون الاجتماعية (وزيرها فيما بعد) رأت أن تجعل إلى جوار المركز الاجتماعى لها بقرية المنايل مدرسة تتبناها تسيرعلى نهج تعليمى حديث يتفق مع متطلبات التعليم فى الريف، وتكون مركزا للإشعاع فى محيط القرية والقرى التى حولها ، وتقدمت للوزارة بطلب إعطائها مدرسة لهذا الغرض ، كما تصادف أن رابطة التربية الحديثة التى أرأسها كانت تفكر فى نفس الاتجاه وتقدمت للوزارة أيضا بطلب إعطائها مدرسة أولية بالريف القريب لتكون تحت إشرافها ولتطبق فيها آراءها التعليمية والتربوية الحديثة ، فرأت الوزارة أن تتعاون الهيئتان فى الإشراف على مدرسة المنايل ،و أخطرت الهيئتين بذلك فوافقتا ، وتألف لها مجلس إدارة من أربعة عن كل من الهيئتين أضيف إليهما مدير المديرية ومدير التعليم بها».

«وفى أول اجتماع لهذا المجلس بدار لجنة التأليف والترجمة والنشر فى ٢٢ ديسمبر ١٩٤٠، ناقش المجلس مذكرة مقدمة من الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن فكرة سير الدراسة بالمدرسة ، وذلك بوصفه العضو المنتدب عن مجلس الإدارة للإشراف على التجربة ، يقول فيها إن العمل بالمدرسة سيسير على أساس طريقة المشروع ، وقسمت المشروعات إلى دراسية واجتماعية (وكلها عملية) ، ثم تكلم الدكتور عبدالواحد الوكيل عن ضرورة فحص التلاميذ صحيا ، وتعهد بتقديم الوسائل اللازمة لذلك ، ثم تذاكر المجلس فى كيفية تعاون المدرسة والمركز الاجتماعى وفى تعيين ناظر لها ، وأقر اتخاذ مناهج التعليم الأولى والمكاتب الزراعية أساسا للدراسة فيها بصورة مرنة».

«وفى الاجتماع الثانى حضر الأستاذ كامل أحمد إخصائى النسيج بوزارة الصناعة والتجارة ، للنظر فى تعليم التلميذات الأشغال التطريزية وغيرها من المناسب لهن ، ثم تلا الدكتور الوكيل تقريره عن اقتراحاته بالعناية الصحية فأكد ضرورة الفحص الطبى الشامل للتلاميذ والتلميذات عند الدخول تمهيدا لعلاج المرضى منهم ، واستلزم ذلك إيجاد بطاقات صحية لهم ، كما تقرر استعمال حمامات دار الأمومة والطفولة ، وأن يكون الإرشاد الصحى تحت إشراف زائرة صحية ومعاونة هيئة التدريس».

....

«وكتبت فى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٤ إلى الوزير خطابا ضمنته شرح الأستاذ أبو حديد فى

مذكـرته فكرة التجـربة التى نرجو أن تكون فى المستقـبل نموذجا يحـتذى وأقـول: «لما كانت الوزارة اتجـهت نحو الاهتـمام بالتـعليم الريفى ، ويهـمنا نجاح التـجارب التى تجـرى فى هذا السبيل ، فإننا نلتمس الاعـتراف رسميا بالتجربة ومساعـدتها على المضى فى أعمالها ، وذلك بالموافقة على أن يـشمل نظام التغذية تلاميـذ المدرسة فتدخل فى عداد المـدارس التى تقدم لها الوزارة وجبـة غداء ، على أن يصرف بالمجـان للتلاميـذ الذين سيتـقدمون لامـتحان الشـهادة الابتدائية (فيما عدا اللغة الإنجليزية) مـجموعات من الكتب والكراسات التى تصرف لتلاميذ السنة الرابعة بالمـدارس الابتدائية وإرسـال نسختين من مناهج الدراسـة الابتدائية للمـدرسة.. إلخ ،و وافق الوزير على الاعتـراف بالتجربة واعتـبار المساهمة فـيها عمـلا رسميا للمـشرفين عليها باستـعمال استمارات السفـر إذا اقتضى الحال سفرهم إلى بنهـا لأعمال تخص المدرسة وتجربتهـا. كما وافق على الطلبات الأخرى وأرسل لجـميع جهات الاختـصاص بكل بند أمرا بتنفيذ كل ما طلب».

(٦)

ومن بين الوظائف القـيادية المتـعددة التى تـولاها الكردانى نحس فى وضوح شـديد بمدى سعادة الكردانى وفخره بعـمله كناظر لمدرسة المنصورة على الرغم من أن عمله هذا لم يدم إلا شـهرين ، لكنه يتـحدث عن تفـصيـلات كثيـرة من إنجازاته فى هذه المدرسـة فى هذه الفتـرة القصـيرة وسنعرض لحديثـه هذا بعد بضعـة فقرات ، كمـا نراه سعيدا بإنجـازاته فى المدرستين التاليتين اللتين تولى نظارتهما وهما مدرسة القبة ومدرسة الخديوية ، وهو يحدثنا عن كثير من إنجازاته بل وابتكاراته فى أثناء تولى النظارة فى هذه المدارس ،كما يتحدث عن عنايته بالنشاط الدرسى فى جمعـية العلوم وفلاحة البـساتين وبالسجلات المدرسـية. كما يتـحدث عن صلته بالطلبة وبأولياء الأمور.

كذلك يتحدث الكردانى باختصار مفيد عن جهوده التربوية فى معهد التربية العالى ، وفى رابطة التربية الحديثة وفى مؤتمرها الدولى فيقول:

«تعاونت مع الأستاذ القبانى فى تنظيم المعهد واستـقدمنا مدرسا خبيرا من انجلترا ، وأنشأنا مدرسة ابتدائية جديدة ملحقة به ، اخترنا لها حى حدائق القبة لأن أهله كانوا يلحون فى طلب إنشاء مدرسة به ، وسميناها القبة النموذجية ، وطبـقنا فيها أحدث وسائل التعليم ، كما اخترنا

بعض المدرسين الجدد للمعهد والمدرسة التى كنت أخصص لها وقتا فى صباح الثلاثاء من كل أسبوع لأتفقد العمل وأطمئن على نجاح الجهود المبذولة فيها».



وهو حريص أيضا على أن يشير إلى مشاركته مع الأستاذ إسماعيل القبانى فى المؤتمر الدولى لرابطة التربية الحديثة:

«فى بروكسل فى صيف ١٩٣٨ سافرت مع القبانى لحضور هذا المؤتمر ، وأقمنا فى المدينة الجامعية ، وفى أثنائه وبعد انتهائه زرنا كثيرا من المدارس التى تشرف عليها الرابطة لتطبق بها أساليبها فى التربية الحديثة ، وبعدها افترقنا فذهبت إلى إحدى ضواحى جرينوبل بفرنسا وذهب هو إلى سويسرا ، وبعد ذلك تقابلنا فى باريس...».

«وكنا نجتاز الحدود إلى سويسرا لنتمتع بمناظر فرنسا وسويسرا معا ، ثم سافرنا إلى لندن لاختيار أساتذة للمعهد ، ولكن للأسف لم نوفق بعد البحث الدقيق إلا لواحد فقط دون المستوى الذى كنا نرجوه».

ويروى الدكتور الكردانى بعض جهوده فى التبشير بجهود هذه الرابطة فى وطنه:

«ولما عدنا لمصر قمنا بتأسيس فرع مصرى للرابطة ، شرفنى أعضاؤه باختيارى رئيسا له ، وقد أبدى نشاطا تربويا عظيما ، فرتب عدة مؤتمرات لبحث الاتجاهات الحديثة لتطوير تعليم مختلف المواد أحدها للمواد العلمية ، وآخر للمواد الأدبية ، وثالث لدرس مشكلة الامتحانات التى لا تزال الشغل الشاغل لرجال التعليم ، ورابع لما يجب أن تكون عليه المدرسة الريفية بمصر. وكنت أدعو لحضور تلك المؤتمرات الهيئات التعليمية الرسمية ، والهيئات المماثلة لهيئتنا فى مختلف البلاد العربية التى كانت ترحب بها وترسل لها مندوبين عنها ممن يشغلون مراكز مرموقة فى التعليم ببلادهم أمثال الدكتور فاضل جمالى والدكتور متى عقراوى ، ومما يؤسف له أن هذا الفرع المصرى للرابطة لم يواصل بعدى هذا النشاط التربوى الذى بدأته وكان له ذلك الصدى الواسع».

(٧)

وربما نفاجأ فى هذه المذكرات بأن نرى الدكتور الكردانى وهو ينبه منذ مرحلة مبكرة إلى دور الإدارة التربوية والتعليمية فى تحميل الشركات مسئولية تعليم أبناء موظفيها وبناتهم ، وهو يشير إلى إحدى تجاربه فى هذا المجال وهو وكيل مساعد لوزارة المعارف:

«وكنت أتصل برؤساء الشركات لبحث حاجات أولاد (وبنات) عمالها من المدارس ، وأشير بفتح الشركة للضروري منها على نفقتها ، وأمدها بالمعلمين اللازمين ، كما فعلت مع شركات وادى كوم أمبو والسكر وشل ، بل إن بعض شركات الوجه البحرى (الذى لم يكن من اختصاصى) كشركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، لجأت إلىّ لأرسل لها المشروع بإنشاء المدرسة القائمة الآن بمدينة مساكن العمال ، وأنفذه بمدها بالمدرسين اللازمين ، وبالكتب والأدوات.. إلخ».

(٨)

ومن ناحية أخرى نرى الكردانى متأثرا إلى حد بعيد بخبراته المبكرة فى أثناء فترة تكوينه ، وهو يصل فى سعادته بإيجابيات هذه الفترة إلى أن يتمثل سلوك بعض القادة التربويين الذين أدركهم فى مرحلة مبكرة فى حياته ، وهو يحدثنا عن إعجابه غير المحدود بناظر المدرسة الخديوية الإنجليزى المستر فرنس ، ويصفه بقوله:

«كان رجلا حر التفكير ، ديمقراطى النزعة ، يجمع إلى الحزم قلبا حانيا عطوفا ، فقد حدث أننى عرضت عليه يوما لسبب ما ، وتبين من خلال الحديث أن والدى متوف ، فأخذ يواسينى ويوصينى بالاجتهاد ، وظل يشجعنى فى كل فرصة إلى أن نجحت فى البكالوريا سنة ١٩١١ وكنت أول المدرسة ، فدعانى إلى منزله للشاى على سبيل التكريم ، وقد اتخذته قدوة لى فى كثير من تصرفاته ، ومن أحسنها أنه كان مواظبا على تحية طلبة المدرسة فى طابور الصباح ، ويظل واقفا يرقب مسيرتنا إلى الفصول ، وقد كان لهذه التحية أثر عظيم فى نفوسنا ، ومن ثم اتبعت هذه العادة فى كل مدرسة تنظرت عليها».



ونرى الدكتور الكردانى وهو يؤكد الحديث عن هذا المعنى عند توليه نظارة مدرسة المنصورة سنة ١٩٣٢ حيث يقول:

«ففى المنصورة كان هذا أول عهدى بنظارة المدارس ، وكنت معجبا جدا ، كما قدمت ، بحرص ناظرى بالمدرسة الخديوية على مداومة تحيتنا فى الصباح وهو واقف فى مكان مرتفع ، فأول ما عنّ لى هو أن أحذو حذوه ، ولكنى لم أجد فى الفناء مكانا عاليا يصلح لوقوفى عليه، وكنت أقيم عند عمة لى زوجها رجل شهم من ذوى الأعمال ، فرجوته أن يهيئ لى المكان

المرغوب فقال سأشرع فى إعداده عقب خروج التلاميذ يوم الخميس ظهرا ، واستخدم فى بنائه رجالا أشداء ، ومواد سريعة الجفاف ، بحيث يكون صالحا للوقوف عليه فى صباح يوم السبت ، وفعلا نفذ وعده ، وتمكنت من تحية المدرسة وأنا واقف عليه [يقصد على هذا المكان العالى الذى شيده له زوج عمته الذى بخل عليه وعلينا بذكر اسمه] أرقب سير الطلبة إلى فصولهم بهدوء ونظام ، مما كان له أثر عظيم عند المدرسة بأسرها».

(٩)

وفيما يتعلق باهتماماته التربوية التى واكبت عمله المبكر بالتدريس فقد كان صاحب هذه المذكرات حريصا ما استطاع على بذل جهده فى الأنشطة التربوية الجادة ، وهذا هو ما يرويه الكردانى عن تأسيسه لفريق الكشافة عند عمله مدرسا فى التوفيقية للمرة الثانية:

«وبطبيعة الحال أسند إلىّ التدريس للفرقة النهائية بجميع فصولها ، فأقبلت على العمل بنشاط ورغبة فى نفع تلاميذى ، وكان المستر اليوت قد نقل منها مديرا لمكتب البعثات بلندن وحل محله المستر جارت ، وتذكرت إعجابى بناظرى (المستر فرنس) ، وتأسيسه فرقة للكشافة وقيامه عليها كمعلمها ، وتذكرت أن فرقة الكشافة تتيح لمعلمها فرصة طيبة لدراسة أعضائها من الشباب ، والتعرف على أخلاقهم وميولهم واستعداداتهم وطموحهم ، مما يعاونه على غرس الأخلاق الفاضلة فى نفوسهم ، لاسيما فى أثناء قيام الفرقة بالرحلات ، لذلك سرعان ما أسست فى المدرسة فرقة الكشافة ، وحرصت ألا أقبل فيها إلا من كانت عنده رغبة صادقة فى الاستفادة ، لا من يبغى من التحاقه بها مجرد الظهور والاختيال بلبسها ، وقد وفقنى الله لاختيارى مجموعة طيبة ، ظل بعضهم على صداقته لى إلى اليوم ، وأذكر منهم ـ على سبيل المثال ـ للوفاء المرحوم الأستاذ محمد أحمد بنونة (الذى وصل إلى وكالة وزارة التعليم العالى) وظل يعاون السيدة بهية كرم فى إدارة مدارس آمون الخاصة حتى انتقل إلى رحمة الله فى ١٥ أبريل سنة ١٩٧٩ . ومنهم أيضا الدكتور محمد فطين الذى كانت لى معه قصة ظريفة، فأول لقاء لى معه كان بمسجد المدرسة فى أثناء صلاة الظهر ، توسمت فيه الخلق ، ولاحظت عليه نحولا واصفرارا وتأنيا فى المشى ككبار السن ، مما يدل على أنه فى حاجة شديدة إلى التريض فى الهواء الطلق من آن لآخر ، فسألته عما يمنعه من الانضمام لفرقة الكشافة ليجد فيها أوجه النشاط التى تنفعه صحيا واجتماعيا ، فأجاب بأنه يتمنى ذلك ولكن والده يعارض ،

فطلبت منه أن يحدد لى موعدا ألتقى فيه بوالده ، وأقنعه بالموافقة ، وفعلا قابلت أباه (اللواء فطين باشا) فى بيته القريب من بيتى ومن المدرسة ، وأفهمته أن من مصلحة ابنه الانضمام إلينا، ووعدته أن يكون موضع عنايتى ورعايتى فوافق ، ولم يمض زمن طويل حتى ظهر تحسن كبير فى صحة ابنه ، ونشاط ملحوظ فى حركته ، واهتمام بمناشط الكشافة ، وابتكار فى آرائه ، كما ظهر عليه التفوق فى دروسه».



بل إن هذا الاهتمام بالجيل اللاحق له كان يمتد إلى رعاية أخيه وأخوى صديقيه العالمين الكبيرين الدكتورين على مصطفى مشرفة وأحمد زكى ، وكان هذا عن اتفاق بين ثلاثتهم ، وهو اتفاق ينم عن مدى قدرة هؤلاء الثلاثة الكبار على الوعى بدورهم واستشراف حقيقته إلى حد أن يتعاهدوا على مثل هذا الهدف:

«كنا تعاهدنا أنا والدكتور أحمد زكى والدكتور على مشرفة على أن الموجود منا بالقاهرة عليه أن يرعى أخوتنا الثلاثة المتقاربين فى السن: أخى أمين ، ومحمد أمين عاكف شقيق زكى، ومصطفى مشرفة شقيق ثالثنا على مشرفة ، وحدث مرة أن تجمعوا فى منزلى فى غرفة مكتبى انتظارا لخروجى ، وقد كنت مشغولا بعمل ما فى غرفة الاستقبال التى كان يفصلها عن حجرة المكتب باب كان بالمصادفة مواربا ، فسمعتهم يقولون: «إن مصيبتنا فى أخوتنا الثلاثة ، لأننا نبدو للناس دونهم لتفوقهم ، ونحن خاملون نتعثر فى دراستنا لا يحس بنا أحد ، ولولاهم لنظر إلينا الناس نظرة عادية كنظرتهم لأمثالنا العاديين ، فعندئذ خشيت أن يتطور الحديث إلى ما لا تحمد عقباه فيتربصوا بى سوءا ، وخرجت إليهم لأعطيهم الدرس الذى حضروا من أجله ، وبطبيعة الحال عرجت على تهدئة أنفسهم من ناحيتنا بأسلوب غير محسوس».

(١٠)

بل إننا نرى نماذج واضحة للإخلاص التربوى المطلق فيما يحدثنا به الكردانى عن قبوله العمل فى الوظائف المختلفة ، فهو يروى كيف قبل هو وزميلاه العمل بنصف الأجر فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، لكنهم مع هذا أدوا هذا العمل على أكمل وجه:

«... وهكذا عينت بمدرسة الجمعية بالقاهرة وعين خلاف بطنطا ، والغمراوى بأسيوط ،

وعلى الرغم من ضآلة المرتب ، فقد أقبلنا على العمل بهمة ونشاط وأمانة واضعين نصب أعيننا نحن الثلاثة نفع التلاميذ وتربيتهم ، وبعد أن قطعنا شوطا من تدريس المقرر اتفقنا على أن يضع كل منا بالتناوب اختبارات فى المواد التى ندرسها لتلاميذنا أسبوعيا ، ويرسل نسخة منها لكل من زميليه ليختبر طلبته ويرسل إجابتهم على نفقته لواضع الأسئلة ليصححها ، لنطمئن على نجاح تلاميذنا وجودة تحصيلهم».

«وكانت العادة فى مدارس هذه الجمعية قرب انتهاء العام الدراسى أن يطلب من المدرسين إعطاء دروس إضافية لتلاميذهم ، وبطبيعة الحال طلب ذلك من ثلاثتنا ، ولكننا أبينا ، فاستدعينا لمقابلة رئيس الجمعية (حسن باشا عبدالرازق) فى منزله ، فسألنا عن سبب امتناعنا فأجبناه بأن تلاميذنا ليسوا بحاجة لمثل هذه الدروس الإضافية ، بل لعلها تضرهم لما فيه من إرهاق لهم ، فلم يقتنع بذلك ، وطلب من المفتش المختص أن يزور المدارس الثلاث بمصر وطنطا وأسيوط ليختبر تلاميذها ،ففعل ذلك وعاد ليقرر أنهم قد استوعبوا المناهج ، وليسوا بحاجة إلى دروس إضافية».



ويتأكد لنا هذا المعنى حين نطالع ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن انتقاله للعمل الحكومى مدرسا فى المدرسة التوفيقية بعد فتح الحكومة لباب التعيين ، وربما نعجب لهذه الشجاعة فى التحلى بروح المسئولية عند المفتشين الإنجليز فى مدارسنا فى ذلك الوقت:

«فى نهاية النصف الأول من العام الدراسى كان التعيين فى الحكومة قد أبيح ، وزار المدرسة مرة أخرى المستر ستيوارت وقال لناظرها إنه سيصحبنى لأمر مهم ، ولما خرجنا اتجه صوب حى شبرا ثم إلى المدرسة التوفيقية ، وفى الطريق أخبرنى أنه ينوى تعيينى مدرسا فيها لأحل محل أقدم مدرسى الرياضة ، وهو حسن فائق (بمناسبة ترقيته ناظرا لمدرسة باب الشعرية الابتدائية) ، وأن ذلك رهن بموافقة ناظر المدرسة المستر اليوت الذى أخذنى ليعرضنى عليه».

«... وعند وصولنا اقتحم ستيوارت غرفة الناظر وأنا وراءه ، وإذا به يبتدر ستيوارت بقوله: «انتظر فى الخارج ، ألا ترى أنى مشغول الآن؟ ومتى انتهيت مما أنا بصدد بحثه سأستدعيك ، فتراجع ستيوارت وتراجعت وراءه وبقينا خارج حجرة اليوت حتى استدعانا ، ولما دخلنا عليه استقبلنا واقفا ولم يعرض علينا الجلوس ، قال له ستيوارت: «لقد جئتك بمن أرشحه ليخلف حسن فائق» ، فألقى اليوت نظرة فاحصة من وراء نظارته ثم قال لى: «هل

تشعر بأنك كفء للقيام بالمسئولية الكبيرة التى سأعهد إليك بها فى مدرستى وهى التدريس لفرق البكالوريا الثلاث؟» ، فقلت: ليس لى أن أجيب عن هذا السؤال. وعندئذ سارع ستيوارت بالرد قائلا: «اخترته على مسئوليتى ، وأنا واثق من كفاءته» ، فسأله اليوت عن موعد حضورى لتسلم عملى فأجابه بأننى مدرس بمدرسة أهلية وأن إجراءات تعيينى تستغرق بعض الوقت ، فسأله اليوت: ومتى يغادرنا حسن فائق؟ فقال ستيوارت: غدا يذهب إلى المدرسة الجديدة لأننا لا نستطيع تركها بدون ناظر ، فرد اليوت: إذن ليحضر الكردانى غدا لتسلم عمله لأنى لا أحب أن تضيع حصة واحدة على تلاميذى ، ولتعينوه على مهلكم ، ثم استدعى حسن فائق لتعريفى بالدرس الذى يزمع إلقاءه على تلاميذه غدا لأدرسه لهم ولإعطائى كراسات التلاميذ بعد أن يصححها معى».

«ولما خرجنا صحبنى ستيوارت ثانية إلى (المدرسة) الإعدادية ، وأخطر ناظرها بأنى سأذهب غدا إلى التوفيقية ، ثم استدعى مدرسى الرياضة ووزع عليهم حصصى كعمل إضافى على أن يوزع عليهم مرتبى بنسب الحصص التى ستوكل إلى كل منهم ، وهكذا تم تعيينى بالتوفيقية فى ١٥/ ٢/ ١٩١٦ ، فتصور هذا الحرص الشديد الذى كان عند أولئك القدماء ، سواء كانوا نظارا أو مفتشين أو مدرسين على منفعة التلاميذ ، وسارت الأمور فى هذا العام الدراسى على أحسن ما يرام: ناظر حازم ، وطلبة مهذبون مجدون ، وفصول ثلاثة قليلة العدد تضم أربعة وسبعين طالبا نجحوا جميعا فى البكالوريا باستثناء واحد رسب فى اللغة الإنجليزية».

ولا تقف المعالم التربوية فى هذه المذكرات عند نشاط رجال التربية وحدهم ، بل إننا نرى السياسيين واعين تماما للدور الذى يمكن لرجال التربية أن يؤدوه ، ومن هؤلاء السياسيين مَنْ عملوا بالتربية ، ومنهم مَنْ لم يعمل ، لكنهم فى مجمل حديث الكردانى عنهم يبدون واعين لدور التربية ، ونرى بعض لمحات لقدرة المعلمين القدامى من أمثال النقراشى باشا على استثارة همة الكردانى من ذلك ما يرويه الكردانى فى معرض حديثه عن القيام بتقويم سلوك بعض الطلاب:

«وكم من طالب صلح حاله بهذا الأسلوب ، ومن هؤلاء طالبان أخذتهما بمدرستى تحويلا من المدرسة الخديوية على أثر خطاب وصلنى من النقراشى باشا يقول فيه: «يقال إنك ناظر كفء وكفاءة الناظر لا تظهر مع التلاميذ السويين [يقصد: الأسوياء] ، وإنما تظهر بمعالجته للمنحرفين ، وعندى منهم اثنان فهل تحب أن تجرب حظك ومقدرتك بصدد إصلاحهما؟» ، فرددت عليه بالقبول ، وفعلا صلح حالهما ونجحا فى الدراسة».

(١١)

وفى هذه المذكرات يروى الكردانى باعتزاز قصة تنظيمه ـ وهو ناظر للمدرسة الخديوية ـ للاحتفال بمئوية هذه المدرسة التاريخية المهمة ، وهو الاحتفال الذى نال البكوية بعد تنظيمه له:

«فى أغسطس ١٩٣٥ نشرت الجرائد دعوات من بعض خريجى المدرسة لإنشاء رابطة لهم ، ولإخراج كتاب ذهبى يشمل تاريخ مدرستهم ، فلفتت هذه الدعوة نظرى ،وتحدثت فيها مع مدرسى التاريخ ، ومنهم الأستاذ أحمد نجيب هاشم (الذى صار فيما بعد وزيرا للمعارف)، وكنت أعلم أن خاله محمد رمزى بك من العلماء البارزين فى تاريخ البلدان ، فطلبت من الأستاذ نجيب أن يبحث معه تاريخ المدرسة ، وبعد بضعة أيام جاءنى يقول إن المدرسة تعتبر حفيدة للمدرسة التجهيزية (ولهذا كان ينعت التعليم الثانوى أحيانا بالتجهيزى) التى أنشئت بأبو زعبل سنة ١٨٣٦ ، أى منذ مائة عام ، عند ذلك رأيت ضرورة الاحتفال بالعيد المئوى للخديوية ، وكتبت لوزير المعارف الهلالى باشا ، وكان من خريجيها ، أعرض عليه الفكرة فرحب بها ، ورأى أن تشكل لجنة برئاسة ناظر المدرسة من شباب الخريجين ليتولى الأمر ، ولكنى رأيت أن تشكل اللجنة من شباب وشيوخ الخريجين على السواء ، وبرئاسة وزير المعارف إن كان من الخريجين ، وأخذت أفكر فى كيفية تغليب فكرتى عن اللجنة على فكرة الوزير ، وحدثتنى نفسى بأن أقابله وأناقش معه الموضوع لعلى أقنعه برأيى ، وإذا بالوزارة تتغير ،و يحل محله محمد على علوبة باشا ، خريج المدرسة أيضا (وقد خلفه بعد خروجه من الوزارة فى ٩ مايو ١٩٣٦ على زكى العرابى باشا خريج المدرسة أيضا وزيرا للمعارف وخلفه فى رئاسة لجان الاستقبال)».

«اتصلت بعلوبة باشا وعرضت عليه رأيى فتحمس له وطلب المضى فى تنفيذه ، فشكلت لجنة عامة تمثل الخريجين القدامى والشباب (كان عددها ٣٨ ثم ضم إلى عضويتها كل من اشترك بخمسة جنيهات فأكثر وكانوا ٤٤ وبذا أصبح عددها ٨٢) ، وهذه قررت فى اجتماعها الأول تأليف لجنة منها عاملة أصغر عددا ، بدأت بخمسة ثم أضيف إليهم خمسة آخرون ، تولت وضع برامج الاحتفالات ، مهرجانات تعقد يومى ٢٨ و٢٩ ديسمبر ١٩٣٦ على صورة ثلاث حفلات ، اثنتان فى اليوم الأول ، الأولى رياضية فى النادى الأهلى صباحا ، والثانية مسائية فى دار الأوبرا ، على ألا يحضرها إلا من يدفع (علاوة على اشتراكه) ثمن الكرسى أو اللوج أو البنوار الذى سيشغله. أما الحفلة الثالثة الرسمية ففى اليوم الثانى ، يحضرها مندوب

الملك ومجلس الوصاية لوضع حجر الأساس لبناء جديد للمدرسة فى مكانها الحالى ، وأسندت رئاسة الشرف لجميع الحفلات واللجان إلى رئيس مجلس الوزراء مصطفى النحاس باشا ، وسارت الاحتفالات على أكمل وجه ، ونجحت إلى أقصى حد ، وتجلى فى أثنائها حماس الخريجين شبابا وشيوخا ، وروح الأخوة بينهم».

«كوفئت على هذا النجاح بترقيتى كبيرا لمفتشى الرياضة فى ١ يناير ١٩٣٧ ، وبالإنعام علىّ بالبكوية على الرغم من قلة مرتبى عن الحد المقرر لذلك».

(١٢)

ويرى الدكتور الكردانى أن أشق الوظائف التى تولاها كانت مسئوليته عن المراقبة العامة لتعليم البنات ، وبخاصة أنه فى أثناء عمله فى هذه المراقبة ثار الخلاف بينه وبين طه حسين الذى تفاقم فيما بعد حتى ترك الكردانى وظيفته كوكيل لوزارة المعارف حين أصبح طه حسين وزيرا للمعارف فى وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠) وهو يقول:

«... نقلت إليها فى ٤ سبتمبر ١٩٤١ ، وكانت من أشق الوظائف التى تقلدتها ، إذ لقيت فيها الأمرين ، لأن معظم الأمور كانت تجرى فيها بالهوى ، لا بدواعى الحق والعدل ،ولكنى لم أيأس وشققت طريقى معتمدا على الله ، واضعا نصب عينى إقامة العدل ، أُحكِم العقل ، ولا أضعف أمام الدموع التى سرعان ما تجرى من مآقى السيدات ، أقرأ كل المذكرات بتأمل وهدوء فى منزلى ، إذ كنت أضع جانبى بالوزارة حقائب أدس فيها ما يصلنى من مذكرات ، ثم أعكف على هذه الأوراق أدرسها فى الليل».

«... كانت بعض الوظائف الكبرى ، كنظارة المدارس الثانوية ومعهد التربية للمعلمات ، مقصورة على الأجنبيات ، وكن سيدات فضليات ، ولكنى رأيت من الإنصاف أن تسند بعض هذه الوظائف إلى مصريات ، فعزمت على اختيار مدرسة ذات كفاية وحكمة لأعينها ناظرة لإحدى المدارس الثانوية ، وانتهزت فرصة إحالة كبيرة مفتشات الإنجليزية إلى المعاش لأنقل لوظيفتها المس ديلينى ناظرة الأميرة فوقية الثانوية ، وأعين السيدة كريمة السعيد التى وقع عليها اختيارى محلها ، وتغلبت على معارضة كبار رجال الوزارة ، وعلى توسلات ديلينى ودموعها

وإصرارها على البقاء فى مدرستها ، بتعضيد الوزير الذى راقه هذا الإجراء الوطنى وأيدنى ، وقد صدقت فراستى فى السيدة كريمة فكانت أول سيدة تعين وكيلة لوزارة التربية والتعليم فيما بعد».



وبعد صفحات يروى أحمد عبد السلام الكردانى قصة بداية خلافه مع طه حسين (وهو فى جوهره خلاف سلطوى ليس إلا) على النحو التالى:

«... سارت الأمور سيرا طبيعيا إلى أن حدث ما عصف بها ، وذلك أن الدكتور طه حسين مستشار الوزارة ، بعث إلىّ مذكرة لتعيين سيدة كمدرسة للغة الفرنسية ، وطبقا لما اعتدته دسستها فى الحقيبة بجانبى ، وإذا بسكرتير المستشار يستعجلنى فى تنفيذ ما جاء بتلك المذكرة، فقلت إننى لم أنظر فيها بعد ، وسأنتهى منها فى الغد ، ولم يمض وقت طويل حتى حضر كبير مفتشى اللغة الفرنسية طالبا المذكرة ليوافق عليها ، ويأخذها إلى المستشار الدكتور طه الذى يستحثه على إنجازها ، فغضبت لهذا الأسلوب الشاذ ، ووجدتنى أطلب الدكتور طه تليفونيا وأقول له: «سيدى الدكتور.. إنى لا أستطيع تأدية عملى وإلى كتفى مَنْ يستعجلنى ، وقد وعدت بالبت فى هذه المذكرة فى الغد ، ولا أرى موجبا لهذه العجلة ، واحتدم بيننا النقاش فوجدتنى أقول له: «إنى غير متمسك بهذا المنصب ، فإذا كان لدى سيادتكم مرشح له أفضل منى فأنا على استعداد لأن أسلمه وظيفتى عن طيب خاطر».

«وبطبيعة الحال أغضبه كلامى فأنهى الحديث ، وأسرع إلى الوزير الهلالى باشا ، وأصدر قرارا بإنشاء مراقبة جديدة للإحصاء ، وقرار نقلى إليها ، وبلغ إلى فى الحال ، وقد أدهشهما إبداء سرورى بالانتقال إلى هذه الوظيفة العلمية ، وطلبت مجموعة من مدرسى الرياضة لمعاونتى ، ولكنهما اكتفيا بنصف العدد الذى طلبته ، وكان هؤلاء الأفراد على قلتهم أشخاصا نابهين ومخلصين لى وللعمل».

(١٣)

ولا تخلو مذكرات أحمد عبدالسلام الكردانى من كثير من الفوائد لتاريخنا العلمى والتربوى ، من ذلك ما يرويه من ذكرياته عن أول بعثات تعليم البنات المصريات فى بريطانيا ،

وهى بعثة مبكرة عاصرها الكردانى حين كان يدرس فى انجلترا ، ومن العجيب أن نراه ينسب الفضل فيها إلى المستشار البريطانى لوزارة المعارف دنلوب:

«كان أحد المحامين وهو الأستاذ أحمد الصدر خال زوجتى متفتح الذهن وعصرى التفكير ، ومن أوائل من فكروا فى تعليم بناتهم أسوة بالأولاد ، فأدخل ثلاثاً منهن المدرسة السنية (أقدم مدارس البنات بمصر وكانت ناظرتها إنجليزية) ، بالقسم الداخلى ، وكان يحضر كل يوم خميس من المنيا ، حيث كان يباشر عمله ، لزيارتهن ، وينتقى بعض أترابهن ليصحبهن إلى رحلة ترويحية أو مشاهدة فيلم أو مسرحية».

«وحدث أن فكر دنلوب ، مستشار وزارة المعارف إذ ذاك ، فى أن يبعث بعض البنات فى بعثة إلى انجلترا وأعلن عن ذلك واستشار ناظرة مدرسة السنية فرشحت له بعض الفتيات ومنهن بنت الأستاذ الصدر (ودودة) لتفوقها.. ولما عرض الأمر على والدها رحب به وأرسلت هى وزميلتان صديقتان لها المرحومتان زكية عبد الحميد سليمان (شقيقة أحد مشاهير الأطباء فى ذلك الوقت) واميلى عبد المسيح (التى كان ولى أمرها من كبار رجال الأعمال) إلى لندن مع سيدة إنجليزية كمرافقة ترعاهن ، ووصلن إليها فى أثناء وجودى بانجلترا ، وبعث لى والد ودودة يوصينى بهن ويطلب منى الكتابة إليه بأخبارهن ، فكنت أقابلهن من آن لآخر لهذا الغرض».

ثم يتحدث الكردانى عن مصير عضوات هذه البعثة:

«أتممن دراستهن بنجاح وعدن إلى وطنهن ، وظهر أثرهن محسوسا فى تعليم البنات بمصر ورياض الأطفال بصفة خاصة ، وقد تولت ودودة الصدر نظارة مدرسة بنات ، افتتحتها الخاصة الملكية بباب اللوق ، فجعلتها نموذجية شاع صيتها ، ووضعت لها أغانى جميلة طبعتها لجنة التأليف ، ولكن ودودة لم تعمر طويلا إذ دهمها المرض وماتت صبية مأسوفا عليها من الجميع ، وأما إميلى عبد المسيح فعينت كبيرة للمفتشات ، وكان لها أثر ملموس فى تطوير رياض الأطفال ، وأما زكية عبد الحميد سليمان فقد عينت مديرة لمعهد الموسيقى ونهضت به ، وتوالت بعد ذلك البعثات النسائية فى مختلف المجالات كالطب والتدبير المنزلى ، وكان نجاح البنات لا يقل عن نجاح البنين».

كذلك يقدم الدكتور الكردانى نبذة مهمة عن تاريخ التعليم المصرى فى السودان ، مشيدا بجهود زميله الأستاذ محمد عبد الهادى (صفحات ١١٠ وحتى ١١٣ من المذكرات).

(١٤)

ويتحدث الكردانى (فى الفصل الثامن عشر من مذكراته) بتفصيل معقول عن جهوده فى لجنة تقويم التعليم الابتدائى (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) وهى اللجنة التى شارك فيها بعد إحالته للمعاش وهو يلخص عمل هذه اللجنة فى قوله:

«قضت اللجنة أكثر من شهرين تجوب البلاد من أدناها إلى أقصاها تنقب وتختبر وتستجوب وتستعلم ، وقد تبين لها مع الأسف أن نسبة كبيرة من الأولاد والبنات ممن هم فى الفرقة الثالثة ، بل أحيانا فى الرابعة ، لا يعرفون القراءة والكتابة ، وبعضهم يعجز حتى عن كتابة اسمه على استمارة الاختبارات التى كانت توزع عليهم ، وعجبت اللجنة من اكتظاظ بعض الفصول إلى حد أن التلاميذ الذين فى الصفوف الأخيرة لايستطيعون الوصول إليها إلا عن طريق المشى فوق التخت المتقدمة ، قدمت اللجنة تقريرها متضمنا آراءها فى الحالة وعلاجها ، وأكبر ظنى أنه بمجرد تغيير الوزارة واختفاء المهتم بالموضوع سرعان ما أهمل هذا التقرير القيم ونسى كمثيلاته من تقاريرالدراسات والتوصيات السابقة التى كان نصيبها دخول الأضابير فلم ينتفع بها أحد ، ثم يأتى وزير لاحق فيكون لجنة لنفس الموضوع ، كأنه لم يدرس من قبل ، وهكذا ابتلينا للأسف».



كما يورد الكردانى فى هذه المذكرات تفصيلات مهمة عن قبوله عرض الجامعة الأمريكية توليه رئاسة مؤتمر التعليم الثانوى بجميع فروعه الذى نظمته تلك الجامعة ، وهو يقول:

«فى سنة ١٩٥٥ كنت دائم الاتصال بالجامعة الأمريكية فى كثير من الشئون والظروف التى ذكرتها من قبل ، لذا لما فكر قسم التربية بها فى عقد مؤتمر لبحث التعليم الثانوى ، اتصل بى عميده الدكتور أمير بقطر راجيا أن أتولى تنظيمه وأقبل رئاسته نيابة عن الجامعة ، فقبلت عن طيب خاطر ، وكان الهدف بحث كل أنواع التعليم الثانوى ، العام الموصل إلى الجامعة ، والخاص الموصل إلى المعاهد الفنية التجارية والصناعية والزراعية ، فرأيت أن أكسر التقاليد التى تقصر التحدث عادة على الرسميين القائمين على هذه الأنواع الثلاثة من المعاهد ، واخترت للتحدث فيه بعض ذوى الخبرة فى الحياة العملية ، والمشتغلين بالتجارة والصناعة والزراعة. اتصلت بحضرات: المهندس الزراعى سيد مرعى القائم إذ ذاك على الإصلاح

الزراعي ، والمهندس محمد صقر رئيس إحدى الشركات الصناعية الكبيرة ، والسيد رمسيس شافعي الإخصائي في الشئون التجارية فقبلوا مشكورين».

«وأفسحت المجال في الصحف لمن يرغب في التحدث فيه ، وطلبت تقديم البحوث لفحصها واختيار المناسب منها ، وأتحت الفرصة لمناقشة عامة مفتوحة عقب إلقاء كل بحث حتى تشترك جماهير الشعب في تقييم ما يلقى ، وتكون قرارات المؤتمر معبرة عن آراء الجميع، ونجح المؤتمر نجاحا باهرا. وبعد الانتهاء من صياغة التوصيات وإقرارها بعثت بنسخة منها إلى وزير المعارف (الصاغ كمال الدين حسين) ، ولفت نظره إلى الاختلافات الكبيرة بين رجال التعليم الفني بالوزارة ورجال الزراعة والصناعة الذين لهم خبرة في السوق واحتياجاتها بالضبط».

(١٥)

ولا تخلو مذكرات أحمد عبد السلام الكرداني من كثير من اللمحات التي يحرص من خلالها على أن يصور بعض ملامح الفساد الإداري التي لم يخل منها عهد ، وإن كان هو يقدمها في إطار حديثه عن مبررات خلافه واختلافه مع بعض المعاصرين له ومنهم مَنْ صاروا رؤساء له كوزراء للمعارف ، وفي المقابل لا تخلو المذكرات من لمحات يصور بها بوارق اهتمام الوزراء وأولي الأمر بالموظفين الأكفاء من أمثاله ، ونحن نراه يثني على محمد سعيد باشا الذي أنصفه ماليا وهو وزير للمعارف (١٩٢٤) ، ويثني كذلك على وكيل الوزارة عاطف بركات ، كما يروي ثلاثة مواقف متميزة له مع محمد حلمي عيسى باشا وزير المعارف الذي يحظى بثنائه ، وكذلك محمد بهي الدين بركات باشا ، وهو يبدي ارتياحه لعمله مع الوزراء محمد علي علوبة ، وعلي زكي العرابي ، وعبدالرزاق السنهوري ، وتتضاعف سعادته هذه عندما يصل مع الزمن إلى العمل مع وزيرين صديقين هما علي أيوب ، وأحمد مرسي بدر ، والأخير كان زميلا له.

كذلك يبدي الكرداني سعادة بالغة بفترة عمله سكرتيرا للجامعة مع علي باشا إبراهيم ، كما يثني على وزير الأشغال عبدالقوي أحمد الذي ساعده في إتمام رحلة معهد التربية إلى السودان.

لكنه في المقابل يحرص على أن يظهر عدم ارتياحه لعوض إبراهيم عوض وكيل وزارة المعارف ، كما أنه حريص على أن يظهر بوضوح ضيقه وتبرمه من كل من الوزيرين طه حسين ومحمد حسن العشماوى باشا اللذين تعاقبا على وزارة المعارف فى آخر عهده بهذه الوزارة.

وهو يروى بعض التفصيلات التى يصور بها قصة مأساته مع العشماوى باشا دون أن يشير له بالاسم إلى أن يصل إلى نهايتها وبداية مأساة جديدة:

«... وعندما شعرت الوزارة بقرب استقالتها أثار مسألتى وزير الصحة (كان هو الدكتور إبراهيم شوقى باشا) فى مجلس الوزراء قائلا: إننى استبعدت من وزارة المعارف لإجراء تحقيق معى ، فلنطلب الآن من الوزير نتيجة هذا التحقيق لنتخذ قرارا بشأنه ، فاضطر الوزير إلى الاعتراف بأنه لم تثبت علىّ أية مخالفة ، وأصدر المجلس (أى مجلس الوزراء) قرارا فى ٤ يناير ١٩٥٠ بإلغاء ندبى وعودتى إلى المعارف».

«ولكن دأب ذلك الوزير مدة ندبى لوزارة الشئون وقبلها على مد الصحافة باتهامات كاذبة عنى ،لاشك جعلت بعض من لا يعرفوننى تمام المعرفة يتأثرون بها ، وتنتابهم شكوك حول نزاهتى ، ولاشك أن معالى وزير الشئون الاجتماعية كان فى إمكانه الدفاع عنى بمجلس الوزراء ، بعد أن أطلعته على مستندات براءتى ، ولكن مَنْ يدرى لعله هو أيضا ساورته شكوك فى أمرى فآثر أن يظل صامتا».

هكذا جاءت حكومة الوفد الأخيرة إلى الحكم (يناير ١٩٥٠) وقد عاد الكردانى إلى موقعه وكيلا للوزارة منذ أيام فقط بعد أن ضيق عليه العشماوى بكل السبل طيلة عهد الوزارة السابقة ،وهى وزارة سرى باشا التى أجرت الانتخابات (نوفمبر ١٩٤٩ ـ يناير ١٩٥٠) ، ولكن حظه يعثر بأن يختار عدو آخر له (هو طه حسين) لتولى وزارة المعارف:

«عدت إلى المعارف ولكن لم تمض أيام قليلة حتى تقلدها الدكتور طه حسين ، وكأنه تذكر موقفى معه وأنا فى تعليم البنات ، فما كاد يصل إلى الوزارة حتى طلب إبعادى عنها لأنه لا يستطيع التعاون معى ، وبناء عليه صدر قرار بنقلى إلى وزارة الزراعة ، وكان وزيرها المؤمن الورع أحمد حمزة باشا ، ووكيلها الأستاذ الكيلانى ، استقبلانى استقبالا لطيفا ، وبعد أن تداولا قررا أن تحول إلىّ الأوراق الخاصة بالقسم المالى باعتبارى مؤهلا هندسيا ، ولم أكد أشمر معتزما خدمة الرجل الذى احتفل بمقدمى ، حتى حدث ما لم يكن فى الحسبان».

«بعد فترة قصيرة أوفد إلىّ مجلس الوزراء صديقى الدكتور محمد صلاح الدين باشا

وزير الخارجية يعرض عليّ قبول الإحالة إلى المعاش على أن يصرف لى الفرق بين قيمته وقيمة مرتبى عن المدة الباقية لبلوغي الستين ، وهى نحو أربع سنوات ، وكنت قد تعبت وسئمت العمل بعد كل تلك الصدمات والعواصف فقبلت العرض ، وأحلت إلى المعاش فى ٥ مارس ١٩٥٠».

(١٦)

وتحفل هذه المذكرات بتعبير الكردانى الصريح عن اعتزازه بكثير من تلاميذه ومن مرءوسيه الذين وصلوا إلى مواقع علمية ووزارية مهمة ، ولعل أبرز مظاهر هذا الاعتزاز أنه عهد بمقدمة كتابه إلى أحد تلاميذه المتفوقين وهو أستاذنا الدكتور محمد داود التنير عميد كلية طب الأسنان الأسبق ، ومن هذا القبيل يأتى أيضاً اعتزازه بأحمد نجيب هاشم وزير التربية والتعليم فى عهد الثورة:

«... بينما كنت أفتح بريد المدرسة في يوم ما وجدت إنذارا مبعوثا لأسلمه للأستاذ أحمد نجيب هاشم ، فعجبت واتصلت بالموقع على الخطاب وسألته عن سبب هذا الإجراء ، فأجاب بأنه علم بعدم تنفيذ الأستاذ هاشم لما جاء بمنشور أرسل للمدرسة ، وبسؤال الأستاذ هاشم عرفت أن هذا المنشور يطلب من مدرسى الترجمة بالمدارس الثانوية قصرها على الترجمة من العربية إلى الإنجليزية ، وكان سيادته يدرس لأحد الفصول كلا من الترجمة واللغة الإنجليزية ، فرأى أن يمرن طلبته على الترجمة من الإنجليزية إلى العربية أيضا ، فهل من المعقول أن يؤاخذ المدرس المجد الحريص على مضاعفة نفع طلبته ويعاقب بإنذار يشوه ملف خدمته النظيف؟!».

«اتصلت بالموقع على الإنذار وأفهمته أن هذا المدرس من خيرة المدرسين علما وخلقا وإكبابا على العمل ، بدليل أنه يضيف إلى ما تطلبه الوزارة عملا إضافيا تطوعا منه كان يستحق عليه الشكر بدلا من المؤاخذة ، كما أننى أكلفه بأعمال كثيرة تخص الاحتفال بالعيد المئوى للمدرسة ، لذا لن أسلمه الإنذار بل سأرده للوزارة متحملا مسئوليته».

«وبعدها بسنوات عين الأستاذ أحمد نجيب هاشم وزيرا للمعارف ، وأقبل عليه مندوبو الصحف مهنئين ، وسأله أحدهم عن أهم حادث صادفه فى حياته ، فذكر له هذه الواقعة مثنيا سيادته على الإجراء الذى اتخذته ، وكان هذا دليلا على نبله وأصالته».

كذلك يذكر الدكتور الكردانى أنه هو الذى طلب وهو عميد لمعهد التربية من بهى الدين بركات باشا وزير المعارف نقل الأستاذ إسماعيل القبانى التربوى المشهور وناظر فاروق الأول الثانوية ووزير المعارف فيما بعد ليكون وكيلا للمعهد ، ونراه على نحو ما ذكر من قبل يشير إلى مشاركة القبانى له فى كثير من الإنجازات.



وعلى النقيض من حديثه الفخور بهذين الوزيرين يأتى حديثه عن وزيرثالث هو محمد فؤاد جلال وزير الإرشاد القومى فى أول عهد الثورة دون أن يعرض به ودون أن يثنى عليه:

«وفى هذ الحفل الذى أقامه له النادى المصرى فى لندن (١٩٣٨) شكا لى مبعوث المعهد من مرضه هو وزوجته وما يسببه لهما من متاعب مالية ،ثم بعد عودتى لمصر بعث يكرر الشكوى ، ويلح فى إعادته من البعثة ، فتأثرت كثيرا وقضيت ليلتى أفكر فيما يمكن عمله ، حتى اهتديت إلى حل مناسب ، وفى الصباح أعددت مذكرة بترقيته ليرتفع مرتبه فترتفع معنوياته ، ويتمكن من متابعة دراسته ، وذهبت إلى الوزارة لعرضها على الوزير الدكتور محمد حسين هيكل فقال إن هذا الشاب لم يتم السنوات الأربع إلا حديثا ، وهناك من هم أقدم منه ، وستفتح ترقيته علينا بابا من الشكاوى لا حصر لها ، فقلت له إن هذا ظرف خاص لا يصح أن يقاس بهذه الاعتبارات ، بل ينظر إليه نظرة خاصة ، فالمعهد محتاج إليه ليسهم فى تطويره ، وأخيرا وافق على المذكرة ، فرقى فؤاد جلال وانتهت متاعبه».

(١٧)

وقبل هذا يعتز الكردانى بزملائه اعتزازا واضحا وهو يحكى موقفا لزميله الدكتور أحمد زكى الذى لم يكن قد فاز فى البعثة بسبب سقوطه فى الكشف الطبى ، ومع هذا فقد حرص أحمد زكى على وداع الكردانى بل وتعقبه إلى منزله لتشجيعه:

«ومن دلائل وفاء أعضاء اللجنة بعضهم لبعض أننا لما انصرفنا بعد احتفاء أعضاء اللجنة بنا وأخذ الصورة التذكارية ، يممت شطر منزلى بجزيرة بدران ، وكنت أشعر باكتئاب لقرب فراق أهلى واخوانى وقرينتى ، وركبت الترام إلى السبتية ، ونزلت فى نهايته ، فأحسست بنوبة بكاء ، فأعطيت الطريق ظهرى ووجهى للحائط ، فإذا بيد حانية تستقر على كتفى ، ونظرت فإذا بها يد صديقى أحمد زكى فبهت ، فقال: لاحظت عليك الانقباض وتوقعت ما حدث الآن ، فهيا بنا أوصلك إلى منزلك وأحيى السيدة والدتك وأنصرف».

(١٨)

بعد هذا الحديث المفصل عن إنجازات هذا الرجل وعلاقاته وآرائه على نحو ما لخصها ورواها ورآها ، يجدر بنا أن نعود إلى تكوينه العلمى لنتأمل الإيجابيات الواضحة فيه من خلال رؤيته هو نفسه كتربوى بارز قادر على تمييز الحق من الصواب.

ولا يفوت الدكتور الكردانى أن يشير فى هذه المذكرات إلى التربية والتعليم اللذين تمتع بهما فى فترة تكوينه ، وهو ـ على سبيل المثال ـ يشير إلى تتلمذه على يد الوطنى الكبير الشيخ على الغاياتى فى دمياط (فيما قبل نفيه) فيقول:

«ولما انتقلنا من منزل الأسرة الكبير إلى منزلنا الخاص واتانى الحظ بالالتحاق بمدرسة هى كتاب راق افتتحه رجل مثقف ، وتتلمذت فيه على يد علم من أعلام الوطنية ، وواحد من أقطاب ذلك العصر وهو الشيخ على الغاياتى ، صاحب ديوان الشعر المشهور «وطنيتى» ، الذى كانت قصائده تلتهب حماسة ووطنية ، وقد هجا فى واحدة منها الخديو عباس فنفى لهذا السبب خارج القطر (وفى رواية أن الحكومة قضت بالسجن على الزعيم محمد فريد لكتابته مقدمة الديوان ، وقبل أن تصدر حكمها على الغاياتى استطاع الهرب إلى سويسرا حيث عمل فى الصحافة ، وأنشأ جريدة فى جنيف) ، وقد تعلمت على يديه اللغة العربية بأسلوب جميل وحفظت فى هذا الكتاب نحو ثلث القرآن الكريم ، وكنت سعيدا بوجودى فيه».



وعند حديثه عن الفترة التى قضاها فى المدرسة الخديوية نرى صاحب المذكرات فخورا بالأساتذة الذين درس على أيديهم فى هذه المدرسة:

«وفى جميع المواد كان القائمون بالتدريس من المشهود لهم بغزارة العلم وكمال الخلق والنزعة إلى تربية تلاميذهم ، ومن أمثلة حرصهم على مساعدتهم بكل الوسائل ، أننى ذهبت إلى مدرس الرسم (المستر كارتر) أشكو له من ضعفى فى مادته ، فشجعنى وطلب منى الحضور إلى صالة الرسم فى فسحة الظهر لأتمرن . وكان يعطينى بعض لوحات لأرسمها ويشرح لى بعض القواعد».

«ومن عجائب المصادفات أننى لما أتممت دراستى الثانوية ، ودخلت المعلمين العليا ، كان المستر كارتر قد انتقل إليها ، فلما رآنى والى عنايته بى إلى حد أنه عند نجاحنا فى الدبلوم

(وكان ترتيبى الأول) وطلب منه ترشيح أحدنا للسفر إلى انجلترا فى بعثة لإعداده لتدريس الرسم ، رشحنى لذلك مقررا أنى خير من يصلح لهذا الغرض ، ولكنى كنت أدرى بنفسى فرفضت رفضا باتا ، فرشحت لبعثة الرياضيات ، ولم يرشح هو أحداً غيرى لبعثة الرسم».

«وكان ضمن هؤلاء المدرسين النابهين بالخديوية الشيخ محمود البطراوى مدرس اللغة العربية ، وقد نقل معنا إلى المعلمين العليا ، وتأسست بينى وبينه صداقة ، واستمر اتصالى به إلي أن اختاره الله بجواره ، وكذلك كان مدرس اللغة الإنجليزية يشجعنا على قراءة كتب خارجية علاوة على الكتب المقررة ، وكان يعطينا موضوع الإنشاء فى حصة الأربعاء ويجمع كراستنا يوم السبت التالى لتكون لدينا فرصة لإتقان الكتابة والاطلاع فى عدة مصادر ، والظاهر أن موضوعاتى الأولى أعجبته لدرجة ظن أنها ليست من كتابتى ، فكان يؤشر تحتها بقوله: «جيد جدا إن كانت من كتابتك» ، فلما أن تكرر منه ذلك ناقشته فيه مؤكدا له أنى أكتب الموضوع من عقلى ، وأوضحت له أنى أتردد على دار الكتب يوم الخميس أو الجمعة لأجمع معلومات من الكتب أو من دائرة المعارف البريطانية متصلة بموضوع الإنشاء لأضعها فيه ، وقد اقتنع وأقلع عن كتابة تلك الملاحظة ، واستمر فى تشجيعى».

«هذا وقد نفعنى تشجيعه لى على قراءة كتب إضافية ، ففى الامتحان الشفهى إذ ذاك للناجحين فى الامتحان التحريرى للبكالوريا ، سألنى أحد الممتحنين عما إذا كنت قرأت كتبا غير المقررة ، فأجبت بأنى قرأت الكثير من كتابات ديكنز ورسكن ، فقال: «إن كنت قرأت هذا حقا فقارن لى بين أسلوب كل منهما» ، فقلت له: «إن كتابات ديكنز سهلة وفيها مرح ونكات ، أما رسكن فجاد صارم يحتاج الإنسان ليفهم كتاباته إلى التأمل العميق» ، فأثنى علىّ وأعطانى الدرجة النهائية تقريبا».



وتتكرر هذه الروح الممتنة لأساتذته عند حديثه عن أساتذته فى مدرسة المعلمين العليا وهو يقول:

«كان معظم مدرسى المدرسة أساتذة من الطراز الأول ، المتمكنين من المواد التى يدرسونها كالشيخ البطراوى ، والمستر شوبردج الذى كان مثلا أعلى فى جميع صفاته. وقد كان من أثر تفوق الطلاب والمدرسين أن تخرج فيها سنة ١٩١٤ أعظم دفعة تركت أثرا كبيرا فى ميادين التعليم والعلم والاجتماع والوطنية».

(١٩)

وتتكرر هذه الروح المنصفة للأساتـذة المتنة لهم بصورة أعمق عند حديثه عن انتهـاء بعثته الأولى (التى كان يزامله فيها زميله أبو زهرة) ذاكرا فـضل أستاذه برودتسكى فى توجيه حياته العملية بعد هذا:

«وقبل أن أنهى حديثى عـن بعثتنا الأولى أتكلم عن أستاذى الريـاضة برودتسكى وفريزر: أما برودتسكى فكان شغـوفا ومتعمقا فى فـرع من فروع الرياضة التطبيقيـة المتصل بالطيران ، وهو «ديناميكا الهواء» ، وأعطانا مـقدمة فيه ببرسـتل جعلتنا نتشوق لدراستـه بتوسع وتعمق ، وبالفعل تخلفنا مـدة شهرين عن موعـد عودتنا إلى الوطن لنتلقى منه دروسا إضـافية فى هذا الفرع ، كان لها أثر بعيد فى مستقبلنا ، وكـان لى معه حادث غريب تعلمت منه درسا أخلاقيا عظيمـا ، وذلك أننى كنت مواظبا على قراءة بعض الـصحف الإنجليزية للتقـوية فى اللغة من جهة ، ولـلإلمام بأحوال البلاد التى أعيش فـيها من جهـة أخرى ، وكنت مشتـركا فى «الديلى نيوز» ، وكان كل عـدد منها يحوى كوبونا يهـيئ لمن يجمعه ويحـتفظ به فرصة وقـوع القرعة عليه لـيفوز برحلة جـوية مجـانية يستقلها من أحـد مطارات لندن ، وكان الطـيران فى ذلك الوقت (١٩١٧) أمـرا جديدا ، ومن ثم كـان يحـسد من يظفـر بمثل تلك الفـرصة ، وحـدث بالفعل أن أعلن عن رقم الكوبون الفائز فى أحد الشهور ، وإذا بـه أحد التى جمعتها ، وطلب من صاحبه التوجـه إلى إدارة الصحيفة بلندن فى يوم وساعة محددين لتـلقى التعليمات بشأن طيرانه».

«وتصادف أن كان هذا اليوم محددا لأحد امتحاناتى ، فذهبت إلى برودتسكى ليشير علىّ بما يراه ، حتى لا أحـرم من تلك الفرصة ، فـإذا به يسألنى إذا كنت مسـتعدا لأداء الامتـحان ، فقلت نعم ، قال: إذن تعال غدا إلى مكتبى لأعطيك ورقتى الأسئلة والإجابة ، على أن تعدنى بألا تحدث أحدا من زمـلائك عن الامتحان ، فـفرحت وودعته ، وفى اليوم التـالى ذهبت إليه وأخذت الامتحان ، وتركنى وسط الكتب وفيها طبعـا ما يتصل بالامتحان ، ولم تحدثنى نفسى بالنظر فيها ، ولم يعد إلىّ لتسلم الإجابة إلا بعد الوقت المحدد لها بأكثر من ساعة ، وكنت قد انتهـيت منها فى الموعد ، فتـأمل هذه الثقة التى وضـعها فىّ أستـاذى ، والتى حرصت على أن أزرع مثلها فى تلاميذى».

«أما فيما يتـعلق بالأستاذ فريزر فقد كان له فضل كبـير علىّ وزميلى أبو زهرة فى ممارستنا

رياضة المشى الطويل ، بتمضية يوم كامل سيرا على الأقدام وتسلقا للجبال فى منطقة البحيرات الشهيرة بجمالها ، فكنا نذهب معه فى العطلة الصيفية إلى قرية فى الشمال قريبة من حدود اسكتلندا ، وننزل بفندق جميل يعرفه ، وقد اصطبغت هذه الرحلات بصبغة رسمية، إذ أن إدارة البعثات اتفقت مع فريزر على أن يقضى معنا جزءا من الإجازة فى أى مكان يعينه لنقرأ معه كتابا عويصا من كتب الرياضة ، أو غيرها من أمهات الكتب الفلسفية مثل جمهورية أفلاطون ، فكنا نقرأ معه فى الصباح ، ونخرج معه بعد الظهر للرياضة فيما عدا يومى السبت والأحد فنقضيهما كليهما من الصباح الباكر إلى المساء فى المشى والتسلق ، فنقصد أحد جبال المنطقة ، فإذا وصلناه تسلقناه إلى قمته ، وفى اليوم التالى نقصد جبلا آخر لنفس الغرض ، حتى نكون فى آخر الرحلة قد تسلقنا جميع جبال المنطقة».



ولعل هذا الاهتمام والاحتفاء به من جانب أستاذه هذا كان بمثابة الدافع الذى دفعه إلى اختيار موضوع دراسته فى بعثته الثانية:

«بدأنا ننظر فى أمر دراستنا المقبلة ومكانها ، وبطبيعة الحال خطر لنا الاستعانة بأستاذنا القديم برودتسكى ، وعلمنا أنه انتقل من جامعة برستل إلى جامعة ليدز ، فقررنا أن أسافر إليه لأستشيره فى خير السبل والأمكنة المناسبة لكى نتابع دراسة ديناميكا الهواء التى زرع فى نفسينا التعلق بها ، فنصح بأن نقصد قسم الطيران الجديد الذى افتتحه حديثا الكلية الملكية للعلوم والتكنولوجيا التابعة لجامعة لندن ، وأبدى استعداده لكتابة توصية لقبولنا لرئيس هذا القسم السير ريتشارد دجليز بروك ، ولأن يكتب لمدير البعثة ليخبره بأنه اختار لنا ذلك القسم لمتابعتنا دراسة الرياضة التطبيقية ، وقد أوصيته ألا يذكر لمدير البعثة شيئا عن الطيران وهندسته، فالرياضة التطبيقية يندرج تحتها كل أنواع الرياضة».

«وبرَّ برودتسكى بوعده ، وبعد أيام جاءنا من السير ريتشارد ما يفيد قبولنا فى قسمه ، ومن مدير البعثة بالموافقة أيضا ، وانتظمنا بهذا القسم الذى يشتمل على دراسات عليا لجميع فروع العلوم المتصلة بالطيران ، ومنها ديناميكا الهواء ، وكان يلتحق به طلبة من جميع الجنسيات والتخصصات ، أمريكيون وصينيون وسياميون.. إلخ ، أما الإنجليز منهم فمعظمهم ضباط مختارون لتفوقهم ، ولافتقارهم إلى دراسات عليا تعينهم وتؤهلهم للقيام بالمهمات الحربية التى يعدون لها ، أو المزمع تكليفهم بها».

(٢٠)

ويقدم الدكتـور الكرداني في هذه المذكرات تفصيـلات وافية تشي بقدرة المدرسـة العلمية البريطانية على تأهيله كمهندس رغم دراسته العلمية الأولى:

«بدأنا إعداد أنفسنا للحصول على الدبلوم التي تمنحـها الكلية في هندسة الطيران ، قبل أن نتفرغ لدراسات الدكتوراه ورسالتها ، ولما آنس السير ريتشارد منا هذه الرغبة أخطرنا بضرورة تلقـينا دراسات هندسـية صـرف في موضوعـات لم يسبـق لنا دراستـها لا في مصـر ولا في برستل، مثل الـتصميمـات والإنشاءات.. إلخ ، ورتب لنا فيهـا دروسا خاصة بنا استـوعبناها تماما ، وأدينا فـيها الامتـحانات في نهاية العام مـع بقية طلبة الدبلوم ، ونجـحنا نجاحا مشـرفا ، ومنحنا الدبلـوم في صيف ١٩٢٢ ، وعـلى أثرها حـصلنا على عـضـوية «جمـاعـة مـهندسي الطيران» بانجلترا».

«وكان السير ريتشارد يدرس لنا حصتين في الأسبوع ، وعلى الرغم من أنه كان كبير السن ويقيم في كـمبردج فلم يتأخـر يوما واحدا عن درسه ، يبـدؤه في تمام الحادية عشرة صـباحا ، وينهيه في الواحـدة بعد الظهر بالضبط ، وتتخـلل الساعتين فترة استـراحة قصيرة يتناول فـيها كوبا من اللبن».

«وكنا في خـلال تلك الدراسات نحـضر أيـضا المحـاضرات المتـصلة بالدكتـوراه ، ثم إن أستـاذنا الدكتـور بيرستـو اختار لنـا موضوعي بحـثين مختـلفين لرسالتينا ، ويـزودنا بكل ما نحتاجـه ويوجهنا ، ويجتمع بنا من آن لآن ، ولم يكن الاجتـماع به سهلا لكثرة أعمـاله وكثرة الذين يشرف على أبحـاثهم ، فكنا نتصيـده ، فنترقب دخوله إلى القـسم ونفاجئه كـما لو كنا التقينا به صـدفة ، ثم نرجو أن يتكرم فيشـرح لنا ما صادفنا من صعوبات ، وكـان يلبي طلباتنا عن طيب خاطر».

«ولم تكن دراستنا كلها نظرية ، بل كان لها جانب عملي مهم اختارت لنا الكلية من أجله قضـاء إجازة الصيف التاليـة لامتحانات الدبلـوم بمصنع كبير تجـمع فيه أجزاء مـختلف أنواع الطائرات والمحركـات ، ويقع في قرية اسمهـا «هنلو» ، وحتم علينا المرور على جمـيع أقسام المصنع ، وعلى أن نمكث في كل قسم الوقت الكافي لإلمامنا بما يجري فيه».



ومع هذا فإن صـاحب المذكرات وزمـيله يلقيان ـ كـالعادة ـ تعنت الجـانب المصري الذي دأب على ألا يوافق على مثل هذا التحول في التخصص:

«وصل إلى مدير البعثة التعليمية المصرية بكيفية لا نعلمها أن دراستنا لهندسة الطيران ، فأبلغ الوزارة بمصر فقررت استدعاءنا فورا ، وذهبت مع الريح توسلاتنا وتذكير مدير البعثة بسابق موافقته على التحاقنا بذلك القسم ، كما لم تفلح تزكية السير ريتشارد لنا ، ونصحه باستبقائنا سنة أخرى فى خطابه لمدير البعثة متضمنا تقريره عن عملنا المشرف والدرجات التى حصلنا عليها ، فى امتحان الدبلوم التى منحناها فى ١٧ يوليو ١٩٢٣ ، وعلى أثر ذلك حصلنا على عضوية جماعة مهندسى الطيران بانجلترا».

ثم يورد الكردانى نص الخطابات التى أرسلها أستاذه إلى مدير البعثة المصرية التعليمية ، ومن التقرير المرفق بهذا الخطاب ننقل للقارئ هذه الفقرة من تقرير الكلية الإمبراطورية للعلوم:

«لقد حضر السيدان كردانى وأبو زهرة جميع محاضرات وأعمال مكتب الرسم المتصلة بالايروديناميكا والإنشاءات والتصميمات المتصلة بالطيران والمناطيد ، وكذلك دروس الملاحة والديناميكا الحرارية المتصلة بمحركات الاحتراق الداخلى ، وذلك علاوة على بعض رياضيات خاصة».

«وكان عملهما فى كل ما قصدا له جيد تماما ، كما كانت مواظبتهما وسلوكهما فائقين ، لقد أكبا على العمل برغبة وشغف ، ومن ثم حققا تقدما يدعو إلى الإعجاب ، إذا أخذنا فى الاعتبار أنهما لم يظفرا بأى تدريب هندسى سابق».

«وفيما يلى ملاحظات الممتحنين عن عملهما:

«الايروديناميكا: جيد فى القسم الرياضى ، عملا فى دأب ومثابرة وإجادة».

«الإنشاءات: كلاهما مكب على العمل شغوف به مع الإجادة برغم افتقارهما إلى تدريب هندسى».

«التصميمات: كان تقدم الكردانى عجيباً بالنسبة لعدم سابق تدربه هندسيا ، وكان عمل أبو زهرة جيداً وأحرز تقدما محمودا».

«المناطيد: كلاهما دءوب ، وقد ألما بالمبادئ الأساسية وأحرزا تقدما مرضيا».

«الديناميكا الحرارية والرياضيات الخاصة: وجدتهما طالبين جديرين بالاهتمام والإعجاب، وكانت أسئلتهما تفيدنى وتعيننى على تبيين الصعوبات تمهيدا للتغلب عليها».

«وفيما يلى الدرجات المئوية التى حصلا عليها فى مختلف امتحانات المواد:

«الكردانى: الديناميكا الحرارية ٧١ ، والايروديناميكا ٦٣ ، والإنشاءات ٤٩ ، والتصميمات ٥٦ ، والمناطيد ٥١ ، والملاحة ٥٥».

«أبو زهرة: الديناميكا الحرارية ٦٢ ، والايروديناميكا ٦٠ ، والإنشاءات ٤٢ ، والتصميمات ٥٦ ، والمناطيد ٥٣ ، والملاحة ٦٥».



على أن الأهم من هذا كله ما يرويه الكردانى معترفا بالفضل لصاحبه من أن صحفيا مصريا مسيحيا (هو الأستاذ قرياقص ميخائيل) كان هو صاحب الفضل فى موافقة الحكومة المصرية على مد بعثتهما على الرغم من أن مدير البعثات ضرب بتقارير المشرفين عرض الحائط ، وهو يحكى القصة على النحو التالى:

«وتصادف أن التقينا فى ذلك الحين بصديقنا الصحفى قرياقص ميخائيل وقصصنا عليه قصتنا فقال: إن فى استطاعته إلغاء قرار الوزارة بإعادتنا لمصر ، فظنناه يمزح ، لكنه أكد لنا قدرته على تنفيذ وعده ، ثم ابتكر حيلة بارعة: فقد كان عدلى باشا يكن رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت ، فى باريس يفاوض الإنجليز محاولا الوصول إلى اتفاق معقول معهم ، وكان يتعرض فى مصر لحملة شديدة يشنها عليه سعد باشا زغلول ، ووراءه الأمة تعضده ، فما كان من قرياقص إلا أن سافر إلى باريس وقابله وذكر له أن بلندن شابين مصريين من أعضاء البعثة متهورين سياسيا ، وأن وزير المعارف طلب إعادتهما لمصر ، وليس هذا فى نظره لمصلحة الوزارة التى يرأسها دولته ، لأنهما لو عادا إلى مصر لاشتركا بنصيب فعال فى الحملة الشديدة التى تستهدف وزارته هناك ، وأضافا له متاعب هو فى غنى عنها ، وأنه حضر لباريس لينصح بإيقاف هذا القرار ، فاقتنع الباشا واتصل بوزير المعارف ليبرق لمدير البعثة باستبقائنا بلندن ، وفعلا أرسلت له تعليمات بذلك ، وهكذا كان لقرياقص الصحفى المصرى القدير الفضل فى بقائنا لاستمرار دراستنا وحصولنا على الدكتوراه (وأكد تصرفه ما بين الأقباط والمسلمين من محبة وانسجام)».

(٢١)

وربما كان من المفيد بل من الواجب أن ننقل للقارئ الملخص البديع الذى عرض به أحمد عبدالسلام الكردانى فكرة بحثه والنتائج التى توصل إليها من خلاله:

«وكان الدافع لإجراء هذا البحث ، بشقيه النظرى والمعملى ، محاولة تفسير ظاهرة مدمرة

محيرة تنتاب بعض الطائرات ، فى أثناء طيرانها ، فقد يحدث أن تنخفض مقدمتها فجأة متجهة صوب الأرض بسرعة مذهلة متزايدة ، ويساعد على ذلك وجود المحرك الثقيل فى مقدمتها ، فتهوى منغرسة فى الأرض وتتحطم إلا إذا كان ارتفاعها عن الأرض كبيرا فيتمكن الطيار من القيام بالمناورة اللازمة لتوازنها متفاديا هذا المصير».

«وكانت نتيجة مقارنة البحثين النظرى والمعملى وتطابقهما أن وجد فى كليهما أنه كلما زادت قيمة زاوية السقوط ازداد تبعا لها مقدار الرفع الواقع على الجناح حتى إذا ما وصلت قيمة الزاوية إلى مقدر معين ، خاص بكل شكل من أشكال الأجنحة ، نقص الرفع فجأة نقصانا كبيرا ، بحيث أن الخط البيانى الممثل لتزايده بعد أن يكون فى صعود مستمر إذا به فجأة يكف عن الصعود ويأخذ فى الهبوط ، ويطلق على زاوية السقوط التى عندها تحدث هذه الظاهرة «زاوية الانهيار» ، وقد أمكن بعد ذلك استخدام النفق الهوائى لتعيين مقدار هذه الزاوية الخاص بكل شكل من أشكال الأجنحة ، وإخطار الطيار الذى يكون جناحا طائرته على هذا الشكل بأن يتحاشى وصول زاوية السقوط إلى هذا المقدار المدمر ، وبذا يتفادى تحطيم طائرته».



ويدلنا الكردانى فيما يرويه من مذكراته عن أن محاولة استقطاب العقول المصرية للعمل بالخارج كانت موجودة منذ زمن مبكر:

«استمرت المناقشة (أى مناقشة رسالة الدكتوراه) مدة معقولة أسفرت عن رضاء اللجنة عنها ، وهنأنى بالفوز بالدكتوراه ، وذلك فى صيف عام ١٩٢٣ ، ثم انتحى بى الممتحن الخارجى جانبا وعرض علىّ العمل معه فى جامعة ويلز ، فاعتذرت له بأنى موفد من قبل حكومتى فى بعثة علمية ، وملزم بالعودة لأقوم بالعمل الذى من أجله أرسلت فى هذه البعثة».

(٢٢)

قبل هذا كله يروى صاحب هذه المذكرات كيف واتته الظروف للالتحاق بالتعليم الثانوى بفضل وجود سعد زغلول باشا على رأس وزارة المعارف فى ذلك الوقت وسياسته الذكية المبتكرة الحريصة على إتاحة الفرصة لأبناء الأسر الكريمة التى أحنى عليه الدهر:

«... ونظرا لإصرار والدتى على أن أكمل تعليمى إلى النهاية فقد أخذت تبحث عما تستطيعه ليتم لها ما تريد ، علما بأن والدى لم يترك لنا شيئا بالمرة ، وأن جدى صمم على ألا يعيننا بأكثر من ثلاثة جنيهات شهريا ، ولم يكن لوالدتى وجدتى سوى بضعة أفدنة ورثناها عن جدى لوالدتى ، ومن ثم لم يكن من المتيسر لها تدبير النفقات اللازمة فى حالة ذهابى إلى الإسكندرية».

«ولكن الله سبحانه وتعالى لا ينسى عباده المتوكلين عليه ، فقيض لها من فضله فرصة لم يكن أحد يتوقعها».

«كان لوالدتى ابن خالة اسمه محمد بهجت يقيم بالقاهرة ويعمل بوزارة المعارف ، ولم تكن تعلم عنه شيئا ، وليست له صلة بنا ، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمه فى ذلك الصيف أن يحضر إلى دمياط فى إجازة ليزور خالته وأولادها ، وبالفعل حضر ، وبطبيعة الحال استمع لقصتى ولمس حيرة والدتى ، فأخذ يهون عليها الأمر ، ويشجعها على الصمود فى موقفها ، ووعدها بأن يسهل أمر التحاقى بالمدرسة الخديوية ، وبأن يبحث لنا عن منزل قريب من المدرسة ، ومن مسكنه هو ليتسنى له سهولة الاتصال بنا والإشراف علينا».

«ومن حسن الحظ أنه كان يعمل بمكتب سعد باشا زغلول وزير المعارف إذ ذاك ، والذى قرر لأول مرة منح مجانية بالتعليم الثانوى بالقسم الداخلى لأربعين طالبا من صغار السن الناجحين بشرط أن يكونوا من أسر كريمة أصابتها ظروف سيئة كالتى أصابتنا بفقد والدى ، ورأى قريبنا بهجت أن عندى فرصة طيبة للفوز بإحدى هذه المجانيات ، لاسيما بعد أن رؤى زيادة العدد على أربعين بإلحاق بعض المختارين بالقسم الخارجى (وكانت مصروفاته ١٥ جنيها) بدلا من القسم الداخلى (الذى تبلغ مصروفاته ٤٠ جنيها) ،و بواسطة هذا الفرق فى المصروفات أمكن زيادة عدد المختارين لهذه المجانية».

«وبالفعل استطعت الحصول على إحدى هذه المجانيات بالقسم الخارجى ، والتحقت بالمدرسة الخديوية ، كما استطاع بهجت أن يجد لنا المسكن المناسب بحارة عابدين اسمها (الزير المعلق) ، واستخرنا الله وتركنا دمياط: جدتى ووالدتى وأنا وأختى وأخى ومعنا بعض الأقارب الذين تطوعوا بمصاحبتنا لمعاونتنا فى رحلتنا للوصول إلى بيتنا بالقاهرة».

وهكذا نرى أن مثل هذا الأمل فى الحصول على هذا التعليم الراقى كان من الممكن أن

يتحقق لأبناء الشعب الفقراء فى بداية القرن العشرين بعيدا عن المجانية المقترنة بالدروس الخصوصية ، والمصروفات غير المباشرة.

(٢٣)

وشأن أبناء هذا الجيل المسكون بالوطنية ترينا المذكرات التى بين أيدينا أن الكردانى وزملاءه قد بذلوا جهودا وطنية خارج مصر وداخلها ، وفيما يتعلق بصاحب المذكرات فقد جعلته أنشطته الوطنية محل تعقب أجهزة الشرطة البريطانية ، وهو يحكى عن بداية هذا الانخراط فى العمل الوطنى فى خارج مصر فيقول:

«حدث فى أواخر سنواتنا الثلاث (فى بريطانيا) ، ونحن نستعد لامتحانات البكالوريوس، أن قامت بمصر ثورة ١٩١٩ ، فساهمنا بقسط كبير فعال فى الدعاية للقضية المصرية ، بإعداد مذكرات ونشرات ، وتوزيعها على الصحف وعلى أعضاء الحكومة الإنجليزية ومجلس العموم ومجلس اللوردات ، ورجال السياسة البارزين ، كما قمنا بمقابلات شخصية لبعضهم ، ومنهم السيد رمزى مكدونالد رئيس الوزراء شارحين لهم قضيتنا العادلة وحقنا فى الاستقلال».

«وكان لهذا التحرك أثره ، مما جعل سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى ـ وكان وقتها فى باريس ـ يبعث لنا عضوين من أعضاء الوفد لمتابعة نشاطنا ، وشد أزرنا ، وإمدادنا بما قد نحتاجه من توجيهات ، وهما الأستاذ مكرم عبيد والدكتور حامد محمود ، وقد أعجبا بما قمنا به وشجعانا ، وقد أوقعت حركتنا هذه الحكومة البريطانية فى حرج وبدأت تتعقبنى لتحصى علىّ حركاتى ، وفتح لى سجل فى سكوتلانديارد انتقل معى إلى السفارة البريطانية بالقاهرة وظل سيفا مصلتاً علىّ».

«وحدث فى هذه الأثناء ، ونحن فى خضم معركة الدفاع عن بلادنا ، أن سافرت إلى لندن للاجتماع بأحد الإخوان للتذاكر فى الخطة التى سنتبعها والنشرات التى سنكتبها ونوزعها ، واتصلت به فى كليته وهو الدكتور بهمان (الذى أنشأ مصحته العقلية الشهيرة بحلوان) ، فإذا به ينزعج ويقول: «ابعد عنى ياكردانى ، لا تحاول الحضور لمنزلى ، فقد زارنى أمس أحد رجال سكوتلانديارد يسألنى عنك» ، وبذلك تأكدت من أننى مراقب وأن الشرطة الإنجليزية تتعقبنى بسبب نشاطى السياسى».

ومن الجدير بالذكر أن الشرطة البريطانية ظلت تحتفظ للكردانى بملف لمتابعة نشاطه السياسى ، ونقرأ فى موضع آخر من المذكرات ما يدلنا على هذا فيما يرويه عن تفصيلات رحلته من أجل مشروع الطيران أن السلطات البريطانية كانت لا تزال تحتفظ له بملف للمراقبة:

«... ومن طريف ما يروى أننى عندما كنت بهولندا طلبت بيانات من جهات حكومية ومن شركة KLM فقدم لى بعضها ووعدت بتسلم الباقى بعد فترة من الزمن ، فبدت الدهشة عليهم وقالوا: «يظهر أنك لا تدرى أنه منذ وصولك إلى هنا يتعقب حركاتك اثنان من رجال شرطة سكوتلانديارد البريطانية ، وبطبيعة الحال فإن بريدك اللندنى لابد أن يكون مراقبا ، وبناء عليه أحضروا أحد الطيارين الذين يعملون فى الخط الجوى اليومى بين أمستردام ولندن لأتعرف عليه ويتعرف علىّ ، واتفقنا على موعد ومكان نلتقى فيه بلندن ليسلمنى بقية البيانات المطلوبة ، وهكذا تأكد من جديد تعقب الشرطة البريطانية لى».

(٢٤)

وشأن كل المثقفين من جيل الكردانى فقد كانت له جهود تطوعية كثيرة فى العمل الأهلى الثقافى والإسلامى ، ولعل أبرزها نشاطه فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وفى نقابة المعلمين ، وفى غيرها من الجمعيات الأهلية ، ونحن نراه حريصا على الحديث بقدر من التفصيل عن نشاطه فى هذه اللجنة ، ولكنه يؤثر فى حديثه عن مشاركته فى لجنة التأليف والترجمة والنشر أن ينقل ما سجله أحمد أمين فى مذكراته عن هذه اللجنة ، لكنه فى الوقت نفسه يتحدث عن مشاعره تجاه إنشائها فى قوله:

«فى أثناء تلمذتى بالمعلمين العليا تأسست بينى وبين مجموعة من زملائى الطلبة صداقة وطيدة قائمة على الرغبة فى خدمة الوطن عن طريق الجهاد السياسى ، وبث روحه فى تلاميذنا، وتسليحهم بالعلم والأخلاق الرفيعة ، ورأينا أن نبدأ بتكوين هيئة علمية تعيننا على تنفيذ برامجنا التى نرسمها لتحقيق أغراضنا ، وانضم إلينا بعض أصدقائنا ، وهكذا لم تمض سنتان حتى انخرط فى سلك عضوية هيئتنا كثير من شباب مصر الذين لهم مثل أهدافنا».

كما يحرص الكردانى على أن يتحدث عن فضل الله عليه فى نهاية حياته فى إعداد كتاب «الإسلام فى عصر العلم» وهو أبرز محاولات التفسير العلمى للقرآن الكريم:

«... بعد ذلك قيض الله لى عملا عظيما ، شغل وقتى كله فى خدمة القرآن ، ذلك أن

صديق العمر الأستاذ محمد أحمد الغمراوى توفى فى مايو سنة ١٩٧١ ، وكان أستاذا للكيمياء بكلية الصيدلة يحاضر لطلبة الأزهر فى الطبيعة والكيمياء تحت اسم «سنن الله الكونية» ، ثم حاضر لتبحره فى العلوم الدينية ، فى كلية أصول الدين لطلبة الدراسات العليا ، واختار لمحاضراته موضوعا لم يطرقه أحد قبله ، وهو تفسير بعض الآيات القرآنية الكونية (أى التى تتناول الكون وخصائصه) ، والتى تشير تصريحا أو تلميحا إلى حقائق علمية لم يكشفها العلم إلا بعد نزول القرآن بعدة قرون ، ومن ثم تعتبر إعجازا علميا للقرآن».

«وكان المرحوم حدثنى فى أثناء مرضه عن هذه المحاضرات ، وأن نصوصها موجودة عند ابن خالته الأستاذ الدكتور محمد جعفر فأخذتها منه وقرأتها ، فوجدتها جديرة بالنشر فى مصر كما هى ، وبالترجمة إلى الإنجليزية ونشرها فى أوروبا وأمريكا ليهتدى بقراءتها المسلمون وغير المسلمين ، وبعد مماته أحضر لى أولاده مجموعة المجلات الإسلامية التى كان ينشر فيها مقالاته ، فوجدتها تحوى بحوثا قيمة وأنها مع المجلدين تعتبر كنزا علميا دينيا نفيسا، فعكفت عليها واستخرجت مادة تصلح لكتاب سميته «الإسلام فى عصر العلم» وجعلته فى أربعة أبواب: «الإسلام دين الفطرة» و«محمد رسول الهدى» و«القرآن المعجزة الخالدة» ويتضمن «الإعجاز البيانى والبلاغى» ، والرابع يتناول طرفا من «الإعجاز العلمى للقرآن». ثم تحدثت مع الدكتور محمد جعفر وأخيه المهندس الدكتور إبراهيم جعفر (زوج ابنة الغمراوى) بشأن طبعه فشرع الأخير فى اتخاذ الوسائل لذلك ، وأخذ ينفق بسخاء إلي أن تم الطبع فى يوليو سنة ١٩٧٣ ، مصدرا بتقديمين من الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود والدكتور عبدالعزيز كامل وزير الأوقاف إذ ذاك ، وفى ظهره تعريف به للدكتور لبيب السعيد مدير عام شئون القرآن».

«شرعت فى ذلك بالفعل ، وكنت على وشك الانتهاء منه ، ولكن خطر لى أن طبعه بالإنجليزية يتكلف كثيرا ، وقد يعرض الناشرون الأجانب عنه ، لذا رأيت الاكتفاء باختيار نماذج من الآيات التى يتجلى فيها الإعجاز العلمى ، وجمعت عددا مناسبا طبع تحت اسم «نماذج من الإعجاز للقرآن» فى مؤسسة دار الشعب ، ثم ترجمته إلى الإنجليزية وراجعه صديقى المهندس محمد عبدالمجيد الزميتى الضليع فيها ، وعرضت الأصل العربى والترجمة على إنجليزى مسلم اسمه «بيتر هوبسن» يجيد العربية فوصف الترجمة بأنها فائقة ، فتشجعنا وطبعنا منها عشرة آلاف نسخة».

(٢٥)

وتتميز هذه المذكرات بقدر كبير من الحديث عما يعتبره الآخرون أمورا شخصية بحتة يتجاوزونها فى مذكراتهم الشخصية ، ومن ذلك أن الكردانى يذكر تواريخ ميلاد أبنائه والعلامات البارزة فى تعليمهم وزواجهم. وهكذا تقدم المذكرات خبرات جيدة فيما يتعلق بحياة صاحب المذكرات العائلية ، ونحن ـ على سبيل المثال ـ نرى الكردانى فخورا بالأسلوب الذى اتبعه فى اختيار شريكة حياته على الرغم من قرابتها الشديدة :

«كان أقرب الناس إلينا من ضيوفنا بالقاهرة أسرة عمة أخرى لى هى وزوجها وأولادها وبنتين إحداهما تدعى (هنية) التى أصبحت لى زوجة فيما بعد ، وكانت الأسرة تفد علينا فى فصل الشتاء وأتردد عليهم أنا بدمياط أو رأس البر فى الصيف ، وكان رفيقى هناك ابنهم الذى يكبرنى بستة أشهر فقط ، والذى كان قد التحق بكلية الطب وأصبح طبيبا فيما بعد (هو الدكتور على محمد الكردانى مؤسس شركة مصر للمستحضرات الطبية) وبطبيعة الحال تأسست بينى وبين أخته (التى تصغرنى بعامين) صلة مودة لتقارب سنينا . وساعد على اتصال المودة بيننا انتقالهم إلى القاهرة ، وسكناهم أمامنا بشارع الخليج . وقد أضمرت فى نفسى أن أخطبها كزوجة ، مخالفا أسلوب الخطبة فى ذلك الوقت ، إذ كانت تتم على يد الأقارب كالأم والأخوات يستعرضن مَنْ فى سن الزواج من البنات ، ويطلعن قريبهم على أوصافهن ، فإذا صادفت إحداهن هوى فى نفسه خطبتها له من أهلها . أما أنا فكان اختيارى عن اقتناع شخصى بصلاحية الفتاة هنية لى بعد أن عرفتها فى عدة مناسبات تكشف عما راق لى من صفاتها وأخلاقها ، ونظرا لظروف عائلية آثرت أن أخطبها من والدها بمعاونة مَنْ له نفوذ فى الأسرة وتأثير على الوالد ، ولما عينت بعد ذلك مدرسا بالتوفيقية الثانوية الأميرية طلبت عقد قرانى وتم ذلك فى ٢ مارس ١٩١٦ ، ولكنى لم أبن بها إلا فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ بعد عودتى من البعثة الأولى».

وتحفل مذكرات الكردانى بنواح إنسانية وأبوية أجاد التعبير عنها فى مواضع كثيرة بحكمة الشيوخ ، وسنكتفى للقارئ بموقف واحد منها يتعلق بحرصه على تجنيب أبنائه الخلاف على ثروته بعد وفاته:

«ظللت أعمل فى هذه الأرض إلى أن تعبت وأدركت أنى لا أستطيع المواصلة ، وكان ابنى عبدالسلام قد تخرج فى كلية الزراعة سنة ١٩٥٣ وأخذ يعاوننى فى أعمال الزراعة ، حتى اكتسب خبرة كافية ، فعهدت إليه بإدارة الأرض ، على أن يستشيرنى فيما يعرض له من

صعوبات ، بينما أعاونه أنا فيما يتطلب التردد على مصالح الحكومة بالقاهرة ، ولكنى بعد ذلك أشفقت عليه من احتمال نشوء خلافات بينه وبين اخوته أو أزواجهن فقررت إعطاء كل منهم نصيبه الشرعى وأستريح ، وقد أبدى ابنى محمد المقيم بأمريكا عدم رغبته فى أى أرض تبرعا منه بنصيبه لأخوته».

(٢٦)

ومن الطريف أيضا أن الدكتور الكردانى يلخص للقارئ قائمة بسفرياته بعد إحالته للمعاش مرتبة زمنيا من ١٩٦٦ وحتى كتابة مذكراته ، لكنه يركز على السفرة الثامنة فى ربيع ١٩٧٦ وهى تجربة مهمة تستحق أن ننقل عنها خبرة ذلك الشيخ الكبير الخبير بالحياة المعتز بدينه ووطنه:

« قرأت فى الصحف عن إقامة المهرجان الإسلامى بلندن ، ولما اعتزمت السفر لحضوره ، كنت آمل أن أكون ضمن إحدى الجماعات المصرية ، فاتصلت بفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود وأخبرته برغبتى ، وبأننى سأسافر على نفقتى الخاصة ، وكل ما أرجوه أن يضم اسمى إلى الوفد الذى سيصحبه إلى لندن ، فاعتذر بأنه سيذهب إليها كمدعو فقط ، وحاولت مثل ذلك مع الأستاذ محمد توفيق عويضة الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فكان الرد سلبيا أيضا».

«عند ذلك قررت أن أذهب وحدى متكلا على الله ، وقبل موعد السفر كتبت للدكتور صلاح الضرير المصرى ، ومحسن علوان العراقى ، وإلى المستر بيتر هيس الإنجليزى المسلم ، وطلبت من الثلاثة الاتصال بى فى لندن ، وأعطيتهم عنوانى ورقم تليفونى هناك ، ولكن للأسف لم يتصل بى إلا الإنجليزى فى الليلة التالية لوصولى ، يعتذر عن عدم الحضور لمرضه من جهة ، ولأنه مشغول ببعض أعمال المهرجان (الذى هو أحد مستشاريه) ، ثم سألنى عما إذا كنت قد حصلت على دعاوى لحضور جلساته وزيارة معارضه ، فأجبته بالنفى ، فدلنى على مكان إدارة المهرجان ، لأتسلم تذاكر الدعوة من السيدة «باتريشيا مان» ، وفعلا تسلمتها ، وبعد أن شفى زارنى بالفندق ، وقضينا وقتا فى حديث ممتع متشعب ، واعتذر لعدم استطاعته زيارتى مرة أخرى لمشغولياته العديدة ، ومنها ترجمة الآيات التى سيرتلها الشيخ محمود خليل الحصرى ، وبالفعل عند ذهابى للاستماع إليها وجدت سيدة توزع نسخا من هذه الترجمة وأخذت واحدة منها».

«تم افتـتاح المهرجان فى قـاعة الاحتفـالات بصالة هيوارد للعـرض ، وكان أول المتكلمين رئيس هيئة التنظيم ، ثم ألقيت كلمـة الملكة ، وكان حفلا مهيبا ، جمـيل التنسيق حضره أناس من جميع أنحاء العالم ، وكانت الملكة تنتقل بين الصفوة لتـحيتهم والترحيب بهم ، واستغرق الاحتفال ساعتين ، ثم افتتحت الملكة معرض الفنون الإسلامية المجاور».

«امتد المهرجان ثلاثة أشهر وكان آية فى الروعـة ، وعرض إنجازات الحضارة الإسلامية فى مـجالات الدين والفنون والعـلوم ، والآداب ، والموسيـقى ، والحيـاة البـدوية ، بصورة تظهـر العالم الإسـلامى على حقـيقـته فتـصحح الصـورة المشوهة التى شاعـت وذاعت عن الإسلام وتقبلها الغرب على امتداد أحقاب طويلة».

«نُعت المهرجان فى الصـحف بأنه «كان أعظم حدث ثقافى لهذا القـرن» ، وقد سرنى قول أحد الإنجليز المسلمين: «أنا لا أحب أن يكـون هذا المهرجان مجرد حدث ثقـافى فحسب ، بل أهم من هذا بكثير أن يـكون بمثابة إيقاظ روحى» ، وإنى لأرجو من جهـتى أن يكون إيقاظا لنا معـشر المسلمين لنعمل بتـعاليم الإسلام ، ونلاحق التقـدم فى مجالات العلوم والتكنولوجـيا لنتبوأ المكانة الرفيعة لأسلافنا».

«وقد ألقـيت المحاضرات وأقيـمت سبعة مـعارض فى قاعـات وصالات ضخمـة بأماكن مشهورة ، ومنها سلسلة مـحاضرات نظمتها هيئة إسلاميـة اسمها المجلس الإسلامى الأوروبى بالاشتراك مع جـامعة جدة بالسـعودية ، وعقدت جلسـاتها العشر فى إحـدى قاعات جمـعية الكومنولـث الملكية».

«كان نصيب القرآن فى المهرجـان وفيرا إذ افتتح شيخ الأزهر معرضـه ، حيث عرضت فيه المصاحف القديمة المكتوبة بالخط الكوفى ، والمخطوطات المملوكية والمغـولية والتيمورية ، كما أظهرت أفـانين التحليـة والزخرفـة بالخطوط البديعة ، ووسـائل التحليـة السائدة فى عـصرى الدولتين العثمانية والصفوية ، وأخيرا رتل الشيخ مـحمود خليل الحصرى (بقاعة الاحتفالات الملكية) آيات من سـور النحل والإسراء ومريم ، وكـانت القاعة ممتلئـة تماما ، واعتـذر الشيخ عبدالباسط عبدالصمد لوعكة ألمت به».

«عرضت الفنون الإسـلامية فى المهـرجان بخمس قاعـات عرضا فـريدا امتاز بعظم كمـية ونوعية الأشياء التى جلبت له من مختلف البـلاد الإسلامية ، الفن الإسلامى معروف للغربيين لكنهم قلما يفـهمونه ، فكان هذا المعرض بمثـابة وليمة قدمت لزائريه لتنعم بهـا العين ، وتبرز لهم طبيعة الفن الإسلامى ليفهموه ».

وهنا يعقب الدكتور الكردانى بانطباعاته ، عن الفن الإسلامى ويقول:

وكثيـرا ما يقال إنه ليس فى الفن الإسلامى من قـمم التحف الفريدة ، كمـا يفهم الغرب ، ولكن جـمال التـصمـيم والتنفـيذ يظهـر بوضوح فى كل نـاحيـة من نواحى المعرض. فـهناك المنسوجات الإسلامية ذات الشهرة الواسعـة ، والسجاجيد والحرائر التى تأخذ بالألباب ألوانها وتصميماتها ، ومهارة صنعها ، أما فن العمارة الذى يعبر عن الثقافة الإسلامية أظهر تعبير فقد أظهـرته شرائح زجـاجية تـسقط على الشـاشة صـورا تنقل الزائر لبعض المبـانى العظيمـة من الحمراء فى غرناطة إلى تاج محل بالهند».

«بعد حضور الافتتاح أخذت أختار من هذا الطوفان ما يروق لى ولا يبعد كثيرا عن سكنى محاضرة كان أو عرضا سينمائيـا ، أو أحد المعارض السبعة ، وكنت ألتقى بقليل من المسلمين الأوروبيين وبكثيـرمن المسلمين القادمين من جمـيع أنحاء العالم ، وأتمتع بالحديث مـعهم عن بلادهم وأحوالهم».

«ولقد استمـتعت بما سمعته وشاهدته لكنى لاحظت بعض أمـور ، منها أن عنصر الدعاية كان ظاهرا وأن وراء المهرجـان أهدافاً سياسيـة تقرب المسلمين إلى انجلترا ، وأن الباكـستانيين كانوا ينتظرون أن تشركهم هيئة المؤتمر فى تنظيـمه كما أشركت الإيرانيين الذين فازوا بنصيب الأسد فى المعروضات الفنية».

«ومن أظرف مـا يروى من تعليـقات الصـحف قول إحـداها: «لا شىء على مـدى تاريخ الجنس البشرى يثـير الدهشة أعظم مما تثيـره سرعة انتشار الإسـلام وذيوعه ، من ذا الذى كان يتوقع أن شابا فى مقتبل العمر يعمل فى التجارة ، ويقود قوافلها إلى بلاد الشام وغيرها ، شابا اضطره مـواطنوه إلى أن يهـاجـر هو وأتبـاعـه من وطنه ، الذى ولد وتربى فـيـه ، إلى يثـرب «المدينة» ، استطاع أن يؤسس ديانة قدر لها فى خلال قرن واحد أن تبسط سلطاتها على نصف العالم المتحضر ، وأن تتوغل غربا إلى قلب فرنسا وشرقا إلى أن تجتاز الهند ، وتنفذ إلى حدود الصين».

(٢٧)

وبالإضافة إلى كل تجاربه التربوية والعلمية والوظيفية والسياسية والثقافية يحكى الكردانى عن قيـامه باستصـلاح أراض زراعية ، وعن تجـربته فى هذا الصدد ، ويهـمنا من هذا الحديث كيف كان لوجوده كرائد لعمـلية الاستصلاح الزراعى ، وكشخصية معـروفة دور فى استثمار

شخصيته ونفوذه من أجل تطوير تقدم مجتمع زراعى جديد ، وفى هذا الصدد ننقل للقارئ بعض الفقرات التى يصور بها الكردانى خبرته وتجربته فى هذا المجال:

«ولما اتسع العمران بهذه الصورة فكرت فى خدمة السكان من الناحية الصحية ، فسعيت لتوصيل مياه الشرب إلينا ، ونجح مسعاى وأقيمت حنفية ماء عذب فى مدخل عزبتى وهرع إلى الاستفادة منها كل الناس من العزب المجاورة لنا ، وكنت سعيدا برؤية التزاحم عليها ، ثم سعيت لدى شركة أتوبيسات شرق الدلتا فاستجابت لمسعاى وسيرت بعض أتوبيساتها إلى المنطقة ، وقد توطدت علاقاتى وصلاتى بعمد ومشايخ هذه الناحية وبأهالى المنزلة ، ومددت يد المعونة لهم ، فساعدت أبناءهم على دخول المدارس ، وشجعت أفراد عزبتى على توصيل أولادهم إلى أقرب مدارس إلى عزبتنا ، ولما تزوج أزهرى بإحدى بنات القرية شجعته على أن يفتح مدرسة خاصة تجنب الصغار ركوب الحمير مسافات طويلة إلى المدارس البعيدة».

«ولم تقتصر مساعداتى على أهل المنزلة وحدها ، فقد جاءنى وفد من المطرية يطلبون منى إنشاء مدرسة ثانوية بها ، فعملت على تحقيق رغبتهم هذه ، واخترت للمدرسة ناظرا كفئا وسمحت له بوصفى مديرا للتعليم الثانوى بإحدى الغرف ليسكنها مؤقتا ريثما أسعى لإنشاء منزل صغير قريب من المدرسة لسكناه ، وكانت نتيجة لذلك أن طالب أهالى المنزلة بمدرسة أسوة بما تم للمطرية ، فرصدت فى الميزانية مبلغا لإنشاء مدرسة لهم ، وبالفعل أنشئت بعد قليل».

«ثم حدث أن دب خلاف بين واضعى اليد من الفلاحين وبدأ يدمر الروابط الحسنة بينهم ، فجمعتهم عندى وعرضت عليهم أن يقتسموا امتداد الضفة كل منهم بعدد من الأمتار تبعا لإمكاناته ليمتد بالإصلاح إلى الوراء عموديا على الترعة كما يشاء ، ثم عرضت عليهم أن يقوم بعملية التحكيم بينهم جمال الكردانى فقبلوه ، وبالفعل قام بدراسة حالة وإمكانات كل فرد منهم وقسم بينهم الضفة على امتداد طولها كل بواقع عدد من الأمتار مناسب لقدرته وإمكاناته ، وبذا عاد الوئام والتعاون وسادت الروح الطيبة».

«وكان على بعد كيلومترين من عزبتى محطة طلمبات صرف حكومية فرح المهندسون فيها بوجودى إلى جوارهم ، ونشأت بيننا صلات طيبة ، فكنت أسعى لحل أى مشكلة تعترضهم ، سواء كانت شخصية أم حكومية ، وأخذوا يساعدوننى كلما احتجت لعون منهم».

مذكرات المفكرين والتربويين
تكوين العقل العربى

6

رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى

مذكرات:

د. نادية رضوان

دار الخيّال

(١)

هذه مذكرات من نوع فريد، قدر لصاحبتها أن تنجح فى كتابتها إلى أبعد حدود النجاح، ولم يأت نجاحها هذا من باب المصادفة، لكنه كان محصلة طبيعية ومتوقعة لتملكها كل الأدوات التى مكنتها من كتابة هذه التجربة وتسجيلها على هذا النحو المتميز المتفرد، وهى أدوات عديدة ومتنوعة لم يكن من السهل أن تجتمع كلها لصاحب تجربة على نحو ما اجتمعت للدكتورة نادية رضوان، كما أنه لم يكن من المضمون أن يستغلها ويوظفها إلا من اجتمعت له على هذا النحو القدير والمتفرد التى تمكنت منه هذه المؤلفة بكل هذا النجاح الأكيد.

والحق الذى لا مراء فيه أن الدكتورة نادية رضوان قد وصلت فيما حققت من نجاح فى كتابة هذه التجربة إلى درجات قصوى، بيد أن العجيب فى الأمر أن بعض نجاحاتها قد سلبتها من حيث لا تدرى بعض القدرة التى يتطلبها كل عمل أدبى على إثارة التشويق، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن العنوان الواضح الذى وضعته الدكتورة نادية رضوان لهذا الكتاب قد ذهب ببعض الفرص التى كانت متاحة للمؤلفة لو أنها لجأت إلى عنوان أقل دلالة وأكثر غموضا، ومع هذا فإن العنوان يظل يتميز بقدرته الفائقة على الإحاطة والتلخيص. الإحاطة بمضمون الكتاب، وبموضوع التجربة، والتلخيص التام لها.

(٢)

ومع أن الكتاب قد تضمن فى فصوله الأولى ترجمة ذاتية شبه كاملة لفترة تكوين صاحبته،

إلا أن القارئ يكاد يرى هذه الفصول الأولى وكأنها تقدم فحسب لحديث صاحبة التجربة عن هذه التجربة المثيرة والعميقة.

كذلك فإن من أبرز مميزات هذا الكتاب بروز إحاطة الدكتورة نادية رضوان بالتفصيلات الدقيقة فى كل تجربة من التجارب التى قدر لها أن تخوضها فى ظل تجربتها الكبرى، ومع هذا فإن هذه الإحاطة بكل ما تطلبته وبكل ما أثمرته تدفع بعض القراء إلى الظن بأن صاحبة الكتاب وهى الأستاذة الأكاديمية قد نجحت فى أن تقدم نسيجاً طويلا وكثيفا متضمنا مجموعة من تجارب الآخرين فى كل هذا المجال، إذ يصعب على كثير من القراء أن يتصوروا مريضة الصداع المزمن وهى قادرة على أن تصبر على كل هذه التجارب تسجيلا وتوثيقا حتى وإن صبرت عليها وهى تخوضها على أرض الواقع.

ونأتى إلى نقطة ثالثة مهمة، وهى قدرة الدكتورة نادية رضوان على الترتيب الموضوعى والعلمى للتجارب التى مرت بها فى بحثها عن حل لمعاناتها مع مرض الصداع المزمن، ونحن نعرف بالبداهة أنها لم تمض فى هذه الخطوات ولا المحاولات بنفس الترتيب المنطقى أو العلمى أو الموضوعى الذى عرضتها به علينا على صفحات هذا الكتاب، كما أننا نعرف بالبداهة والمنطق أن كثيرا من هذه التجارب قد تداخل مع بعضه من حيث الزمان، بل ومن حيث المكان، ولكننا نجد سيدة منظمة قادرة على تنظيم عرض أفكارها وتجاربها على نحو دقيق ومرتب، فإذا بنا نقرأ تجربة إنسانية خالصة على هيئة أقرب ما يكون إلى كتاب أكاديمى متميز لا ينقصه أى قدر من وضوح المنهج، ولا وضوح الفكرة، حتى مع صعوبة تناول موضوعه الشائك والشائق فى الوقت نفسه.

وبالإضافة إلى كل هذه المزايا الواضحة التى يتمتع بها كتاب الدكتورة نادية رضوان،وأنا أقصد بهذا الوصف تلك المزايا الطاغية على بعضها، بالإضافة إلى هذا فإننا نجد صاحبة التجربة وقد نجحت إلى أبعد حدود النجاح فى التعبير الشجاع والدقيق عن كل جزئيات تجربتها، وعلى الرغم من أنها تعرض حكمتها بعد أن وصلت إليها، إلا أنها تحرص من آن لآخر على أن تذكرنا أنها لم تكن تعرف الحكمة حين كانت تبحث عنها، ولم تكن قد وصلت إلى الصواب وهى تجاهد من أجل الوصول إليه، ومع هذا فإن ثقتها فيما وصلت إليه من أحكام واستنتاجات تطغى على قلمها حين تتناول ما حدث بالحكى أو الرواية أو التأمل، هى إذاً تتعامل مع الحقيقة التى اكتشفتها والتى توصلت إليها بأن تقص ما عرفته على أنه الصواب دون أن تزعم أنها كانت تعلم أن هذا هو الصواب، وهى تغرينا بأن تعترف بأنها كانت قاصرة وخاطئة ومخدوعة دون أن يبدو هذا إلا على سن قلمها فحسب، ذلك أننا نواجه بصاحبة تجربة ناضجة تمكن النضج من شخصيتها ومن قلمها على نحو ما تمكن من تجربتها على مدى المعاناة التى عاشتها ثم سجلتها.

(٣)

ونحن نرى فكرة المؤلفة من وصفها هذا الكتاب واضحة وضوح الشمس، وهى تلخصها فى تحذيرها قراءها من أن بعضهم قد يذهب ضحية لولوج هذا العالم الغريب الذى هو بلا فائدة، وفى الوقت نفسه لا يخلو من ضرر، وهى تلخص هذه الفكرة فى فقرة مهمة فى مقدمة كتابها تقول فيها:

«وإذا سلمنا بأن اقتحام عالم الغيبيات سوف يقف عند حد الدوران من الباب الدوار، الذى يعود بالمرء إلى نقطة البدء لهان الأمر، فلا ضير أن نستكشف ونتحقق ونحاول اقتحام العالم المجهول اللامرئى».

«إلا أن الخطورة تأتى من الاحتمالات القائمة بأن المرء خلال دوران هذا الباب قد يتعثر للحظة، فيسقط ويطحنه الباب أو يسحقه».

وتجمل المؤلفة حديثها عن هذه المخاطر الحقيقية والمحتملة وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة فتقول:

«فالجن على وجه الخصوص من خلال الظواهر الخارقة التى عايشتها، والتى قد يكون لها بعض التفسيرات العلمية التى لا نعرفها، لا يستفيد منه سوى الشخص الذى يسخره، حيث يحصل من ورائه على الأموال الطائلة فى المقام الأول، إذ أن ذيوع اسم ذلك الشخص وانتشار شهرته فى مجال قدرته على الإتيان ببعض الظواهر الخارقة يؤدى إلى تدفق الناس وارتمائهم على أعتابه، والذى يؤدى بدوره إلى مكاسب مادية طائلة».

«أما الاستفادة الأخرى المباشرة لمن يستعينون بالجن، أو من يدعون القدرة على تسخيرهم له، فهم من خلال استعراض قدراتهم الإعجازية يصبحون أكثر قدرة فيما يختص بإخضاع النساء لهم، لإشباع رغبتهم البهيمية، حيث يستخدمون فى ذلك عمليات الإيحاء والإيهام والتنويم المغناطيسى، إلى جانب اللجوء فى بعض الأحيان إلى سلاح التهديد بالإيذاء وتسليط الجن، الذى يكون سيفا مصلتا على رقاب النساء لإخضاعهن جنسيا، أو تكديس الثروات من ورائهن».



وتعترف المؤلفة بأن تجربتها فى هذا المجال كانت ذات طابع خاص، لأنها بدأتها من مركز قوة ثقافى مكنها من أن تحكم على الأمور بما لا يتوافر لغيرها من خلفية ثقافية قادرة على

الوصول إلى الحقيقة، وهى تعترف أن عوامل القدر هى الأخرى بالإضافة إلى الثقافة قد مكناها أو ساعداها على هذا النجاح:

«فأنا لم ألجأ إلى الغيبيات إلا بعد أن سدت فى وجهى كل السبل العلمية والطبية، وبعد أن نهشنى العجز بأنيابه، وتراجعت فلول الأمل أمام جيوش اليأس، وبعد أن تقلصت مساحة الصحة أمام زحف المرض وأنا أتجرع أنات الألم الأخرس».

«وبالإضافة إلى ذلك فإن مستوى تعليمى وخبراتى وتجاربى فى الحياة أمدتنى بقدر ما من القدرة على التمييز بين النصب والتحايل والادعاء، وبين بعض الظواهر الإعجازية التى يعجز العلم والمنطق والشكوك عن إنكارها».

«هذا إلى جانب أن تصاريف القدر مضافا إليها قدراتى الفطرية مشفوعة بتجاربى الكثيرة فى العديد من المجالات، أمدتنى بالقوة والقدرة على مواجهة المواقف الخطيرة والصعبة التى قد لا ينجو منها شخص آخر، مما أتاح لى فرصة النجاة من الفخاخ والشراك الخداعية التى يقع فيها الكثيرون من البسطاء».

(٤)

وتطلعنا صاحبة هذا الكتاب الدكتورة نادية رضوان على ما اكتشفته من ميلها المبكر إلى الانفراد من أجل التفكير بعيدا عن المجموع، وهى تجهد ذاكرتها حتى تنجح فى الحصول على كثير من المظاهر التى تدعم بها وجهة نظرها فى تاريخها هى نفسها، وهى تصل ـ على سبيل المثال ـ إلى تذكر تفاصيل تلك الساعات التى كانت تقضيها تحت سرير أمها:

«كان فراش أمى المرتفع ذو الأعمدة المعدنية هو الفراش الوحيد فى البيت الذى يسمح لى بالجلوس أسفله وأنا منتصبة القامة دون أن يصطدم رأسى بألواحه الخشبية، كان هذا هو صومعتى التى أعتكف فيها بالساعات وقد حجبتنى ملاءته المدلاة على الجانبين عن مجال رؤية الآخرين من سكان البيت، وأظل وقد لف الحجرة الصمت والسكون أهمس فى وجل بين فينة وأخرى مستعينة بإحدى الجمل التى تتكرر فى الحواديت».

ويبدو للقارئ أن الدكتورة نادية رضوان كانت فى الوقت نفسه حريصة علي أن تنفى عن نفسها صفة الانطواء أو الاكتئاب أو الحزن المبكر، ولهذا نراها حريصة علي الإفاضة فى الحديث عن حرصها الشديد على الاندماج فيما أمكنها الاندماج فيه من المجتمعات، وهى تورد مثالا على ذلك حرصها على ارتياد حفلات الزواج فى الكنيسة المجاورة لبيتهم القديم فى حلوان:

«وكان انبهارى وإعجابى بجو الأفراح والاحتفالات أقوى من خوفى من عقاب أبى، فما من مرة ذهبت لشراء حلوى أو أى شىء لأمى من ذلك الدكان الصغير، الذى كان علىّ أن أمر بباب الكنيسة لأصل إليه، وما من مرة مررت أمام الكنيسة فى الأيام التى كانت تقام فيها الأفراح وبعد أن أقف لعدة دقائق أراقب جموع المترددين على الكنيسة، إلا وأجد قدمىَ المتمردتين تقودانى إلى الداخل، وأغرق بين طيات الملابس الجميلة، ونغمات الموسيقى وأضواء الثريات والشموع، وأقع فى شبه غيبوبة تحجب عنى مدى قلق أبوى لغيابى الطويل».

«وأستفيق فجأة من غيبوبتى وقد امتدت يد مربيتى تقبض على ذراعى فى عنف، تجرجرنى وتسحبنى وتدفعنى».

«ويطالعنى وجه أبى الغاضب، وتنسكب كلماته الهادرة الثائرة فى ركبتى المرتعشتين، ويتلقف العصا من يد أحد أخوتى، ويتعاون الجميع صغارا وكبارا فى طرحى على الفراش أو أحد المقاعد، ويمسكون بكلتا قدمى ليقيدوا حركتى، ويرفعانهما فى الهواء حتى يكادوا «يشقلبونى» لأتلقى على باطن قدمى واحدة من تلك «العُلق الساخنة»، وأبالغ فى الصراخ بأعلى صوتى رغم عدم قسوة الضربات وأن أردد:

«حرمت يابابا.. آخر مرة يابابا.. مش حاروح أفراح تانى يابابا».

(٥)

ومن ناحية ثالثة تحرص الدكتورة نادية رضوان على أن تؤكد بعدا ثالثا فى شخصيتها المبكرة، وهو ميلها الغريزى إلى القراءة والثقافة، وهو ما جعلها ـ على سبيل المثال ـ ترتبط بجارة اكتشفت وجودها وهى السيدة مارى شكيب التى كانت تبلغ فى ذلك الوقت مائة عام من العمر، لكنها كانت تملك القدرة على جذب نادية إليها بما كانت تملكه من ذخيرة كبيرة من كتب محببة إلى هذه الطفلة الصغيرة المتطلعة، ونحن نرى نادية رضوان وهى لاتزال حتى لحظة كتابتها لهذه المذكرات ممتنة كل الامتنان لهذه الشخصية المؤثرة:

«وأحببتها...»

«أحببت هذه السيدة العجوز».

«أصبحت أفضِّل صحبتها على صحبة أصدقائى من الأطفال خلال السنتين التاليتين».

«وظللت معها حتى ماتت بعد أن احتفلت بعيد ميلادها الرابع بعد المائة».

وفى هذا الإطار تحكى الدكتورة نادية رضوان كيف أنها قضت ثلاثة أشهر من طفولتها ترعى هذه السيدة فى أخريات أيامها حين أصيبت بكسر فى الحوض:

«وتفرغت لها الشهور الثلاثة التالية تقريبا، أمر عليها بعد عودتى من المدرسة، وما إن ترانى وتطمئن إلى أننى استقررت فى مقعدها الهزاز بجوار الفراش، وقد انشغلت بواجباتى المدرسية، حتى تروح فى سبات عميق، وما إن تستيقظ وتفتح عينيها وترانى بقربها، حتى تمنحنى ابتسامة حانية مؤثرة، وتغمض عينيها وتمضى فى إغفاءة أخرى عميقة».

«وعلمت من أمى أن الكسور لا تلتئم بالنسبة لكبار السن خاصة فى منطقة الحوض، وأن سجن الفراش لن يعقبه سوى سجن القبر، وتعودت أن أقرأ لها كل ما كان يصل إلى يدى، وكانت تصغى إلىّ وأنا أقرأ لها ما أحفظه من قرآن رغم أنها مسيحية، حتى يشفيها الله».

«وحملت لها أفضل ما كانت تطبخه أمى، وتعلمت أن آنس للفئران الصغيرة وهى تدور فى أرجاء الغرفة وتمرح فوق قطع الأثاث وأنا فى انتظار انتهائها من إغفاءاتها».

«ولم أعد أخاف المجهول واللامرئى».

«ولم أعد أخاف الجن والعفاريت والشياطين وأنا أتجول فى أنحاء القصر المظلم المهجور، فقد علمتني ألا أخاف، كما علمتنى الأميرة العجوز أشياء.. وأشياء.. وأشياء».



وفى موضع آخر من ذكرياتها عما حفلت به فترة طفولتها يتبدى لنا ما تحرص نادية رضوان على تأكيده من أنها عاشت ونشأت وقد تمكن منها عشق القراءة،ويأتى هذا الحديث فى سياق حديثها عن أحد أقرانها:

«ولم يكن يبارينى فى القراءة ممن هم فى مثل سنى سوى شخص واحد استطاع أن يتفوق علىَّ فى كم ونوعية الكتب التى نقرؤها، والتى تتفق مع أعمارنا التى لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة».

«كان هذا الشخص هو «على» أصغر أبناء الشيخ حسنين مخلوف، ابن الجيران الذى أصبح مهندسا فيما بعد».

«كنت أحسده، ففى منزله رأيت أجمل مكتبة وقعت عليها عيناى آنذاك والتى لم أر مثيلا لها فى أى بيت من البيوت التى سبق أن دخلتها، (بما فيها) بيت الشيخ عبداللطيف دراز الذى يلى بيت الشيخ مخلوف مباشرة، والذى كانت مكتبته لا تعطى حيزا كبيرا لكتب أمثالنا من الصغار».

«وكان «على» يحن علىَّ أحيانا ويقرضنى بتأفف «وقرف» بعض الكتب ليتخلص من

الحاحى ومطاردتى له، فقد كان لا يعجبه انشغالى بالكتب والقراءة التى هى من نصيب واختصاص الصبيان والرجال، فى الوقت الذى كان على فيه «كبنت» أن أهتم باللعب بالعرائس وشغل البيت».

(٦)

ونأتى إلى الواجهة الرابعة من واجهات شخصية الطفلة نادية رضوان، وتتمثل هذه الواجهة فى تلهفها المبكر على معرفة ما يدور حولها مما يحيطه أصحابها بالغموض، ويتمثل هذا فى حرصها الدائب على إدراك ما كان يدور فى جلسات لتحضير الأرواح تنعقد فى بيت جارهم الشيخ رافع حفيد رفاعة الطهطاوى، ومع أنها لم تفلح فى النفاذ إلى هذه الجلسات إلا أنها ظلت تحتفظ بشعور متأجج للوصول إلى ما يمثل الحقيقة فى أمر هذه الجلسات:

«... كنت أعرف أن خادم الأسرة العجوز يقدم المشروبات للمجتمعين داخل الحجرة، بين وقت وآخر من خلال باب حجرة الضيوف الداخلى المفضى إلى صالة البيت الرئيسية».

«وأدخل أعرض عليه خدماتى وأنا أدعى الشهامة وأنا أقول:

«ياعم محمد، اقعد إنته استريح، وأنا حادخل القهوة، ما تخافش، والله العظيم أنا باعرف أشيل الصينية».

«ويشير لى بيده رافضا دون أن ينطق، وأظل أحوم حوله، وما إن يفتح الباب حتى تسبقنى رأسى وبسرعة البرق داخل الحجرة، عسى أن أرى روحا من الأرواح وقد تربعت على أحد المقاعد بين الحاضرين».

«ويصفق عم محمد الباب فى وجهى بمجرد دخوله الحجرة، وأنجح دائما فى الارتداد بسرعة الصاروخ، لأنقذ وجهى من هذا الباب اللعين».

«ولم أكن أيأس..».

«كنت أعود مرة أخرى إلى الشرفة الخارجية، وأضع أذنى على باب الحجرة المغلق، عسى أن تكون أصوات الأرواح أكثر تميزا من أصوات الآدميين، فتلتقط أذناى بعضا مما يقولونه، وفشلت».



وينمو الشغف بعالم الروح عند نادية رضوان حتى تنجح هى وشقيقتها فى تحضير الأرواح بناء على المعلومات والخطوات التى قرآها فى مقالات الأستاذ أنيس منصور (وهى

مقالات كانت ذائعة الصيت فى ذلك الوقت كانت تحوى التفصيلات الكفيلة بتمكين الراغبين من تحقيق رغبتهم فى هذا الصدد)،وتقدم نادية رضوان كثيرا من ملامح تجربتها بالتفصيل ولكننا نكتفى بتلخيصها لهذه التجربة حيث تقول:

«كنت فى نحو السادسة عشرة من عمرى عندما نجحت فى تحضير الأرواح بعد قراءتى لواحد من مقالات أنيس منصور عن كيفية استحضارها».

«نعم، اتصلت بالأرواح، ودارت بيننا حوارات طويلة وشائقة».

«كانت لى معهم أيام، وكانت لى معهم صولات وجولات».

«وفى يوم أسود توقفت فجأة عن استحضارها.. عندما أصرت الروح أن تقتلنى بالسم».

وبوسع القارئ أن يعود إلى كتاب الدكتورة نادية رضوان ليقرأ تفصيلات هذه الواقعة.

(٧)

وعلى الرغم من التخصص الذى يصمم عليه عنوان هذا الكتاب، إلا أننا نجد فيه كثيراً من الملامح المكتملة لعناصر الحديث عن السيرة الذاتية، وعلى سبيل المثال تنجح نادية رضوان فى أن تقدم تصويرا دقيقا وموحيا لعلاقتها بوالديها وبجدتها، وهى تخصص فصلا طويلا للحديث عن والدها وشخصيته وحياته ومهابته وانضباطه، وطبيعة علاقة الخوف التى ربطتها به، وكيف كان هذا الأب يدير أمر أسرته، وهى تفصيلات كثيرة ودقيقة وموحية لكننا نكتفى منها بحديثها عن التغيير الذى طرأ على شخصيته قبل وفاته فى سن الأربعين، وهى فى واقع الأمر تتفوق فيما أوردته من حديث عن نهاية هذا الوالد وعلاقة هذه النهاية بمستقبل أختها الكبرى ومستقبلها هى:

«كان أبى طويلا عملاقا وسيما أنيقا، وكنت أراه قويا، أقوى رجل فى العالم، أقوى من كل شيء، وكان الألم يعتصر قلبى عندما كانت تهاجمه نوبات المغص الكلوى فى أيامه الأخيرة، وعندها أدركت أنه أضعف من أن يقاوم الألم والمرض».

«وآمنت بعد أن مات أن الموت أقوى من أى شيء، أقوى حتى من أبى».

«سمعته مرة يتناقش مع أمى فى غضب عندما لاحظ أن أختى الكبرى بدأت ترتدى «السوتيان» الذى أصبح يبرز نهديها».

«وسمعته مرة أخرى يحتج على أنها تحدد وسطها بحزام عريض يؤكد نحافة خصرها،

وعرفت فيما بعد ـ وبعد أن رحل ـ أنه لم يكن فى الحقيقة غاضبا، بل كان خائفا.. خائفا على الأنثى الكامنة داخل ابنته الكبرى، التى تتحين فرصة الخروج من مكمنها ليتلقفها رجل آخر، رجل غريب».

«وتغير أبى كثيرا بعد زواج أختى الكبرى، وهى فى السابعة عشرة من عمرها».

«كانت قد دخلت الجامعة لتوها عندما بدأت الأحاديث المحرمة تدور بين جنبات بيتنا، أحاديث الحب والزواج، فالعريس المتقدم لأختى «لقطة» ابن باشا، ملهوف عليها، متيم بها، وأختى الجميلة التى ربما كانت من أجمل بنات حلوان فى ذلك الوقت صامتة، تنتظر قرار أبى ولا تجرؤ على الإعلان عن رأيها فى العريس رغم أنها مشدودة إليه، رغم أنها تريده».

«ورضخ أبى أخيرا تحت ضغط الوسطاء، وفى ظل الخوف أن يضيع عليها فرصة عمرها، ووافق على العريس، وأدرك أبى أنه لن يستطيع الاحتفاظ بأى من بناته إلى الأبد».

«وتغير أبى... تغير كثيرا».

«تركنى ألبس «السوتيان»، وتركنى أحدد خصرى بالحزام العريض».

(٨)

وتنجح نادية رضوان فى أن ترصد ثلاث مراحل مهمة فى حياة أمها، وهكذا فإنها لا تقدم لنا حياة هذه الأم من منظور واحد أو لقطة واحدة أو وجهة نظر واحدة، لكنها تلخص حياتها وتوجهاتها فى هذه الحياة، وتنجح فى الوصول إلى تطور شخصية هذه السيدة، ومع أن نموذج والدتها ليس بالنموذج الشائع فى كتب التربية والاجتماع وعلم النفس، إلا أنه فى حقيقة الأمر نموذج متكرر وشائع بين سيداتنا وأمهاتنا المصريات، ولكنه لم يحظ ولا يزال لا يحظى بمثل هذا التحليل الدقيق، ولكن نادية رضوان تجيد التعبير عنه وعن تحولاته بقدرة فذة لا تتأتى إلا لعالمة اجتماع مثقفة من هذا الطراز النادر.

تصف نادية رضوان والدتها وحياتها وتطوراتها فتقول:

«لا تعى ذاكرتى مطلقا أن خرجت أمى ولو لمرة واحدة دون أن تكون فى صحبة أبى، ولا تعى ذاكرتى بالمرة أن زارنا أحد رجال العائلة، حتى ولو كان فى صحبة أسرته.. إذا كان أبى غائبا عن البيت».

«حتى عمى لم يكن يدخل بيتنا وأبى غائب عنا، وكان إذا طرق الباب وقيل له إن أبى غير موجود، انصرف لتوه، ليجلس علي أحد المقاهى أو يتجول فى الشوارع حتى عودته».

«ولم تكن أمى تزور أى جارة لنا، ولكن عددا قليلا من الجارات كن يترددن عليها بين الحين والآخر».

«استسلمت أمى بكاملها لأبى، ولم تتمرد مطلقا عليه، بل استمتعت باستسلامها له، واستمتعت بأن تتوارى فى ظله».

«ومات أبى ولم تكن قد تخطت عامها الخامس والثلاثين، وبموته غاب عنها ظله، وغابت عنها حمايته».

«وأجبرتها الظروف ومسئوليات الأبناء الخمسة الباقين تحت جناحها بعد زواج أختى الكبرى على أن تواجه العالم الخارجى المجهول، العالم الذى لم تكن تعرف شيئا عنه، واصطدمت به وذاقت مرارته، ولكنها لم تقع ولم تنكسر، حملتنا جميعا على جناحيها، حتى انتهت من كتابة آخر سطر فى سجل عطائها».

«والآن وقد قاربت الثمانين من عمرها أراها وأكاد لا أعرفها».

«عندما خلا البيت منا جميعا بزواجنا، بدأت أمى تنكب على الاطلاع والقراءة خاصة الدينية منها».

«وبدأت تغزل خيوط حياتها من جديد، ويالها من حياة».

«تحولت أمى من خلال التدين الشديد إلى امرأة أخرى متمردة متطرفة أو تكاد».

«أصبحت أمى بين أهل الحى المصلحة الاجتماعية، والمرشدة الأسرية، والموجهة الدينية، تحولت إلى امرأة صاحبة رسالة، لم نعد نحن رسالتها، فقد نفضت يديها منا، أصبحت رسالتها الجديدة هى الدين والوطن وذوو الحاجة، لم تعد ساعات النهار تكفيها رغم أنها تستيقظ مع أذان الفجر».

(٩)

ونأتى إلى التأمل الداخلى لشخصية صاحبة التجربة على نحو ما قامت به هى نفسها، ونحن نجدها وهى توحى إلينا بحقيقة أنها اكتشفت قدرتها على التمرد وفرض الإرادة الذاتية فى مرحلة مبكرة من حياتها مع أنها لم تكتشف هذه الحقائق إلا حين قررت أن تجرى العملية الجراحية التى كانت فى حاجة إليها رغم اعتراض والدتها وشقيقها الكبير:

«كان من أقسى العقوبات التى فرضت علىّ والتى توصل إليها التحالف بين أمى وأخى،

عندما أتمرد على أوامرهما، وعندما أريد أن أتحلل من قيودهما، أن ترفض أمي وضع ملابسي المتسخة مع ملابس الأسرة، لتقوم بغسلها المرأة التي كانت تتردد على بيتنا للقيام بهذه المهمة مرتين أسبوعيا. وكنت أشعر أنني أنتصر على أمي وأخي وأنا أنتصر على أوساخ ملابسي وقد انكببت على «طشت الغسيل» بعد أن يخلو دولابي تماما من أي ملابس نظيفة للخروج».

«ورغم الآلام التي كانت تهاجم ذراعي مع كل هجمة من يدي الضعيفتين على ملابسي المتسخة، فقد كنت أبتلع آلامي وأدفنها، فملابسي النظيفة هي عصاي التي أتوكأ عليها للانطلاق إلى رحلتي المحببة، رحلة المستشفى».

«وأصبحت الآلام لا تطاق، سواء كنت أمام «طشت الغسيل»، أو ممسكة بفرشاة الرسم رغم إيماني بالافتقار إلى الموهبة، فقد كنت أهوى نقل وتقليد اللوحات الزيتية وأتقن مزج الألوان، وأصبح الإمساك بالقلم وأنا أخط خواطري أو أكتب واحدة من قصصي القصيرة كواحدة من أحب هواياتي، يسبب لي نوعا من الألم الذي لم أعد أقدر على تحمله».

«وجرجرتني الآلام في رحلة طويلة تنقلت فيها بين الأطباء والفحوصات الطبية، واتضح أنني أعاني وجود ضلعين زائدين عند الرقبة، وأنهما يضغطان على الأعصاب المتصلة بالذراعين، وقرر الأطباء أن الحل هو إجراء عملية جراحية خطيرة ونادرة لاستئصال هذه الضلوع، ولم توافق أمي على إجراء العملية ولم يوافق أخي، وتمردت عليهما، رفضا أن يوقعا إقرارا بالموافقة على العملية، وتمردت على رفضهما، ولجأت إلى عمي وناقشته، وأقنعته، وجرجرته معي إلى الأطباء والمستشفى، وجرجرته إلى التوقيع على الإقرار».

«ودخلت حجرة العمليات، وخرجت، ولم تكن أمي في انتظاري، ولم يكن أخي في انتظاري، عقابا لي على تمردي، كانت في انتظاري وحدة ووحشة وآلام ما بعد العملية التي لا تطاق، وكان في انتظاري بعد ذلك الشفاء بحمد الله، وتخلصت من الألم عندما تمردت عليه، وعندما تمردت على أمي وأخي».

(١٠)

على أن أقوى مواقف الإرادة الذاتية التي تكشف عنها أحاديث نادية رضوان على مدى فصول هذا الكتاب يتمثل في اختيارها لزوجها من بين مَنْ عرفتهم، وهي تروي في سعادة بالغة كيف أنها استطاعت التخلص من الخطاب الذين فرضوا عليها، ثم تروي كيف أنها قد استطاعت النجاح في الاستئثار بمن تمنته بالفعل زوجا، ولا تجد حرجا أن تجعل عنوان هذا الفصل «وشددته إلى باب المأذون»، وهي تروي التجربة بكل صدق وجرأة فتقول:

«رأيته للمرة الأولى بعد عدة شهور من التحاقى بالكلية، وكنت لا أزال أحمل ضفيرتى المعقودتين ووجهى البرىء المغسول».

«كانت كليتنا قد نظمت رحلة إلى الحديقة اليابانية بحلوان، وانتابتنى سعادة غامرة [أن أكون] بين صديقاتى وزملائى، ولأول مرة خارج أسوار الكلية، فقد كانت من بين الممنوعات الاشتراك فى أى رحلة جماعية»..

«ولفت نظرى أناقته وقد ارتفعت قامته بين مجموعة من الطلبة والطالبات، وسألت واحدة من زميلاتى وأنا أشير إليه:

«الولد الطويل اللى هناك ده فى قسم إيه؟».

«وعلمت منها أنه ليس «ولد»، وإنما هو معيد فى أحد أقسام الكلية».



وتستأنف نادية رضوان ما ترويه فتذكر أن المدخل الذى اتخذه «زوجها» للحديث إليها فى أول مرة كان هو شكرها على واجب الضيافة الذى قامت به والدتها نحو أبناء الكلية الذين جاءوا يزورون الحديقة اليابانية المجاورة لمنزلهم:

«وجاءت مربيتى تحمل صينية كبيرة مليئة بالأكواب الفارغة، ووراءها جاء أخى الذى يصغرنى يحمل فى يديه برادين عملاقين مليئين بالشاى، فلم يكن بيتنا يتسع لهذا العدد الغفير، ولم يكن من اللائق كما قالت أمى عدم تقديم التحية الواجبة».

«ورأيت «الولد الطويل» قادما نحوى وكوب الشاى فى يده، ليشكرنى بعد أن عرف مصدر هذا الشاى، وتحدثنا معاً للحظات، وعلم منى أننى من سكان حلوان، وأشرت له من مكاننا إلى بيتنا الذى كان فى مواجهتنا حيث كنا نقف داخل الحديقة، وقطعت حديثنا فتاة أكبر منى سنا وأكثر منى أناقة وأكثر اهتماما بوجهها ومساحيقها وتسريحة شعرها، وتركته لها وانصرفت إلى صديقاتى، وعاد إلىَّ بعد دقائق وأنا بين مجموعة من الزملاء لنستكمل الحديث الذى كنا بدأناه، سألنى عن مشوارى اليومى من حلوان إلى كليتى فى القاهرة، وخط سيرى الدراسى، اهتماماتى، هواياتى، و... و...».

«والتقطت كثيرا من الأشياء المشتركة، والاهتمامات المتبادلة، وبهرنى أسلوبه فى الحديث، كما بهرنى مظهره، وأخذتنى ثقافته ومعلوماته التى خيل إلىَّ أنها لا تنتهى، والتى كانت نتاجا للأعوام التسعة التى تفصل بين عمرى وعمره».

«وعادت نفس الفتـاة، الفتاة الأكثر أناقة، والأكـثر لفتا للنظر وانتزعـته من بيننا وكأنما هى صاحـبة حق فيـه، وتركته لهـا، وعدت أتنقل مرة أخـرى بين صديقاتى، ونسـيت تماما «الولد الطويل».

«ونسيت الفتاة الأكثر أناقة، والأكثر لفتا للنظر».

«وتناهى إلى سمـعى بعد بضع ساعات صـوت فتاتين تتحـدثان وأنا أقف خلف سور من الأشجار المتشابكة مع بعض صديقاتى، والتقطت أذناى الحديث:

«قالت إحداهما:

«شكله كده إنه حيطير من إيدك، شفتيه وقف قد إيه مع البنت اللى جابت الشاى؟».

«وردت الثانية بصوت مفعم بالسخرية والاستهزاء:

«إنتى باين عليكى بتـخرفى، مش ناقص إلا البنت المفـعوصة أم ضـفاير بتـاعة سنة أولى، تروح جنبى فين دى؟».

«وكان هذا الصوت صـوت الفتاة الأكثـر أناقة، والأكثر لفـتا للنظر، وكنت أنا هذه البنت المفعوصة أم ضفاير».

«وقررت المفعوصة أم ضفاير أن تتحدى الأناقة، ومساحيق التجميل، والشعر المصفف».

«وقد كان.. شددته باقى النهار بأحاديثى عن الأدب والأدباء، وعن الشعر والشعراء، وعن محاولاتى فى الكتابة القصصية، وغرامى بالرسم والفن».

«وشددته بعد ذلك إلى باب المأذون».



وعلى الرغم من كل هذا الحـديث الطويل فإن صاحـبة هذه المذكـرات نادية رضوان على مدى صفحات الكتاب تبخل علـينا باسم هذا الرجل الذى حملت اسمه!! على أنها لا تبخل باسم زوجها فحسب، لـكنها تبخل أيضا عن عمد (لا عن تجاهل) بذكر اسم أخـتها الصغرى التى خاضت مـعهـا تجربة تحضـير الأرواح وتضع فى صـفحة ٧٧ نقـاطا مكان هذا الاسم!! ولست أدرى هل كان هذا بناء على طـلب زوجها وأختـها أم لا. بل إنا لا نطالع اسمى ابنيـها أشرف وشيرين إلا فى صفحة ١٤٢ وفى عجالة سريعة.

(١١)

ومع كل هذه الثقة الزائدة والتمرد اللذين تصف نادية رضوان نفسها بهما وتقدم لنا كل ما أمكنها من تصوير لاصطباغ حياتها بهذين الخلقين، فإن نادية رضوان ترفض بكل ما أوتيت من قوة أن تتقبل وصف الأطباء النفسانيين للصداع الذى أصيبت به بأنه مرض نفسى:

«... وبدأت أضيق بأطباء الأمراض النفسية وحاولت أن أتمرد عليهم».

«... ناقشتهم، حاورتهم، اعترضت على تحليلاتهم وتفسيراتهم، فأنا آخر من ينطبق عليه مصطلح «مريض نفسى»، حياتى مليئة بالأنشطة والهوايات المتعددة، داخلى يحيا فى توافق وتواؤم مع خارجى، أحب الحياة وأنفتح عليها بلا حدود، لا شىء يقف أمام تحقيق طموحاتى وإرادتى، أحب أن أحيا بين الناس وأن أحيا لهم، ياعالم، ياهووه، أنا لست مريضة نفسيا، ولم يستمع لي أحد، ولم يصدقنى أحد».

«وأقنعنى أطبائى أن الذى يعانى الاكتئاب النفسى لست أنا، بل هو جهازى العصبى اللاإرادى، ولعنت هذا الجهاز اللعين الذى يتحكم فى إرادتى».

ونرى صورة أخرى لهذا التمرد فيما ترويه نادية رضوان عن شعورها تجاه بعض السيدات البسيطات اللاتى كن يعانين مثلها فلجأن إلى أحد المتصلين بعالم الجن فى المرج، وهى تصف شعورها فتقول:

«ومررت بالنساء البسيطات المغلوبات على أمرهن، وشعرت بالأسى من أجلهن ومن أجلى، فقد تساوينا فى عجزنا عن حل مشكلاتنا على اختلاف أنماطها، وقهرتنا الظروف التى لم نستطع التمرد عليها والهروب منها، وأدت معاناتنا وعجزنا عن قهر هذه الظروف إلى إلقاء التبعة على تلك العوالم المجهولة لنا، وعلى الكائنات اللامرئية الخرافية، وألقى بنا هذا العجز والقهر بين أيدى من أصبح النصب والاحتيال سلعتهم الرائجة».



ويتكرر هذا الشعور بالرفض (أو الهرب من شبهة المرض النفسى) فى مواضع عديدة منها حديثها عن بركات قسيس الكنيسة المعلقة حيث تقول:

«وعلمت أن هناك من ينظم الرحلات للقادمين من خارج القاهرة ممن قهرهم المرض والعجز عن مواجهة وحل مشكلاتهم، وكأنهم مجموعة من الحجيج، يستوى فى ذلك

الوجهاء والبسطاء، المسلمون والمسيحيون، حملة الدكتوراه من المساكين أمثالى والذين لا يعرفون الألف من «كوز الذرة»، وكيف أنهم تسلحوا جميعا بسلاح الإيمان بالغيبيات والمعجزات، لمواجهة ذلك العجز والقهر الذى يمارس سطوته على مقدراتهم وحياتهم وصحتهم».



وتجد نادية رضوان فى الواقع ما يؤيد فكرتها هذه فى ذلك اللقاء الذى حدث فى مقر حزب الأحرار مع طالبة شابة، ونحن نقرأ فى حديثها إلى هذه الشابة نوعا من أنواع البوح المصمم على رفض فكرة ما والبحث عن فكرة أخرى بديلة:

«وتحدثت مع الفتاة الجميلة طالبة الهندسة ذات الصوت اللطيف الهادئ، والنبرات المحببة بين بعض النوبات والأخرى، ووجدتها على قدر من الثقافة والذكاء، حيث كان عقلها العلمى يرفض كل ما يتصل بالتحليل غير المادى وغير العلمى لحالتها، إلا أن عجز الأطباء عن علاجها أدى إلى اللجوء للغيبيات، وأنها على استعداد لخوض أى تجربة مهما كانت شاقة وعسيرة للعودة إلى حياتها الطبيعية».

«ووجدتنى أردد فى سرى فى أسى: «ومين سمعك!!».

(١٢)

أما موقف الدكتورة نادية رضوان من الذين يمارسون العلاج الروحى فيبدو وكأنه موقف براجماتى لا يستند إلا إلى نجاح النتيجة فحسب، فهى تصف كلاً منهم وصفا دقيقا، وتبدو محايدة فى تقييمها للتجربة، لكنها لا تمانع فى أن تكرر ما تفعله من أن تسحب الوصف بفشل التجربة على صاحبها.

وعلى مدى تجاربها الممتدة مع العشرات من المتصلين بعالم الأرواح فإننا لا نجد ثناء لنادية رضوان إلا على قلائل منهم يأتى فى مقدمتهم الشيخ (ع)، وهى تحاول أن تقدم سبب هذا الثناء عليه وكأنها شعرت أن الثناء يخالف منهجها فى التقييم وفى الحديث وهى تقول:

«ورغم أن الشيخ (ع) لم ينجح فى علاج الصداع الذى أعانيه رغم محاولاتى المتكررة، فقد ظللت أتردد عليه بين الحين والآخر، سواء من أجل التسامر معه ومع أفراد أسرته، أو من

أجل عـلاج بعض الحالات التى يهـمنى أمر أصـحابهـا، ومن بينها حـالة ابن شقـيقـتى، ذلك المهندس الوسيم الذى حير الأطباء».

«كان ابن شقـيقتى فى دورة تدريبية بأمـريكا لعدة شهور عندما بـدأ يعانى حالة من القىء المستـمر، وعرض نـفسه على الأطبـاء هناك ولم يتوقف القىء، وعـاد إلى القاهرة ليـستكمل جـولتـه بين الأطبـاء، ولم يتوقف الـقىء، وانتهـى به المطاف إلى أن يسكن فـراش المرض فى المستشفى ليـحيا على المحاليل، وأخذته إلى الشيخ (ع)، وتكررت نفس القـصة التى شاهدتها بعينى من قبل عندما أخرج الشـيخ الجنى من جسد صديقتى، ونجح فى طرد الجنى الذى تكور فى حنجرة ابن شقـيقتى كالتـفاحة قبل مغـادرته لجسده، وخرج من بيت الشـيخ إنسانا جديدا مختلفا، لم يعد إلى المستشفى لكنه عاد إلى البيت».

وهى تتساءل فى النهاية:

«هل هى قوة إيحائيـة خارقة كان يتمتع بهـا الشيخ (ع) أم أنها نفحة ربانية خـصه بها الله سبحانه وتعالى؟».



بيد أن الدكـتورة نادية رضوان تـعود فتـقدم لنا سبـبا وجيـها لهذا الثناء المـتدفق على هذا الشـيخ، وفى هذا الإطار فإنهـا تروى تجـربة الطالب الذى أقـعده المرض وعـجز الأطبـاء عن علاجه، حتى إذا ما ذهب إلى الشيخ (ع) شفى مما كان يعانيـه، وهى تجربة حقيقية لأنها كانت هى التى أشارت على الـطالب وأسرته بالشيخ (ع)، ومع هذا فـإنها لا تنسى هذه التـجربة من التحليل العلمى والتأمل وهى ترويها معقبة عليها بقولها:

«رغم مرور عدة سنوات على ما حدث، فـإننى مازلت أتساءل دون أن أحصل على إجابة عن تساؤلاتى: هل كان شـفاؤه على يد الشيخ (ع) معـجزة إلهية، كانت الآيـات القرآنية التى رددتها شفـتا الشيخ (ع) طرفا فيهـا؟ هل كان عامل الإيحاء بأن الشيخ صـاحب كرامات، هو العامل الأساسى فى شفاء ذلك الشاب؟ هل كـان شفاء ذلك الشاب فى تلك الليلة على وجه الخصوص من قبيل المصادفة فقط ولا شىء آخر؟».

«أسئلة كـثيرة دارت فى ذهنى ومازالت تدور.. أسـئلة ستظل بلا إجابة، سـتظل بلا إجابة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها».

(١٣)

أما أكثر مَنْ حظيت بإعجاب نادية رضوان من بين ممارسى العلاج الروحانى فكانت «مسز ديفنى» ولهذا الإعجاب مبرراته من وجهة نظر صاحبة التجربة:

«كان علاج «مسز ديفنى» يكاد لا يختلف عن علاج الآخرين فى جمعية بريطانيا العظمي، سوى فى الجزئية الخاصة بالاستلقاء على الفراش والمرور بيديها فى الهواء حول جسدى كله من رأسى إلى أخمص قدمى، وإن كانت قد أعلنت أن هذه الجلسة ليست من أجل العلاج، وإنما هى جلسة للكشف على كل جسدى لمعرفة حالتى الصحية والمناطق التى تستدعى العلاج، وظلت الحرارة المنبعثة من يديها فى أثناء العلاج تنبئنى بمناطق جسمى التى تمرر حولها يديها، بينما انشغلت عنها بعد أن طال علاجها بتأمل الصور المعلقة على الحوائط يمينا ويسارا حتى تنبهت فجأة إلى حرارة يديها وقد انعكست أسفل منطقة البطن، حيث طلبت منها أن تركز فى تلك المنطقة، لأننى كنت أعانى بعض المشكلات السابقة، حيث وجدتها تعلن بعد ثلاث أو أربع دقائق أن المبيض الأيمن سليم وكذلك المبيض الأيسر، ولا توجد أى مشكلات بهما، وأنها قد اكتشفت أن الرحم قد تم استئصاله».

«وتعجبت لتلك القدرة غير المفهومة فى استجلاء تلك المناطق الخفية، حيث وجدت أنها فرصتى الذهبية لإجراء كشف عام على جسدى، وفى الوقت نفسه التأكد من قدرات ومواهب مسز ديفنى الروحية، حيث طلبت منها أن تقوم بالكشف على أكتافى لأننى أعانى بعض الآلام فى واحد منهما».

«وإذا بيديها تدوران حول أكتافى جيئة وذهابا بحرارتهما الشديدة لتعلن فى ثقة أن كتفى وذراعى الأيمن [تقصد: اليمنى] سليمان، وأن كتفى الأيسر [تقصد: اليسرى] وذراعى الأيسر [تقصد: اليسرى] ليسا سليمين، وأن هناك بعض الأعصاب التى تعانى الضغط عليها والالتهاب، حيث كان ذلك صحيحا فى الواقع، وحيث كنت أتلقى بعض جلسات العلاج الطبيعى على منطقة مفصل الكتف قبل مغادرتى القاهرة».

«ولذلك فإننى لم أتشكك فيما قالته لى فى أثناء استكمال الكشف عندما قالت إن ثديى الأيسر به ورم صغير، وإن روحها المرافقة سوف تستدعى أحد الأرواح من الأطباء فى جلسة أخرى لاستئصال ذلك الورم».

«واهتزت ثقتى فجأة فى مسز ديفنى عندما أخذت تدور بحرارة يديها حول رأسى عدة مرات، حيث أعلنت أن هناك ورما صغيرا أسفل الغدة النخامية إذ إن كافة [تقصد: جميع] صور الأشعة التى أجريتها فى هذه المنطقة لم تشر إلى هذا الورم».

«بل إن تقرير الأشعة الخاصة بالرنين المغناطيسى الذى كان من أحدث وأغلى وسائل التشخيص أشار صراحة إلى عدم وجود أى دليل على وجود «أدينوما»، وهو نوع من الأورام التى قد تصيب هذه المنطقة».

«وعادت مسز ديفنى لتؤكد لى صحة ما تمليه عليها «روحها المرافقة» عن حالتى المرضية بالتفصيل، وأن تلك الروح لديها القدرة على رؤية كل ما بالجسم تفصيليا وكأنها عدسة كاميرا، وأننى أحتاج إلى جلسة أخرى بعد يومين لاستكمال الكشف».

«وانصرفت من منزل مسز ديفنى بعد أن استغرقت عملية الكشف وأنا مستلقية على تلك المنضدة المرتفعة ما يقرب من الساعتين، وحيث رفضت تماما أن تتقاضى منى مليما واحدا نظير ذلك المجهود الذى بذلته معى وهى واقفة على قدميها، وقد أخذت تلف حول الفراش عشرات المرات، وتدور بيديها فى الهواء حول جسدى على مدار ساعتين كاملتين، إذ أخبرتنى أنها ميسورة الحال لدرجة الثراء، وأنها تقوم بذلك العمل لوجه الله تعالى، وأنها تستفيد استفادة كبرى من خلال اختراق الروح لجسدها فى أثناء العلاج، حيث يمدها ذلك بالصحة والنشاط، ويحميها من العلل والأمراض».

(١٤)

ويبدو أن الأمر لم يتوقف عند حالة الإعجاب التى وصلت إليها نادية رضوان بعد تكرر الإحباط، ولكنه تعداها إلى الاقتناع بجدوى وفاعلية ما تمارسه هذه السيدة، ولهذا تروى نادية رضوان بكل ثقة ويقين قصة قيام الأرواح الإنجليزية بإجراء عملية جراحية لها هى نفسها فى المخ بمساعدة هذه السيدة، لكنها كعادة الدراما البشرية تقدم لنا فى الفصل التالى قصة مقتل هذه السيدة الأكاديمية على نحو مفاجئ:

«وانصرفت فى ذلك اليوم بعد أن قضيت عدة ساعات فى منزلها الذى خلا منها».

«وعلمت من ابنها بعد أن تمالك نفسه وعاد إليه هدوؤه أن شرطة سكوتلانديارد مازالت

تحقق فى الواقعة، وأن جثتها التى مازالت فى المشرحة سوف تدفن فى مدافن الأسرة فى اليوم التالى فى منطقة «كنزنجتون» غرب لندن، وودعت جثمان مسز ديفنى وهو يتوارى فى التراب، وانسابت دموعى التى لم أكن أستطيع تمالكها رغم يد ابنها التى كانت تشد على يدى التى أمسك بها طوال فترة مراسم الجنازة، وحزمت حقائبى وغادرت لندن فور الانتهاء من الجنازة رغم أن موعد عودتى للقاهرة كان مفتوحا، بعد أن كنت قد انتهيت من الدورة التدريبية فى الجامعة منذ عدة أسابيع».

(١٥)

ولسنا نستطيع أن نتغاضى عن نجاح الدكتورة نادية رضوان فيما حرصت عليه من محاولة جادة لإثراء ما ترويه لنا عن تجاربها، وقد لجأت ـ فى الحقيقة ـ إلى كل الوسائل الكفيلة ـ فى ظنها ـ بتحقيق مثل هذا الهدف، فهى تفيض بلا كلل فى الوصف الدقيق وفى رسم السيناريوهات، وتحرص على تعمق المشاعر والتبصر بالنفس الإنسانية، ومن ناحية أخرى نرى نادية رضوان فى تأملها لما رأته وشاهدته فى الاتصال بالعالم الغيبى وهى تلجأ إلى كل وسائل التحليل العلمى من أجل التيقن والتثبت، وهى تتشكك أيضاً فى كل ما يمكن أن تتشكك فيه، ونراها ـ على سبيل المثال ـ وهى تحدث نفسها فى إحدى التجارب فتقول:

«وبدأت أطرح عليها [أى على صديقتها التى رافقتها فى حضور هذه التجربة] ما توصلت إليه من تحليلات وتفسيرات، ولفت أنظارها إلى أن مساعده الذى فتح لنا الباب هو الذى حدد لنا المقاعد التى كان علينا أن نجلس عليها، وأن هناك احتمالا قائما فى أن تكون هناك كاميرا تليفزيونية مثبتة بصورة خفية فى مكان ما من الحجرة وموجهة إلى مكان جلوسنا، بحيث ترصد ما قمت بكتابته على الورقة، فى الوقت الذى يقوم فيه المساعد أو أى شخص آخر داخل الشقة، وبناء على ما يراه على شاشة الجهاز المتصل بالكاميرا يقوم بإملاء الكلمات المكتوبة عن طريق ميكروفون متصل بسماعة خفية يكون الشيخ (م) قد دسها فى ملابسه أو فى أذنه قبل دخولنا، مما يفسر قدرته على ترديد ما جاء فى الورقة دون أن يقترب منها أو يلمسها».

«كذلك فقد فسرت الكتابة الغريبة التى وجدتها فى ظهر الورقة، بأن الورقة التى تناولتها

من أعلى المنضدة كـان مكتوبا عليهـا تلك الكلمات التى وجدتهـا خلفها بالحبـر السرى، وأن حرارة يدى التى كنت أقبض عليها أدت إلى ظهور هذه الكتابة».

(١٦)

ولا يقف اندماج نادية رضوان فى التجارب التى مرت بها عند حدود مطالعتها ومشاهدتها للتجارب من موقف الطالب أو المراقب، لكنها تندمج فى خطوات وتفصيلات التجارب حتى تصل على سبيل المثال إلـى التصريح بقابليتها أو صـلاحيتها هى نفسهـا للقيام بدور الوسيطة الروحية، وهى تقص بعض القصص الدالة على إمكان هذه الفكرة:

«... حدث أكثـر من مرة أن قابلت بعض الأشخاص للمـرة الأولى فى حياتى، فى الوقت الذى أكون فيه على ثقة بأننى قد رأيته من قبل وجلست إليه، بل وتحدثت معه».

«أو أن يدور حديث معين حول قضية معـينة، بينما أكون موقنة من أننى قد سبق لى سماع ذلك الحديث بأدق تفاصيله».

«أو أن أذهب إلى مكان ما للمرة الأولى وينتابنى شعور مؤكد بأننى كنت فيه من قبل».

«كذلك فـقد كان مـن بين الشواهد التى أقنعتـنى بأننى قد أكون على شىء مـن الشفافـية والروحانيـة، أننى كنت قد رأيت سـيدنا محـمدا صلى الله عليه وسلم فـى المنام وأنا فى نحو الثانيـة عشرة من عمرى، حـيث بدا لى فى لباس أبيض وغطاء رأس أبيض وقد امـتطى أيضا جوادا أبيض، وتقدم ناحيتى وهو على ظهر جواده ووضع يده على رأسى يباركنى ثم انصرف عنى».

(١٧)

على أن مما أقلقنى فى هذا الكتاب هو أن الـدكتورة نادية رضوان قد فـاتها ـ ولست أدرى لماذا ـ أن تنتبه إلى حـقيقة وطبيـعة نوع معروف من العلاج هو الكيـروبراكتس الذى وصفت

معالجة أحد ممارسيه لها، وهو فلاح مقيم فى المنوفية، وقد وصفت علاجه بدقة تامة دون أن تدرى أن هذا نوع من أنواع العلاج الفيزيائى الذى يمارس حتى فى أمريكا وله كلياته وأقسامه العلمية التى تتولى تدريسه والبحث فيه:



«والله «باضت» لك فى القفص يانادية، ده مش حيعالج الصداع بس، ده حيعالج ظهرى كمان».

«ونهضت من مكانى، وجلست على السرير وقد ثنيت ركبتى كما أمرنى، بعد أن قام بفرد ملاءة خفيفة على نصفى الأسفل رغم ارتدائى للبنطلون، وشعرت به وقد أوليته ظهرى وقد اعتلى السرير من خلفى، وفى لحظة خاطفة لم أشعر إلا بيديه وقد أحكمها بشدة على جانبى رأسى، وبسرعة خاطفة قام بلف رأسى إلى اليمين ثم إلى اليسار فى عنف وقوة وسرعة، وشعرت مع صرختى المدوية التى انطلقت رغما عنى أنه قد نزع رأسى عن رقبتى، وأن ذلك الصوت الهائل الذى ربما يكون قد دوى فى الغرفة هو صوت تحطيم فقراتى العنقية، وما إن رفعت يدى إلى رقبتى لأطمئن أنها فى مكانها ولم تطلع فى يده، حتى شعرت بيدين تحكمان قبضتهما على كتفى، وفى لمح البصر سدد فى ظهرى ضربة هائلة وكأنها ركلة ثور هائج، شعرت معها إلى جانب صوت الطقطقة التى صدرت منها، وكأن فقراتى فى منطقة الخصر قد تفككت الواحدة من الأخرى».



«وعلمت فيما بعد من رفيقى أنه قام بضغط ركبته على ظهرى بقوة، بينما كان يمسك كتفى بيده، ليتمكن من تسديد ضربته القوية».

«ولست أدرى كيف هبطت من فوق السرير، ولا كيف خرجت من عنده وأنا أعرج ولا أستطيع «صلب طولى»، كل ما أذكره أن يدى فى ذلك اليوم قد احتارتا بين رقبتى التى شب فيها الألم، وبين «وسطى المفكك» الذى لم أعد أستطيع أن «أتلم عليه».

«وحتى الآن كلما تذكرت ذلك الموقف لا أستطيع أن أتخيل أو أتصور تلك السرعة الفائقة الخارقة لهاتين الحركتين السريعتين اللتين خيل لى من فائق سرعتهما أنهما قد تمتا فى وقت واحد».

هكذا تتركنا الدكتورة نادية رضوان مشوقين إلى ما ظلت عاجزة عن تصوره وتخيله.

(١٨)

وعلى مدى كتـابها لا تبخل علينا نادية رضـوان بما يتوافق مع أنوثتها، فـهى لا تبخل علينا بالحديث عن جمالها وعن اكتشافها لهـذا الجمال، وعن عنايتها الفائقة بحمايته وإبرازه،ونحن نرى فطرتها تقـودها إلى خطوات جبارة فى هذا السـبيل، لكنها مع هذا لا تنكر أيضـا أنه كان هناك من أخذ بيدها ونصحها ووجهها،و على سبيل المثال فإننا نرى مدرسة اللغة العربية وقد أعطتها الثقة بجمال عينيها، على حين لم تكن هى قبل هذا تدرك قيمة هذا الجمال، وهى تجربة نفسية ذات قيمة ترينا كيف يمكن لنا أن ننمى الثقة فى بناتنا بما قد يظنونه منتقصا من جمالهن، بينما هو عنصر من عناصر هذا الجمال:

«كنت قد أصـبحت أزهو بلون عـينى الخضراوين بعـد أن كنت أكرهه كـراهية الموت فى طفولتى. فـقد حـدث أن كنت ألعب يوما مع قطتى السـوداء ذات البقع البيـضاء الكبـيرة فى حديقة منزلنا القديم، بينـما كان يراقبنى عن قرب صبى من أبناء الجيـران فى مثل سنى تقريبا، عندما وجدته ينتقل ببصره بينى وبين القطة، ثم اقترب من وجهى وأمعن النظرفى عينى لبرهة، ثم ارتد عدة خطوات إلى الوراء مبتعدا عنى فى فزع وهو يقول:

«ياامه! عينيكى تخوف، دى زى عينين القطط، دى القطط بالليل بتبقى عفاريت».

«وصمت الصبى برهة وعـاد يقول فى تأكيد واتهام: إنتى عـارفة شكلك زى إيه؟ شكلك زى العفاريت».

«ولست أذكر تمامـا رد فعل كلمات هذا الصـبى آنذاك، ولكنى أذكر أننى حـرصت بعدها على ألا أدع أحدا يتـحقق من لون عـينى، ثم حرصت بعـدها وأنا فى نهاية المرحلة الابتـدائية على ارتداء نظارة سوداء منذ لحظة خروجى من البيت وحتى عودتى إليه».

«وسألتنى أبلة فتـحية مدرسة اللـغة العربية يوما:إنتى لابسـة النظارة على طول ليه يانادية، إنتى عينيكى وجعاكى؟».

«ورددت عليها قائلة: لا يا أبلة، بس أنا باحب ألبس النظارة».

«وعادت أبلة فتحية تقول فى إطراء:

«اخلعيها، خسارة تخبى لون عينيك الحلوة دى».

«وسألتها فى اندهاش وعدم تصديق:

«حضرتك بتقولى إن عينية حلوة؟»

«وردت أبلة فتحية التى كثيرا ما مدحتنى أمام باقى التلميذات لتفوقى فى اللغة العربية:

«ده لون عينيك يجنن، دول أجمل عينين فى الفصل».

«ومن يومها خلعت النظارة السوداء، ومن يومها لم أعد أخجل من لون عينى، لون عيون القطط».

(١٩)

وينفرد هذا الكتاب فى موضع آخر بقدرة صاحبته على تقديم نوع متميز ومتفرد من الاعتراف بمحاولة أنثوية كانت تبذلها صاحبتها فى تجميل نفسها. ونحن نرى فتاة ذكية قادرة على توظيف حيل الشياطين من أجل تنفيذ ما تريد:

«... تعودت بعد أن أنتهى من ارتداء ملابسى ووضع قدمى فى الحذاء ذى الكعب المنخفض، تاركة ضفيرتى تستقران على كتفى أن أصيح بالموجودين وقد علقت حقيبتى إلى كتفى واحتضنت كتبى وأنا أقول:

«باى باى بقى يا جماعة، أنا خارجة، حاتأخر على الكلية».

«وأعود لأستدرك قائلة بتلقائية وبراءة:

«أما أبص فى المراية أشوف لبسى شكله إيه».

«وأتوجه إلى حجرة الصالون ذات الباب الآخر الذى يفضى إلى سلم البيت مباشرة، والذى يقع على جانب منها الكونصول ذو المرآة الضخمة، وأغلق خلفى باب الحجرة وأبدأ أول خطوة من خطوات التمرد، أرفع طرف السجادة حيث مخبئى السرى الجديد الذى لا يعرفه أحد، فقد كانت السجادة من الكبر بحيث تمتد إلى ما تحت المقاعد والأرائك، والتى لم تكن تتعرض للتنظيف الشامل إلا على فترات متباعدة. كنت أخفى أسفل هذه السجادة أشيائى الثمينة وكنوزى الغالية، قلم أحمر الشفاه، وقلم الكحل، فما كنت آمن على دولابى وحقيبة يدى من عبث يدى أمى، وفى لحظات أتحول من البنت ذات الوجه البرىء المغسول والضفيرتين المعقودتين، وبفضل لمسات أدوات التجميل السحرية إلى شىء آخر، إلى «فتاة» أكثر جمالا وأكثر أنوثة، ينسدل شعرها على كتفيها، وتتراقص قُصتها على جبينها».

«وأعيد بسرعة مقتنياتى الثمينة إلى مكانها، وأغادر الغرفة من بابها المؤدى إلى سلم البيت وأغلقه خلفى بحرص وهدوء، ولكنى لا أتوجه للدرجات التى تؤدى إلى الشارع، بل أتسلل إلى السطوح، فرحلة التمرد الصباحية مازالت لها بقية. ففى السطوح وفى مخبئى السرى العتيق بين «الكراكيب» كانت تقبع آخر مقتنياتى الثمينة، الحذاء الأسود ذو الكعب العالى، الذى لم أكن أمتلك سواه، وتمتد يدى إليه فى لهفة وإعزاز، بينما أطوح بحذائى المنخفض من قدمى بين «الكراكيب» دون أن أستخدم يدى فى انتزاعه، وكأنما أود أن يتلاشى فى الهواء أو يذوب فى «الكراكيب»، وأعود أهبط السلم بسرعة وفى حذر وأنا أسير على أطراف أصابعى حافية القدمين وقد احتضنت مع كتبى حذائى العزيز ذا الكعب العالى، وعندما أصل إلى باب المنزل المؤدي إلى الشارع، أسارع بوضع قدمى فى الحذاء الموعود وأغادر المنزل فى خطوات متلصصة وأطوى الطريق بسرعة وأنا أتخفى وراءجذوع الأشجار».

«وما أن أصبح على بعد كاف من المنزل، حتى يختلف وقع خطواتى مع إيقاع الكعب العالى، وتختلف معه اهتزازات جسدى وانتصاب قامتى وترتفع رأسى فى زهو وثقة، فقد استكملت مظهر شخصيتى الجديدة، شخصية البنت الجامعية».

«وكانت رحلة السطوح تتكرر دائما بعد عودتى، «فأدعك» وجهى لأزيل آثار المساحيق، وأعيد الضفيرتين إلى مكانهما، كما أعيد حذائى العزيز إلى مكانه وسط «الكراكيب» لأعود بعد ذلك إلى الشقة من بابها الرئيسى، وأدخل على أمى كما غادرتها فى الصباح بحذائى المنخفض ووجهى البرىء شبه المغسول».

«وجاء اليوم الذى ضبطنى فيه أخى، فقد قابلنى فى الشارع بالمصادفة، رآنى وأنا أتخفى فى مظهر الأنثى، مظهر فتاة الجامعة».

«وكانت المواجهة، ووقفت أمى فى صفه».

«ووقفت وحدى أتحداهما، ووضعتهما أمام الخيار الصعب، خيرتهما بين الذهاب إلى الكلية مع كامل حقى فى استخدام أدوات التجميل وارتداء الكعب العالى، وبين أن أترك الجامعة وضياع حلم أمى فى استكمال دراستى الجامعية».

«ولم أعد أخفى أدوات التجميل أسفل السجادة، ولم أعد أخفى حذائى الأسود ذا الكعب العالى بين الكراكيب فوق السطوح، فقد انتصرت إرادتى عندما تمردت».

(٢٠)

بل إن نادية رضوان لا تجد حرجا فى أن تروى بالتفصيل أكثر من محاولة لابتزازها بسبب جمالها، وهى تبدأ رواية هذه المحاولات عند حديثها عن تجربتها فى العمل السينمائى بعد زواجها مباشرة، ولا تبخل علينا بأن تروى كثيرا من التفصيلات المهمة فى هذه التجربة التى نجحت فيها بفضل ذكاء وعقل زوجها فى المقام الأول، وإن كانت هى فى النص الذى بين أيدينا لا تقدم الامتنان الواجب لهذا الزوج العظيم:

«... كانت الظروف قد قادتنى فى بداية إنشاء التليفزيون المصرى إلى القيام ببعض الأدوار الثانوية فى بعض المسلسلات والتمثيليات، حيث التقطنى المخرج الراحل نور الدمرداش من المسرح الجامعى فى أثناء قيامه بإخراج إحدى المسرحيات التى شاركت فيها من خلال مسابقات الجامعات فى التمثيل المسرحى».

«ورغم معارضة أسرتى الشديدة لعملى فى المجال الفنى إلا أننى نجحت فى إقناعهم بأن عملى فى التليفزيون لن يؤثر على دراستى فى الجامعة، ولن أنصهر فيما فيه بعض الفنانين، واستشهدت ببعض الفنانات ذوات السمعة الطيبة ممن ينتمين إلى عائلات محترمة عريقة، واللائى حققن شهرة واسعة تتسم بالتقدير والاحترام».

«وما هى إلا بضعة شهور منذ بدء عملى فى التليفزيون حيث تم عقد قرانى فى هذه الفترة، حتى رآنى فى التليفزيون أحد المخرجين السينمائيين، الذى كان يبحث عن وجه جديد للقيام بالبطولة الثانية فى أحد أفلامه السينمائية».

«وكانت العقبة التى واجهتنى آنذاك هى الحصول على موافقة أسرتى على العمل فى السينما، نظرا لما يحيط الجو السينمائى من علامات استفهام، وهو ما كان يختلف فى ذلك الوقت عن العمل فى التليفزيون».

«وهاجت أسرتى وماجت وأنا أزف إليهم خبر رغبتى فى العمل فى السينما، ووقف زوجى إلى جوارهم متخليا بذلك عن مساندتى التى كنت أعتمد عليها للوقوف فى وجه أسرتى وتحقيق ذلك الحلم الذى لم أكن أطمع يوما فى تحقيقه».

«وحتى تتخلص أسرتى من إلحاحى وإصرارى على العمل فى السينما، فقد ألقت عبء هذا الموضوع على كاهل زوجى، بدعوى أنه قد أصبح المسئول الوحيد عنى».

«وحاولت كثيرا إقناع زوجى بأن تلك هى فرصة العمر بالنسبة لى، وبأننى أمتلك الموهبة والقدرة على أن أنافس أى ممثلة حتى ولو كانت فاتن حمامة أشهر الممثلات آنذاك، وبذلت كل ما فى وسعى لاستمالته فى صفى، ولكنى فشلت وراحت كل محاولاتى أدراج الرياح».

«ودفعنى موقف زوجى إلى إعلان تمردى، وتمردت عليه بعد أن فشلت فى إقناعه، وبلغ تمردى عليه حد طلب الطلاق».

«وكان زوجى أكثر ذكاء وأكثر تعقلا منى، أدرك أن تلك التى تطلب الطلاق ليست إلا الفتاة المراهقة التى تسكن بداخلى، وتتحكم فى تصرفاتى ونزواتى، ولذلك وافق على أن أعمل فى السينما ولكن وفق شروطه».

«كان العقد بينى وبين الشركة المنتجة للفيلم يحتم توقيع زوجى عليه، لعدم بلوغى سن الرشد بعد الاتفاق على جميع بنوده».

«واستغرقت المناقشات حول بنود العقد عدة جلسات، نجح زوجى فيها فى فرض مطالبه، التى كانت هى مطالب أسرتى فى الوقت نفسه».

«كان أهم هذه البنود هو عدم تصوير أى مشاهد بها قبلات أو مشاهد أخرى للإثارة، أو ارتداء الملابس التى تكشف بعض أجزاء الجسد أو المايوه، رغم أننى كسائر بنات هذا الجيل، ووفقا للموضة آنذاك كنت أرتدى مثل هذه الملابس دون أن يكون فى ذلك أى خروج على العرف والتقاليد، مما جعل هذا الشرط يبدو لى وكأنه نوع من التناقض الصارخ غير المنطقى، الذى لم أقف أمامه كثيرا، فقد كان كل ما يهمنى فقط هو أن يضع زوجى توقيعه على ذلك العقد».

«وكان من بين شروط العقد أيضا أن يكون زوجى فى صحبتى بصورة مستمرة، سواء كان ذلك فى أثناء البروفات أو فى أثناء التصوير».

«ورضخت الشركة لمطالب زوجى، وتم توقيع العقد».

«وطرت فرحا به وأنا أحمله فى حقيبتى فى كل مكان أذهب إليه، والذى مازلت أحتفظ به حتى الآن وأريه لكل من يأتى لزيارتنا لدى أسرتى، ولكل أصدقائى فى الجامعة أو الجيران، وكأننى طفل لا تسعه الدنيا من فرط سعادته لحصوله على لعبة جديدة».

«ولم أكن أستحى من أن أبدو «كمحدثة النعمة» فقد تحقق لى الحلم الذى لا تستطيع آلاف الفتيات تحقيقه».

«كان زوجى يرافقنى خلال الأسابيع الأولى بعد توقيع العقد فى أثناء ترددى على مقر الشركة المنتجة. ومع ذلك أدركت أن مخرج ذلك الفيلم الذى التقطنى من التليفزيون كأحد الوجوه الجديدة لم يكن فوق مستوى الشبهات،، وأننى لن أكون فى الواقع وجها سينمائيا جديدا قبل أن أترك بصمتى على حياة هذا المخرج كامرأة جديدة، وهذا ما أكده لى فيما بعد أحد المخرجين السينمائيين المحترمين».

«وتأكدت ظنونى فى المرات القليلة التى كان ينشغل فيها زوجى ببعض التزاماته أو عمله فى الجامعة، والتى كنت أتوجه فيها بمفردى إلى مقر الشركة تمهيدا للبدء فى تصوير الفيلم».

«فعندما أدرك مخرج الفيلم أننى لن أقبل أن أكون أى شىء آخر سوى ممثلة لأحد الأدوار السينمائية، بدأ حماسه لى واحتضانه لموهبتى ينتابه الفتور والبرود واللامبالاة، مما جعلنى أستيقظ من حلمى بالشهرة والنجومية والتألق على الواقع المر، ومما جعلنى أتراجع عن المضى فى ذلك الطريق بعد أن انطفأ بريقه، بل وبريق العمل فى التليفزيون أيضا، وأن أتحول إلى طريق آخر أكثر أمنا وأكثر سلامة وأكثر ملاءمة لاستعداداتى الفطرية، وهو أن أكتفى بمجرد كونى زوجة وطالبة وأما، والذى انتهى بى إلى أن أكون أستاذة جامعية».

«وعلمتنى تلك التجربة أن هناك أوقاتا للتمرد، وأن هناك أوقاتا للانصياع».

(٢١)

ومن الحق أن نعتبر أن عناية هذه السيدة بجمالها لم تنفصل عن عنايتها الواقعة بشخصيتها وصورتها فى المجتمع ونحن نراها تكرر التعبير عن اعتزازها الدائم بالمظهر فى جميع الأحوال والذى استطاعت الحفاظ عليه رغم كل الصعوبات:

«كان مظهرى دائما يعكس صورة امرأة بشوشة شديدة الأناقة، ذات ابتسامة دائمة، وروح مفعمة بالمرح والحيوية الدافقة، فى الوقت الذى تدوى فيه داخلى معزوفة الألم الصامت الأخرس».

«ألم أكن دائما ممثلة بارعة؟».

بل إن صاحبة هذه المذكرات تحرص أيضا على أن تنقل بعض عبارات الإعجاب بمظهرها من على لسان الآخرين:

«وكان الدكتور شيفتل واحدا من بين العديدين رجالا أو نساء، الذين كنت أمثل من وجهة نظرهم نموذجا فريدا للمرأة اللامعة الناجحة قلبا وقالبا، إذ كانت اهتماماتى وطموحاتى العملية والعلمية تسير فى خط متواز مع اهتمامى البالغ بمظهرى الأنثوى الأنيق الذى كثيرا ما كان يلفت إلىّ الأنظار أينما حللت».

من ناحية ثالثة فإننا نراها حريصة على أن تثبت أثرالإعجاب بها فى عيون كل من شاهدوها:

«ويبدو أننى قد أصبحت «فرجة» بحكم العادة، فقد لاحظت كلما هدأت من سرعة سيارتى أن الفلاحين الذين مررنا بهم وهم يعملون داخل حقولهم قريبا من الطريق، يتركون ما بأيديهم ليتطلعوا تجاهى فى استغراب وأنا أقود السيارة، وأن النساء اللائى كن مشغولات بغسل ملابسهن وأوانيهن عند «حرف» الترعة، ينهضن فى عجلة واقفات وقد انصرفن عما كان يشغلهن، «ليبحلقن» فى اندهاش ممزوج بحب الاستطلاع لهؤلاء الأغراب الذين يتوجهون إلى قريتهن، ثم يتابعننا، كما كنت أراهن فى مرآة السيارة، وقد أخذن يظللن بأياديهن على عيونهن حتى بلعتنا أزقة القرية واختفينا عن الأنظار».

(٢٢)

وقد كان من الطبيعى والمتوقع أن تواجه نادية رضوان بعض المتاعب بسبب المظهر الذى حرصت على أن تنال الإعجاب بسببه، ذلك أن هذا الإعجاب كما هو متوقع كان يتحول إلى طمع عند بعض مَنْ لجأت إليهم للعلاج، ومن هؤلاء صاحب شخصية طارد الجن الذى تتحدث عنه فى فصل كامل، ومن قبله شخص آخر تطلق عليه مسمى « صاحب الطريقة السافلة لإبطال العمل السفلى» وهى تتحدث عن تجربتها معه فى الفصل السابق عليه.

ونحن نراها تلخص فى شجاعة شعور طارد الجن تجاهها بعبارات موجزة:

«وحرصت يومها ألا أشعره بأننى أعيش بمفردى، فجمعت له «ربطة المعلم»، وشعرت ساعتها أنه قد «اتخض» وهو يرى هذا العدد من الناس».

«وتخيلت أننى بجمع «العيلة وعيلة العيلة» أؤمن نفسى، ولكننى كنت واهمة، فيبدو أنه قد «استحلانى» رغم أننى تعديت سن الشباب، وربما أنه كان يريد امرأة، أى امرأة.. عندما رآنى».

«هل كانت مجرد نزوة مؤقتة من جانبه؟».

«لا».

«هل يئس منى بعد شهر، اثنين، ثلاثة؟».

«برضه لا».

«لم ييأس إلا بعد سنة كاملة».



وتقدم نادية رضوان صورة جميلة للتعبير عن هذا الإعجاب فيما ترويه من تعليق أحد الأطباء، وهو فى الحقيقة تعبير يمثل التعليق الكلاسيكى عند أغلب الأطباء على مثل حالتها:

«وازداد تعجبه عندما أخبرته أننى قد اتخذت ذلك القرار نظرا لأننى لا أحيا حياة طبيعية مثل باقى البشر، حيث وجدته وقد اتسعت ابتسامته فجأة، وهو يشير بأصبعه إلىّ من قمة رأسى إلى أخمص قدمى، وهو يقول فى دهشة متسائلا:

«أمال لو كنتى عايشة كان حيبقى شكلك إزاى؟».

«وقد كان الدكتور الكبير محقا».

«فقد قابلته وأنا أضع ذلك القناع الذى تعودت على ارتدائه كلما خرجت من باب حجرة نومى بشعرى المصفف وقامتى المنتصبة الطويلة، التى تنجلى رشاقتها فى خطواتى الواثقة وقد انتعلت فى قدمى حذائى ذى الكعب العالى، وارتديت ثوبا جميلا من بين ثيابى التى أجيد انتقاءها وأجيد تصميمها، وملامحى التى تبرزها براعتى فى استخدام مساحيق التجميل، وابتسامتى التى لا تفارق شفتى».

«ولم أدهش كثيرا لذلك التعليق فلطالما سمعت التعليقات التى تحكم علىّ من خلال ذلك القناع الذى أرتديه».

«وكنت فى كل مرة أبتسم فى مرارة».

«ألم أكن دائما ممثلة بارعة؟».

(٢٣)

وفى هذا الإطار من الوعى بالذات والإعجاب المتتالى بها وبأدائها نجد الدكتورة نادية رضوان تجيد تصوير حسد زملائها لها على قدرتها على المواجهة ولنقرأ هذه الفقرة على سبيل المثال:

«وجاءنى صوت زميلى مروان الصواف مقدم البرامج السورى الشهير بعد أن أعلنت لهم أننى فى الرابعة والخمسين من عمرى، حيث كانوا يعتقدون أن عمرى أقل من ذلك بعشر سنوات على الأقل، وهو يقول إننى أستحق وساما لذلك المظهر الذى استطعت المحافظة عليه، وأنه يغبطنى على ما وهبنى الله إياه من نجاح وتوفيق فى كل جوانب حياتى اجتماعيا وصحيا وعلميا».

....

«وما أن انتهيت من حديثى حتى انبرى الدكتور أحمد القبيسى وهو أحد أساتذة القانون والشريعة العراقيين، والذى يعد علما من أعلام علماء المسلمين، الذى يتميز بالقدرة الفائقة على الجمع بين الاتجاه العلمانى والاتجاه الإسلامى، يهنئنى ويغبطنى على ما رزقنى به الله من نعمة الصداع، حيث قام بترديد أحد الأحاديث النبوية التى تعنى أن آلام الصداع التى أعانيها ستكون شفيعا لى فى الآخرة من أن يمس جسدى بالنار».

«وانسحبت من الجلسة بينما استمر الجميع فى التعليق على تلك النعمة التى حبانى بها الله».

«وما أن أوليتهم ظهرى حتى أخذت أقول فى نفسى:

«ياساتر..حتى المرض «بينقوا» عليه هوه كمان».

(٢٤)

ولا تبخل نادية رضوان فى كتابها علينا بأن تدلنا على قدراتها المتعددة فى مجالات ليس لها علاقة بالجمال ولا بالأنوثة، وكأنها تريد أن تقول إن إعجابها بجمالها أو بقدرتها على

التمثيل ليسا بالشيء المنفرد، فهى معجبة أيضا بما اكتشفته ذات مرة من قدرتها على قيادة السيارات فى الطرق الزراعية الصعبة، ويبدو أنها لا تدرك الحقيقة الطبية القائلة بأن الإنسان مزود بالآليات التى تستطيع أن ترفع من درجة ودقة أدائه فى المواقف الصعبة والحرجة، ويبدو أيضا أنها نموذج بارز لمن رزقوا نعمة العجب بأنفسهم:

«وتأكد لى خلال تلك الرحلة أننى سائقة ماهرة، فلم أصطدم بسيارتى بأى من الأبقار أو الحمير التى كانت تفضل السير فى وسط الطريق، أو تلك التى كانت تعبر الطريق فى بطء وهى تنظر إلينا فى لامبالاة، ولم تطو عجلات سيارتى فرخة أو كتكوتا أو أوزة تحتها وأنا «أفركش» تجمعاتها فى وسط الطرق الضيقة الملتوية، ولم تنزلق عجلات سيارتى إلى ذلك المصرف، الذى لم يترك لنا سوى ذلك الممر الترابى الضيق الذى أخذت فى اجتيازه «على الشعرة» كما يقولون».

(٢٥)

لعلى بعد هذا كله أتناول ما كان لابد من تناوله من التكوين البيانى لهذا الكتاب الذى يخلط عبارات عامية بأخرى فصحى بثالثة أكاديمية، ثم وهو يمزج بين المواقف المتناثرة ذات الخلفيات المتنافرة، والحق أن الدكتورة نادية رضوان قد نجحت فى أن تقدم نصا مترابطا ببعضه حتى إنك تستطيع أن تستأنف القراءة فيه من حيث انتهيت فى أى وقت، وهو ما يدلنا على أن كتابها كتب فى الأساس ليكون كتابا، ولم يكن على عادة الزمن الحاضر مجموعة متفرقة من الفصول أو المقالات.

أما من حيث اللغة فهى موظفة باقتدار، وإن لم تكن المعانى حافلة بالطبع بالابتكار، على أن أبرز ما تبدت براعة المؤلفة فيه هو الوصف الدقيق على نحو ما أشرنا إليه من قبل.



والحق أن نادية رضوان تحرص على أن تضمن كل أجزاء كتابها فقرات حافلة بالتصوير النهائى لموقع الأحداث، وهى تجيد الوصف بالطريقة الشائعة فى الكتابات الأدبية المعاصرة، وهو الوصف الذى يتخطاه كثيرون من قرائنا لأنهم يجدونه مكررا على نحو أو آخر ، ومن هذه الأوصاف:

«كانت أشعة الشمس الذهبية الغاربة تصبغ الأفق البعيد بلونها المائل إلى الحمرة المشتعلة، وتمتزج بألوانها النارية مع رمال الصحراء الممتدة على جانبى الطريق الذى كانت تشقه سيارتى المتجهة من مدينة الإسماعيلية إلى القاهرة، بينما كان قائدها الإنجليزى الجنسية الذى جلست بجواره فى المقعد الأمامى يستمع إلىّ فى إنصات واهتمام شديدين، وهو يلتفت إلىّ من وقت لآخر وقد استلقيت مسندة رأسى إلى ظهر المقعد فى إعياء بالغ».

* وهذه فقرة أخرى تصف فيها إحدى من قابلتهن فى جلسات تحضير الأرواح وهى شابة تزوجها جنى:

«كانت شابة على قدر كبير من الجمال بشعرها الأسود الناعم الذى تهدل على كتفيها فى خصلات كثيفة ملتوية، وأحاط بوجهها الخمرى المائل للاستدارة والخالى من المساحيق، الذى يجذبك إليه بعينيها العسليتين الرائقتين كلون العسل الصافى برموشها الطويلة الكثيفة، وشفتيها المليئتين الحمراوين المحددتين».

* وهذه فقرة ثالثة تحفل بوصف بديع وإن كان كلاسيكيا:

«دخلت على زوجته فى ذلك اليوم فى الدور الأرضى ورأيتها للمرة الأولى، شابة على قدر من الجمال، ترتدى الملابس «الفلاحية» بألوانها الزاهية، وتلف رأسها بمنديل رأس أحمر اللون، بينما جلست على الأرض على حصيرة بلاستيكية منقوشة تم فرشها على سجادة من الموكيت الفاخر الممتدة من الحائط إلى الحائط، وإن بدت الأماكن الظاهرة منها وقد علاها الوسخ والبقع».

* وهذه فقرة رابعة تحفل بوصف واقعى لا كلاسيكى تجيد فيها وصف رحلتها إلى قرية فى الوجه القبلى عبر السيارات العاملة على خط الصعيد:

«ومررت فى ذلك اليوم بتجربة فريدة كانت الأولى من نوعها فى حياتى، حيث أدركت أن حركات الأكروبات البهلوانية ليست حكرا على العاملين فى عروض السيرك فقط، وإنما يشاركهم فيها بل ويتفوق عليهم سائقو سيارات البيجو على ذلك الطريق الملتوى الضيق الردىء الذى يربط بين القاهرة والصعيد».

«ورغم أننى من هواة المناظر الطبيعية ومن العاشقات للريف المصرى، إلا أن تلك الرحلة خلت تماما من أى وجه من وجوه المتعة، فقد توارت متعتى أمام ذلك التوتر الهائل الذى

شملنى وأنا أتابع الطريق بكل ما فى كيانى من تركيز، بينما كان سائقنا يصيح لاعنا السيارات التى كانت تتجاوزه وتتخطاه، ثم يعود ليصيح مهللا كلما نجح بحركة من حركاته الأكروباتية ـ التى كانت تطيح بركاب السيارة ذات الشمال أو ذات اليمين ـ فى تجاوز السيارة التى أمامه».

* وفى وصف رحلة أخرى شبيهة تكتب نادية رضوان وصفا دقيقا موحيا لحالة ما نسميه فى الجغرافيا منطقة مصر الوسطى فى القرن العشرين، وهو وصف يستأهل النقل والتأمل والإعجاب:

«ما إن وصلنا إلى بنى سويف، التى كنت أذهب إليها للمرة الأولى فى حياتى، حتى سألت عن موقف سيارات الأجرة التى تعمل بين بنى سويف وبين القرية التى يسكن فيها شيخنا الشاب، حيث علمت أن وسيلة المواصلات الوحيدة التى تذهب إلى هذه القرية هى سيارات نصف النقل ذات الصندوق الخشبى».

«ولم يعجزنى أن «أتشعبط» خلف السيارة لأقفز «كالبهلوان» داخلها دون أن يساعدنى أحد، ولم يضيرنى أن أنحشر بين الفلاحين من الرجال والنساء والصبية والأطفال، وأنا أتخذ مجلسى على واحدة من الدكتين الخشبيتين المثبتتين على جانبى السيارة، ولم يزعجنى بعد أن امتلأت السيارة عن آخرها أن تلقى امرأة من الواقفين بطفلها الرضيع فوق ركبتى وقد ابتلت ثيابه التى تركت آثارها الكريهة على ثوبى، أو تلك القفة التى ظن صاحبها أنه يحملها على حين استقر معظم ثقلها على كتفى، وتحملت فى صبر تلك الروائح التى امتزجت فيها رائحة العرق والروث الذى علق بأحذية الركاب».

«ولكن أعجزنى وأضارنى وأزعجنى وأذهب بصبرى أن اكتشفت أن تلك الرحلة من بنى سويف إلى القرية، والتى ظننت أنها لن تستغرق أكثر من عشر دقائق، قد طالت واستطالت إلى نحو الساعة، وأن السائق فى مقعده الوثير المريح الذى «لا يكتم نفسه» فيه أحد الركاب يتوقف بسيارته عند رأس كل «غيط» لينزل أحد الركاب وليركب مكانه اثنان أو ثلاثة، بينما تعالت الأصوات و«الزعيق» و«الزق» والتدافع بالمناكب بين الواقفين والهابطين والصاعدين، وأصبح ذيل ثوبى الواسع حائرا بين الهابطين الذين كانوا يأخذونه معهم فى هبوطهم، وبين الصاعدين وهم فى طريقهم إلى داخل العربة».

«ثم زاد الطين بلة عندما وجدت قفصا من الحمام وقد استقر على فخذى الأيسر، بينما

كـانت أم الرضيع الـتى كانت قـد اسـتردت وليـدها الذى عـلا صراخـه، وقـد جلست مكان الراكب الذى كـان عن يمينى بعد أن تـنازل لها عنه.. والتى لجـأت إلى إسكاته بإعطائه ثديهـا الذى سترته بطرحتها، تجلس أو تكاد على فخذى الأيمن».

«وشعـرت بأن الهواء داخل السيارة لم يعـد كافيـا إن لم يكن قد أصبح فاسـدا، وأخذت قطرات العرق تسيل على رقـبتى ووجهى لتتسلل إلى عينى، بينمـا عجزت عن تحريك ذراعى المحشورتين لتجفيف عرقى».

«وبدأت أفكر جديا فى مغادرة تلك العلبة أو الـقبر من أجل بعض الهواء النقى، حتى ولو أدى بى الأمر إلى أن أستكمل طريقى إلى القرية سيرا على الأقدام».

«وكأنما كـان القدر مـعى فقـد توقفت السـيارة فـجأة، عندمـا بلغ تفكيرى إلـى هذا الحد، ليخبرنـى سائقها من خلال الطاقة الصـغيرة التى تفصل بين كابينة القيـادة وصندوقها، أن هذه هى القرية التى أقصدها».

«وبذلت محاولات مـستميتة وأنا أشق طريقى داخل السـيارة دون أن أترك ورائى جونلتى التى انحشر جزء من ذيلهـا الواسع بين الجالسين على يسارى وعن يمينى، وأدركت آنذاك وأنا محشورة بين الركاب مـدى معاناة سمك «السردين» عندما يعبئـونه فى تلك العلب الصغيرة، وإن كانـت معاناة ذلـك السمك الذى يكون قـد مات قـبل تعليبـه لا تقاس بمعـاناتى أنا ومن حولى ، فماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟؟».

«ونجحت أخيرا فى أن أقفز قـفزة بهلوانية إلى الأرض، وأنا أسوى ثيابى، و«أهوى» بيدى على البصمة الكريهة المبتلة التى تركها الطفل الرضيع على حجرى، وأحشر البلوزة مرة أخرى داخل الجونلة، بعد أن برزت بعـض الأجزاء من ذيلها فى فوضى، وأفرد فى مـحاولات يائسة تلك الأجزاء التى تجعـدت و«تكرمشت» خلال ساعة الحـشر التى قضيتهـا فى السيارة، والتى جعلت ملابسى تبدو وكأننى قد أخرجتها من «فم كلب»».

«وأخذت أسوى شعرى المنكوش المتطاير المتـمرد بأصابع يدى وأنا أتحسس وأدلك فخذى اللتين تخدرتا من ثقل أم الرضيع وثقل قفص الحمام».

«وأخذت أمـسح وجهـى ورقبتـى بالمنديل الذى امتـلأ بالسواد وأهوى على وجـهى، وأنا أتلفت حولى وأنا أقف على الطريق الزراعى لأستكشف المكان بعـد أن غادرت السيارة المكان مستكملة رحلتها «السردينية».